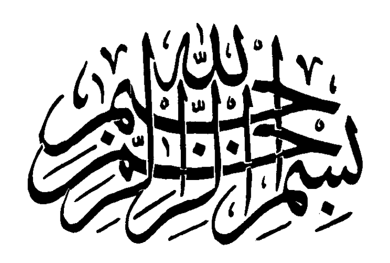
المبتكرات

في الخطب والمحاضرات

تأليف
وحيد عبد السلام بالي

دار ابن رجب


بسم الله الرحمن الرحيم

المبتكرات

في الخطب والمحاضرات

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع : ٢٠٦٦١ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولي : 3 - 65 - 5932 - 977

دار ابن رجب طبع. نشر. توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢
المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي جعل في كل عصر دعاةً ينشرون دينه، وينصرون سنة نبيه ﷺ، و يدعون الناس إلى الفضائل، ويحذرونهم من الرذائل، ويقمعون المحدثاتِ والبدع، ويجاهدون في سبيل الله بألسنتِهم وأقلامهِم، وأفكارهِم، ويحملون همَّ هذا الدين.

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، قدوة الدعاة، وأسوة العلماء، وإمام الأنبياء، وقائد المجاهدين، وسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فهذه هي سلسلة المحاضرات العامة، وضعتها لنفسي ولمن أراد أن ينتفع بها من إخواننا من الدعاة، وطلاب العلم، راجيًا بذلك الثواب من المعطي الوهَّاب.

وليعلم الداعية أن العمل وإن كان صغيراً فقد يعظم بالنية، وإن كان قليلاً فقد يبارك فيه بحسن النية.

ولذلك وضعت قبل كل محاضرة عدة نوايا ينويها المحاضر قبل إلقاء المحاضرة ليجدد بها الإخلاص ويستكثر بها من الحسنات (فالأعمال بالنيات)، فقد يصلي الرجل لا يقصد إلا الصلاة فيأخذ أجرها.

وقد يذهب المسلم إلى المسجد ينوي بذلك:

١ - تحصيل أجر الخطوات إلى المسجد.

٢ ـ تحصيل أجر الصلاة في المسجد .

٣ ـ تكثير سواد المسلمين .

٤ ـ القيام بالأمر بالمعروف إن تمكّن منه .

٥ ـ القيام بالنهي عن المنكر إن وجد منكراً .

٦ ـ الاعتكاف في المسجد مدة الصلاة .

٧ ـ الخلوة بربه لحظات في بيته .

٨ ـ تفقد إخوانه المسلمين في المسجد .

٩ ـ إلقاء السلام على المسلمين ذهاباً وإياباً إلى المسجد .

١٠ ـ الاقتداء بالنبي ﷺ، والائتمار بأمره في حضور الجماعة فيعود بكل هذه الأجور (والله واسع عليم) .

واللهَ أسأل أن ينفع بهذه السلسلة ، وأن يجعلها مباركة وأن يُخلص نيَّة كاتبها وقارئها ، وملقيها ، وأن يجعلها ذخراً لي ولإخواني الدعاة في الدنيا والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وكتبه

الفقير إلى الله

وحيد بن عبد السلام بالي

المنشية في ٥ من شهر رجب ١٤٢٤هـ .

فضل الدعوة إلى الله

١ ـ الدعوة إلى الله أحسن الأقوال وأشرف الأعمال:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

قال الحسن البصري رحمه الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحبُّ أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال إنني من المسلمين. هذا خليفة الله. [١]

٢ ـ الدعوة إلى الله صدقة:

روى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«وأمر بمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة»**[٢] .

٣ ـ الداعية إلى الله يكتب له من الحسنات مثل طاعات من دعاه.

فمن دعا رجلاً إلى الصلاة فصلى كتب له مثل صلاته، ومن أرشد رجلاً لتلاوة القرآن فتلى كتب له مثل تلاوته، ومن حث رجلاً على الصدقة فتصدق كان له مثلُ صدقته وهكذا...

والدليل على ذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»** [٣] .

---

(١) ابن كثير (٣/ ٣٠٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٠٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٤).

٤ ـ الداعية إلى الله تستغفر له جميع الكائنات:

فقد روىٰ البزار وصححه الألباني عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «معلمُ الخير يستغفرُ له كلُّ شيء حتى الحيتانُ في البحر»(١) .

٥ ـ الداعية يُثني الله عليه في الملأ الأعلى:

فقد روىٰ الترمذي وقال: حسن صحيح عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم فقال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم».

ثم قال: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوتَ ليصلون على معلمِ الناس الخير»(٢) .

قال أبو العالية: صلاة الله علىٰ العبد: ثناؤه عليه في الملأ الأعلىٰ.

٦ـ الداعي إلى الله تنا له دعوة النبي ﷺ بنضارة الوجه:

روىٰ الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نضر الله امرءًا سمع مقالتي فبلغها فرب حامل فقه غير فقيه،ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(٣) .

٧ ـ الأجر العظيم لمن اهتدى على يديه رجل واحد:

روىٰ البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لعلي

---

(١) صحيح: رواه البزار وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ١٤٤) .

(٢) صحيح: رواه الترمذي(٢٦٨٥) وقال: حسن غريب صحيح وصححه الألباني في صحيح الترغيب(١/ ١٤٤).

(٣) حسن: رواه الترمذي (٢٦٥٨) وابن ماجه في المقدمة (٢٣٢) وصححه الألباني رحمه الله .

بن أبي طالب «فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْرِ النعم»[1] .

8 ـ لقد بشر الله الدعاة إلى الله بالفلاح في الدنيا والآخرة:

فقال سبحانه ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : 104] .

❊ ❊ ❊

(1) **صحيح:** رواه البخاري (3009) ومسلم (2406) .

صفات الخطيب الناجح

١ ـ التكلُّم باللغة العربية الفصحى:

ينبغي للخطيب أن يتكلم بالعربية الفصحىٰ قدر جهده لأنها لغة القرآن، وشعار الإسلام.

والحديث بالفصحىٰ يضفي علىٰ خطبته إشراقًا، وعلىٰ كلماته نورًا، وفي نفوس مستمعيه قبولاً.

٢ ـ التوسط في الإلقاء:

بحيث لا يكون كلامه سريعًا فلا يفهم عنه، ولا بطيئًا يمله السامعون، وليعطِ لكل موقف ما يلزمه، فإذا احتاج الموقف إلىٰ انفعال أسرع، وإذا كان موقف اقناع أبطأ.

٣ ـ الاقتصاد في الخطبة:

فلا تكون طويلة مملة، متشعبة الأفكار، كثيرة الشواهد ركيكة المعاني، لا يربط أفكارها رباط، ولا يجمع معانيها فكرة. بل تكون مقتصدة مركزة.

فقد روىٰ مسلم في صحيحه عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مَئِنَّةٌ من فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة، وإن من البيان لسحرًا**»[(١)] .

٤ ـ ربط الخطبة بالواقع:

فلا يحث الناس علىٰ الصدقة وهم فقراء معوزون، ولا يكلمهم عن

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٦٩).

الإحسان إلىٰ الخَدَم وليس عندهم خَدَم، ولا يحدثهم عن فقه المزارعة وهم ليسوا أهل زراعة، بل تكون ملاصقة للواقع الذي يعيشونه كي تكون أقرب إلىٰ نفوسهم وأوقع في قلوبهم.

٥ ـ المخاطبة على قدر الفهم:

فلا يخاطب العوام الأميين بمنطق علمي مرتفع، ولا المتعلمين المثقفين بمنطق بدائي ممجوج، بل يخاطب الناس علىٰ قدر عقولهم.

٦ ـ الترفع عن الغلظة في القول والبذاءة في اللسان:

فلا يحقر مستمعيه ولا يقلل من شأنهم، ولا يرميهم بالجهل وقلة الفهم، أو الفسق والفجور، أو غير ذلك مما لا يليق بمكانة الداعية... حتىٰ لو كانوا هم كذلك بل يتلطف بهم في الحديث «**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء**»[1].

«**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[2].

وقال سبحانه لنبيه ﷺ ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

٧ ـ استثارة همَّ المدعويين بما يفتح قلوبهم:

- إبراهيم يذكر أباه برابطة الأبوه لعله يلين «يأبتِ لِمَ تعبد....».
- لقمانُ يُذَكِّرُ ابنه برابطة البنوَّة «يا بني لا تشرك بالله...».
- هود يذكر قومه برابطة القومية «يا قوم اعبدوا الله....».

(١) **صحيح**: رواه الترمذي(١٩٧٧) وقال: حسن غريب وصححه الألباني في صحيح الترمذي وفي السلسلة الصحيحة (٣٢٠).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم(٢٥٦٤).

- اللهُ يذكرٍّ المؤمنين برابطة الإيمان «يا أيها الذين آمنوا . . . . » .

النبي ﷺ يذكر ابنته برابطة البنوة فيقول : «**يا فاطمة بنت محمد اعملي...**» رواه مسلم .

فينبغي للخطيب أن يناديهم بما يفتح قلوبهم مثل :

يا أيها المؤمنون . . . يا أيها الأخوة . . . أحبتي الكرام .

أيها المسلمون الفضلاء . . .

٨ ـ الابتعاد عن الحركات الكثيرة:

لابد أن يتسم الداعية بالاتزان فلا يتحرك إلا في الموقف الذي يدعو إلى ذلك ، ولا يكثر من الحركات التي تسقط من هيبته مثل :

كثرة بلع الريق - فتل الأصابع - السعال المتكلف - كثرة الالتفات .

٩ ـ حسن المظهر:

لابد أن يظهر الخطيب بالمظهر اللائق ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ [الأعراف : ٣١]

فلا يظهر بثياب ممزقة ، ولا رثَّة ، ولا ضيقة ولا رقيقة جداً غيرساترة .

فعليه أن يكون نظيف الثياب من غير تبرج ، طيب الرائحة من غير إسراف ، مهيب المنظر من غير تكلف .

١٠ ـ التحضير الجيد للخطبة:

فلا يصعد الخطيب المنبر دونما تحضير لما سيقوله بل لابد أن يكون محدداً موضوعًا ، مرتبًا أفكاره ، منتقيًا لألفاظه .

حتى لا ترتج عليه العبارات وتستعجم عليه الكلمات فيقع من أعين الحاضرين .

١١ ـ أن لا يصعد المنبر وهو ممتلئ المعدة:

لأنه إذا صعد المنبر وهو ممتلئ المعدة كان ثقيلاً، ضعيف الروح، قليل التأثير.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إياكم والبطنة فإنها ثقل في الحياة فتن في الممات.

وقيل: إذا امتلأت المعدة، نامت الفكرة، وخرست الحكمة، و قعدت الأعضاء عن العبادة وقال عمرو بن قيس: إياكم والبطنة، فإنها تقسي القلب.

١٢ ـ القناعة النفسية بما يلقيه على الناس:

لا بد أن يكون الخطيب مقتنعًا بما يلقيه على الناس، منفعلاً به، عالمًا بأثره، مقتنعًا بنتائجه وإلا كان الكلام جثةً هامدةً لا روح فيها. ولذلك كان النبي ﷺ **«إذا خطب الناس احمرت عيناه وعلا صوته»**[1] ، وهذا من تأثره بالموقف وانفعاله به.

* * *

(١) **صحيح**: رواه مسلم (٨٦٧).

آداب الخطابة

قال الشيخ علي محفوظ رحمه الله:

لما كان من غاية الخطيب التأثير في الأرواح وامتلاك القلوب، لم يكفه في بلوغ هذه الغاية الإتيان بالأدلة فقط، بل لا بد له مع ذلك من التجمل بالأحوال المرضية، والتحلي بالآداب النفسية. وبذلك يجذب إليه القلوب، ويستولي على النفوس، ويقودها إلى ما يريد منها وهي عشر صفات:

الصفة الأولى: سداد الرأي وأصالة العقل، وتمييزه لوجوه الأمور. ومعضلات المشاكل، ليهتدي إلى إثبات الحق وإدحاض الباطل بالأدلة المعقولة حتى يتأثر السامع لقوله وينقاد له، فإن كان ضعيف النظر، عاجزاً عن إقامة الأدلة سقطت دعواه أمام خصمه، وتنكّب عنه السامع استهانة به ويثبت لدى السامعين سداد رأيه بإيراد قضيته مثلا على صورة جلية قريبة المنال، وإثباتها فعلا بالحجج اللامعة والشواهد النَّيِّرة، ومعارضة أدلة الخصم وتفنيدها كقول الإمام علي كرم الله وجه لما بلغه اتهام بني أمية له بالمشاركة في دم عثمان رضي الله عنه: أو لم ينه أمية علمها بي عن قرفي[1] أو ما وَزَعَ الجهال سابقتي عن تهمتي، ولما وعظهم الله به أبلغ من لساني. أنا حجيج المارقين، وخصيم المرتابين، وعلى كتاب الله تعرض الأمثال، وبما في الصدور تجازي العباد.

الصفة الثانية: صدق اللهجة وصحة القول، وحسن السيرة، ليقع في نفوس السامعين خلوص نيته، واستقامة عمله، وحرصه على الحقيقة -

---

(١) قرفة قرفا بالفتح - عابه.

وعلامتها أن يظهر على ملامح وجهه أثناء الخطابة ما هو عليه من طهارة القلب والإخلاص في العمل، وبذلك تطمئن القلوب إلى تصديقه، وتمتلئ النفوس ثقة به، فيستمعون إلى قوله، وينقادون له - أما الكاذب سيئ السلوك فلا تركن النفوس إليه ولو جاء بالصدق . قال أبو العتاهية :

والقول أبلغه ما كان أصدقه والصدق في موقف مستسهل عال

الصفة الثالثة: التودد إلى الناس، وموجبات التحبب إليهم كثيرة. منها التحلي بالوقار والتصون والوفاء والأمانة والعفة وعزة النفس وعلو الهمة حتى يعلم أنه إنسان كامل خال من الأغراض، يعمل الخير للخير، لا يريد عليه ثناء ولا جزاء من أحد إلامن الله الغني الكريم، فلذلك أثره في إقبال الناس عليه ونجاحه في مهمته .

الصفة الرابعة: رباطة الجأش وشدة القلب وهي منشأ صفات كثيرة حميدة فإنها تحفظ له كرامته في أعين السامعين، وتستبقي عقله معه وهو يخطب فيسدد ويتفنن ويرتب قوله ويحكم مقاطعه، ويلحظ حركات القوم حتى ينهلهم المناهل التي يسوقهم الظمأ إليها .

الصفة الخامسة: البديهة الحاضرة، وسرعة الخاطر، فقد يطرأ على الخطيب في أثناء خطابته أو على إثرها ما يلجئه إلى الكلام فإن لم تواته بديهته بكلام يماثل الأول أو يتفوق عليه سقط ما بناه ولا كذلك إذا كان يعترف من طبعٍ نافعٍ وفؤادٍ ذكي .

الصفة السادسة: أن يكون طلق اللسان بريئًا من الحصر [١] والعيِّ واللجلجة والتمتمة والفأفأة والجمجمة والثرثرة وسماجة التكلف والإغراب،

---

(١) الحصر : ضيق الصدر عن النطق والعي : ضد البيان . واللجلجة : ترديد الكلام والتمتمة : رد الكلام إلى التاء والميم . والفأفأة : ترديد الفاء . والجمجمة : عدم تبيين الكلام . والثرثرة : التفريق والتبديد . والثرثار : المكثار .

وما إلىٰ ذلك من العيوب المشهورة.

الصفة السابعة: الحذق في إدراك مقتضىٰ الحال وملاحظة طوائف الناس من الأعلين والأوساط والأدنين، فيختار من الألفاظ ما يناسب كل طبقة، ولايجرح أحدًا ممن يتحبب إليهم حتىٰ تبقىٰ لخطابته هزة في كل قلب وتستريح لمغزاها كل نفس، والحاذق من يعرف الطباع الغالبة علىٰ الجمهور فيأتي إليهم من ناحيتها إذ لا ريب أن لكل مقام مقالا، ولكل فريق من الناس خطابًا يليق بحاله ويوافق عقليته ويناسب سنه، فلا يخاطب أشراف الناس وأوساطهم وسوقتهم بخطاب واحد، فأولئك تكفيهم الإشارة وهؤلاء يحتاجون إلىٰ بسط الكلام ـ فعلىٰ الخطيب أن يكون مع كل طبقةٍ علىٰ مقدار مبلغها من الفهم والاستعداد لقبول ما يريد غرسه في نفوسها من المعاني. فعن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعًا: «**أمرنا معاشر الأنبياء أن نكلم الناس على قدر عقولهم**». رواه مسلم. وعليه أن يراعي الأعمار في خطابه مع شاب فتي السن وكهل تام القوة وشيخ وقور مهيب، فإن لكل سن نزعة خاصة وأخلاقًا خاصة وأحوالاً تستدعي ما يناسبها من فنون الكلام ـ وبذلك يكون حكيمًا يضع الشيء في محله ويداوي كل علة بدوائها، وقد غلب علىٰ الأمراء والوزراء والحكام عظمة السلطان وترفع الإمارة والأنفة وإباء الطبع وعلو الهمة وتمام المرءوة، إلا أنه يظهر فيهم العجب والخيلاء ويكثر بينهم التكاثر والتفاخر بالمال والأتباع

يحبون الإطراء ويستميلهم الخضوع والثناء، ويأبون قبول التأديب ولاينقادون إلىٰ استماع النصح بسهولة، فلا بد لهم من المهارة في التلطف بهم، واللين معهم.

وطبع الأغنياء غالبًا علىٰ التيه والصلف والسير وراء الهوىٰ والشهوة، تبطرهم الكرامة، ويطغيهم المال والجاه، ويشغلهم الحذر والحرص علىٰ الدنيا

عن الاستعداد للموت وما بعد الموت، يترفعون على الفقراء، ويتعظمون على من دونهم، يتكلفون طباع السادة، وقد لا يقفون عند حد الاعتدال في المعاملة لا سيما حديثو العهد منهم بالنعمة. أما العلماء والأدباء ففيهم كرم الأخلاق ولين العريكة وحسن السيرة وسلامة الأعراض وعدم الشره في عرض الحياة الدنيا وقلة الطمع في الحطام الفاني يرتاحون إلى حسن السمعة وجميل الأحدوثة ويحبون التوقير والتعظيم ويميلون إلى النعوت الدالة على التفرد بالفضل، والتفوق في العلم والأدب. وجملة القول: أن لكل طبقة من الناس طباعًا وأخلاقًا وعادات وأحوالاً تميزهم على اختلاف وظائفهم وصناعاتهم ومذاهبهم وأوطانهم لا بد للخطيب الاجتماعي من ملاحظتها وعلى مقدار هذه الملاحظة تكون مكانته في النفوس، ونجاحه في مهمته.

الصفة الثامنة: المهارة في إثارة العواطف وتحريك أهواء النفوس حتى يجعل أزمة الحب والبغض والرغبة والنفور والفرح والحزن والرجاء واليأس والشجاعة، والخوف والحمية والأنفة والحلم والغضب وغيرها من مشاعر النفس في قبضة يده، وسيأتي بيان طرق الوصول إلى إثارة الأهواء.

الصفة التاسعة: سعة الاطلاع فإن الخطابة، كما تعلم تتناول جميع الشئون الدينية والدنيوية، ومسالك القول فيها متشعبة كمسالك الكتابة، فكما يكون الكاتب ملمًا بكل العلوم كذلك يكون الخطيب. ولهذا لا يسمى من يخطب خطبة محفوظة أويجيد الخطبة في شيء دون غيره خطيبًا، فلو برع بعض الخطباء في نوع من أنواع الخطابة كالسياسية أو القضائية فإن هؤلاء لا يسمون خطباء على الإطلاق إلا إذا كانوا يحسنون سوى ما برعوا فيه، وإن كان دونه.

الصفة العاشرة: التجمل في شارته وإشارته وملابسه وهيئته وحب النظام في كل ما يحتف بالخطبة. وهذا وإن لم يكن من الصفات التي تقوم عليها الخطابة إلا أنه أمر يجب العناية به لأنه مطمح الأنظار، والنظر يفعل في القلوب ما يفعل السمع لا سيما في هذا الزمان المفتون الذي يحترم فيه المرء بمجرد حسن هيئته، فهو من هذه الناحية لاينقص اعتباره عن اعتبار الصفات الأصلية. وجملة الأمر أنه يلزم أن يكون الخطيب أحرص الناس على الكمال وأبعدهم عن النقص، فإن الذي ينصب نفسه لقيادة الناس يجب أن يكون من الفطانة والسداد بمنجاة من أقل الهفوات فإن أدنى هفوة تسقط اعتباره وتهون على الناس أمره، حتى يجعلوا مجلسه ملهاةً من الملاهي، لا عبرة من العبر وبالله تعالى التوفيق والهداية[1] .

* * *

(١) فن الخطابة (٤١-٤٤) .

ثقافة الداعية

تصور معي طبيبًا بلا أجهزة، كيف يكون تشخيصه؟

أو نجاراً بلا آلات، كيف تكون صنعته؟

تكون ركيكة، متهالكة، لا دوام لها!

كذا لكم الداعية، لا بد أن يحمل معه آلاته.

ألا وهي: العلم... والإخلاص... والشفقة على الناس.

فداعية بلا علم، يضر أكثر مما ينفع، فكيف يدعو الإنسان إلى شيء يجهله؟!.

وداعية بلا إخلاص، مراء، متزين للناس، لا بركة في دعوته ولا تأثير في كلامه، فهو كالجسد بلا روح.

وداعية لايشفق على الناس، ولا يتلطف بهم، جافٌ غشوم، منفر للناس عن دعوته.

وأساس ذلك كله هو العلم.

فالعلم يدعوك إلى الإخلاص.

والعلم يدعوك إلى الشفقة على الناس.

والعلم يدعوك إلى الحكمة والموعظة الحسنة.

١- الداعية والقرآن الكريم:

هو المصدر الأساسي للإسلام، وهو روح الدين، وعمدة التشريع وهو أساس العلوم، وأصل الأصول، وهو البحر الذي منه يرتشف العلماء على

اختلاف مشاربهم، وتنوع اتجاهاتهم ولذلك ينبغي للداعية أن يولي القرآن عناية خاصة حتىٰ يتم حفظه وتجويده. ثم يستمر علىٰ مراجعته واستذكاره.

ويظل الداعية ناقصًا بقدر ما ينقصه من حفظ كتاب الله، حتىٰ وإن بلغ في العلوم الأخرىٰ شأنًا كبيرًا.

كيف تحفظ القرآن؟ «للمبتدئين»:

١ ـ تحفظ كل يوم خمس آيات علىٰ يد شيخ متقن أو طالب علم مجوِّد.

٢ ـ تكرر المحفوظ في الصلوات الخمس حتىٰ يثبت في الذهن.

٣ ـ تراجع كل يوم ربعًا من حفظك.

٤ ـ تصلي بعد العشاء ركعتين بربعين من المراجعة.

٥ ـ تراجع يوم الجمعة ما حفظته وراجعته.

٦ ـ إذا أتممت حفظ سورة تتوقف يومًا أو يومين تراجع تلك السورة لتربط أولها بآخرها. ولا تتجاوزها حتىٰ تتقنها.

٧ ـ تحفظ من طبعة واحدة من المصحف لا تغيرها حتىٰ لاتختلط عليك أماكن الآيات.

٨ ـ تكثر من الاستشهاد بالآيات في مناسباتها. تذكرة لنفسك، ومراجعة لحفظك، وتنفيذًا لأمر ربك ﴿ **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾ [ق:٤٥].

٩ ـ أن تدعو في سجودك وبين الآذان والإقامة وغيرهما من مواطن إجابة الدعاء، بأن يعينك علىٰ حفظ كتابه، وأن يثبته في قلبك.

١٠ ـ إذا أنعم الله عليك بإتمام حفظ القرآن فاشكره علىٰ هذه النعمة العظيمة وذلك بأمور:

- بالإكثار من تلاوته فلا تقل عن مراجعة جزء يوميًا .

- بقيام الليل به ولو بالجزء المقرر مراجعته .

- بتعليمه لمن يجهله .

- بتطبيق أوامره، والانتهاء عن نواهيه، وتطبيق أحكامه على نفسك ومن تعول .

وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال : «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

٢- الداعية وعلم التفسير:

ينبغي للداعية أن يبدأ بقراءة تفسير مختصر موثوق من قبل أهل العلم، حتى يلم بالمعاني العامة، لكتاب الله عزوجل .

ثم بعد ذلك إذا شاء توسع .

ونرشح لذلك تفسيرين يختار أحدهما :

١ ـ تفسير الشيخ عبدالرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ فهو مختصر وجامع، ومركز، وذو عقيدة سلفية صحيحة .

٢ ـ أيسر التفاسير لكلام العليِّ الكبير : للشيخ الجزائري حفظه الله .

فهو تفسير منهجي جيد .

قال الشيخ حفظه الله في مقدمة تفسيره : «ونظرًا لليقظة الإسلامية اليوم فقد تعين وضع تفسير سهل ميسر، يجمع بين المعنى المراد من كلام الله وبين الفهم القريب من فهم المسلم اليوم، تبين فيه العقيدة السلفية المنجية، والأحكام الفقهية الضرورية، مع تربية ملكة التقوى في النفوس، بتحبيب الفضائل وتبغيض الرذائل، والحث على أداء الفرائض واتقاء المحارم، ومع التجمل

بالأخلاق القرآنية، والتحلي بالآداب الربانية».

ثم ذكر مزايا هذا التفسير العشر، فارجع إليها في المقدمة المذكورة.

فإذا انتهى الداعية من قراءة أحد هذين التفسيرين توسع في تفاسير أخرى.

وإذا أراد الداعية أن يُعدَّ خطبةً أو محاضرة عليه أن يرجع في تفسير الآيات التي سيستشهد بها إلى تفاسير مختلفة الاتجاهات. فعليه أن يطالع فيها.

١ ـ تفسيراً بالمأثور مثل تفسير الحافظ ابن كثير

٢ ـ تفسيراً فقهيًا مثل القرطبي.

٣ ـ تفسيراً أصوليًا مثل أضواء البيان.

٤ ـ تفسيراً اجتماعيًا مثل في ظلال القرآن.

٥ ـ تفسيراً يبين أسرار الترتيب في الآيات مثل نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي.

٣ـ الداعية وعلم السنة الشريفة:

السنة هي المصدر الثاني للتشريع، وكما أن الداعية لا يكون قويًا في دعوته إذا كان قليل الحفظ من كتاب الله، فهو ضعيف الحجة إذا كان قليل الحفظ من سنة رسول الله ﷺ، فالداعية إذا كان يحفظ كمًا مناسبًا من السنة أسعفته قريحته للاستشهاد على كل قضية يتحدث فيها، وأنارت السنةُ له الطريق فيرى الحق حقًا والباطل باطلاً. فيفرق بين السنة والبدعة، فلا يضل عن طريق ربه.

الداعية وكتب السنة:

يكفي الداعية في بداية الطريق أن يحفظ كتابًا مختصراً في الحديث مثل: مختصر صحيح البخاري للزبيدي، أو اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان

لمحمد بن عبد الباقي .

فإن كان ضعيف الهمة فليكفه كتاب «عمدة الأحكام» للحافظ عبد الغني المقدسي .

ثم عليه أن يقتني كتب السنة المشهورة مثل :

١ - صحيح البخاري .

٢ - صحيح مسلم .

٣ - سنن أبي داود .

٤ - سنن الترمذي .

٥ - سنن النسائي .

٦ - سنن ابن ماجه .

٧ - مسند الإمام أحمد . ط . مكتبة الرسالة .

٨ - «صحيح الجامع وضعيفه» للألباني .

٩ - «صحيح الترغيب وضعيفه» للألباني .

١٠ - «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» : لابن بلبان الفارسي .

١١ - صحيح ابن خزيمة .

١٢ - «جامع الأصول» : ابن الأثير .

١٣ - «شعب الإيمان» : للبيهقي . الطبعة المحققة .

١٤ - «السنن الكبرىٰ» : للبيهقي .

٤ـ الداعية وكتب شروح الأحاديث:

الكتب التي تتناول شرح الأحاديث النبوية تقرب المفهوم، وتبين المراد، وتزيل الإشكالات التي قد تعترض الداعية.

ونرشح له في هذا المجال:

١ـ «معالم السنن» للخطابي.

٢ـ «شرح السنة» للبغوي.

٣ ـ «فتح الباري» شرح صحيح البخاري.

٤ ـ« عمدة القاري» شرح صحيح البخاري.

٥ ـ« المفهم شرح» صحيح مسلم.

٦ ـ «شرح النووي» لصحيح مسلم.

٧ ـ «تحفة الأحوذي» شرح الترمذي.

٨ ـ «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» : للقاري.

٩ ـ «فيض القدير شرح الجامع الصغير» : للمناوي.

١٠ ـ «الإعلام بفوائد عمدة الأحكام» : لابن الملقن وهو كتاب شائق.

١١ ـ «شرح مشكل الآثار» : للطحاوي.

٥ـ الداعية ومعرفة الأحاديث الضعيفة والموضوعة:

رحم الله القائل:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لم يعرف الخير من الشر يقعْ فيه

فينبغي للداعية أن يعرف الأحاديث الضعيفة والموضوعة المشهورة في المجتمع الذي يدعوه إلى الله كي يحذر الناس منها.

ونرشح في هذا المجال :

١ ـ «الفوائد المجموعة في الأحاديث الباطلة والموضوعة» : للشوكاني .

٢ ـ «ضعيف الجامع» : للألباني .

٣ ـ «سلسلة الأحاديث الضعيفة» : للألباني .

٤ ـ «اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» : للسيوطي .

٥ ـ «كشف الخفا ومزيل الالتباس، عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» : العجلوني .

٦ ـ «إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن» : نجم الدين الغزي .

٧ ـ «الجد الحثيث فيما ليس بحديث» . أحمد بن عبد الكريم الغزي .

٨ ـ «الكشف الإلهي عن شديد الضعف والموضوع والواهي» : للسندروسي .

٩ ـ «موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة» : للشيخ علي الحلبي وشركاه .

٦ ـ الداعية وعلم التوحيد:

ينبغي للداعية أن يكون ملمًا بمقاصد علم التوحيد كي لا يقع في الشرك وهو لا يدري، وعليه أن يعرف الشركيات الواقعة في المجتمع الذي يدعوه إلى الله كي يتمكن من تحذير الناس منها بالحكمة والموعظة الحسنة .

التدرج في دراسة التوحيد:

١ ـ يبدأ بدراسة كتاب مختصر في عقيدة أهل السنة والجماعة مثل :

«شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين . وكتاب فتح المجيد شرح كتاب

التوحيد. فالأول توسع في توحيد الأسماء والصفات، والآخر توسع في توحيد الألوهية، والتحذير من الشركيات المعاصرة.

٢ ـ يدرس عقائد الفرق الضالة بعقيدة أهل السنة والجماعة مثل: كتاب معارج القبول، ثم شرح العقيدة الطحاوية.

٣ ـ بدرس بعض الكتب التي تربط عظمة الله بالتوحيد مثل:

مفتاح دار السعادة لابن القيم، فقد لفت نظر القارئ إلىٰ عظمة الله في مخلوقاته.

وكتاب «توحيد الخالق» للزنداني وكتاب «من الخالق الله أم الصدفة؟» رشدي مدبولي.

وكتاب «الله يتجلىٰ في عصر العلم» «الإسلام يتحدىٰ» وما شاكلها وإذا أراد أن يتوسع في باب القضاء والقدر فليقرأ «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» لابن القيم.

٧ـ الداعية وعلم الفقه:

لابد للداعية أن يكون ملمًا بالأحكام الفقهية ولو علىٰ سبيل الاختصار وذلك لعدة أمور:

١ ـ لكي يعبد الله علي بصيرة.

٢ ـ لكي يتمكن من معرفة أفعال المدعويين المخالفة للشرع ويقومها.

٣ ـ لكي يتمكن من الإجابة علىٰ أسئلة المستفتين المتعلقة بالأحكام الشرعية التي كثيراً ما يتعرض لها الداعية.

- كيف يبدأ الداعية في علم الفقه ؟

١ ـ يبدأ بحفظ متن مختصر في الفقه كما كان يبدأ العلماء قديمًا بذلك فابن قدامة الإمام المجتهد صاحب كتاب «المغني» بدأ بحفظ مختصر الخرقي .

ونرشح له في هذا المجال :

«كتاب بداية المتفقه» : وحيد بالي .

أو «كتاب الدرر البهية» للشوكاني .

فهذان المتنان وضعا على الراجح من كلام أهل العلم .

أو يبدأ بمختصر على مذهب من المذاهب مثل :

- «الدر المختار» ، «أو بداية المبتدي» ، كلاهما في المذهب الحنفي .

- متن العلامة الشيخ خليل ، أو مختصر ابن الحاجب كلاهما في المذهب المالكي .

- «المهذب للشيرازي» ، أو «مختصر المزني» ، كلاهما في المذهب الشافعي .

- «زاد المستقنع» ، أو «دليل الطالب» ، كلاهما في المذهب الحنبلي .

٢ ـ ثم تبدأ في دراسة شرح المتن الذي حفظته مع حفظ الأدلة على الأحكام الفقهية الموجودة فيه لكي تحفظ الحكم بدليله .

٣ ـ ثم تتوسع في معرفة أقوال العلماء في المسألة الواحدة والترجيحات والتعليلات من خلال دراسة كتاب في الخلاف العالي «الفقه المقارن» مثل : «المغني» : لابن قدامة ، أو «المجموع» للنووي .

٤ ـ ثم تتبحر بدراسة كتب المحققين كـ «إعلام الموقعين» : لابن القيم ، و«مجموع الفتاوى» : لابن تيمية و«الاستذكار» الجامع لمذاهب «فقهاء الأمصار» لابن عبد البر . و«الأوسط» لابن المنذر ونحوها .

٥ ـ ثم يدرس الفقه على طريقة أهل الحديث ، بعدما ترسخت لديه الملكة

الفقهية ، واستقرت لديه القواعد المرضية .

فيقرأ :

١ ـ شروح صحيح البخاري .

٢ ـ شروح صحيح مسلم .

٣ ـ سنن الترمذي ، وهو كتاب جمع بين الحديث والفقه ونقل لنا مذاهب الفقهاء . ومن سبقهم من الصحابة والتابعين . فهو كتاب رائع .

٤ ـ سنن أبي داود . وهو كتاب وضعه مصنفه في أدلة الفقه خاصة .

٥ ـ صحيح ابن خزيمة ، وله ترجيحات تظهر من تراجم الأبواب .

٦ ـ صحيح ابن حبان وله ترجيحات : والرد على المخالفين تظهر من تراجمه أيضًا .

٨ـ الداعية وعلم السيرة النبوية:

السيرة النبوية هي التطبيق العملي للعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق الإسلامية السامية ، وقد أمرنا الله عز وجل أن نقتدي برسولنا الكريم ﷺ فقال سبحانه : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ** ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ولا يتسنى ذلك إلا بمعرفة سيرته العطرة ﷺ .

ـ ولا يبدأ الداعية بقراءة الكتب المتوسعة في السيرة في بداية الطريق حتى لا تختلط عليه الأحداث ، وتصطك في ذهنه التواريخ .

وإنما يبدأ بكتاب مختصر مثل :

١ ـ «جوامع السيرة» : لابن حزم .

٢ ـ «الفصول في سيرة الرسول الله ﷺ» : لابن كثير .

ثم يحضر دفتراً ويلخص فيه أحداث كل سنة على حدِّها، ويحفظها جيداً ثم يتوسع في تفصيلات السيرة وتعليقات المؤلفين واستنباط المستنبطين مثل :

١ ـ «الرحيق المختوم» : للمباركفوري . يسرد السيرة بأسلوب عصري .

٢ ـ «هذا الحبيب» : للجزائري . ركز على استخراج العبر والعظات من أحداث السيرة .

٣ ـ «الروض الأُنف» : للسهيلي . شرح لسيرة ابن هشام .

٤ ـ «حدائق الأنوار» : ابن الديبع الشيباني . اعتمد على أحاديث صحاح في غالب الأحداث .

٥ ـ «سبل الهدى والرشاد» : محمد بن يوسف الصالحي . كتاب متوسع جداً وفيه تفصيلات كثيرة .

٦ ـ «الرسول القائد» : اللواء الركن محمود خطاب . أبرز الجانب العسكري من السيرة النبوية .

٧ ـ «زاد المعاد» : ابن القيم . سرد واستنباط وتعليل .

٩ـ الداعية وعلم الرقائق:

هذا ميدان الداعية الرحبُ، لأنه كثيراً ما يتناول هذا الجانب في خطبه ومحاضراته .

ولأن المواعظ سياط للقلوب، وتهذيب للنفوس، وننصح الداعية أن يتجنب في مواعظه ما يلي :

١ ـ الأحاديث الضعيفة والآثار الواهية .

٢ ـ القصص المكذوبة حتى وإن كانت مؤثرة .

٣ ـ مبالغات المتصوفة، ومبتدعات المتعبِّدين.

٤ ـ تجريح الأشخاص في المواعظ والمحاضرات. وإنما كان يقول النبي ﷺ: «**ما بال أقوام يفعلون كذاوكذا**» ولم يكن يصرح بأسمائهم ﷺ.

والكتب في هذا المجال كثيرة نذكر منها:

١ ـ «طريق الهجرتين».

٢ ـ «الداء والدواء».

٣ ـ «عدة الصابرين».

٤ ـ «الوابل الصيب»: كلها لابن القيم.

٥ ـ «مختصر منهاج القاصدين»: لابن قدامة.

٦ ـ «الأذكار»: للنووي.

٧ ـ «صيد الخاطر».

٨ ـ «المدهش».

٩ ـ «التبصرة».

١٠ ـ «بحر الدموع»: كلها لابن الجوزي.

١١ ـ «نضرة النعيم»: لابن حميد وشركاه.

١٢ ـ «صلاح الأمة»: للعفاني.

١٣ ـ «الجزاء من جنس العمل»: له.

١٤ ـ «رهبان الليل»: له.

١٠ـ الداعية وعلم التاريخ:

معرفة التاريخ تثري ذهن الداعية، وتعطيه رصيداً من المواقف المضيئة التي يستشهد بها في الخطب والمحاضرات ويبدأ الداعية في علم التاريخ بعصر الخلفاء الراشدين ويرتب الأحداث التي حدثت في عهد كل خليفة راشد ويحفظها.

ثم يفعل ذلك في العصر الأُموي والعباسي وما بعدهما.

وننصح في هذا المجال ببعض الكتب منها:

١ـ «البداية والنهاية»: لابن كثير.

٢ ـ «تاريخ الإسلام»: للذهبي.

٣ ـ «الفتح الإسلامي»: د. الصلابي.

٤ ـ «عصر الدولتين الأموية والعباسية»: له.

٥ ـ «نهوض وسقوط الدولة العثمانية»: له.

٦ ـ «التاريخ الإسلامي»: محمود شاكر ٢٢ مجلداً.

١١ـ الداعية وعلم التراجم والقصص:

١ ـ صفة الصفوة»: لابن الجوزي.

٢ ـ «نزهة الفضلاء في تهذيب سير أعلام النبلاء»: د. محمد الشريف.

٣ ـ «وفيات الأعيان»: ابن خلّكان.

٤ ـ «صور من حياة الصحابة والتابعين»: رأفت الباشا.

٥ ـ «الإصابة في تمييز الصحابة»: لابن حجر العسقلاني.

٦ ـ «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»: لابن عبد البر.

٧ ـ «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» : للشوكاني .

٨ ـ «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» : للسخاوي .

٩ ـ «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» : للمرادي المتوفى : ١٢٠٦هـ .

١٢ـ الداعية وعلم البدع والمحدثات:

ينبغي للداعية أن يكون على علم بالبدع والخرافات المنتشرة في مجتمعه كي يحذر الناس منها وننصح في هذا المجال :

١ ـ «الإبداع في مضار الابتداع» : علي محفوظ .

٢ ـ «السنن والمبتدعات» : للشقيري .

٣ ـ «البدع والمحدثات» : حمود بن عبد الله المطر .

٤ ـ «معجم البدع» : لابن أبي علفة .

٥ ـ «الكلمات النافعة في الأخطاء الشائعة» : وحيد بالي .

١٣ـ الداعية وفقه الواقع:

إذا كان الداعية ملمًّا بالواقع الذي تعيشه أمته، عرف العدو من الصديق، وعرف الخطر فتجنبه، وننصح :

١ ـ «أساليب الغزو الفكري» : علي جريشة .

٢ ـ «بروتوكولات حكماء صهيون» : مترجم .

٣ ـ «حصوننا مهددة من داخلها» : محمد محمد حسين .

٤ ـ «واقعنا المعاصر» : محمد قطب .

٥ ـ «الموسوعة الميسرة في المذاهب المعاصرة» : ندوة الشباب الإسلامي .

١٤ ـ الداعية وعلم أصول الفقه:

١ ـ «الواضح في أصول الفقه» : للأشقر .

٢ ـ «الوجيز» : لعبد الكريم زيدان .

٣ ـ «روضة الناظر» : لابن قدامة .

٤ ـ «شرح روضة الناظر» : د . النملة .

١٥ ـ الداعية وعلوم اللغة:

على الداعية أن يهتم بهذا الجانب ، لأن اللغة هي القالب الذي يصب الداعية فيه المعاني ، ففرق بين من يقذف بالكلمات لا يدري لها جهة ، وبين من يقدم معانيه في ثوب قشيب وحُلة بهية ، وألفاظ عذبة تجذب القلوبَ ، وتشد النفوسَ لمتابعة حديثه .

ـ في النحو:

١ ـ «شرح المقدمة الآجرُّومية» «ويمكن أن يستمع لأشرطةٍ شرحها للشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ .

٢ ـ «شرح قطر الندىٰ وبل الصدىٰ» : لابن هشام .

٣ ـ «شرح شذور الذهب» : لابن هشام .

ـ في البلاغة:

١ ـ «البلاغة الواضحة» : لعلي الجارم .

٢ ـ «جواهر البلاغة» : للهاشمي .

ـ في الآداب:

١ ـ «ديوان أبي العتاهية» .

٢ ـ «النظرات» : للمنفلوطي .

٣ ـ «تحت راية القرآن» : للرافعي .

٤ ـ «مقامات »عائض القرني .

٥ ـ «نفحات ولفحات» : للقرضاوي .

٦ ـ «صور من حياة الصحابة» : د. رأفت الباشا .

٧ ـ «هكذا علمتني الحياة» : للسباعي .

ـ القواميس والمعاجم:

١ ـ «الوجيز» : مجمع اللغة العربية .

٢ ـ «مختار الصحاح» : للرازي .

٣ ـ «المصباح المنير» : للفيومي .

٤ ـ «النهاية» : لابن الأثير .

٥ ـ «لسان العرب» : لابن منظور .

١٦ ـ الداعية وعلم مصطلح الحديث:

١ ـ «تيسير مصطلح الحديث» : للطحان .

٢ ـ «الباعث الحثيث» : لابن كثير .

٣ ـ «تدريب الراوي» .

٤ ـ «طرق التخريج ودراسة الأسانيد» : للطحان .

٥ ـ «السلسلتان» : للألباني .

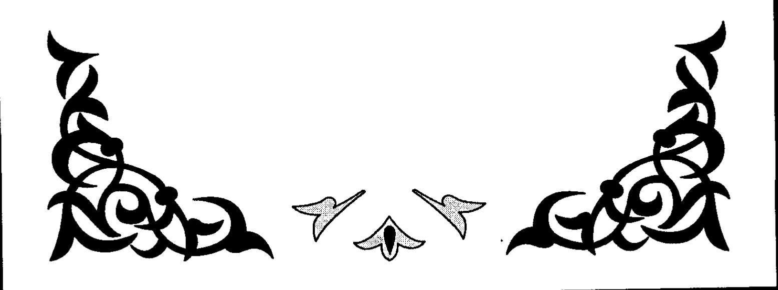


المحاضرة الأولى

انظر حولك

تأليف

وحيد بن عبد السلام بالي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الَّذي خلقَ فسوَّىٰ، وقدَّر فهدَىٰ، وأخرجَ المرعَىٰ فجعلَهُ غثاءً أحْوىٰ.

فهو الذي أضْحَكَ وأبكىٰ، وأماتَ وأحيىٰ، وأغْنَىٰ وأقْنَىٰ، وجعلَ الزَّوجينِ الذكرَ والأنثىٰ من نُطْفَة إذا تُمنَىٰ، ونَصَبَ في كونه دلائلَ علىٰ وَحدانيَّتِه، وشواهد علىٰ قُدْرته.

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإله ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وَحْدَهُ لا شريكَ له، ولا ندَّ له، ولا نظيرَ له، ولا مثيلَ له، ولا مُشيرَ له، ولا وزيرَ له، خَلَقَ الخلْقَ بقدرته، وأرسلَ الرسُلَ برحمته، وأنزلَ الكتبَ بحكمته، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُ الله ورسولُه، بلَّغَ الرسالةَ خيرَ بلاغ، وأدَّىٰ الأمانةَ أتمَّ أداء، ونَصَحَ الأئمَّةَ خيرَ نصيحة، فاللَّهُمَّ اجْزِه عنَّا خير ما جَزَيْتَ نبيًا عن أُمَّته، ورسولاً عن قَوْمه. وبعدُ:

فأصلُ هذه الرسالةِ محاضرة كنتُ قَدْ ألقيتُها في هلسنكي عاصمة فنلندا، وأعدتُها في الإمارات، وألقيتُها أيضًا في المنصورة في مسجدِ التَّوْحيد بها، ثم ألقيتُها في مسجدِ «أهل السنَّة» في منية سمنود[1]، وفي غيرها من الأماكنِ فنفعَ

---

(١) بدعوة من فضيلة الشيخ مصطفىٰ العدوي حفظه الله ورعاه.

اللهُ بها، فأردْتُ أنْ تعمَّ بها الفائدةُ فهذبْتُها وزدتُ عليها بعضَ الزيادات ولم أستطردْ حتى لا يكبر حجمُها، ولا تثقُلَ مئونتُها، ثمَّ دفعتُها للنشر لكي تكونَ بينَ يدَي الخُطَبَاء والمحاضرينَ إذا ما أرادُوا أن يَتَنَاولُوا هَذَا الموضُوعَ في محاضراتِهم أو خُطَبهم، وأسْمَيْتُها «انْظُرْ حَوْلَكَ»، وهيَ تتحدثُ عن التفكرِ في مخلوقاتِ الله عزَّ وجلَّ، ثمَّ سياحة فكرية مع نُبَذٍ من الإعْجازاتِ القرآنيةِ تدورُ حولَ التفكّرِ والاعتبارِ، مُبْرزًا مظاهرَ عظمةِ الخالقِ - تباركَ وتعالىٰ - لترسيخِ العقيدةِ في قلوبِ المؤمنينَ، وإقامة الحجة علىٰ الكافرينَ والملحدينَ، واللهَ أسألُ أنْ يفتحَ بها آذانًا صُمًّا، وأعْيُنًا عُمْيًا، وقُلُوبًا غُلْفًا، وأن يهديَ بها عاصيًا، ويُثبِّتَ بها مؤمنًا، ويَدْحَضَ بها شكًّا، ويزيلَ بها ريبًا، ويُنيرَ بها ظُلْمةً، ويُقيلَ بها عَثْرَةً، وأن ينفعَ بها العبدَ الفقيرَ في قبرِه، وكذا كُلَّ من شارك في نشرِها، أو تبليغها بين الناسِ ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [فصلت: ٣٣].

وآخرُ دَعْوانا أنِ الحمدُ للهِ رب العالمينَ، وصلَّىٰ اللهُ علىٰ محمَّد وآله وصحبه والتابعينَ.

وكتبه

وحيد بالي

منشأة عباس في ١٧/ ٤/ ١٤١٧هـ

النوايا التي يمكن أن يستحضرها المحاضر قبل إلقاء هذه المحاضرة

أولاً: النوايا العامة:

١ ـ ينوي القيام بتبليغ الناس شيئًا من دين الله إمتثالاً لقول النبي ﷺ: «بلِّغوا عني ولو آية» رواه البخاري.

٢ ـ رجاء الحصول علي ثواب مجلس العلم[1] .

٣ ـ رجاء أن يرجع من مجلسه ذلك مغفوراً له[2] .

٤ ـ ينوي تكثير سواد المسلمين والالتقاء بعباد الله المؤمنين.

٥ ـ ينوي الاعتكاف في المسجد مدَّة المحاضرة ـ عند من يرىٰ جواز ذلك من الفقهاء ـ لأن الاعتكاف هو الانقطاع مدة لله في بيت الله.

٦ ـ رجاء الحصول علىٰ أجر الخطوات إلىٰ المسجد الذي سيلقي فيه المحاضرة[3] .

---

(١) روىٰ مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

(٢) روىٰ الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٧) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم علىٰ ذكر، فتفرقوا عنه إلا قيل لهم قوموا مغفوراً لكم»، ومجالس الذكر هي المجالس التي تذكر بالله وبآياته وأحكام شرعه ونحو ذلك.

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من غدا إلىٰ المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».

وفي صحيح مسلم عنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته ثم مضىٰ إلىٰ بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرىٰ ترفع درجة».

٧ ـ رجاء الحصول على ثواب انتظار الصلاة بعد الصلاة، إذا كان سيلقي محاضرته مثلاً من المغرب إلى العشاء، أو من العصر إلى المغرب[1] .

٨ ـ رجاء أن يهدي الله بسبب محاضرته رجلاً. فيأخذ مثل أجره[2] .

٩ ـ ينوي إرشاد السائلين، وتعليم المحتاجين، من خلال الرد على أسئلة المستفتين[3] .

١٠ ـ ينوي القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ إن وجد ما يقتضي ذلك[4] .

١١ ـ ينوي طلب النضرة المذكورة في قول النبي ﷺ: «**نضَّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها**».رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع»(٦٧٦٦).

ـ ثم قد يفتح الله على المحاضر بنوايا صالحةٍ أخرى فيتضاعف أجره لقول النبي ﷺ: «**إنما لكل امرئ ما نوى**». متفق عليه.

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال أحدكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة».

ـ وروى البخاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه».

(٢)، (٤) روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم».

ـ وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا».

(٣) روى الترمذي وصححه الألباني عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير».
وصلاة الملائكة الاستغفار.

ثانيًا: النوايا الخاصة في إلقاء هذه المحاضرة:

١ ـ تثبيت الإيمان في قلوب المؤمنين.

٢ ـ درء الشبهات التي قد تعرض لبعض المسلمين.

٣ ـ الوقوف على بعض جوانب عظمة الله في خلقه.

٤ ـ الأخذ بالقلوب لمحبة الله تبارك وتعالى من خلال إبراز نعم الله علينا.

٥ ـ حث المؤمنين على عبادة التفكر في مخلوقات الله تعالى.

٦ ـ بيان أن الله تعالى يستجيب الدعاء من عباده المؤمنين.

٧ ـ حث المسلمين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال استعراض قصة الهدهد.

٨ ـ حث المؤمنين على الوقوف عند حدود الله وعدم تعديها من خلال استعراض قصة القرود.

٩ ـ التنفير من جريمة الزنا من خلال القصة الآنفة.

١٠ ـ تحبيب الناس في العلماء من خلال قصة الشافعي والزنديق.

عناصر المحاضرة:

١ ـ الشافعي والزنديق.

٢ ـ علماء الفلك يكتشفون ولكن القرآن سبق.

٣ ـ علماء الحشرات والاكتشاف العجيب.

٤ ـ سياحة فكرية في اليمن.

٥ ـ الطائر الموحد .

٦ ـ خبر من جزر القُمُر .

٧ ـ القرود تعرف ربها وتقيم حدود الله في الأرض .

٨ ـ النمل يعاقب الكذاب .

٩ ـ الفأرة وعلم الكيمياء .

١٠ ـ قصة إسلام عالم من تايلاند .

* * *

١.فضل التفكر في مخلوقات الله

أيُّها المسلمونَ الكرامُ:

لقاؤنا الليلةَ - إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ - يختلفُ عن اللقاءات السابقة.

- إنَّهُ يخاطبُ القلبَ والعقلَ معًا.
- إنَّه يوقفُكَ علىٰ عظمة خالقكَ.
- إنَّه يَلْفِتُ نظرَكَ... وينبِّهُ عقلَكَ.. ويُوقظُ وِجْدَانَك.
- إنَّهُ سياحةُ فكْر.. وراَحَةُ قلب.. وإيقاظُ ضمير.

سوفَ نُحلِّقُ فيهِ حولَ مواطنَ عدَّة:

١- فبينما نحن نخترق حُجُبَ التاريخ لنتوقَّفَ عندَ مناظرةِ الشَّافعي للزنديقِ الملحدِ.

٢- إذا بنا نعودُ سريعًا إلىٰ علماءِ الفلَكِ لنرىٰ ماذَا قالُوا عنِ النجومِ والكواكب.

٣- وبينما نحنُ كذلكَ ننتَقِلُ سريعًا إلىٰ علماءِ الحشَرَاتِ وما كَشَفوهُ منْ أسرار مُذْهلة ولكنَّ القرآنَ سبقَ.

٤- ثم نَنْتَقِلُ بكمْ إلىٰ اليمنِ حيثُ الخَبَرُ السَّعيدُ.

٥- ولكنَّنَا لا نلبثُ أن نعودَ إلىٰ الطائرِ الذكي الفطنِ لنفهمَ ونتعلمَ.

٦- ثمَّ نعودُ بكمْ إلىٰ «جُزُرِ القُمُر» لنتابعَ أحداثَ البركانِ المذهلِ ولكنَّنا لا نستغرقُ كثيراً منَ الوقتِ.

٧ـثمَّ نرجعُ إلىٰ عالَم آخر، إنه عالَمُ القرودِ، حيثُ ننقلُ لكمْ علىٰ الهواء مباشرةً أحداثَ إقامةِ الحد في دولةِ القرودِ.

٨ـثمَّ نعودُ إلىٰ عالَم النَّمل لنرىٰ عقوبةَ الكذَّابينَ منَ النّمل ونشاهِدَ ما الذي يحدُثُ في هذا العالَم العجيب.

٩ـثمَّ ننتقِلُ بكمْ إلىٰ الفأْرةِ الكيميائيةِ لتُعْطِينَا دَرْسًا في كثافَةِ السوائلِ، ثمَّ قصيدة في التفكر والاعتبارِ، لكنْ قبلَ ذلكَ ننقلُ لكمْ قصةَ إسلامِ العالِمِ التايلاندي تاجاثات تاجاسون، ثمَّ نتركُكُمْ في رعايةِ اللهِ وحفظِه، وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ.

* * *

وقفة مع النفس

عبادَ الله، قدْ يكونُ أحدُنا عَبَدَ ربَّهُ بعبادات كثيرة كالصلاة والزكاة والحج والصدقة وصلَة الأرحام وصدق الحديث، ومساعدة المحتاج وتشميت العاطس، وأداء الأمانة وغيرها من العبادات إلا أنَّهُ ربما لا يكونُ عَبَدَ ربَّه ولو مرةً واحدةً في هذا العمر المديد بعبادة التفكر في مخلوقات الله تعالى. برَغْم أن ربَّ العزّة ـ تبارك وتعالى ـ قد حثَّنا عليها فقال سبحانه: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال: جل شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ـ مَن منَّا عبادَ الله خرجَ منْ بيته يومًا يمشي بينَ المزارع والحقول وحدَه يتأملُ في مخلوقات الله، ويتفكرُ في قدرة الله، ويتعجبُ من عظمة الله؟!

ـ منْ منّا صَعِدَ فوقَ سطح بيته ليلةً يُقلبُ نَظَرَهُ في السماء بينَ نجومها وكواكبها، وارتفاعها واتساعها، ويقولُ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

* * *

الشافعي والزنديق

التقى زنديق بالإمام الشافعي يومًا فقالَ لهُ: يا شافعي؛ ما الدليلُ على وجودِ الله؟

فقالَ الشافعي: وَرَقَةُ التوتِ!!

فقالَ الزنديقُ: كيفَ ذَلكَ؟!

قالَ الشافعي: انظرْ إليها أليسَ لَوْنُهَا وَاحدًا؟ وطَعْمُهَا واحدًا؟ وَرِيحُهَا وَاحدًا؟

قال الزنديقُ: بلى.

فقالَ الشافعي: تأكلُها دُودَةُ القزِّ فتُخْرِجُ حريرًا ناعمًا، وتأكلُها النَّحلةُ فتُخْرِجُ عَسَلاً صافيًا، وتأكلُها الظباءُ فتخرجُ مِسْكًا طيبًا، وتأكلُها الحيواناتُ فتُخْرِج بَعْرًا مُنْتِنًا.

مَن الذي أوجدَ هذه المصانعَ في تلكَ الحيواناتِ؟!

إنَّهُ اللهُ خالقُ البَرِيَّات **﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** [البقرة: ٢٥٨].

* * *

هل تعلم؟

أخي: هلْ تعلمُ أنَّ الرعدَ يسبحُ بحمدِ ربه؟ ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد: ١٣].

- هلْ تعلمُ أنَّ الطيرَ يسبحُ ربَّه ويمجدُه؟ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

- هلْ تعلم أنَّ الماءَ والنباتَ والجمادَ والحجرَ والشجرَ يسبحُ بحمدِ ربه؟ ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

- بل هلْ تعلمُ أنَّ الأرضَ تسجُدُ لربها، والنجومَ تسجدُ لربها، والشمسَ تسجدُ لربها، والقمرَ يسجدُ لربه، والجبالَ تسجدُ لربها والشجرَ يسجدُ لربه، والدوابَّ تسجدُ لربها؟ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨].

سَلِ الْوَاحَةَ الخَضْرَاءَ وَالْمَاءَ جَارِيًا ... وَهَذي الصَّحَارِي وَالْجِبَالَ الرَّوَاسِيَا
سَلِ الرَّوْضَ مُزْدَانًا سَلِ الزَّهْرَ وَالنَّدَى ... سَلِ اللَّيْلَ وَالإِصْبَاحَ وَالطَّيْرَ شَادِيًا
وَسَلْ هَذه الأَنْسَامَ والأَرْضَ والسَّمَا ... وَسَلْ كُلَّ شَيءٍ تَسْمَعِ الحَمْدَ سَارِيًا
فَلَوْ جَنَّ هَذَا اللَّيْلُ وامْتَدَّ سَرْمَدًا ... فَمَنْ غَيْرُ رَبِّي يُرْجِعُ الصُّبْحَ ثَانِيًا؟

* * *

نظرة في شجرة

اخرُجْ معي الآن منْ هذا المسجدِ، وامشِ بينَ المزارعِ والحقولِ سترىٰ شجرةً عظيمةً جذورُها في الأرضِ ممتدة، وأغْصانُها في السَّماءِ مرتفعة، سلْ نفسَك ما أصلُها؟ أصلُها بَذْرَة صغيرة، صغيرة جداً، ثمَّ انظرْ بجوارِ هذه الشجرةِ سترىٰ شجرةَ الفولِ التي لا تتعدىٰ سيقانُها المترينِ فقطْ، سلْ نفسَك ما أصلُها؟ أصلُها حبةُ الفولِ الكبيرةُ التي تعادلُ بذرةَ الشجرةِ عَشراتِ المرات، سلْ نفسَك: بذرةٌ تُنبتُ هذهِ الشجرةَ العظيمةَ؟!

وبذرة كبيرة تنبتُ هذهِ الشجرةَ الصغيرةَ؟!

وكأنَّ ربَّ العزةِ - تباركَ وتعالىٰ - يريدُ ألا يعلقَ قلوبَنا بالأسبابِ، وإنما يريدُ أنْ تتعلقَ قلوبُنا بخالقِ الأسباب تبَاركَ وتعالىٰ.

انظُرْ لِتلكَ الشَّجَرَهْ	ذَاتِ الغُصُونِ النَّضِرَه
كَيْفَ نَمَتْ مِنْ حَبَّه	وَكَيْفَ صَارَتْ شَجَرَه
فَانْظُرْ وَقُلْ مَنْ ذَا الَّذِي	يُخْرِجُ مِنْهَا الثَّمَرَه
ذَاكَ هُوَ اللهُ الَّذِي	أَنْعُمُهُ مُنْهَمِرَه
ذُو حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ	وقُدْرَةٍ مُقْتَدِرَه
وَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ الَّتِي	جَذْوَتُهَا مُسْتَعِرَه
فِيهَا ضِيَاءٌ وبِهَا	حَرَارةٌ منتشِره
مَنِ الَّذِي أَوْجَدَهَا	فِي الجَوِّ مِثْلَ الشَّرَرَه؟
ذَاكَ هُوَ اللهُ الَّذِي	أَنْعُمُهُ مُنْهَمِرَه
ذُو حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ	وقُدْرَةٍ مُقْتَدِرَه

وَانْظُرْ إِلَى اللَّيْلِ فَمَنْ ... أَوْجَدَ فِيهِ قَمَرَه
وَزَانَهُ بِأَنْجُمٍ ... كَالدُّرَرِ الْمُنْتَشِرَه
وَانْظُرْ إِلَى الغَيْمِ فَمَنْ ... أَنزل مِنْهُ مَطَرَه
وَانْظُرْ إِلَى الْمَرْءِ وَقُلْ ... مَنْ شَقَّ فِيهِ بَصَرَه
ذَاكَ هُوَ اللهُ الَّذِي ... أَنْعُمُهُ مُنْهَمِرَه
ذُو حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ ... وقُدْرَةٍ مُقْتَدِرَه[1]

* * *

(١) للشاعر أحمد شوقي.

علماء الفلك يكتشفون ولكن القرآن سبق

يقولُ علماءُ الفلكِ : إنَّ الضوءَ يقطعُ في الثانيةِ الواحدةِ «٣٠٠,٠٠٠» كيلو متر، ويقطعُ في الدقيقةِ الواحدةِ «١٨٠٠٠,٠٠٠» كيلو متر.

- فالضوءُ ينطلقُ منَ الشمسِ فلا يصلُ إلى الأرضِ إلا بعدَ أنْ يستغرقَ رحلةً طولُها «٨» دقائقَ تقريبًا.

- ومِنَ النجومِ ما ينطلقُ ضوؤه فلا يصلُ إلى الأرضِ إلا بعدَ أنْ يقطعَ رحلةً طولُها أربعُ سنوات وخمسةُ أشهُر.

- ومِنَ النجومِ ما ينطلقُ منه الضوء فلا يصلُ إلى الأرضِ إلا بعدَ أنْ يقطعَ رحلةَ طولُها «١٠٠» سنة.

- ومِنَ النجومِ ما ينطلقُ منهُ الضوءُ فلا يصلُ إلى الأرضِ إلا بعدَ أنْ يقطعَ رحلةَ طولُها «١٠٠٠,٠٠٠» سنة.

- ومِنَ النجومِ ما ينطلقُ منهُ الضوءُ فلا يصلُ إلى الأرضِ إلا بعدَ أنْ يقطعَ رحلةَ طولُها «٦ بلايين» سنة.

كل هذا وهو يقطعُ في الدقيقةِ الواحدةِ «١٨ مليون» كيلو متر.

فأينَ تقعُ هذه النجومُ؟.

تريدُ أنْ تعرفَ أينَ تقعُ؟ أحضرْ كتابَ الله - عزَّ وجلَّ - وافتحْهُ واقرأْ سورةَ الواقعة لتصلَ إلى قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، وسلْ نفسَك: لماذا لم يقسمْ ربُّنا بالنجوم ذاتِها، برغم أنَّ العَرَبَ الذينَ نزل فيهمُ القرآنُ كانوا يَرَوْنَهَا بأعيُنهم، لماذا عدل عنِ الإقسامِ بها إلى الإقسام بمواقعِها؟

لسِّر في القضيَّة!

ثم لم يقلْ ربنا: «وَإِنَّهُ لَقَسَم عَظِيم»؛ لأنَّ عِظَمِ هذا القَسَمِ لا يعلمهُ كل الناسِ، بلْ لا يعلمه إلا مَنْ وقفَ على حقائقِ العلمِ، فعلَّق رب العزة - تبارك وتعالى - عِظَمَ هذا القسمِ على العلمِ فقالَ سبحانَه: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أيْ: لو وقفتُم على حقائقِ العلم وعلمتُمْ أينَ تقعُ هذه النجوم، وعلمتُمْ ما بينكُمْ وبينها منْ «بلايين» السنوات الضوئيةِ لعلمتم أنَّه قسمٌ عظيمٌ فلمَّا كانَ القسمُ عظيمًا أقسمَ اللهُ به على أعظمِ موجود في أيدي الناسِ وهوَ القرآنُ الكريمُ فقالَ سبحانَه: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٧].

وهذا كله لا يزال في زينة السماء الأولى فقط، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: ٥]، فما بالُك بالسماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة!!

سبحانَك يا ربَّنا، يا منْ سبَّحَتْ لهُ الكائناتُ، يا من سَجَدَ لهُ النَّبَاتُ، يا منْ تدكدكَتْ لخشيته الجبالُ الراسياتُ.

وَيَهْتِفُ حَمْدًا جَمَالُ الصَّبَاح ... وَسِحْرُ الرَّبِيعِ الشَّهِيُّ الْعَطِرْ

وَسِحْرُ السَّمَاءِ الشَّجِيِّ الوَدِيعُ ... وَهَمْسُ النَّسِيمِ وَلَحْنُ الْمَطَرْ

تُسَبِّحُهُ نَغَمَاتُ الطُّيُور ... يُسَبِّحُهُ الظِّلُّ تَحْتَ الشَّجَرْ

يُسَبِّحُهُ النَّبْعُ بَيْنَ الْمُرُوجِ ... يُسَبِّحُ دَوْمًا أَرِيجُ الزَّهَرِ

يُسَبِّحُهُ النُّورُ بَيْنَ الغُصُونِ ... وَسِحْرُ الْمَسَاءِ وَضَوءُ الْقَمَر[1]

* * *

(١) موارد الظمآن في محبة الرحمن. ط. مكتبة الصحابة بجدة.

علماء الحشرات والاكتشاف العجيب

عكفَ علماءُ الحشرات مدة مِن الزَّمَنِ يُجْرونَ بحوثًا ودراسات حولَ النملة، حيثُ وضعوهَا في مختبرات خاصَّة معَ أجهزة للمراقبة والتصوير، وأجهزة أخرىٰ (فوق سمعية) للتسجيلِ لعلَّ النملَ يُصدرُ أصواتًا فتسجلُ، أو حركات فتُرْصَدْ، وفي النهايةِ خرجوا بنتائجَ، هذه خلاصتُها:

أولاً: قالُوا: لقد تبينَ لدينَا منَ الملاحظةِ التامَّة أنَّ النملَ أمة كأمة البشرِ؛ لها قانونُها الاقتصادي، والسياسي، والاجتماعي، بلْ والعسكري أيضًا.

فالنملُ له نظام اقتصادي خاص في التوفير، ورَصْدِ الاحتياطيِّ لوقتِ الحاجةِ، وحفظ المخزونِ بطريقة معينة حتىٰ لا يفسدَ.

وفي النظامِ السياسي من ملوك ورؤساء وقادة، وفي النظام الاجتماعي منْ أُسَر وجماعات، وفي النظام العسكري من جيوش وحمايات بل ثبتَ أنَّ النمل يقومُ بحملات عسكرية علىٰ القرىٰ المجاورةِ منَ النملِ ويأسرُ منهمُ الأسْرَىٰ ويضعُهُم في السجون!!

ومِن هنا يَتَبَيَّنُ لدَينَا أنَّ النملَ أمة كأمةِ البشرِ في الدقَّةِ والنظام.

قلنَا لهُمْ: هذا اكتشاف رائع، لكنَّ الأروعَ أنَّ القرآنَ قدْ أخبرَ بذلكَ قبلَ ألف وأربعمائةِ عام!!

قالُوا: أينَ ذلكَ؟ وكيفَ أخبرَ؟!

قلنَا: عندنَا في القرآن الكريمِ سورة تسمَّىٰ سورة الأنعام، نفتحُ هذه السورةَ في الآية (٣٨) يقولُ اللهُ تعالىٰ: ﴿**وما من دابَّةٍ في الأَرْض ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيه إلاَّ أُممٌ أمثالُكم مَّا فرَّطْنَا في الْكتابِ من شيْءٍ ثُمَّ إلىٰ ربِّهم يُحْشرُونَ**﴾.

والنملُ دابَّة، فهيَ أمة كأمةِ البشرِ (أَمْثَالُكُمْ) والكافُ لخطابِ البشرِ والميمُ للمثليةِ والجمع، أيْ أمثالكم يا معشرَ البشرِ، أمثالكم في الدقةِ والنظامِ وغير ذلكَ فسبحانَ مَنْ أنزلَ هذا الكتابَ علىٰ النبي الأمي محمد ﷺ.

ثانيًا: قالُوا: لقَدْ تبينَ لدينا مِنَ الملاحظة التَّامَّة والتسجيلِ الدقيقِ أَمْر عَجِيب.

قلنَا: مَا هُوَ؟

قالُوا: كانتِ البشريةُ جميعًا حتَّىٰ القرن (١٩) الميلاديَّ يظنونَ أنَّ النملَ حشرة لا تنطقُ، وأنَّها تتعاملُ معَ أخواتِها من النَّمْلِ بالإشارةِ أو الإيحاء أو غيرِ ذلك، لكنْ بفضلِ أجهزة التسجيلِ فوقَ السمعيةِ (التي تسجلُ الأصواتَ التي لا تسمعُها الأذنُ) تبينَ لنا أنَّ النملَ ينطقُ ويتكلمُ، ويناقش ويجادلُ بلْ ويعقدُ المؤتمراتِ لدراسةِ مشاكله الخاصَّة!!

قلنَا لَهُمْ: هَذَا اكتشاف مذهل، لكنَّ الأعجبَ أنَّ القرآنَ قدْ أخبرَ بذلكَ أيضًا.

قالُوا: كيفَ ذلكَ ولمْ يَكْتَشفْ هذا أَحَد قبلنَا؟ بلْ ولم يكنْ بوسْعِهِ أن يكتشفَه؛ لأنَّ الأجهزةَ فوق السمعيةِ لم تكنْ قد عُرفَتْ بَعْدُ.

قلنا: بلْ هوَ موجودٌ في القرآنِ.

قالُوا: أينَ هوَ؟.

قلنَا: عندنَا في كتاب ربنا سورة تسمَّىٰ سورةَ النمل، نفتح هذه السورةَ ونقرأ الآيتين (١٧، ١٨): ﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ...**﴾.

فها هُوَ القرآنُ يخبرُ أنَّ النملَ ينطقُ ويتكلمُ (قَالَتْ نَمْلَة...) فهلْ كانتْ عندَ

محمد ﷺ أجهزة فوقَ سمعيَّة ليعرفَ بها أنَّ النملَ يتكلمُ؟

أمَا كان يخشَىٰ محمد ﷺ وهُوَ يتلُو علىٰ البشريَّة هذه الآيةَ أنْ يكذبُوهُ ويتحدَّوْهُ ويقولونَ: كيفَ تخبرُ أنَّ النملَ يتكلَّمُ؟

أنتم - معشرَ المكذبينَ برسالةِ محمَّد من اليهودِ والنصارىٰ والشيوعيينَ - تزعمونَ أنَّ محمداً ألَّفَ القرآنَ منْ مزيج منْ حضاراتِ الفرسِ والرومان!!

فهلْ كان محمد يقرأ ويكتبُ حتَّىٰ يطَّلعَ علىٰ هذه الحضاراتِ؟! لا بلْ كانَ أميًا لا يقرأ ولا يكتبُ.

وحتَّىٰ لو سَلَّمنا جدلاً بأنَّه كان يقرأُ ويكتبُ، فهلْ كانتْ الثقافاتُ المزعومةُ وصلتْ إلىٰ هذا التقدم؟

الجوابُ - بشهادةِ التاريخ -: لا . . . . لا . . . . لا .

إذًا من أينَ جاءَ محمد بالقرآن؟

الجـــوابُ: الذي لا محيص عنْهُ هوَ: أنَّ هذا القرآنَ أُنزِلَ إليهِ مِنْ عندِ اللهِ الذي يعلمُ كلَّ شيء . . فهلْ بقِيَ لِمنْكرٍ حُجَّة؟!

وإننا نقولُ لعلماء الحشراتِ: إنَّ القرآنَ لم يُخْبر عما اكتشفتموهُ فقطْ بلْ زادَ علىٰ اكتشافكُمْ هذا شيئًا آخرَ لم تَصِلُوا إليه بعدُ!!

قالُوا: ما هُوَ؟

قُلنَا لَهُمْ: ما الَّذي أدْراكُمْ أنَّ النمل يتكلَّمُ؟

قــالُوا: سَجَّلَتْ أصواته الأجهزةُ فوقُ السَّمعيَّةِ، وصوَّرَتَهُ أجهزةُ الكمبيوتر «شَفَرَاتٍ واضِحَةً».

قلنــا لهم: ترجِموا لنا هذه الشفراتِ إلىٰ لغة يفهمُها بنو البشرِ، أيِّ لغة فِي العالَمِ تختارُونَها.

قالُوا: لا، ما زالَتْ أسرارُ هَذِه الشَّفَرَاتِ غامضةً حتَّىٰ الآنَ لم يستطع العِلمُ الحديثُ أنْ يفُكَّ رموزَها أو يكشفَ عن معانيها.

قلنَا لهُمْ: لكنَّ القرآنَ قدْ ترجَمَ لغةَ النملِ إلىٰ لغة يفهمُها بنو البشرِ.

قالُوا: أينَ ذلكَ؟

قلنَا: في سورةِ النملِ الآية (١٨): ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ** ﴾.

السُّؤال: بأي لغة نطقت النملةُ؟

بالعربيةِ أَمْ بالإنجليزيةِ، أَمْ بالألمانيةِ، أَمْ بالأسبانيةِ...

الجوابُ: بلغةِ النملِ (بشفراتِ النملِ).

السؤال: فهلْ وُضعَ قولُها بينَ قَوْسين [...] وسُجلَتْ شفرات غامضة كما فعلَها الكمبيوتر؟

الجـــواب: لا، بَلْ تُرْجمتْ إلىٰ لغة يفهمُها البشرُ واسْمَعْ إلىٰ التَّرْجَمةِ الحَرْفيَّة: ﴿ **قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾.

فمنْ أخبرَ محمداً بهذا؟

إنَّه اللهُ الذي لا إلَهَ إلا هُوَ وسعَ كلَّ شيء علمًا.

يَا مَنْ يَرَى مَــدَّ البَعُوضِ جَنَاحَهَا ... في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ البَهِيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوقِهَا في نَحْرِهَا ... وَالمُخَّ في تِلْكَ العِظَامِ النُّحَّلِ
امْنُنْ عَلَيَّ بِتَوْبَةٍ تَمْحُو بِهَا ... مَا كَانَ مِنِّي في الزَّمَانِ الأَوَّلِ

* * *

سياحة فكرية في اليمن

نزلَ رجل بريطاني وزوجَتُه اليمنَ، فالتقيَا بعالم مِنْ عُلَماء اليمنِ فقالتِ البريطانيةُ للعالِمِ اليمني: أمسلم أنتَ؟

قالَ: نَعَمْ.

قالَتْ: دينُكُمْ هذا خرافات وأساطيرُ.

قالَ: كَذَبْتِ، بلْ دِينُنا دينُ العلمِ والعقلِ.

قالتْ: سوفَ أثبتُ لكَ بالأدلَّةِ الماديَّةِ صدْقَ قولي.

قالَ: كيفَ ذلكَ؟

قالتْ: سوفَ أسْأَلُكَ سؤالاً واحداً، فإنِ اسْتَطعْتَ أن تجيبني عليهِ - ولن تستطيعَ - سأدخُلُ معكَ في دينِكُمْ، وإنْ لمْ تستطعْ علمْتَ صدْقَ قولي بأنَّ دينَكمْ هذا خرافات وأساطير.

قالَ: سَلِي.

قالَتْ: مَنْ تعبدُ؟

قالَ: اللهَ.

قالت البريطانيةُ: مَا طولُ هذا الإلهِ وما عرضُه؟

انظرْ إلىٰ هذا السؤالِ العجيبِ الذي يدل علىٰ انتكاسِ في الفطرةِ ورداءة في التفكيرِ!!

والسائِلَةُ لا تؤمِنُ بقرآن ولا بِسُنَّة، إنَّها لا تصدقُ إلا حواسَّها الخمسَ فَقَطْ

(الشَّمّ والذَّوْق واللَّمْس والسَّمْع والبَصَر).

قالَ العالمُ اليمنيُّ: وأنتِ تُحبينَ زوجَك؟

قالَتْ: نعمْ.

قالَ: ما طولُ هذا الحب وما عرضُه؟

قالَتْ: وهلِ الحبُّ يقاسُ بالكيلومترات؟

فقالَ: الحب - وهوَ منْ مخلوقاتِ الله - لا يخضعُ للمقياسِ وتُريدينَ أنْ تُدْخلِي اللهَ - جلَّ وعلا - تحتَ المقيَاسِ؟!

اللهُ لا يُشْبِهُ النَّاسَ، ولا يدْخلُ تحتَ المقياسِ، ولا تدركُهُ الحواس، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فقالَتِ المرأةُ وزوجُها: نشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ.

* * *

الطائر الموحد

الهدهدُ ذلكم الطائرُ الموحدُ، الذي مَرَّ على قوم يُشركونَ بالله فأنكرَ هذا الفعْلَ وبلَّغَ الخبرَ إلى منْ يستطيعُ تغييرَ المنكرِ، إلى سليمانَ عليه السلامُ، واسمعْ إلى القرآن الكريم وهُوَ يصوِّرُ الموقفَ تصويراً بديعًا دقيقًا: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٠-٢٦].

ولنا عدَّة وقَفَات:

الوقفةُ الأولى:

سليمانُ عليه السَّلامُ - يتفقَّدُ رعيَّتَهُ ويسألُ عنْهم، وهذا منْ أُسُسِ العدْلِ في الدولةِ الإسلاميةِ.

الوقفةُ الثانيةُ:

ثلاثةُ قوانينَ تطبَّقُ على منْ يخالفُ الأمرَ الصادرَ من الخليفةِ:

- التعزيرُ: ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾.
- الإعدامُ: ﴿ أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾.
- تقديمُ المستنداتِ التي تدل على العذرِ المقبول لسببِ التأخُّرِ: ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي

بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

أي حجة واضحة أو عذر مقبول.

الوقفةُ الثالثةُ:

استنكارُ الهدهدِ لأحوالِ سبأ حيثُ انتكستْ فِطْرتهم فخَضَعُوا لامْرأة وجعلوهَا مَلِكةً عليهِمْ، ولا يُفْلحُ قوم ولَّوا أمرَهُمُ امرأة[1].

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾.

الوقفةُ الرابعةُ:

استنكارُ الهدهدِ لهذا الفعلِ الشرْكي الخبيثِ الَّذي رآه، وهُوَ سجودُهم للشمس منْ دونِ الله، فلمَّا لَمْ يستطعْ أنْ يغيرَ المنكرَ بنفسهِ، قام بتبليغ هذا المنكرَ إلىٰ منْ يستطيعُ تغييرَه.

الوقفةُ الخامسةُ:

كيفَ استدلَّ الهدهدُ علىٰ وجودِ الله ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ الشيء الخفيّ؟

وذَلكَ لأنَّ الهدهد مخلوق عجيبٌ يأتي إلىٰ المكانِ الذي لا يَرَىٰ الإنسانُ فيهِ شيئًا، فإذا به يَنْقُرُ بمنقارِهِ الطَّويلِ ويَستخرجُ دُودةً من باطنِ الأرضِ فيأكُلُها.. ولكنْ كيفَ رآها وهي مخفية عنِ الأنظارِ؟

قالَ علماءُ التشريحِ: لقدْ خَلَقَ اللهُ للهدهدِ في عَيْنيهِ عَدَسَاتٍ متتابعةً يَخْتَرِقُ بها بعضَ طبقات الأرض ليلتقطَ رِزْقَهُ بأمر الله.

فسبحان الذي خَلَقَ فسوَّىٰ، وقَدَّرَ فهدىٰ.

❊ ❊ ❊

(١) «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» رواه البخاري عن أبي بكرة.

خبرٌ من جُزر القمر(١)

في أواخرِ سنة ١٩٩١م رصدتْ أجهزةُ البراكينِ أنَّ بركانًا سينفجر في دولة «جُزُرِ القُمُر» يوم كذا، وسارع العلماءُ، والصَحَفيونَ، والمصورون من أنحاءِ العالمِ لمراقبةِ هذا الحادث وتصويرِه.

ومن بينِ هؤلاءِ العلماءِ فريق من المهندسينَ الفرنسيينَ، فلما وصلوا إلى جزرِ القُمُر سَمِعوا أصواتًا، فسألوا عنْ مصدرِ هذه الأصواتِ.

فقالوا: هذهِ أصواتُ المسلمينَ في مساجدِهِمْ.

قال رئيس المهندسينَ: ماذا يفْعلونَ؟

قالوا: يتضرَّعونَ إلى ربهم أن يدفعَ عنهُمْ هذا البُرْكانَ فلا ينفجرَ.

فقالَ: وهلْ يمكنْ أنْ ينصرفَ هذا البركانُ المتحققُ الوُقوع بهذا الكلام؟ أحضروا لي هؤلاءِ المسلمينَ.

فقال لهم: إنَّ البركانَ سينفجرُ في ساعة كذا منْ يومِ كذا كما رصدتْ الأجهزةُ ذلك، وكما صوَّرت الغليانَ تحت القِشْرةِ الأرضيَّةِ في اتجاهِهِ إلى أعلى الذي لا يمكنُ أن يتراجعَ قط.

فقالَ المسلمونَ: لكنَّنا نؤمنُ أنَّ الأرضَ لله، والسَّماءَ للهِ، والكونَ للهِ، فالخَلقُ خَلْقُه، والأمرُ أمرُه، والحُكْمُ حكْمُه، والقضاءُ قضاؤُه، فلا يكونُ شيءٌ في كونِهِ إلا بأمره، ولا يحدُثُ شيء في مُلكِهِ إلا بإذنِهِ، فإن شاءَ انفجرَ البركانُ، وإنْ لم يشأْ لم ينفجر.

(١) راجع كتاب «إلى الذي سأل أين الله» ص١٥٩، والقُمُر: بضم القاف والميم.

فقالَ: افعلُوا ما بَدا لكُمْ، وإنْ لَمْ ينفجرِ الْبُركانُ دخلتُ معكُم في دينِكمْ.

فذهب المسلمون إلى مساجدهم يُهْرَعُونَ إلى ربهم بالتَّضرّع والدعاء راجينَ منهُ - سبحان - أن يدفَعَ عنهم هذا البلاء، وألا يُخْزِيَهُمْ أمام هذا الرجلِ المنكرِ الجاحدِ.

وجاءتْ ساعةُ الصفْرِ، والجميعُ في انتظارِ الانفجارِ منَ المصورينَ والصَّحَفيين، والأقمارُ الصناعيةُ أرسلتْ أشعتها للتصوير، ولكنَّ المفاجأةَ الكبرى أنَّ البركانَ لم ينفجرْ، ومرَّ الوقتُ المحدَّدُ ولم ينفجر، ومرَّ يوم ويومان وثلاثة ولمْ ينفجرِ البركانُ؛ فأعلنَ المهندسُ إسلامَه وشَهِدَ أن «لا إله إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ الله».

* * *

القرودُ تقيمُ حداً من حُدودِ اللهِ

منَ المعلومِ أنَّ القرودَ حيوانات عجيبة تصْدُر منها أفعال غريبة تَدل علىٰ عقْل وذَكَاء في بعضِ الأحيانِ.

وحركاتُ القرودِ مشهورة معروفة، لكنَّنا اليومَ سنتناولُ حَدثًا هامًا سجَّله لنا التاريخُ ليعتبرَ به البشرُ، فمنَ المعلومِ أنَّ القرودَ يحتفظُ كلٌّ منهم بزوجتِهِ ولا يعتدي عليها آخَرُ، وهم يختلفونَ في ذلكَ عن كثيرٍ منَ الحيوانات.

فحدثَ في يوم منَ الأيَّامِ أنَّ قِرْدًا عجوزًا خانتْهُ زوجتُهُ الشَّابَّةُ معَ قِرْد آخر شَاب، فاجتمعتْ عليهما القرودُ وأقامُوا عليهما حَدَّ الرَّجْم فرجَمُوهما بالحجارةِ حتَّىٰ ماتَا، والقصَّةُ رواها البخاري في «صحيحه» والإسْمَاعيليّ في «المستخرج»، وإليك نصها:

«عن عيسىٰ بن حطَّانَ قالَ: دخلتُ مسجدَ الكُوفةِ، فإذا عمروُ بن ميمون الأَوْدي جالسٌ وعندَهُ ناس فقالَ لهُ رجُل: حدثْنا بأعجَب شيء رأيتَه في الجاهلية.

قال: كنت في حرْثٍ لأهْلِ اليمنِ، فرأيتُ قرودًا كثيرةً قَد اجْتَمَعنَ، قال: فرأيتُ قِرْدًا وقِرْدةً اضطجَعَا، ثمَّ أدخَلَت القِرْدة يَدَها تحتَ عُنُقِ القِرْدِ واعْتَنَقَتْهَا، ثم ناما فجاءَ قرد فَغَمَزَها منْ تَحْتِ رأسها، فاسْتَلَّتْ يَدَها منْ تحت رأسِ القِرْدِ، ثمَّ انْطَلَقَتْ معَهُ غيرَ بعيدِ، فنكحَهَا، وأنا أنظرَ، ثمَّ رَجَعَتْ إلىٰ مضجَعها.

فَذَهَبَتْ تُدْخل يدها تحت عنق القرد كما كانتْ فانْتَبَه القردُ، فقامَ إليها فَشَمَّ دُبُرَها، فاجتمعتِ القرَدَةُ فجعل يشيرُ إِلَيْها، فتفرَّقتِ القِرَدَةُ، فلمْ ألبثْ أنْ

جِيء بذلكَ القِرْدِ بعينه، أعرِفهُ، فانطلقوا بها وبالقردِ إلىٰ موضعِ كثيرِ الرمْلِ، فحفرُوا لهما حَفِيرة، فجعلوهُمَا فيها، ثمَّ رَجَموهما حتَّىٰ قتلُوهما، واللهِ لَقَدْ رأيتُ الرَّجْمَ قَبْلَ أنْ يَبْعَثَ اللهُ محمداً ﷺ»[1].

وفي روايةِ البخاري: أنَّ عمروُ بن مَيْمُون رَجَمَهُمَا مَعَهُمْ.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري مختصراً في مناقب الأنصار، باب القسامة في الجاهلية، وعزاه الحافظ في الفتح (٧/ ١٩٦) للإسماعيلي، هو في «التاريخ الكبير» للبخاري (٦/ الترجمة رقم (٢٦٥٩) وهو في «تهذيب الكمال» (٢٢/ ٢٦٥) ومنه نقلت.

النمل يعاقب الكذاب بالإعدام

قال ابن القيم رحمه الله:

النملُ منْ أهدىٰ الحَيوانات، وهدَايتُها منْ أعْجَب شيءٍ، فإنَّ النَّملةَ الصغيرةَ تخرُجُ منْ بَيْتها وتطلُبُ قُوتها، وإنْ بعُدتْ عليها الطريقُ، فإذا ظفرَتْ به حملَتْهُ وساقَتْهُ في طُرُق معْوَجَّة بعيدة ذَات صُعُود وهُبُوط في غاية من التَّوَعر حتىٰ تصِلَ إلىٰ بُيوتها فتَخْزُنَ فيها أقواتها في وَقْت الإمكان، فإذا خزَنَتْها عَمَدَتْ إلىٰ ما كانَ ينْبُتُ منها فَفَلَقَتْهُ فلْقَتَيْنِ لئلا ينبُتَ، فإنْ كانَ يَنْبتُ معَ فَلْقه باثْنَتَيْن فلَقَتْهُ بأربعة.

فإذا أصابهُ بَلَل وخافتْ عليه العَفَنَ والفَسَادَ انتظرَتْ به يومًا ذا شَمْس فخرجَتْ به فنَشَرَتْهُ علىٰ أبواب بُيُوتِها ثُمَّ أعادَتْه إلَيْها ولا تتغذىٰ منها نملة مِمَّا جمعَهُ غيرُها[1]. اهـ.

وقال رحمه الله:

ولقدْ حدَّثني أنَّ نملةً خرجتْ منْ بيتها فصادفَتْ شقَّ جرَادَة فحاولَتْ أن تحملَهُ فلم تُطِقْ، فذهبَتْ وجاءَتْ معها بأعوان يحملْنَهُ معهَا، قال: فرفَعْتُ ذلكَ منَ الأرضِ فطافَتْ في مكانه فلم تجدْهُ فانصرفوا وتركُوها.

قالَ: فوضعْتُه فعادَتْ تُحاولُ حَمْلَه فلمْ تقدرْ فذهبَتْ وجاءَتْ بِهِمْ فَرَفَعْتُهُ، فطافَتْ فلمْ تجدْه فانصرفوا.

قال: فَعَلْتُ ذلك مراراً، فلمَّا كانَ في المرَّة الأُخْرىٰ استدَارَ النَّمْلُ حَلْقَةً ووضعوها في وَسَطِهَا، وقطَّعُوها عُضْوًا عُضْوًا.

قالَ شيخُنا[2] - وقد حكيتُ لهُ هَذه الحكايةَ - فقال: هذه النَّمْلُ فَطَرَها اللهُ علىٰ قُبْح الكذبِ وعقوبَةِ الكذَّاب. اهـ[3].

(١) شفاء العليل (١ / ١٨٨).

(٢) يعني شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية.

(٣) شفاء العليل (١ / ١٩٠).

الفأرة وعلم الكيمياء

قالَ ابنُ القيم رحمَهُ اللهُ:

ومنْ عجيبِ أمْرِ الفأرةِ أنَّها إذا شَرِبت منَ الزَّيتِ الَّذي في أعلى الجرَّة فنقَصَ وعَزَّ عليها الوصولُ إليه ذهبت وحملتْ في أفواهِها ماءً وصبَّتْه في الجرَّة (فينزِلُ الماءُ إلى أسفلَ ويرتفعُ الزيتُ إلى أعلى لأنَّ كثافةَ الزيتِ أقل منْ كثافة الماء) فحينئذ تشرَبُ منْه[1] ا. هـ.

فَمَنْ أعلمَ الفأرَةَ أنَّ كثافة الزيتِ أقل مِنْ كثافةِ الماء؟

الذي أعلَمَها هُو الذي خلقَها وفطرَها على تحصيلِ رزْقِها.

يَا مَنْ يَرَى مَا في الضَّمِيرِ ويَسْمَعُ ... أَنْتَ المُعدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرَجَّى للشَّدائدِ كُلِّها ... يَا مَنْ إليْهِ المُشْتَكَى والمَفْزَعُ
يَا مَنْ خَزائنُ رِزْقِه في قَوْلِ كُنْ ... امْنُنْ فَإنَّ الخَيْرَ عنْدكَ أجْمَعُ
مَا لِي سِوَى قَرْعِي لِبَابكَ حِيلةٌ ... فَلَئنْ رَدَدْتَ فَأيَّ بَابٍ أقْرَعُ؟
ومَنِ الَّذي أدْعُو وأهْتفُ باسْمه ... إنْ كَانَ فَضْلُكَ عَنْ فَقيرِكَ يُمْنَعُ؟
حَاشَا لجُودكَ أنْ يُقَنِّطَ عَاصِيًا ... الفَضْلُ أجْزَلُ والمَوَاهِبُ أوْسَعُ[2]

* * *

(١) شفاء العليل (١/ ٢٠٠) وما بين القوسين ليس من كلامه.

(٢) وفيات الأعيان (٣/ ١٤٣).

قصة إسلام العالم التايلاندي «تاجاثات تاجاسون»

إِنَّهُ البروفيسور «تاجاثات تاجاسون» رئيسُ قِسْمِ التشريح والأجنَّةِ في جامعةِ «شاينج ماي» بتايلاند، ثمَّ أصبحَ عميدًا لكلية الطب بها.

قامَ بدعوته فضيلةُ الشيخ؟ عبدُ المجيدِ الزِنْداني اليمني - حفظهُ اللهُ - حيثُ عَرَضَ عليهِ بعضَ الآياتِ والأحاديثِ المتَعَلقَةِ بمجال تخصصِهِ في علمِ التشريحِ.

فردَّ البروفيسور تاجاسون قائلاً: ونحنُ كذلكَ يوجدُ لدينَا في كُتُبنا المقدَّسةِ أوصاف دقيقة لأطوارِ الجنين.

فقالَ الزِّنْداني: نحنُ بشوق لمعرفةِ هذهِ الأوصاف فنريدُ أن نطَّلعَ على ما كُتِبَ في هذه الكتبِ

وعندما عادَ بعدَ عام كامل سألُوهُ عمَّا وعدَهم به، فأجابَ تاجاسون قائلاً: أعتذرُ لكُمْ عنْ ذلكَ لأنَّني كنتُ قدْ ذكرتُ لكُمْ ذلكَ دونَ تثبت، ولمَّا بحثْتُ في كُتُبنا المقدسَّة لم أَجدْ شيئًا ممَّا ذكرتُ لكم.

فأعطَوْه محاضَرَةً للدكتور «كيث مور» بعُنْوان «مُطَابَقَةُ علْمِ الأَجنَّةِ لِمَا في القُرْآن وَالسنَة» وبعْدَما اطَّلَعَ على هذه المحاضرة انْدَهَشَ جداً.

ثمَّ قالُوا لهُ: بصفَتِكَ مُتَخَصِّصًا في عِلْمِ التَّشْريحِ، نرْجو الإجابَةَ عن هذا السؤَالِ.

قال: ما هو؟

قالُوا: أينَ يُوجَدُ مستقبِلُ الإحْسَاسِ بالألم في جسمِ الإنسانِ؟

قالَ: يوجدُ في الجلدِ في أطرافِ الأعصابِ، فإذا احترقَ الجلدُ كاملاً دُمرَتِ الأعصابُ الحاسَّةُ فلا يشعُرُ الإنسانُ بعدَ ذلكَ بالألَمِ.

قالُوا: متى اكْتَشَفَ العُلَماءُ هذا الاكْتِشَافَ؟

قالَ: قريبًا جداً، بعْدَ تقدمِ الأجهزةِ، والأشعاتِ الحديثةِ.

قَالوا: لكنَّ القُرآنَ قدْ أخبَرَ بذلك قَبْلَ ألف وأربعمائةِ عَامٍ.

قالَ : أينَ ذلكَ؟

فَقَرؤوا عليه الآيةَ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: ٥٦].

ثُمَّ قَامَ المترجمُ فترجمَ له معانيَ الآيةِ بالإنجليزيةِ، وبيَّن له أنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - يعذبُ الكفَّار بالنَّارِ يومَ القيامةِ، فإذا احْترقتْ جلودُهم توقَّفَ الإحساسَ بالألَمِ فيخْلُق اللهُ لهُمْ جلوداً أخرىٰ ليستَمِرَّ الإحساسُ بالألمِ ﴿ **لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** ﴾.

فقالُوا لَهُ: هلْ يمكنُ أن يكُونَ محمد ﷺ تلقَّىٰ هذهِ العلومَ منْ مَصْدَرٍ بَشَرِي؟

قالَ: لا يُمْكن لأنَّ العلمَ آنذاكَ لم يكن يَعرفُ شيئًا عنْ ذلكَ.

قالُوا: إذًا منْ أينَ تلقَّاها؟

قالَ: أنا أسألُكُم أنتُم منْ أينَ تلقَّىٰ محمد هذهِ العُلُوم؟

قالُوا: منْ عنْد الله سبحانَه وتعالىٰ.

قالَ: ومَنْ هُوَ اللهُ؟!!!

قالوا: إنَّه الخالقُ لهذا الوُجودِ.

إذا رأيتَ الحكمةَ دلَّتْك علىٰ وُجودِ حَكيم.

وإذا رأيتَ العلْم في هذا الوُجود دلَّكَ على أنَّه من صُنع العليم.

وإذا رأيتَ الرَّحمةَ في الوجودِ دلَّتْك على أنَّها منْ صُنع الرَّحيم.

ثُمَّ شرحُوا لهُ معنى الإسلام، فوافَقَهُم عقْليًا لكنَّه لمْ يُعْلنْ إسلامَه.

ثمَّ عاد إلى بلاده وألقى عدَّة محاضرات عَن هذه الظَّاهِرَة «ظَاهِرَةِ سَبْقِ الْقُرْآنِ لِلْعِلْمِ الْحَدِيثِ» فأسلمَ خمسة مِن طُلاَّبه.

ثمَّ جاءَ البروفيسور «تاجاسون» لحضُورِ المؤْتمرِ الطبي السعُودي الثَّامنِ واستَمَعَ في الصَّالةِ الكبرى التي خُصصَتْ للإعْجازِ الطبي في القُرْآنِ والسنَّة طوَالَ أربعة أيَّام لعدد منَ الأساتذَة المسلمينَ وغير المسلمينَ يتحدثُونَ عن هذه الظَّاهرة «الإِعْجازِ الْعِلْمِي في الْقُرْآنِ وَالسنَّة».

البروفيسور يعلن إسلامه:

وَفي الجلسة الختَاميَّة قامَ البروفيسور «تاجاسون» يقولُ: في السَّنَوات الثَّلاثة الأخيرة أصبحْتُ مُهْتمًا بتَرْجَمة معاني القُرآنِ الكريمِ الذي أعطاهُ لي الشيخُ عبدُ المجيد الزِّنْداني ومحاضرات البروفيسور «كيث مور» التي طَلَبَ مني الشَّيخُ الزِّنْداني أن أتَرْجمهَا إلى اللغة التايلاندية وأنْ ألقيَ فيها بعضَ المحاضرات للمسلمينَ في تايلاند، فأجبتُهُ إلى طَلَبِه، ويُمكنكُمْ أن تَرَوْا هَذَا في الشَّريط الذي أعطيتُه في دراستي.

فإنَّني أومنُ أنَّ كُلَّ شيء ذُكِرَ في القرآن منذُ ١٤٠٠ سنة لا بدَّ أن يكونَ صحيحًا، ويمكن إثباتُهُ بالوسائل العلْميَّة، وحيثُ إنَّ النبيَّ محمدًا لم يكنْ يستطيعُ القراءةَ والكتابةَ فلا بدَّ أنْ يكونَ قدْ جاءَ بهذه الحقائقِ عنْ طريقِ وحْيٍ منْ خالق عليم بكل شيء ولذلكَ فإنَّني أعْتَقدُ أنَّه قدْ حانَ الوقتُ لأنْ «أشهدَ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ الله».

ثم كرَّر الشَّهادتَيْن بالإنجليزيَّة مرَّةً وبالعَرَبية أُخْرَى.

فانطلقَتْ هذه الكلماتُ المضيئةُ، وهذه الشهادةُ الحَقَّةُ بينَ تكبيراتِ الحاضرينَ ودموع المشاهدين(١).

فالحمدُ للهِ الذي صَدَقَ وعدَه، ونصرَ عبدَه، وأعزَّ جُندَه، وهزمَ الأحزابَ وحدَه.

وصدقَ اللهُ القائلُ: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣].

* * *

(١) إنه الحق (٣٠)، مفرغ من شريط فيديو بنفس العنوان توزيع هيئة الإعجاز العلمي بمكة المكرمة.

قصيدة(١) في التفكر في مخلوقات الله

لله في الآفَاقِ آيَاتٌ لَعـ ... لَّ أقلَّهَا هُوَ مَا إلَيْهِ هَدَاكَا

ولَعَلَّ مَا في النفسِ منْ آيَاته ... عَجَبٌ عُجَابٌ لَوْ تَرَى عَيْنَاكَا

وَالكَوْنُ مَشْحُونٌ بِأَسْرَارٍ إذَا ... حَاوَلْتَ تَفسِيراً لَهَا أَعْيَاكَا

قُلْ للطَّبِيبِ تَخَطَّفَتْهُ يَدُ الرَّدَى ... يَا شَافِيَ الأَمْرَاضِ مَنْ أَرْدَاكَا؟

قُلْ لِلْمَرِيضِ نَجَا وَعُوفِي بَعْدَمَا ... عَجَزَتْ فنُونُ الطِّبِّ مَنْ عَافَاكَا؟

قُلْ للصَّحِيحِ يَمُوتُ لاَ منْ علَّةٍ ... مَنْ بِالمَنَايَا يَا صَحِيحُ دَهَاكَا؟

قُلْ لِلْجَنِينِ يَعِيشُ مَعْزُولاً بِلاَ ... رَاعٍ وَمَرْعَى: مَا الذي يَرْعَاكَا؟

وَإِذَا تَرَى الثُّعْبَانَ يَنفثُ سَمَّهُ ... فَاسْأَلْهُ مَنْ ذَا بِالسُّمُومِ حَشَاكَا؟

وَاسْأَلْهُ كَيْفَ تَعِيشُ يَا ثُعْبَانُ أَوْ ... تَحْيَا وَهَذَا السَّمُّ يَمْلأُ فَاكَا؟

وَاسْأَلْ بُطُونَ النَّحْلِ كَيْفَ تَقَاطَرَتْ ... شَهْداً وَقُلْ للشَّهْدِ مَنْ حَلاَّكَا؟

بَلْ سَائِلِ اللَّبَنَ المُصَفَّى كَانَ بَيْـ ... ـنَ دَمٍ وَفَرْثٍ مَا الَّذِي صَفَّاكَا؟

قُلْ لِلْهَوَاءِ تُحِسُّهُ الأَيْدِي وَيَخْـ ... ـفَى عَنْ عُيُونِ النَّاسِ مَنْ أَخْفَاكَا؟

وَإِذَا رَأَيْتَ البَدْرَ يَسْرِي نَاشِراً ... أَنْوَارَهُ فَاسْأَلْهُ: مَنْ أَسْرَاكَا؟

وَاسْأَلْ شُعَاعَ الشَّمْسِ يَدْنُو وَهْيَ أَبْـ ... ـعَدُ كُلِّ شَيْءٍ: مَا الَّذِي أَدْنَاكَا؟

قُلْ لِلْمَرِيرِ منَ الثِّمَارِ مَنِ الَّذِي ... بِالمُرِّ مِنْ دُونِ الثِّمَارِ غَذَاكَا؟

وَإِذَا رَأَيْتَ النَّارَ شَبَّ لَهِيبُهَا ... فَاسْأَلْ لَهِيبَ النَّارِ: مَنْ أَوْرَاكَا؟

وَإِذَا تَرَى الجَبَلَ الأَشَمَّ مُنَاطِحاً ... قِمَمَ السَّحَابِ فَسَلْهُ: مَنْ أَرْسَاكَا؟

---

(١) القصيدة منسوبة للشاعر علي بديوي.

وإذا ترى صخرًا تفجَّر بالميا ... ه فَسَلْهُ: مَنْ بالماء شقّ صفاكا؟
وإذا رأيتَ النَّهرَ بالعذب الزُّلا ... ل جرى فسَلْهُ: مَن الَّذي أجراكَ؟
وإذا رأيتَ البحرَ بالملح الأُجا ... ج طغى فسَلْهُ: مَن الَّذي أطغاكا؟
وإذا رأيتَ اللَّيلَ يغشى داجيًا ... فاسألهُ: مَنْ يا لَيلُ حاكَ دُجاكا؟
وإذا رأيتَ الصُّبحَ يُسْفرُ ضاحيًا ... فاسألْهُ: مَنْ يا صُبحُ صاغَ ضُحاكا؟
هذي عجائبُ طالما أُخذتْ بها ... عيناكَ وانفتحتْ بها أُذناكا
ومَن الَّذي تعصي ويَغْفرُ دائمًا ... ومَن الَّذي تنسى ولا ينساكا؟
يأيُّها الإنسانُ مهلاً ما الَّذي ... بالله جلَّ جلالُه أغراكا؟
يا مُدركَ الأبصار والأبصارُ لا ... تدري لهُ ولكُنهِه إدراكا
إنْ لم تكُنْ عيني تراكَ فإنَّني ... في كُلِّ شيءٍ أستبينُ علاكا
يا مُنبتَ الأزهار عاطرةَ الشَّذا ... هذا الشَّذا الفوَّاحُ نفْخُ شذاكا
فاقْبلْ دُعائي واسْتجبْ لرجاوتي ... ما خابَ يومًا مَنْ دعا ورجاكا

* * *

خاتمة

وَقْفَةٌ صادقةٌ:

وبعدَ هذا التَّطْواف في صَفْحة الكون، يَنبغي لكَ أخي المسلمَ أنْ تقفَ معَ نفسك وقْفَةً صادقةً تُحاسبُ فيها نفسَك، وتُراقبُ فيها ربَّك، وتُعدلُ فيها مَسيرتَكَ إلى الله، فتَتَحوَّلُ منَ الغَفْلَة إلى اليقظة، ومنَ الكَسَل إلى الجد والنَّشاط، ومنَ التَّكالب على الدنيا إلى المسارعَة إلى الآخرة، ولْتَعلَمْ يا عبدَ الله أنَّك الآنَ فوقَ الأرض وغدًا ستصيرُ تحت الأرض.

مَا لي رَأيْتُكَ تَطْمَئِنُّ	إِلى الحَيَاة وَتَرْكَنُ
يَا سَاكِنَ الحُجُرَات مَا	لَكَ غَيْرُ قَبْرِكَ مَسْكَنُ
فَالْيَومَ أَنْت مُكَاثِرٌ	وَمُفَاخِرٌ تَتَزَيَّن
وَغَدًا تَصِيرُ إلَى التُّرَا	ب مُحَنَّطٌ وَمكَفَن
أَحْدِثْ لِرَبِّكَ تَوْبَةً	فَسَبِيلُهَا لَكَ مُمْكِنُ
فَكَأَنَّ شَخْصَكَ لَمْ يَكُنْ	فِي النَّاس سَاعَةَ تُدفَنُ
وكَأَنَّ أَهْلَكَ قَدْ بَكَوْا	جَزَعًا عَلَيْكَ وَرَنَّوا
فَإِذَا مَضَى لَكَ جُمْعَةٌ	فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَحْزَنُوا
وَالنَّاسُ فِي غَفَلاتِهِمْ	وَرَحَى المَنِيَّة تَطْحَنُ

يا عبدَ الله: تذكَّرْ نفسَكَ وأنتَ على فراش الموت وحولَكَ الأهلُ والأصحابُ، والإخوانُ والأحبابُ لكنَّهم لا يملكونَ لكَ حولاً ولا طولاً، لا يملكونَ لك نَفْعًا ولا ضرًا، وأنتَ تُودعُ الدنْيا بنَظَرات، وتودعُ أطفالَكَ الصغارَ وأهلَك وعشيرتَك.. في ساعَة الفراق، وكأنَّكَ تقولُ لَهُم: يا أهلي يا أبْنَائي عمّرتُ في الدنيا طويلاً وجَمَعْتُ المالَ منْ حله وحَرامه، وبَنَيْتُ الدورَ وسكَنْتُ

القُصُورَ، ثمَّ ها أنا أرْحلُ عنها، لا آخذُ معي شيئًا.

- ثمّ تذكر نفسَك وأنتَ مُسَجّىً على فراشِ الموت وحولَك الأطبّاءُ والأحبّاء والأعزاءُ، يمُدَّ أحدهم يدَه إلى أنفك ليَتَيقَّنَ منْ تردد نفَسك، ويضَعُ أحدُهم يدَه على صدْرك ليَتحقّقَ منْ ضرَبَاتِ قلْبِكَ، ولكنْ هيهاتَ، لقدْ توقّفَ النَّفَسُ، وسكَنَ القلْبُ، وشخَصَت العَيْنَان، وامتدَّت الرجلان، ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

يَقْلِبُونَكَ على بطنِكَ فلا تستطيعُ أنْ تعْتَدلَ، وأُخْرَىٰ على ظَهْرِكَ فلا تتحركُ، وسالتِ الدموعُ من حولكَ، بكى أبناؤُك وحزِنَ أصدقاؤُكَ، وقاموا ليشتروا لكَ الكفنَ ويسخُنوا لكَ الماءَ ليغسلوكَ ويجهزوكَ، وفي الترابِ يضعوكَ، وفي حُفْرة ضيقة يتركوكَ.

- ثمّ تذكَّرْ نفسَك وأنتَ على خَشَبَةِ الغُسْلِ مَوضوع.

- أين يَدَاكَ القويّتَانِ اللتان كنتَ تبطِشُ بِهِما في الدنْيا؟
قَدْ ماتَتَا.

- أينَ رِجْلاك القويتانِ اللتان كنتَ تدب بهما على ظهر الدنيا؟
قد ضَعُفَتَا.

- أينَ عيناكَ الجميلتانِ اللتان كنتَ تنظُرُ بهما إلى الحلال والحرام؟
قَدْ عَميتَا.

- أينَ لِسانُكَ الذي كانَ لا يَفْتُرُ منَ الكلامِ، والسخريةِ والاستِهْزاءِ؟ قد يَبِس.

- أينَ بطنُكَ الذي امتلأَ ممَّا لذَّ وطابَ؟ قد خَنَعَ.

- أينَ قُوَّتك... أينَ سُلْطانُك... أينَ جَاهُك؟

ـأينَ أموالُك . . . أينَ عِماراتُك . . . أين تِجَاراتُك؟

ـأينَ عِزُّكَ . . . أينَ أنتَ، وإلى أينَ ذاهب؟

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠].

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا ... فَأَيْنَ الْمُعَظَّمُ وَالْمُحْتَقَرْ

وَأَيْنَ الْمُدِلُّ بِسُلْطَانِه ... وَأَيْنَ الْعَظِيمُ إِذَا مَا افْتَخَرْ؟!

تَفَانَوْا جَمِيعًا فَمَا مُخْبِرٌ ... وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الْخَبَرْ

فَيَا سَائِلِي عَنْ أُنَاسٍ مَضَوْا ... أَلا لَكَ فِيمَا مَضَى مُعْتَبَرْ؟!

ـثُمَّ تذكَّرْ نفسَك وأنتَ أمامَ المصلينَ وهمْ يُصَلونَ عليكَ صلاةَ الجَنَازَة، وأنتَ لا تستطيعُ أنْ تخرجَ فتصلِّي معَهُمْ بل قد طُويَتْ صحيفَتُك، وانقَطَعَ أثَرُكَ وانتهى أجلُكَ، وهم يترحَّمُونَ عليْكَ، ويستَغْفِرونَ لَك.

ـ ثم تذكَّرْ نفسكَ وقد حُمِلْتَ على الأَعْناق، ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٩، ٣٠].

ـثمّ تذكَّرْ نفسَك وقد حَفَروا لكَ في الأرضِ حُفْرةً ضيقةً، ووضعُوكَ فيها وحيداً فريداً، ثمَّ هَالوا عَلَيْكَ التّرابَ وفارقَكَ الأهلُ والأحبابُ.

ـنادِ بأعْلَى صوتك ـ إن استطعتَ ـ: يا زوجَتِي يا مَنْ كُنْتِ تَزْعُمينَ محبَّتي، هلاَّ بِتِ مَعي أَوَّلَ ليلة في قَبْري؟

ـنادِ بأعْلَى صوتك: يا بُنَيَّ يا مَنْ كنتَ تزعُمُ محبَّتي هلا آنستني في قَبْري؟.

يا أحْبَابي . . يا أصْحَابي . . يا إِخْواني تَتْركوني وحيداً، وفي ظلمةِ القبرِ فريداً؟!

ـثُمَّ تذكَّرْ نفسَك وقدْ جاءَك ملكانِ شَدِيدا الانْتِهَار فيُقْعدانِكَ ويسأَلانِكَ:

ـمن ربك؟ ـما دِينُكَ؟ ـمن نَبِيُّك؟

فلا يَرُد إلا ذو الإيمان الرَّاسخ ، والعقيدة الثابتة .

الذي كـانَ يحـافظُ علىٰ الصلـوات ، ويقـومُ في الظُّلُمـات ، ويذكُـرُ الله في الخلوات ويراقب رب الأرض والسموات . أما ضعيف الإيمان . . . . مهزوز العقيـدة . . . . الذي كـان لا يعرف المسـجدَ إلا يومَ الجُمُعةِ . . فيتردَّدُ . . ويتخوَّفُ . ويرتَعدُ .

فَيَا فرْحَةَ مَنْ ثبتَ وأجابَ ، وتذكَّرَ الجوابَ .

ويا حسرةَ من أُمْسِكَ لسانُهُ ، وارتعدَتْ فرائصهُ .

فيا تُرَىٰ أي الرَّجُلين أنتَ ، ومنْ أي الحزبَيْنِ أنتَ؟

ـ واعلَمْ أنَّك حينمَا توضعُ في قَبْركَ إمَّا أن يُفْسحَ لَكَ فيهِ مَدَّ البصرِ ، ويُفْتَح لكَ باب فتَنظُرَ منهُ إلىٰ الجنَّة فترىٰ النعيمَ المقيمَ والحُورَ والقصورَ ، فتقولَ : لمَنْ هذا؟ فيُقالُ : هذا منزلُك في الجنَّة ، فتقولُ : أريدُ أنْ أدخُلَه فيُقالُ لك : أمَّا الآنَ فلا . ويأتيكَ منْ نعيمِ الجنَّة وحُبورها وسُرورها ما يُفرحُكَ ويُسعدُكَ ، فتقولُ : رب أقمِ السَّاعةَ لكَيْ أدخُلَ مَنْزِلي في الجنَّة ، وأتمتَّعَ بقصُوري فيها .

وإمَّا أنْ يُفتَح لك باب إلىٰ النَّار ـ نعوذُ بالله من غَضَبِ الجَبَّار ـ فترىٰ النَّارَ يَحْطِمُ بعَضُها بَعْضًا ، ويأكلُ بعضُها بعضًا ، وترىٰ الحميمَ يغْلِي ، والضَّريعَ ، والحيَّات تتلوَّىٰ تُريد أن تنقضَّ عليكَ في قبْركَ ، فيقالُ لك : هذا منزِلُكَ في النَّار فتصرخُ وتقولُ : يا رب لا تقمِ السَّاعَةَ . . لا تُقمِ السَّاعَةَ ، ثُمَّ يأتيكَ من حرها ولهيبِها وعذَابِها ما يُشْقِيكَ في قبْرِك ويؤلِمُكَ في لحْدِكَ .

ـ فاخترْ لنفسك يا عبدَ الله أيَّ الدارَيْنِ : دارَ السّعادة الأبدية ، والنعيمِ المقيمِ ، والراحة النفسية ، ورضا رب العالمينَ .

دارٌ لا يَبْلَىٰ فيها شبابُك ، ولا يَمَلُّ فيها قلبُك ، ولا يَشْقَىٰ فيها بدنُك .

لذّة . . . نَعيم . . . حُور . . . طَعَام . . . شَرَاب . . . قُصُور . . . مِسْك . . .

طيب . . . ذَهَب . . . فضَّة . . . زيَارات للأنبياء . . . للصَّالحينَ . . . للمُؤْمنينَ، ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١].

ـ أَمْ تختارُ لنفسكَ دارَ الشَّقَاوةِ والخسارة.

طعامُكَ فيها نار . . . وشرابُك نار . . . وفرَاشُك نار . . . وغطاؤُك نار . . . وظلالُك نار . . . ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [السجدة: ٢٠].

فابْدأْ مِنَ الآن:

ـ حَافظْ على الصَّلَوَاتِ في جَمَاعة.

ـ احفَظْ لسانَك من الغِيبةِ[1] والنَّميمةِ.

ـ صحح عقيدتَك . . تُبْ إلى ربك . . عُدْ إلى رُشْدك . . جدِّدْ إيمانَك . . . غُضَّ بصرَك . . . طهرْ بطنَك . . . قمْ في ثُلُث الليل الآخر . . . واسجُدْ لربك . . . واشْكُ ذنْبَك . . . وأظهرْ ذُلّك . . . وارْتَمِ عَلَى أعْتَابه فإنَّه كريم لا يرُد داعيًا، ولا يطْرُدُ مُسْتغيثًا.

يَا رَبِّ إنْ عَظُمَتْ ذُنُوبي كَثْرةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إنْ كَانَ لاَ يَرْجُوكَ إلا مُحْسِنٌ ... مَنْ ذَا الَّذي يَدْعُو ويَرْجُو المُجْرِمُ
مَا لي إلَيْكَ وَسِيلَةٌ إلا الرَّجَا ... وَجَمِيلُ عَفوك ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمُ

اللَّهُمَّ اسْتُرْ عيوبَنَا، واغفِرْ ذنوبَنَا، وطهرْ قلوبنا، ونَقِّ ضمائرَنا . . . وهذبْ أخلاقَنَا، وقو إيمانَنا، وسددْ عندَ السؤالِ جوابَنا، وإلى عملِ أهل الجنَّة اهْدِنا،

---

(١) راجع رسالة «فاكهة المجالس».

وَتَوَفَّنا وأنتَ راضٍ عنَها، واحشُرْنا في زُمْرة نبينا ﷺ.

وسبحانَك اللَّهُمَّ وبحمدِك، أشهَدُ أن لا إله إلا أنت، أستغْفرُكَ وأتوبُ إليك.

وكتبهُ

الفقيرُ إلى عفو ربهِ

وحيد بالي

منشأة عباس[1] في ١٩ رجب ١٤١٧ هـ

---

(١) وكانت كتابة الخاتمة بعد ثلاثة أيام من موت جارنا العزيز «علي عثمان» رحمه الله رحمة واسعة.





المحاضرة الثانية

تيسير الكريم العلي

في

وصف حوض النبي ﷺ

تأليف

وحيد بن عبد السلام بالي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعةٌ، وكلَ بدعة ضلالةٌ، وكلَّ ضلالة في النار.

فهذه رسالة لطيفة جمعتها في حوض نبينا ﷺ، وتوخيت فيها ذكر الأحاديث الصحيحة، وأضربت صفحًا عن كل ما هو ضعيف إيمانًا مني بأن في الأحاديث الصحيحة غنىً عن غيرها من الضعيف في الموضع.

وكانت الأسباب الدافعة على جمع هذه الرسالة:

١ - تذكير المسلمين بفضيلة من فضائل النبي ﷺ.

٢ - تقرير أمر من أمور العقيدة الإسلامية.

٣ - أن تكون دافعًا لإخواني المسلمين في متابعة النبي ﷺ، والاستنان بسنته حتى يشربوا من حوضه يوم العطش الأكبر.

وأسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا الإخلاص في أقوالنا، وأفعالنا، وحركاتنا، وسكناتنا.

وكتبه

وحيد بن عبد السلام بالي

مكة المكرمة

في ذي الحجة سنة ١٤٠٨هـ

النوايا التي يمكن أن يستحضرها المحاضر قبل إلقاء هذه المحاضرة

أولاً: النوايا العامة:

١ - ينوي القيام بتبليغ الناس شيئًا من دين الله امتثالاً لقول النبي ﷺ: «بلِّغوا عني ولو آية» رواه البخاري.

٢ - رجاء الحصول علي ثواب مجلس العلم[1].

٣ - رجاء أن يرجع من مجلسه ذلك مغفورًا له[2].

٤ - ينوي تكثير سواد المسلمين والالتقاء بعباد الله المؤمنين.

٥ - ينوي الاعتكاف في المسجد مدة المحاضرة - عند من يرىٰ جواز ذلك من الفقهاء - لأن الاعتكاف هو الانقطاع مدّة لله في بيت الله.

٦ - رجاء الحصول علىٰ أجر الخطوات إلىٰ المسجد الذي سيلقي فيه المحاضرة[3].

---

(١) روىٰ مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفت الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

(٢) روىٰ الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٧) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم علىٰ ذكر، فتفرقوا عنه إلا قيل لهم قوموا مغفورًا لكم»، ومجالس الذكر هي المجالس التي تذكر بالله وبآياته وأحكام شرعه ونحو ذلك.

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من غدا إلىٰ المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».

وفي صحيح مسلم عنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته ثم مضىٰ إلىٰ بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرىٰ ترفع درجة».

٧ ـ رجاء الحصول على ثواب انتظار الصلاة بعد الصلاة، إذا كان سيلقي محاضرته مثلاً من المغرب إلى العشاء، أو من العصر إلى المغرب[١].

٨ ـ رجاء أن يهدي الله بسبب محاضرته رجلاً. فيأخذ مثل أجره[٢].

٩ ـ ينوي إرشاد السائلين، وتعليم المحتاجين، من خلال الرد على أسئلة المستفتين[٣].

١٠ ـ ينوي القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ إن وجد ما يقتضي ذلك[٤].

١١ ـ ينوي طلب النضرة المذكورة في قول النبي ﷺ: «**نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها**». رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

ـ ثم قد يفتح الله على المحاضر بنوايا صالحةٍ أخرى فيتضاعف أجره لقول النبي ﷺ: «**وإنما لكل امرئ ما نوى**». متفق عليه.

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال أحدكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة».

ـ وروى البخاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه».

(٢)، (٤) روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم».

ـ وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا».

(٣) روى الترمذي وصححه الألباني عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير».
وصلاة الملائكة الاستغفار.

ثانيًا: النوايا الخاصة:

يمكن للمحاضر أن ينوي بهذه المحاضرة أمورًا منها :

١ ـ تثبيت عقيدة الإيمان بحوض النبي ﷺ في قلوب المؤمنين .

٢ ـ تثبيت عقيدة الإيمان بالغيب في قلوب المؤمنين .

٣ ـ حث المسلمين على اتباع سنة سيد المرسلين ﷺ للفوز بالشرب من حوضه يوم القيامة .

٤ ـ تحذير المسلمين من البدع حتى لا يحرمون من الشرب من حوض النبي ﷺ .

عناصر المحاضرة:

١ ـ عقيدة الإيمان بالحوض .

٢ ـ سعة حوض النبي ﷺ .

٣ ـ عدد أباريق الحوض وأكوابه .

٤ ـ مكان الحوض .

٥ ـ أول من يرد الحوض .

٦ ـ هل لكل نبي حوض .

٧ ـ من الذي سيحرم من الشرب من الحوض .

٨ ـ من الذين سيشربون من الحوض .

* * *

الإيمان بالحوض

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢، ٣].

فالإيمان بالغيب هو أول صفة وصف الله بها عباده المؤمنين في كتابه الكريم.

ولذلك كان الإيمان بالغيب من أسس العقيدة الإسلامية، ومن ركائزها المتينة، التي عليها تقوم، وعلى أساسها ترتكز.

والغيب كل ما غاب عنا، وأخبرنا به الله عز وجل أو رسوله ﷺ، ومن ذلك الغيب الذي يجب أن نؤمن به الجنة والنار، والحساب والعقاب، والصراط والميزان، والشفاعة والحوض... وغير ذلك من الأمور الغيبية.

فالإيمان بحوض النبي ﷺ واجب، فقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن جمع من الصحابة بلغت حد التواتر.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى:

أحاديث الحوض صحيحة، والإيمان به فرض، والتصديق به من الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة. لا يُتأول ولا يُختلف فيه.

قال: وحديثه متواتر النقل رواه خلائق من الصحابة. اهـ[1]. ثم ذكر من رَوَوْهُ.

قال الحافظ - رحمه الله تعالى - بعد ما ذكر أسماء الصحابة الذين رووا أحاديث الحوض:

فجميع من ذكرهم عياض خمسة وعشرون نفسًا، وزاد عليه النووي ثلاثة،

---

(١) شرح النووي (١٥/ ٥٣).

وزدت عليهم أجمعين قدر ما ذكروه سواء، فزادت العدة على الخمسين.

قال: ولكثير من هؤلاء الصحابة في ذلك زيادة على الحديث الواحد كأبي هريرة، وأنس، وابن عباس، وأبي سعيد، وعبد الله بن عمرو.

قال: وأحاديثهم بعضها في مطلق ذكر الحوض، وفي صفته بعضها، وفيمن يَرِدُ عليه بعضها، وفيمن يُدْفَعُ عنه بعضها.

قال: وبلغني أن بعض المتأخرين وصلها إلى رواية ثمانين صحابيًّا[1]. اهـ.

* * *

(١) فتح الباري (١١/ ٤٦٩).

سعة حوض النبي ﷺ

حوض النبي ﷺ طوله مسيرة شهر بالراكب المسرع كما بين أيلة في الشام، وصنعاء في اليمن، وعرضه كطوله ـ يعني مربعًا.

١ ـ فعن حارثة بن وهب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ، وذكر الحوض فقال: **«كَما بَيْنَ المَدينَة وَصَنْعَاءَ»**(١).

قلت: يعني طول الحوض كما بين المدينة المنورة، وصنعاء التي في اليمن.

٢ ـ وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال:

«أمَامَكُمْ حَوْضٌ كَما بيْنَ جَرْبَاءَ وأذْرُحَ»(٢).

قلت: وجَرْبَاءُ وأذْرُح قريتان بالشام.

٣ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ قدْرَ حوضي كمَا بينَ أيلَةَ وصنعاء منْ اليمنِ، وإنَّ فيه منْ الأبَاريقِ كعَدَدِ نُجُومِ السَّماء»(٣).

قلت: وأيلة مدينة كانت بجوار العقبة المعروفة الآن في الأردن.

٤ ـ وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ﷺ:

«حَوضِي مَسيرَةُ شَهْر، مَاؤُهُ أبْيَضُ منْ اللَّبَن، وَريحُهُ أطيَبُ منْ المِسْك، وكِيزانُهُ كنُجُومِ السَّماء، منْ شَربَ منْهُ فلا يظْمأُ أبدًا»(٤).

---

(١) رواه البخاري (١١ / ٤٦٥ فتح)، ومسلم (١٥ / ٦٠ نووي).
(٢) رواه البخاري (١١ / ٤٦٣ فتح)، ومسلم (١٥ / ٦١ نووي).
(٣) رواه البخاري (١١ / ٤٦٤ فتح)، ومسلم (١٥ / ٦٤ نووي).
(٤) رواه البخاري (١١ / ٤٦٣ فتح)، ومسلم (١٥ / ٥٥ نووي).

قلت: مسيرة شهر، يعني للجواد المسرع.

وفي رواية لمسلم:

«حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سواءٌ، ومَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنْ الوَرِقِ، وريحُهُ أَطْيَبُ مِنْ المِسْكِ»[(١)].

قلت: ومعنىٰ زواياه سواء يعني عرضه كطوله (مربعًا) وماؤه أبيض من الوَرِق: يعني الفضة.

٥ ـ وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: صلىٰ رسول الله ﷺ علىٰ قَتْلَىٰ أُحُدٍ، ثم صعد المنبر كالمُوَدِّع للأحياء والأموات فقال:

«إنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، وإنَّ عَرْضَهُ لمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إلى الجُحْفَةِ، إنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعدي ولكنِّي أَخْشَى عليكمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنافَسُوا فيها، وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم»[(٢)].

قال عقبة:

فكانت آخر ما رأيت رسول الله ﷺ علىٰ المنبر.

معاني المفردات:

الفَرَطُ: هو الذي يتقدم الوارد ليصلح لهم الحياض والدِّلاءَ ونحوها من أمور الاستسقاء، فمعنىٰ فرطكم علىٰ الحوض: سابقكم إليه كالمهيئ له[(٣)].

الجُحْفَةُ: مكان بين مكة والمدينة. ويؤخذ من هذا الحديث أنه من سار علىٰ نهج النبي ﷺ، واسْتَنَّ بسنته، والتزم طريقته، ولم يتكالب علىٰ الدنيا، أو يتنافس فيها، وصبر، واحتسب شرب من حوض النبي ﷺ.

---

(١) رواه مسلم (١٥ / ٥٥ نووي).
(٢) رواه مسلم (١٥ / ٥٩ نووي).
(٣) شرح النووي (١٥ / ٥٣).

ماء الحوض

قد مر بنا سعةُ الحوض، وأنه مسيرة شهر بالجواد المسرع.

ولكن ما لون ماء الحوض؟ وما ريحه؟

١ ـ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال:

«حَوْضِي مَسيرَةُ شَهْرٍ، ماؤُهُ أَبْيَضُ منْ اللبَنِ، وريحُهُ أَطْيَبُ مِنْ المِسْك»(١).

ما أَجْمَلَ مَاءَهُ، وما أَطْيَبَ ريحَهُ، وكيف لا؟ وقد أعده الله تبارك وتعالى لحبيبه محمد ﷺ.

ولكن ما طعم هذا الماء الذي أعده الله لنبيه ﷺ؟

٢ ـ فعن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال:

«ماؤُهُ أشَدُّ بَياضًا منْ اللبَنِ، وأحْلَى منْ العَسَلِ»(٢).

٣ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال:

«إنَّ حَوْضِي أبْعَدُ منْ أيْلَةَ إلى عَدَنَ، لهُوَ أشَدُّ بياضًا منْ الثَّلْجِ، وأحْلَى من العسل باللبن، ولآنيتُه أكثرُ من عدد النجوم»(٣).

ولكن من أين يأتي هذا الماء؟ وهل يمكن أن ينتهي؟

٤ ـ فعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ سئل عن شراب الحوض؟ فقال: **«أشدُّ بياضًا من اللبنِ، وأحلى منْ العسل، يغتُّ فيه ميزابان يَمُدَّانه من**

---

(١) رواه البخاري (١١ / ٤٦٣ فتح)، ومسلم (١٥ / ٥٥ نووي).

(٢) رواه مسلم (١٥ / ٦٢ نووي).

(٣) صحيح الجامع [(٢ / ١٩٨) رقم (٢٠٥٤)].

الجنة: أحدهما منْ ذهبٍ والآخرُ من ورِقٍ»[1].

معاني المفردات:

يغت: يصب.

ميزابان: نهران.

ورَق: فضة.

*كَيف ينتهي ماؤه والنهران يصبان فيه من الجنة؟

بل كيف ينتهي والذي أعده هو الله رب العالمين؟

لا والله لن ينتهي أبداً، سيظل مكرمة للنبي ﷺ.

ولكن هل هذا الماء بارد أم ساخن؟

٥ ـفعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال:

«حَوْضِي كمَـا بيْنَ عَدَنَ وعَمَّانَ، أبْـرَدُ منْ الثَّلْجِ، وأحْلَى منْ العَسَلِ، وأطْيَبُ ريحًا منْ المسكِ»[2].

* * *

(١) رواه مسلم (١٥ / ٦٣ نووي).

(٢) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤ / ٤٢٠): رواه أحمد بإسناد حسن.

أباريق الحوض

ولكن كيف يشرب المؤمنون من الحوض؟، وما آنيته؟ هل هي أباريق؟ أم كيزان؟ أم أكواب؟ أم كلها مجتمعة، وما عددها؟ وما لونها؟

١ ـ عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**حَوْضي مَسيرَةُ شَهْر، ماؤُهُ أبيضُ من اللبن، وريحُهُ أطيبُ من المسك، وكيزانُهُ كنُجُومِ السَّماءِ، منْ شربَ منها فلا يظمأُ أبدًا**»[1].

كيزانه كنجوم السماء: يعني في الكثرة، وقيل: في اللون، يعني تضيء وتلمع كنجوم السماء.

٢ ـ عن حارثة بن وهب ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع النبي ﷺ قال:

«**حَوْضُهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ والمَدينَة**».

فقال له المستورد: ألم تسمعه قال: الأواني؟!

قال: لا.

قال المستورد: (تُرىٰ فيه الآنية مثل الكوكب)[2].

٣ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«**إنَّ قَدْرَ حَوْضِي كمَا بيْنَ أيْلَةَ وصَنْعَاءَ منْ اليَمَنِ، وإنَّ فيه منْ الأباريق كعددِ نُجُومِ السَّماء**»[3].

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٤٦٣ فتح)، ومسلم (١٥/ ٥٥ نووي).

(٢) رواه البخاري (١١/ ٤٦٥ فتح)، ومسلم (١٥/ ٦٠ نووي).

(٣) رواه البخاري (١١/ ٤٦٤ فتح)، ومسلم (١٥/ ٦٤ نووي).

٤ ـ وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال:

«إنَّ أمامكُمْ حوضًا كما بين جرْبَاءَ وأذْرُحَ، فيه أباريقُ كنُجُوم السَّماءِ، منْ وردهُ فشربَ منهُ لمْ يظمأْ بعدها أبدًا»(١).

٥ ـ وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! ما آنيةُ الحوض؟ قال:

«والذي نفسي بيده لآنيتُهُ أكثر منْ عدد نُجُومِ السماء وكواكبها، ألا في الليلة المظلمة المصحية آنيةُ الجنَّة، منْ شربَ منها لمْ يظمأْ، آخرُ ما عليه يشخبُ فيه ميزابان منْ الجنَّة، منْ شربَ منْهُ لم يظمأْ، عرضُهُ مثلُ طوله، ما بين عمَّانَ إلى أيلَة، ماؤهُ أشدُّ بياضًا منْ اللَّبن، وأحلى منْ العسل»(٢).

قوله: «الليلة المظلمة» يعني التي لا قمر فيها، لأن وجود القمر يستر كثيرًا من النجوم، المصحية: التي لا غمام فيها فالسماء صافية، ونجومها ظاهرة.

قوله: «يشخب فيه ميزابان من الجنة»: يصب فيه نهران من الجنة.

٦ ـ وعن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«إنِّي فَرَطٌ لكُمْ علَى الحَوْضِ، وإنَّ بُعْدَ ما بينَ طَرَفَيْه كَمَا بيْنَ صَنْعَاءَ وأيْلَةَ، كأنَّ الأَبَاريقَ فيه النُّجُومُ»(٣).

٧ ـ وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال:

«إنَّ لي حَوْضًا، ما بين الكَعْبَة وَبَيْت المَقْدس، أَبْيَضُ مثْلُ اللبن، آنيتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، وإنِّي لأَكْثَرُ الأنْبياءِ تبعًا يومَ القيامَة»(٤).

---

(١) رواه البخاري (١١ / ٤٦٣ فتح)، ومسلم (١٥ / ٦١ نووي) واللفظ له.
(٢) رواه مسلم (١٥ / ٦٢ نووي).
(٣) رواه مسلم (١٥ / ٦٦ نووي).
(٤) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢ / ٤٢٨).

٨ ـ وعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال :

«إن حوضي من عـدنَ إلى عمَّانَ البَلقـاء، ماؤُهُ أشدُّ بيـاضًا منْ اللبن، وأحلى من العسل، أكاويبهُ عددُ النجوم، من شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبدًا»[1] .

ومن مـجمـوع تلك الأحاديث يـتبين لنا أن الحـوض فيـه كيزان كنجـوم السمـاء، وفيه آنيـة كنجوم السماء، وفـيه أباريق كعدد نجـوم السماء، وفيـه أكواب كنجوم السماء، كل هذا في حـوض نبينا ﷺ أعطاه الله إياه، فضلاً منه ونعمـة، وشرفًا له وكرامة .

* * *

(١) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٩٩)، وصحيح ابن ماجه (٢/ ٤٢٩).

مكان الحوض

١ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:
«ما بين بيتي ومنبري روْضَةٌ منْ رياضِ الجنَّة، ومنْبري على حوضي»[١].

قال الحافظ:

والمراد بتسمية ذلك الموضع روضة، أن تلك البقعة تنقل إلىٰ الجنة فتكون روضة من رياضها، أو أنه علىٰ المجاز لكون العبادة فيه تئول إلىٰ دخول العابد روضة الجنة، وهذا فيه نظر إذ لا اختصاص لذلك بتلك البقعة، والخبر مسوق لمزيد شرف تلك البقعة علىٰ غيرها.

وقيل: فيه تشبيه محذوف الأداة أي هو كروضة؛ لأن من يقعد فيها من الملائكة، ومؤمني الإنس والجن يكثرون الذكر وسائر أنواع العبادة.

وقال الخطابي: المراد من هذا الحديث الترغيب في سكنىٰ المدينة، وأن من لازم ذكر الله في مسجدها آل إلىٰ روضة الجنة، وسُقِيَ يوم القيامة من الحوض[٢] اهـ.

٢ ـ وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: صلىٰ رسول الله ﷺ علىٰ قتلىٰ أحد بعد ثماني سنين، كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر، فقال:
«إنِّي بيْنَ أيْديكُمْ فَرَطٌ، وأنَا علَيْكُمْ شَهيدٌ، وإنِّي لأنظُرُ إليه منْ مقامي هذا، وإنِّي لسْتُ أخْشى عليْكُمْ أنْ تُشْرِكوا، ولكنِّي أخْشَى عليْكُمْ الدُّنْيَا أنْ

(١) رواه البخاري (١١ / ٤٦٥ فتح).
(٢) فتح الباري (١١ / ٤٧٥).

تَنَافَسُوها»[١].

وفي رواية: «وإنِّي والله لأنظُرُ إلى حوضي الآن».

قال النووي ـ رحمه الله تعالى:

هذا تصريح بأن الحوض حقيقي على ظاهره، وأنه مخلوق موجود اليوم[٢] اهـ.

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى: «والله إنِّي لأنظُرُ إلى حوْضِي الآنَ» يحتمل أنه كُشِفَ له عنه لمَّا خَطَب، وهذا هو الظاهر، قال: ويحتمل أنه يريد رؤية القلب.

قلت: ظاهر الحديث يدل على أن الله تعالى كشف له عن الحوض ـ وهو يخطب ـ فرآه ﷺ ولذلك حلف النبي ﷺ على ذلك.

قال ابن التين رحمه الله تعالى:

النكتة في ذكره عقب التحذير الذي قبله، أنه يشير إلى تحذيرهم من فعل ما يقتضي إبعادهم عن الحوض[٣]. اهـ.

قلت: فيه إشارة إلى أن التنافس على الدنيا قد يؤدي بالعبد إلى الوقوع في المحرمات التي قد تحرم العبد من الشرب من الحوض.

* * *

(١) رواه البخاري (١١/ ٤٦٥ فتح)، ومسلم (١٥/ ٥٧ نووي).
(٢) شرح النووي (١٥/ ٥٩).
(٣) فتح الباري (١١/ ٤٧٥).

أول من يرد الحوض

هذا الحوض ما أوسعه، وما ألذ طعمه! وما أطيب ريحه! وما أجمل آنيته وأكوابه!

ولكن منْ أول الناس ورودًا عليه وشربًا منه؟

١ ـ فعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ حوضي منْ عدنَ إلى عمَّانَ البَلْقَاء، ماؤُهُ أشدُّ بياضًا منْ اللبَن، وأحلى من العسل، أكاويبهُ عددُ النجوم، من شربَ منه لم يظمأ بعدها أبدًا، أولُ الناس وُرُودًا عليه فقراءُ المهاجرين الشُّعْثُ رؤوسًا، الدُّنسُ ثيابًا، الذين لا ينْكحُونَ المُنَعَّمَات، ولا تُفْتحُ لهمْ السُّدَدُ، الذينَ يُعْطُونَ الحقَّ الذي عليهمْ، ولا يُعْطَوْنَ الذي لهم»(١).

معاني المفرادت:

ورودًا عليه: شربًا منه.

الشعث رؤوسًا: تَغَبَّرتْ رؤوسهم في الهجرة والجهاد.

الدنس ثيابًا: توسخت ثيابهم من فقرهم وقلة ذات يدهم.

لا ينكحون المنعمات: لا يتزوجون النساء المترفات، إما لأنهم فقراء فلا يعطيهم الأغنياء بناتهم، وإما لأنهم لا يميلون إلى المنعمات المترفات، وإنما ينتظرون الحور العين في الجنات.

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع [(٢/ ١٩٩) برقم (٢٠٥٦)].

لا تفتح لهم السُّدد: لا تفتح لهم أبواب السلاطين ولا أبواب ذوي الجاه؛ لأنهم فقراء فلا يهتم بهم أحد.

يُعطُون الحق الذي عليهم: يؤدون حقوق الناس كاملة خوفًا من الله وخشية.

ولا يُعْطَوْنَ الذي لهم: لقلة اهتمام الناس بهم، فلا يعطونهم حقوقهم كاملة.

٢ ـ وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«حوضي كَمَا بيْنَ عَدَن وعَمَّانَ، أبْرَدُ منَ الثَّلْجِ، وأحْلَى منْ العَسَلِ، وأطْيَبُ ريحًا منْ المسْك، أكْوابُهُ مثلُ نجوم السماء، منْ شربَ منْهُ شرْبَةً لمْ يظمأ بعدها أبدًا، أوَّلُ النَّاسَ عليه وُرُودًا صعاليكُ المهاجرين».

قال قائل: من هم يا رسول الله؟ قال:

«الشَّعثَةُ رُؤُوسُهُمْ، الشَّحبَةُ وُجُوهُهُمْ، الدَّنسَةُ ثيابُهُمْ، لا تفتحُ لهم السُّدَدُ، ولا ينكحُونَ المنعَّمات، الذين يعطون كل الذي عليهم، ولا يأخذون كل الذي لهم»[1].

معاني المفردات:

الشحبة وجوههم: الشحوب هو تغير الوجه من أثر الجوع أو الهزال أو التعب.

صعاليك: جمع صعلوك، وهو الفقير الذي لا مال له.

٣ ـ وعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ أن نبي الله ﷺ قال:

«إنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أذُودُ الناس لأهْلِ اليمنِ أضْرِبُ بعصاي حتى يرفضَّ عليهم».

(١) قال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٤٢٠): رواه أحمد بإسناد حسن.

فسئل عن عرضه؟

فقال: «منْ مُقامي إلى عمَّانَ».

وسئل عن شرابه؟ فقال:

«أشدُّ بياضًا من اللبَنِ، وأحلى من العسلِ، ويغُتُّ فيه ميزابانِ يَمُدَّانه منْ الجنَّةِ، أحَدُهُما منْ ذهبٍ، والآخرُ منْ ورِقٍ»[1].

معاني المفردات:

عُقر حوضي: مؤخرة الحوض.

يغت فيه ميزابان: يدفق فيه نهران.

الورَق: الفضة.

قال النووي رحمه الله تعالى:

«أذودُ النَّاسَ لأهْلِ اليَمَنِ أضْرِبُ بِعَصايَ حتَّى يرْفضَّ عَلَيْهِمْ»:

قال: معناه أطرد الناس عنه غير أهل اليمن ليرفض على أهل اليمن، وهذه كرامة لأهل اليمن في تقديمهم في الشرب منه، مجازاة لهم بحسن صنيعهم، وتقدمهم في الإسلام، والأنصار من اليمن، فيدفع غيرهم حتى يشربوا كما دفعوا عن النبي ﷺ في الدنيا أعداءه والمكروهات.

ومعنى« يرفض عليهم»: أي: يسيل عليهم. اهـ[2].

❊ ❊ ❊

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٨٠، ٢٨٣)، ومسلم (١٥/ ٦٣ نووي).
(٢) شرح مسلم (١٥/ ٦٣).

هل لكل نبي حوض؟

١ ـ عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:
«إنَّ الأنبياء يتباهُونَ أيُّهُمْ أكْثَرُ أصْحَابًا منْ أمَّته، فأرجُو أنْ أكُونَ يوْمَئذ أكثرَهُمْ كُلِّهمْ واردةً. وإنَّ كُلَّ رجُلٍ منهمْ يومئذ قائمٌ علي حوضٍ ملآنٍ معه عصاً يدعو من عرف من أمَّته، ولكل أمَّةٍ سيما يعرفهم بها نبيُّهُمْ»[1].

مفردات الحديث:

واردة: الذين يردون الحوض فيشربون منه.

سيما: علامة.

٢ ـ وعن سمرة ـ أيضًا ـ أن رسول الله ﷺ قال:
«إنَّ لكُلِّ نبيٍّ حوْضًا، وإنَّهُمْ يتباهونَ أيُّهُمْ أكثرُ واردَةً، وإنِّي أرْجُو أنْ أكُونَ أكثَرَهُمْ وَاردَةً»[2].

* * *

---

(١) رواه الطبراني، وابن حبان، وحسنه الألباني في صحيح الجامع [(٥/ ١٣) برقم (٤٩٤٤)].

(٢) رواه الترمذي، والبخاري في التاريخ، وابن أبي عاصم في السُّنَّة، وصححه الألباني في صحيح الجامع [(٢/ ٢٢٩) برقم (٢١٥٢)].

الكوثر

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣].

١ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: الكَوْثَرُ: الخَيْرُ الكَثِيرُ الذي أعْطَاهُ الله إيَّاهُ.

قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: إن أناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة.

قال سعيد: النَّهْرُ الذي في الجنَّة منْ الخيرِ الكثير الذي أعطاه الله إيَّاه[(١)].

٢ - وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال:

«بيْنَمَا أنا أسيرُ في الجنَّة إذا بنَهْرٍ حَافَّتاهُ قبابُ الدُّرِّ المُجَوَّف، قُلْتُ: ما هذا يا جبْرِيلُ؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطَاك ربُّكَ، فإذا طِينُهُ مِسْكٌ أذْفَرُ»[(٢)].

قلت: والظاهر أنَّ هذا كان ليلة الإسراء والمعراج.

٣ - فقد روىٰ البخاري، عن أنس - رضي الله عنه - قال: لما عُرِجَ بالنبي ﷺ إلى السماء قال:

«أتَيْتُ على نهرٍ حافتاهُ قباب اللؤلؤ مجوَّف فقُلْتُ: ما هذا يا جبْريل؟ قال: هذا الكوثرُ»[(٣)].

٤ - وعن أبي عبيدة قال: سألت عائشة - رضي الله عنها - عن قوله تعالىٰ:

---

(١) رواه البخاري (١١ / ٤٦٣ فتح).

(٢) رواه البخاري (١١ / ٤٦٤ فتح).

(٣) رواه البخاري (٨ / ٧٣١ فتح).

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾؟ قالت: هو نهر أُعْطِيَهُ نبيكم ﷺ، شاطئاه در مجوف، آنيته كعدد النجوم[١].

٥ ـ وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«**الكوثرُ نهْـرٌ في الجنَّة حافتـاهُ منْ ذهب، ومجـراه على الدُّر والياقُـوت، تربتُهُ أطيبُ ريحًا من المسك وَماؤُهُ أحلى من العَسل، وأشدُّ بياضًا مِّنَ الثَّلْجِ**»[٢].

٦ ـ وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: سئل رسول الله ﷺ: ما الكوثر؟ قال: «**ذاكَ نَهْرٌ أعطانيه الله**» يعني في الجنَّة ـ «**أشدُّ بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيْرٌ أعناقها كأعناق الجُزُر**».

قال عمران: إن هذه لناعمة قال رسول الله: «**آكِلُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا**»[٣].

معاني المفردات:

الجُزر: جمع جزور، وهو البعير.

آكلها أنعم منها: أكثر تنعمًا منها.

٧ ـ وعنه ـ أيضًا ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«**هل تدرُونَ ما الكوثَرُ؟ هُوَ نَهْـرٌ أعطانيه ربِّي في الجنَّة، عليْـه خَيْرٌ كثـيرٌ، تردُ عليه أمَّتي يوم القيامة آنيتهُ عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول: يارب إنَّهُ منْ أمَّتي فيُقَالُ: إنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٧٣١ فتح).

(٢) رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، وصححه الألباني في صحيح الجامع [(٤/ ١٩٥)] برقم (٤٤٩١)].

(٣) رواه أحمد، والترمذي وحسنه، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع [(٤/ ١٩٥) برقم (٤٤٩٠)].

(٤) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن أبي عاصم، وأورده الألباني في صحيح الجامع (٦/ ٨٠).

من يُحرَمُ من الشرب من الحوض؟

١ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال:

«أنا فَرَطُكُم على الحَوْضِ، ولَيُرْفَعَنَّ رِجَالٌ منكُمْ، ثُمَّ ليُخْتَلَجُنَّ دوني، فأقُولُ: يا ربِّ أصحابي، فيقالُ: إنَّكَ لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1].

معاني المفردات:

أنا فرطكم على الحوض: أنا أتقدمكم إلى الحوض لأهيئ لكم ولأعدَّ لكم.

ليرفعن رجال منكم: يظهرون حتى أراهم.

ليُخْتَلَجُنَّ: ليقتطعن.

٢ - وعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ:

«إنِّي فَرَطُكُمْ على الحَوْضِ، منْ مرَّ عَليَّ شربَ، ومنْ شربَ لمْ يظمأْ أبدًا، ليردنَّ عليَّ أقْوَامٌ أعْرِفُهُمْ ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم»[2].

٣ - وعن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال:

«ليردَنَّ عَليَّ ناسٌ منْ أصحابي الحَوْضَ حتَّى إذا عرَفْتُهُمْ اخْتُلِجُوا دُوني، فأقولُ: أصحَابي، فيقُولُ: لا تدْري ما أحدثُوا بعدك»[3].

٤ - وعن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: قال النبي ﷺ:

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٤٦٣ فتح)، ومسلم (١٥/ ٥٩ نووي).

(٢) رواه البخاري (١١/ ٤٦٤ فتح)، ومسلم (١٥/ ٥٤ نووي).

(٣) رواه البخاري (١١/ ٤٦٣ فتح)، ومسلم (١٥/ ٦٤ نووي).

«إنّي على الحوض حتّى أنْظُرَ منْ يَرِدُ عليَّ منكُمْ، وسيؤخذُ ناسٌ دُوني فأقُولُ: يا ربِ منّي ومنْ أُمّتي. فيُقالُ: هَلْ شَعَرْتَ ما عَمِلُوا بعْدَكَ؟ والله مَا بَرِحُوا يرْجعُون على أعْقَابهِمْ».

فكان ابن أبي مُليكة يقول: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو أن نُفتن عن ديننا[١].

٥ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال:

«والذي نفسي بيده لأذُودَنَّ رجالاً عنْ حوضي كما تُذَادُ الغَريبة منْ الإبلِ عَنْ الحَوْضِ»[٢].

معاني المفردات:

لأذودن: لأطردن.

كما تذاد الغريبة: كما تطرد الناقة الغريبة.

٦ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«يَرِدُ عليَّ يومَ القيامة رهْطٌ منْ أصحابي، فيُجْلَوْنَ عنْ الحَوْضِ، فَأقُولُ: يا ربِّ أصحابي، فيقول: إنَّكَ لا علم لك بما أحدثُوا بعدك، إنهمْ ارتدُّوا على أدبارهمُ القهقرى»[٣].

معاني المفردات:

يُجْلَوْنَ: يؤخَذون، ويُطردون.

٧ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال:

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٤٦٦ فتح)، ومسلم (١٥/ ٥٥نووي).
(٢) رواه البخاري (٥/ ٤٣ فتح)، ومسلم (١٥/ ٦٤ نووي).
(٣) رواه البخاري (١١/ ٤٦٥ فتح).

«بيْنَا أنَا نَائمٌ فإذا زُمْـرَةٌ حتَّى إذا عرفْـتُهُمْ، خَرَجَ رجُلٌ منْ بيْني وبينَهُمْ، فـقال: هَلُمَّ فَـقُلتُ: أيْنَ؟ قـال: إلى النَّار والله، قُلتُ: ومـا شـأنُهُمْ؟ قـال: إنَّهم ارتدُّوا بعدك على أدبارهم القهقرى. ثمَّ إذا زُمْرَةٌ، حـتَّى إذا عرفتهُمْ خَرَجَ رجُلٌ منْ بيني وبيْنَهمْ فقَال: هلُمَّ. قُلتُ: أينَ؟ قال: إلى النار والله .قُلْتُ: ما شأنُهُمْ؟ قالَ: إنَّهُمْ ارْتَدُّوا بعْدَكَ على أدْبَارِهمُ القهْقرى . فلا أرَاهُ يخْلُص منْهُمْ إلا مثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ»

معاني المفردات:

زمرة: جماعة

خرج رجل من بيني وبينهم: المراد به المَلَكُ الموكل بذلك .

همل النعم: الإبل المهملة بلا راعي، يعني الضالة، والمقصود القلة .

ومعنى الحديث:

تقترب جماعات من أمة محمد ﷺ من الحوض لتشرب منه، فإذا بمَلَكٍ من الملائكة يحول بينهم وبين الحوض، ويسوقهم إلى النار، فيسأله رسول الله ﷺ عن سبب ذلك، فيخبره بأنهم بدلوا وغيروا وانحرفوا عن طريق الرسول ﷺ نعوذ بالله من الخذلان .

٨ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه أتى المقبرة فقال :

«السَّلامُ عليْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مؤْمنينَ، وإنَّا إنْ شاء الله تعالى بِكُمْ لاحِقُونَ» .

ثم قال : **«لَوَددْنَا أنْ قدْ رَأيْنَا إخْوانَنَا»** .

قالوا : يا رسول الله أولسنا إخوانَك؟

قال : **«أنتُمْ أصْحَابي. وإخْوانِي الذينَ يأتُونَ منْ بعْـدِي، وأنَا فَرَطُكُمْ على الحَوْضِ»** .

قالوا: يا رسول الله كيف تعرف من لم يأت من أمتك؟.

قال: «**أرأيتمْ لو أنَّ رجلاً له خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بيْنَ ظَهْرَاني خيْلٍ دُهمٍ بُهْمٍ ألَمْ يكُنْ يعْرِفُهَا؟**».

قالوا: بلى

قال: «**فإنَّهُمْ يأتُونَ يَوْمَ القيَامَةِ غُراً محجَّلينَ منْ أثَرِ الوُضُوءِ**». قال: «**أنا فَرَطُكُمْ على الحَوْضِ**».

ثم قال: «**لَيُذَادَنَّ رجالٌ عنْ حوضي كما يُذادُ البعيرُ الضالُ فأناديهم: ألا هلمُّوا. فيقال: إنَّهُمْ قد بدَّلوا بعدكَ، ولمْ يزالوا يرجعونَ على أعقابهم. فأقول: ألا سحقًا سحقًا**»[1].

معاني المفردات:

خيل غرّ محجلة: الغرة: نقطة بيضاء في الوجه، والتحجيل هو بياض الأرجل والسيقان.

دهم، بهم: سوداء لا يخالطها لون آخر.

ليذادن: ليطردن.

هلموا: تعالوا.

سحقًا: بُعداً.

ومن هذه الأحاديث يتبين لنا أن الذين سيحرمون من الشرب من حوض نبينا ﷺ هم:

---

(١) رواه مالك، والشافعي، وأحمد، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه، وهو في صحيح الجامع [(٣/ ٢٢٦) برقم (٣٥٩٢)] وصحيح ابن ماجه [(٢/ ٤٣٠) برقم (٣٤٧٥)].

١ ـ الذين ارتدوا على أدبارهم، يعني أشركوا.

٢ ـ الذين أحدثوا في دين الله ما ليس منه، وابتدعوا ما لم يكن على عهد رسول الله ﷺ.

٣ ـ الذين لم يتبعوا رسول الله ﷺ في عقيدته، وعبادته. ومن هنا نحذر جميع المسلمين من البدع؛ فإنها سبب في الحرمان من الشرب من حوض النبي ﷺ.

وقد تَرَكَنَا ﷺ على البيضاء النقية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

فالله.. الله في دينكم، الله.. الله في سنة نبيكم؛ عضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور... وإياكم والابتداع في دين الله عز وجل، سيروا على ما سار عليه سلف هذه الأمة من صحابة النبي ﷺ، والتابعين لهم بإحسان فهو طريق الهدى والرشاد، والسعادة في الدنيا والآخرة.

* * *

ازدحام الأمة حول الحوض

عن العرباض بن سارية - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :

«لَتزْدَحِمَنَّ هذه الأمَّةُ على الحوضِ ازدحام إبلٍ وردَتْ لِخَمْسٍ»[1] .

معاني المفردات:

إبل وردت لخمس: أي منعت من الماء أربعة أيام، ثم ذهبت في اليوم الخامس لتشرب، وهي كناية عن شدة الزحام.

* * *

(١) رواه الطبراني، وابن حبان وحسنه الألباني في صحيح الجامع [(٥/ ١٣) برقم (٤٩٤٤)].

من الذين سيشربون من الحوض؟

بعد معرفة ما ذُكر يتبين لنا أن الذين سيشربون من حوض النبي ﷺ شربة هنيئة لا يظمؤون بعدها أبدًا هم:

١ - المتبعون للنبي ﷺ، وصحابته، والسلف الصالح في العقيدة، والعبادة، وغيرها من أمور الدين.

٢ - لا يشركون مع الله أحدًا ولوكان ملكًا مقربًا، أو نبيًا مرسلاً، أو رجلاً صالحًا.

٣ - يؤمنون بصفات الله كما جاءت عن الله على مراد الله دون تشبيه، أو تمثيل، أو تأويل، أو تعطيل.

٤ - لا يقدِّمون قولاً على قول رسول الله ﷺ.

٥ - والنقل عندهم مقدم على العقل.

٦ - يتحاكمون في كل أمورهم إلى الله ورسوله.

اللهم اجعلنا منهم بمَنِّك وكرمك يا أكرم مسئول، وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك.

* * *



المحاضرة الثالثة

الركائز الأساسية لطالب العلم

تأليف

وحيد بن عبد السلام بالي



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد:

فمن المعروف أن طالب العلم الشرعي إذا لم يسترشد في بداية الطلب، فإنه قد يضل فهمه، وتزل قدمه، أو ينقطع في وسط الطريق، فلا يُحصّل علمًا، ولا يَضْبطُ قواعد، ولا يُتقن فنًا.

من أجل ذلك كتبت كلمات مختصرة تجمع أطراف الموضوع، ليقف طالب العلم في بداية الطريق على الوسائل التي يجب أن يتخذها، والركائز التي ينبغي أن يرتكز عليها في طريقه لتحصيل العلم.

وقد نُشرت هذه المقالات في مجلة التوحيد المصرية، فقام الشباب بتصويرها وتوزيعها، فلما رأيت ذلك دفعتها للنشر ليعم النفع.

وأسأل الله - تعالى - أن ينفع بها قارئها، وناشرها، وكاتبها.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

كتبه

وحيد بن عبد السلام بالي

منشأة عباس في ٢٧ / ٣ / ١٤١٧هـ

النوايا التي يمكن أن يستحضرها المحاضر قبل إلقاء هذه المحاضرة

أولاً: النوايا العامة:

١ ـ ينوي القيام بتبليغ الناس شيئًا من دين الله إمتثالاً لقول النبي ﷺ: «**بلّغوا عني ولو آية**» رواه البخاري.

٢ ـ رجاء الحصول علي ثواب مجلس العلم[١] .

٣ ـ رجاءأن يرجع من مجلسه ذلك مغفوراً له[٢] .

٤ ـ ينوي تكثير سواد المسلمين والالتقاء بعباد الله المؤمنين.

٥ ـ ينوي الاعتكاف في المسجد مدة المحاضرة ـ عند من يرىٰ جواز ذلك من الفقهاء ـ لأن الاعتكاف هو الانقطاع مدّة لله في بيت الله.

٦ ـ رجاء الحصول علىٰ أجر الخطوات إلىٰ المسجد الذي سيلقي فيه المحاضرة[٣] .

---

(١) روىٰ مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

(٢) روىٰ الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٧) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم علىٰ ذكر، فتفرقوا عنه إلا قيل لهم قوموا مغفوراً لكم»، ومجالس الذكر هي المجالس التي تذكر بالله وبآياته وأحكام شرعه ونحو ذلك.

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من غدا إلىٰ المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».
وفي صحيح مسلم عنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته ثم مضىٰ إلىٰ بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرىٰ ترفع درجة».

٧ - رجاء الحصول على ثواب انتظار الصلاة بعد الصلاة، إذا كان سيلقي محاضرته مثلاً من المغرب إلى العشاء، أو من العصر إلى المغرب[١] .

٨ - رجاء أن يهدي الله بسبب محاضرته رجلاً. فيأخذ مثل أجره[٢] .

٩ - ينوي إرشاد السائلين، وتعليم المحتاجين، من خلال الرد على أسئلة المستفتين[٣] .

١٠ - ينوي القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - بالحكمة والموعظة الحسنة - إن وجد ما يقتضي ذلك[٤] .

١١ - ينوي طلب النضرة المذكورة في قول النبي ﷺ: «**نَضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها**».رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

- ثم قد يفتح الله على المحاضر بنوايا صالحة أخرى فيتضاعف أجره لقول النبي ﷺ: «**وإنما لكل امرئ ما نوى**». متفق عليه.

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال أحدكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة».

- وروى البخاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه».

(٢)، (٤) روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم».

- وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا».

(٣) روى الترمذي وصححه الألباني عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير».
وصلاة الملائكة الاستغفار.

ثانيًا: النوايا الخاصة:

١ ـ ينوي حث المسلمين علىٰ طلب العلم .

٢ ـ ينوي حث المسلمين علىٰ احترام العلماء .

٣ ـ ينوي تعريف المسلمين بالطرق المثلىٰ لطلب العلم .

٤ ـ ينوي حث المسلمين علىٰ حفظ أوقاتهم .

٥ ـ ينوي حث المسلمين علي السؤال عما يشكل عليهم من أحكام دينهم .

٦ ـ ينوي حث المسلمين علىٰ إخلاص النية في العلم وغيره .

عناصر المحاضرة:

١ ـ الإخلاص في طلب العلم .

٢ ـ تزكية النفس بالعلم .

٣ ـ أكل الحلال وأثره في طلب العلم .

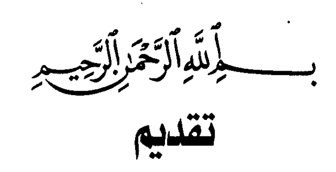
٤ ـ أثر الشبع في نسيان العلم .

٥ ـ التدرج في الطلب .

٦ ـ الأدب مع الشيخ .

٧ ـ حفظ الوقت .

* * *



تقديم

إن الصحوة المباركة تشهد مزيداً من إقبال أبنائها على طلب العلم، والتسابق إلى ميدان الفقه، لعلمهم أن العلم يُنير السبل، ويوضح الطرق، والجاهل أعمى لا يُبصر، أصم لا يسمع، وإن سمع لا يعقل.

ولكن بعض هؤلاء الفضلاء قد يبدأ الطريق من وسطه، فيظل حيران بين مسارب العلم ودروبه.

وبعضهم قد يبدأ ولكنه يراوح بين قدميه، ويمشي سريعًا ولكن مكانه، وبعضهم يقفز قفزاً، فتَخْفى عليه بعض الدروب التي قد يقع في بعضها، ولا يشعر بغبٍّ ذلك إلا وهو في بعض تلك المهالك.

وآخرون يتعجلون العلم كله، فيفقدونه كله.

وأصحاب النتف، وذوو المسائل، وطلاب المعضلات وأرباب النوازل؛ لأولئك ولغيرهم، أردت أن أضع لبنة في صرح، وخطوة على طريق، مبينًا تلك الركائز التي ينبغي أن يسير عليها الطالب ليصل إلى الغاية من أقرب طريق، ويُحصِّل العلم من أيسر سبيل، من خلال ثلاث حلقات متتابعات، إن شاء الله تعالى[1].

* * *

(١) هذه الحلقات نُشرت في مجلة التوحيد المصرية محرم وصفر وربيع من عام ١٤١٧هـ.

الركيزة الأولى
إخلاص النية

يجب على طالب العلم أن يصحِّح النية في طلب العلم، ويحسن القصد، ويوحِّد الوجهة، ويُطهِّر القلب، وينقي السريرة، وذلك لأن العلم عبادة، والله يأمر بإخلاص العبادة له، فيقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وحسن النية في طلب العلم: بأن يقصد به وجه الله تعالى، والعمل به، وإحياء الشريعة، ونصر السنة، وقمع البدعة، وتنوير قلبه، وتزكية نفسه، وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى والتعرض لما أعدَّ لأهله من رضوانه، وعظيم فضله، وجزيل ثوابه.

قال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نيتي.

ولا يقصد به الأغراض الدنيوية، من تحصيل الرياسة والجاه والمال ومباهاة الأقران، وتعظيم الناس له، وتصديره في المجالس، ونحو ذلك، فيستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

قال أبو يوسف ـ رحمه الله ـ: يا قوم أريدوا الله بعلمكم، فإني لم أجلس مجلسًا قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلسًا قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أُفتضح. اهـ.

والعلم عبادة من العبادات، وقربة من القربات، فإن خلصت فيه النية،

وحسنت الطوية، قُبِلَ وزكى ونمت بركته، وإن قُصد به غير وجه الله تعالى حبط وضاع، وذهبت بركته، وتحققت خسارته.

وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَات، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِيء مَا نَوَى». رواه الستة.

وقال ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجَّلَ لا يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إلاَّ ما كان له خالصًا، وابْتُغي به وجْهُهُ». رواه النسائي بسند جيد[1].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة في الثلاثة الذين يُقضى عليهم أول الناس:

«ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العلْمُ وَعَلَّمَهُ، وقَرَأ القرآنَ، فَأُتي به، فَعَرَّفَهُ نعمَهُ، فَعَرفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فيها؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العلم وعَلَّمْتُهُ، وقَرَأْتُ فيكَ القُرآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، ولكنَّكَ تَعَلَّمْتَ ليُقالَ: عَالمٌ، وقَرَأْتَ القُرآنَ ليقَالَ: قَارئ، فقدْ قيلَ، ثُمَّ أُمرَ به فَسُحبَ عَلَى وجْهِه حتَّى أُلقيَ في النَّار...»[2].

فالتكذيب هنا لا يعود على قوله: «تَعَلَّمْتَ، وَعَلَّمْتَ، وقَرأْتَ».

لا، بل حدث هذا فعلاً، ولكنه يعود على قوله: «فيكَ»، أي لا أريد إلا وجهك.

فَبَيَّن رب العزة أن هذا المرائي كان يريد أوجهًا أخرى: «ليُقَالَ:... فَقَدْ قيلَ...».

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا حدَّث بهذا الحديث أُغشي عليه من شدة الخوف.

---

(١) حسن: رواه النسائي (٣١٤٠) وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٥).

فاللهم سلِّم، سلِّم، وصحح نياتنا، وحسِّن مقاصدنا، وطهِّر قلوبنا.

وليحذر طالب العلم من المفاخرة به أو المجادلة.

فقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ طَلَبَ العلمَ ليُبَاهِيَ به العُلَماءَ، ويُمَارِي به السُّفَهَاءَ، أوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إليه، فَهُوَ في النَّارِ**»[1].

وليحذر طالب العلم من إرادة الدنيا بعلمه.

فقد قال الحبيب ﷺ: «**منْ تَعَلَّمَ علمًا ممَّا يُبْتَغَى به وجْهُ الله، لا يتعلَّمُهُ إلا ليُصيبَ به عَرَضًا منَ الدُّنْيا لمْ يَجِد عَرْفَ[2] الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[3] يعني ريحها.

* * *

(١) حسن: رواه ابن ماجه (٢٥٣) وغيره، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه، والترمذي (٢٦٥٥) بمعناه وحسنه.

(٢) عَرْف الجنة: رائحة الجنة.

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢) وصححه الألباني.

الركيزة الثانية

طهارة الباطن وسكينة الظاهر

ينبغي لطالب العلم أن يكون في مظهره سُنيًا، وفي باطنه تقيًا، وفي عقيدته سلفيًا، وفي حركاته متبعًا، وفي أفعاله مقتفيًا، وللبدع مجتنبًا، وللمخالفات منكرًا.

وذلك لأن العلم إذا لاقىٰ أرضًا خصبة نما وترعرع، واستوىٰ علىٰ سوقه، وآتىٰ ثماره، وإذا لاقىٰ أرضًا قاسية صلدة، أو سبخة رخوة، لم يكن له كبير فائدة، ولا كثير نفع.

قال الخطيب البغدادي ـ رحمه الله ـ: يجب علىٰ طالب العلم أن يتجنب اللعب والعبث، والتبذل في المجالس والسخف والضحك والقهقهة، وكثرة التنادر، وإدمان المزاح، والإكثار منه، فكثرة المزاح والضحك تضع من القدر، وتزيل المروءة. اهـ مختصرًا[1].

وقال الإمام مالك ـ رحمه الله: إن حقًا علىٰ من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعًا لأثر من مضىٰ قبله.

* * *

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١ / ١٥٤).

الركيزة الثالثة

أكل الحلال

علىٰ طالب العلم أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شأنه، ويتحرىٰ الحلال في طعامه وشرابه، ولباسه، ومسكنه، وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعياله ليستنير قلبه، ويصلح لقبول العلم ونوره، والنفعَ به، ولا يقنع لنفسه بظاهر الحل شرعًا مهما أمكنه التورع، ولم تلجئه حاجة أو يجعل حظه الجواز، بل يطلب الرتبة العالية، ويقتدي بمن سلف من العلماء الصالحين في التورع عن كثير مما كانوا يفتون بجوازه، وأحق من اقتُديَ به في ذلك نبينا محمد ﷺ حيث لم يأكل التمرة التي وجدها في الطريق خشية أن تكون من الصدقة مع بُعد كونها منها، ولأن أهل العلم يُقتدىٰ بهم، ويؤخذ عنهم، فإذا لم يستعملوا الورع، فمن يستعمله؟. اهـ.[1] من تذكرة السامع.

شمِّروا معشر الإخوان عن ساعد الجد وساق الاجتهاد.

* * *

(١) راجع تذكرة السامع والمتكلم (٧٥).

الركيزة الرابعة

مجانبة الشبع

ينبغي لطالب العلم أن يخفف من المطعم والمشرب، لأن البطن إذا امتلأ تبلَّد الذهن، وكسل الجسم، وقل الحفظ، ونقص الفهم.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إياكم والبطنة، فإنها ثقل في الحياة، نتن في الممات.

وقال لقمان لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقد قيل: من شبع دخل عليه ست آفات:

١ ـ فقد حلاوة المناجاة.

٢ ـ تعذر حفظ الحكمة.

٣ ـ حرمان الشفقة على الخلق.

٤ ـ ثقل العبادة.

٥ ـ زيادة الشهوات.

٦ ـ كثرة التردد على الخلاءات.

وقال محمد بن واسع ـ رحمه الله ـ: من قلّ طعامه فهم وأفهم، وصفا

ورقّ، وإن كثرة الطعام لتثقل صاحبها عن كثير مما يريد .

وقال عمرو بن قيس ـ رحمه الله ـ: إياكم والبطنة فإنها تقسي القلب .

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: الشبع يثقل البدن، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة .

وقال سحنون ـ رحمه الله ـ: لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع .

* * *

الركيزة الخامسة

البداية في العلم والتدرج فيه

ينبغي للطالب أن يراعي في هذا الباب أمرين:

الأول: البداية.

الثاني: طريقة التعلم.

البداية:

١ - أن يبدأ بأهم العلوم، وأساسها، وهو كتاب الله تعالىٰ، فيحفظه علىٰ يد شيخ متقن، ويجوِّده، ويثبته، حتىٰ يتمكَّن منه.

٢ - ثم ينتقل إلىٰ السنة، فيحفظ فيها مختصراً جامعًا لأحاديث صحيحة، مثل «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان»، أو «مختصر صحيح البخاري»، أو «مختصر مسلم»، فإن كان ضعيف الهمة فليقتصر علىٰ حفظ «عمدة الأحكام» للحافظ عبد الغني المقدسي.

٣ - ثم ينتقل إلىٰ علم التوحيد، فيحفظ فيه مختصراً نافعًا جامعًا لعقيدة أهل السنة والجماعة، مثل «العقيدة الطحاوية»، أو «الواسطية»، فإن كان ذا ميل للنظم، فليحفظ «سلم الوصول» للشيخ أحمد حكمي رحمه الله.

٤ - ثم ينتقل إلىٰ علم الفقه، فيحفظ فيه مختصراً نافعًا جامعًا لما أجمعت عليه الأمة، مثل رسالة «الإجماع» لابن المنذر - رحمه الله -، أو رسالة لما اتفق

عليه جمهور الأمة «الدرر البهية» للشوكاني - رحمه الله - أو كتاب «بداية المتفقه»[١].

٥ ـ ثم ينتقل إلى السيرة النبوية، فيحفظ فيها مختصراً نافعًا مثل «الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ» لابن كثير - رحمه الله - أو «جوامع السيرة» لابن حزم - رحمه الله .

٦ ـ ثم ينتقل إلى اللغة العربية، فيحفظ فيها مختصراً جامعًا لقواعدها، مثل «شذور الذهب» لابن هشام - رحمه الله -، فإن كان قاصر الهمة فليقتصر على حفظ «المقدمة الآجُرُّومِيَّة».

٧ ـ ثم يحفظ مختصراً في مصطلح الحديث مثل: «نخبة الفِكَر» لابن حجر رحمه الله .

٨ ـ ثم يحفظ مختصراً في أصول الفقه مثل: «الورقات» للجويني - رحمه الله تعالى .

فإذا جمع من كل علم بطرف[٢]، وتعلّق من كل فن بسبب، فليختر له علمًا يتخصص فيه، ويواصل، ويبحث فيه ويدأب ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨].

طريقة التعلم:

١ ـ أن تهتم بالحفظ في بداية الطريق فهو الأساس.

---

(١) وهو كتاب جمع أبواب الفقه على هيئة ضوابط يسهل على طالب العلم حفظها فيلم بالفقه من أقرب طريق.

(٢) راجع محاضرة: «رسالة إلى خطيب» فصل: مكتبة الخطيب.

٢ ـ إياك والتفرع من البداية، فإنه عطب.

٣ ـ لا تنتقل من علم إلىٰ علم حتىٰ تضبطه.

٤ ـ أن تتدرج داخل العلم الواحد، فتبدأ بالأسهل فالمتوسط، فالعالي، وإياك والقفز فإنه مهلكة.

٥ ـ ألا تنشغل عن القرآن بغيره في بداية الطريق.

قال الشافعي:

كلُّ العلوم سوى القرآنِ مشغلةٌ إلا الحديثَ وإلا الفقهَ في الدينِ

٦ ـ ألا تعتمد علىٰ نفسك في التعلم والتأصيل، فإنه مزلة قدم، وعثران فهم، ولكن عليك بالدراسة علىٰ أهل العلم، كما كان السلف ـ رحمهم الله ـ يفعلون.

وقد قيل: من دخل في العلم وحده، خرج وحده.

٧ ـ لا تبدأ بالكتب التي تجمع الأقوال والاختلاف حتىٰ لا تشوش ذهنك في بداية الطلب.

* * *

الركيزة السادسة

اختيار الشيخ

الأصل في التعلم هو الدراسة على الشيوخ، والتتلمذ على يد العلماء، وقراءة الكتب على المتقنين، فيوضحون للطالب غوامضها، ويقربون بعيدها، وييسرون مشكلها، فيفهمها على وجهها.

وما ظهر هذا التمزق الفكري، والتشتت الدعوي، والانقسام الحركي إلا بعد ظهور طلاب الكتب، وتلاميذ الصحف، فأصبحت ترى الفهم الأعوج، والفتاوى الشاذة، والتعالم المقيت، والجرأة على العلماء بغير دليل رشيد، ولا فهم سديد.

ورحم الله الشافعي إذ يقول: من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام[1].

فإذا تبين هذا فعلى طالب العلم أن يختار الأعلم والأورع والأسن، وليأخذ كل علم من أهله ولو رحل إليه، وقطع المفاوز للجلوس بين يديه، فإنه سنة ماضية وطريقة سلفية، وبها تخرَّج السلف الكرام، وتفقه العلماء العظام، فعض عليها بالنواجذ.

قال ابن جماعة ـ رحمه الله : ينبغي لطالب العلم أن يقدم النظر، ويستخير الله فيمن يأخذ عنه العلم، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه، وليكن ـ إن أمكن ـ ممن كمُلت أهليته، وتحققت ثقته، وظهرت مروءته،

(١) تذكرة السامع (٥٨).

وعُرفت عفته، واشتهرت صيانته، وكان أحسن تعليمًا، وأجود تفهيمًا، ولا يرغب الطالب في زيادة العلم مع نقص في ورع، أو دين، أو عدم خلق جميل[١]. اهـ.

وليحذر طالب العلم من التتلمذ على يد مبتدع؛ فإنه سبب انحراف، وطريق ضلال.

وليحذر طالب العلم من التتلمذ على يد مبتدئ، فإنه مضلة فهم، ومَزِلّة قدم.

وليحذر طالب العلم من التتلمذ على يد مُتعالم، فإنه يجرؤه على العلماء، ويُبغِّضُ إليه الفقهاءَ، ويُنكِّسُ له العلوم، ويقلِّب له الأمور، فلا يخرج من عنده بعلم ولا أدب، ولا بخلق ولا ورع، فيخسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

وليحذر الطالب من التتلمذ على يد مشهور بين الناس بالعلم وهو ضعيفه، ومعروف بينهم بالفقه وهو فاقده، فإنه يعطيك من العلم أحرفًا، ومن الفقه أوجهًا، فلا يجمع لك بين أصل وفرع، ولا بين دلالة ولا دليل، إنما هي مسائل مبعثرة، وقضايا متناثرة، فتتشعب عليك الأمور، وتصعب عليك الأمور، فترفعك نجاد[٢] وتحطُّك وهاد، فبينما أنت تظن أنك قد قطعت في العلم شوطًا، وألقيت في الساحة سهمًا، إذا بك تراوح مكانك، وتسير محلك، فاحذر! فإن العمر قصير، والعلم غزيز.

* * *

(١) تذكرة السامع (٥٨).
(٢) جمع نجد، وهو المكان المرتفع.

الركيزة السابعة
الأدب مع الشيخ

١ ـ **توقير الشيخ:** صلىٰ زيد بن ثابت رضي الله عنه علىٰ جنازة، ثم قُربت له بغلة ليركبها فجاء ابن عباس، فأخذ بركابه، فقال له زيد: خل عنه يا بن عم رسول الله، فقال ابن عباس: هكذا يُفعل بالعلماء.

وعن المغيرة قال: كنا نهاب إبراهيم النخعي كما يُهاب الأمير.

وعن أيوب قال: كان الرجل يجلس إلىٰ الحسن ثلاث سنين، فلا يسأله عن شيء هيبة له.

وعن إسحاق الشهيدي قال: كنت أرىٰ يحيىٰ بن سعيد القطان يُصلي العصر، ثم يستند إلىٰ أصل منارة بالمسجد، فيقف بين يديه علي بن المديني، والشاذكوني، وعمرو بن علي، وأحمد بن حنبل، ويحيىٰ بن معين، وغيرهم، يسألونه عن الحديث وهم قيام علىٰ أرجلهم، إلىٰ أن تحين صلاة المغرب، لا يقول لواحد منهم: اجلس، ولا يجلسون هيبة له وإعظامًا.

ويقال: إن الشافعي ـ رحمه الله ـ عوتب علىٰ تواضعه للعلماء فقال:

أهينُ لهمْ نفسِي فهمْ يكرمونَهَا ولنْ تكرمَ النفسُ التي لا تهينُهَا

٢ ـ علىٰ طالب العلم أن يُجلَّ شيخه، ويستر عيبه ويدعو له.

٣ ـ علىٰ طالب العلم ألا يخاطب شيخه باسمه، ولا يذكره في غيبته إلا

مقرونًا بما يُشعر توقيره، كقوله: قال الشيخ، أو قال شيخنا ـ حفظه الله ـ أو قال الأستاذ وهكذا...

٤ ـ وعلى الطالب أن يصبر على جفوة تَحْدُثُ من شيخه، أو سوء خلق ونحوه، ولا يصدّه ذلك عن ملازمته، بل يعتذر إليه، ويجعل العُتب عليه، فإن ذلك أبقى لمودة شيخه، وأحفظ لقلبه، وأنفع للطالب في دنياه وآخرته.

وقد قيل: من لم يصبر على ذُلِّ التعلم بقي عمره في عماية الجهل، ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الدنيا والآخرة.

اصبرْ على مرِّ الجفَا منْ معلمٍ	**فإنَّ رسوخَ العلمِ في نفراته**
ومنْ لم يذقْ مرَّ التعلمِ ساعةً	**تجرعَ ذلَّ الجهلِ طولَ حياته**
ومنْ فاتَهُ التعليمُ وقتَ شبابه	**فكبِّرْ عليه أربعًا لوفاته[1]**

٥ ـ وليحذر طالب العلم أشد الحذر أن يماري أستاذه، فإن المراء شر كله، وهو مع شيخه وقدوته أقبح، وهو سبب للحرمان من كثير من العلم.

قال ميمون بن مهران ـ رحمه الله: لا تمار من هو أعلم منك، فإن فعلت خزن عنك علمه، ولم تضره شيئًا.

وعن الزهري ـ رحمه الله ـ قال: كان سلمة يماري ابن عباس، فحرم بذلك علمًا كثيرًا.

٦ ـ وإذا نبهه الشيخ على دقيقة من أدب، أو نقيصة صدرت منه وكان يعرفها من قبل، فلا يُظهر أنه كان عارفًا بها وغفل عنها، بل يشكر الشيخ على إفادته ذلك واعتنائه بأمره.

٧ ـ إذا جاء الطالب فألفى الشيخ نائمًا، فلا ينبغي له أن يستأذن عليه، بل

(١) لكن لا ييأس، بل يطلب العلم حتى بعد الستين، فلأن يموت طالب علم خير من أن يموت جاهلاً مفرطًا.

يجلس ينتظر استيقاظه، أو ينصرف إن شاء.

قال عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما : كان يبلغني الحديث عن الرجل، فآتي بابه وهو قائل[١] فأتوسد ردائي على بابه تَسْفِي الريح عليَّ من التراب، فيخرج فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟، ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث.

٨ - وينبغي لطالب العلم أن يتأدب أثناء الدرس، فلا يسبق الشيخ بشرح مسألة، أو جواب سؤال، ولا يكثر من العبث، أو الالتفات.

٩ - قال ابن جماعة - رحمه الله -:

على طالب العلم أن لا يدخل على الشيخ - في غير المجلس العام - إلا باستئذان، فإن استأذن ولم يؤذن له انصرف، ولا يزيد في الاستئذان فوق ثلاث طرقات، وليكن طرق الباب خفيفًا بأدب. اهـ. مختصراً[٢].

١٠ - وقال أيضًا:

ومتى دخل على الشيخ وعنده من يتحدث معه، فسكتوا عن الحديث، أو دخل والشيخ يصلي أو يذكر، أو يكتب أو يطالع، فترك ذلك، فليسلم ويخرج مسرعًا إلا أن يحثه الشيخ على المكث، وإذا مكث فلا يطيل إلا أن يأمره بذلك. اهـ[٣].

١١ - وينبغي لطالب العلم أن يجلس بين يدي شيخه بتواضع وسكون،

---

(١) قائل: نائم بالقيلولة.
(٢) انظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ١٥٨).
(٣) انظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ١٥٨).

ويصغي إلى الشيخ ناظرًا إليه متعقلاً لقوله، ولا يلتفت من غير ضرورة، ولا يعبث بلحيته أو فمه أو أنفه، ولا يستند بحضرة الشيخ إلى حائط ونحوه إلا بإذنه.

ولا يكثر كلامه من غير حاجة، ولا يعتمد على يديه إلى ورائه أو جنبه إلا لحاجة.

ولا يكثر التنحنح من غير حاجة، وإذا عطس خفض صوته وستر وجهه بمنديل ونحوه.

وإذا سمع الشيخ يذكر حكمًا في مسألة، أو فائدة مستغربة أو يحكي حكاية، أو ينشد شعرًا، وهو يحفظ ذلك، أصغى إليه كأنه يسمعه لأول مرة في حياته.

وإذا ناول الشيخ كتابًا ناوله مفتوحًا على الموضع المراد، ولا يحذف إليه الشيء حذفًا.

وإذا أخطأ الشيخ فلا يرده أمام الناس، وإنما ينفرد به، ويتلطف في الرد فلا يقل له: أخطأت، وإنما يقول له مثلاً: أشكل عليَّ كذا مع ورود حديث بكذا فأرجو أن توضح لي ذلك. ونحو هذا.

* * *

الركيزة الثامنة
التثبت في الفتيا

ينبغي لطالب العلم أن يَعْلَم أن الفتوىٰ في الدين مسئولية عظيمة، فعليه أن يدفعها عن نفسه ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً، صيانةً لنفسه، وإبقاءً لدينه.

قال البراء رضي الله عنه: لقد رأيت ثلاثمائة من أصحاب بدر ما فيهم من أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتيا.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: لقد أدركت عشرين ومائة من الأنصار، من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم عن المسألة، فيردها هذا إلىٰ هذا، وهذا إلىٰ هذا، حتىٰ ترجع إلىٰ الأول.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من أفتىٰ الناس في كل ما يُسأل عنه فهو مجنون.

وسُئل القاسم بن محمد بن أبي بكر: عن شيء، فقال: لا أحسنه، فقال السائل: إني جئت إليك لا أعرف غيرك، فقال القاسم - وهو أحد الفقهاء المشهورين - لا تنظر إلىٰ طول لحيتي، وكثرة الناس حولي، والله ما أحسنه، فقال شيخ من قريش جالس إلىٰ جنبه: يا بن أخي الزمها، فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم، فقال القاسم: والله لأن يُقطع لساني أحب إلي من أن أتكلم بما لا علم لي به.

وسئل مالك عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألة خفيفة

سهلة، فغضب وقال: ليس في العلم خفيف، أما سمعت قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥].

فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة.

قـال عطاء: أدركت أقوامًا إن كان أحدهم ليسأل عن الشيء فيتكلم وإنه ليرعد.

وقال سفيان بن عيينة: أجسر الناس علىٰ الفتوىٰ أقلهم علمًا.

وسئل الشعبي - رحمه الله - عن شيء فقال: لا أدري.

فقيل: ألا تستحيي من قولك «لا أدري» وأنت فقيه العراق؟

فقـال: لكن الملائكة لم تستح حين قالت: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢].

وقال ابن وهب سمعت مالكًا يقول: العجلة في الفتوىٰ نوع من الجهل.

* * *

الركيزة التاسعة

حفظ الوقت

ليعلم طالب العلم أن الوقت رأس ماله، وأنه لا يصل إلىٰ ما يرجوه مع الحفظ والتحصيل إلا باستغلاله، والحفاظ عليه وليكن أشحَ بوقته من البخيل بماله، فما حفظ الحفاظ، ولا فقه الفقهاء، ولا علم العلماء إلا بحفظ أوقاتهم.

هذا المحدِّث الشهير «عبيد بن يعيش» شيخ البخاري ومسلم يقول: أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل، وكانت أختي تلقمني وأنا أكتب الحديث[1].

وهذا الإمام سليم الرازي شيخ الشافعية في زمانه:

كان يحاسب نفسه علىٰ الأوقات حسابًا شديدًا، حتىٰ لا يدع وقتًا يمر بلا فائدة.

قال عنه المؤمن بن الحسن: رأيت سليمًا حفي عليه القلم[2]، فإلىٰ أن قطه - أي براه وحسنه - جعل يحرك شفتيه، فعلمت أنه يقرأ أثناء إصلاحه القلم لئلا يمضي عليه زمان وهو فارغ[3].

وهذا الخطيب البغدادي - رحمه الله -: كان لا يمشي إلا وفي يده جزء يطالعه، حفاظًا علىٰ وقته.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢ / ١٧٨).

(٢) حفي القلم: انكسر منه.

(٣) تبيين كذب المفتري (٢٦٣).

وهذا أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول عن نفسه: لا يحل أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عمر الثمانين أشد مما كنت أجد وأنا ابن عشرين سنة.

واعلم ـ بارك الله فيك ـ أن القليل إذا ضُمَّ بعضه إلى بعض صار كثيرًا، فلا تحقرنّ من العلم شيئًا وإن كان قليلاً، كما قيل:

اليومُ شيءٌ وغدًا مثلُهُ ... منْ نخبِ العلمِ التي تلتقط
يحصلُ المرءُ بها حكمةً ... وإنما السيلُ اجتماعُ النقط

وهذا ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ يقول: ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل.

ويقول يحيى بن القاسم: كان ابن سكينة عالمًا عاملاً، لا يضيع شيئًا من وقته، وكنا إذا دخلنا عليه يقول: لا تزيدوا على «سلام عليكم... مسألة»، وذلك لكثرة حرصه على المباحثة وتقرير الأحكام[1].

وفي الختام أنثر بين يدي إخواني من طلاب العلم بعض الدرر فأقول:

١ ـ على طالب العلم أن يتأدب مع علماء الملة، فيترحّم عليهم كلما ذكرهم، إلا أن يكونوا من الصحابة فيترضّى عليهم.

٢ ـ وعليه أن يتأدب مع أقرانه، فلا يتعالى عليهم بل يتواضع لهم،

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠٢)، ذيل تاريخ بغداد (١/ ٣٥٤).

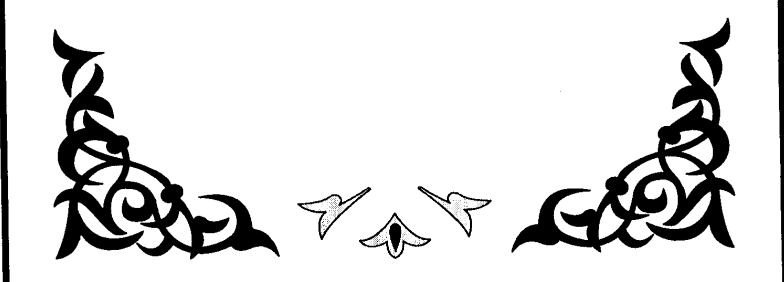


المحاضرة الرابعة

علماء وأمراء

تأليف

وحيد بن عبد السلام بالي



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله تعالىٰ من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

وبعد..

فهذه مواقف مشرقة اخترتها من تاريخ أمتنا الإسلامية المجيد تصور حال العلماء مع الأمراء؛ لأن هذين الصنفين إذا صلحا صلحت الأمة بصلاحهما وإذا فسدا فسدت الأمة.

وقد كتبت هذه المواقف التاريخية دونما تعليق؛ لأن كل موقف يحمل في طياته العظة للمتعظ والعبرة للمعتبر كتبتها تنبيهًا للغافل وتذكيراً للناسي.

واللهَ أسألُ أن ينفع بها إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصل اللهم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وكتبه

أفقر الخلق إلى الله

وحيد بن عبد السلام بالي

الحجاز في ٤ من صفر ١٤١٠هـ

النوايا التي يمكن أن يستحضرها المحاضر قبل إلقاء هذه المحاضرة

أولاً: النوايا العامة:

١ ـ ينوي القيام بتبليغ الناس شيئًا من دين الله إمتثالاً لقول النبي ﷺ: «**بلِّغوا عني ولو آية**» رواه البخاري.

٢ ـ رجاء الحصول علي ثواب مجلس العلم[١].

٣ ـ رجاءأن يرجع من مجلسه ذلك مغفوراً له[٢].

٤ ـ ينوي تكثير سواد المسلمين والالتقاء بعباد الله المؤمنين.

٥ ـ ينوي الاعتكاف في المسجد مدة المحاضرة ـ عند من يرىٰ جواز ذلك من الفقهاء ـ لأن الاعتكاف هو الانقطاع مدّة لله في بيت الله.

٦ ـ رجاء الحصول علىٰ أجر الخطوات إلىٰ المسجد الذي سيلقي فيه المحاضرة[٣].

---

(١) روىٰ مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

(٢) روىٰ الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٧) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم علىٰ ذكر، فتفرقوا عنه إلا قيل لهم قوموا مغفوراً لكم»، ومجالس الذكر هي المجالس التي تذكر بالله وبآياته وأحكام شرعه ونحو ذلك.

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من غدا إلىٰ المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».
وفي صحيح مسلم عنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته ثم مضىٰ إلىٰ بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرىٰ ترفع درجة».

٧ - رجاء الحصول على ثواب انتظار الصلاة بعد الصلاة، إذا كان سيلقي محاضرته مثلاً من المغرب إلى العشاء، أو من العصر إلى المغرب[١] .

٨ - رجاء أن يهدي الله بسبب محاضرته رجلاً. فيأخذ مثل أجره[٢] .

٩ - ينوي إرشاد السائلين، وتعليم المحتاجين، من خلال الرد على أسئلة المستفتين[٣] .

١٠ - ينوي القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - بالحكمة والموعظة الحسنة - إن وجد ما يقتضي ذلك[٤] .

١١ - ينوي طلب النضرة المذكورة في قول النبي ﷺ: «**نضّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها**». رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

- ثم قد يفتح الله على المحاضر بنوايا صالحة أخرى فيتضاعف أجره لقول النبي ﷺ: «**وإنما لكل امرئ ما نوى**». متفق عليه.

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال أحدكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة».

- وروى البخاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه».

(٢) ،(٤) روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم».

- وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا».

(٣) روى الترمذي وصححه الألباني عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير».

وصلاة الملائكة الاستغفار.

ثانيًا: النوايا الخاصة:

١ ـ حث السلاطين وأولياء الأمور على العدل في الرعية.

٢ ـ حثهم على اتباع أحكام الله وشرعه في كل أحوالهم.

٣ ـ حث العلماء على قول الحق، والنصح لأولياء الأمور.

٤ ـ حث المسلمين على الصدق والإخلاص، وأن لا تأخذهم في الله لومةُ لائم.

٥ ـ بيان أن الصدق منجاةُ لصاحبه ولو ظنَّ فيه الهلكة.

٦ ـ حث العامة على حب العلماء وتقديرهم ومعرفة حقوقهم.

٧ ـ بيان تواضع بعض السلاطين وقبولهم النصيحة من الناصحين.

٨ ـ إبراز عظمة هذا الدين، وأنَّه أخرج رجالاً لا يخافون إلا الله.

٩ ـ بيان أن الله يدافع عن أوليائه ومن قام لله لا يريد إلا وجهه.

عناصر المحاضرة:

١ ـ فضل العلم والعلماء.

٢ ـ ثلاثون موقفًا مشرقًا.

٣ ـ كن مع الله يكن الله معك.

* * *

بين سعيد بن جبير
والحجاج بن يوسف الثقفي

كان الحجاج بن يوسف، فاسق بني ثقيف، واليًا لعبد الملك يأخذ بالشبهات ويتحرىٰ المناوئين في جميع البلاد الإسلامية لحكم أميره وسيده.

فيصب المحن عليهم دون هوادة ولا خوف من الله المقتدر الجبار وكان خالد ابن عبد الملك القسري واليًا علىٰ مكة المكرمة شرفها الله وقد علم بوجود ابن جبير في ولايته فألقىٰ القبض عليه واعتقله ثم أراد أن يتخلّص منه فأرسله فخوراً مع إسماعيل بن واسط البجلي إلىٰ الحجاج بن يوسف.

قال الحجاج: ما اسمك؟

سعيد: سعيد بن جبير.

الحجاج: بل أنت شقي بن كسير.

سعيد: بل كانت أمي أعلم باسمي منك.

الحجاج: شقيت أمك وشقيت أنت.

سعيد: الغيب يعلمه غيرك.

الحجاج: لابد لك بالدنيا ناراً تلظىٰ.

سعيد: لو علمت أن ذلك بيدك، لاتخذتك إلهًا.

الحجاج: فما قولك في محمد؟

سعيد: نبي الرحمة وإمام الهدىٰ.

الحجاج: فما قولك في علي أهو في الجنة أم هو في النار؟

سعيد: لو دخلتها وعرفت من فيها، عرفت أهلها.

الحجاج: فما قولك في الخلفاء؟

سعيد: لست عليهم بوكيل.

الحجاج: فأيهم أعجب إليك؟

سعيد: أرضاهم لخالقي.

الحجاج: فأيهم أرضىٰ للخالق؟

سعيد: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج: أحب أن تصدقني.

سعيد: إن لم أحبك لن أكذبك.

الحجاج: فما بالك لم تضحك؟

سعيد :وكيف يضحك مخلوق خلق من طين، والطين تأكله النار!!

الحجاج: فما بالنا نضحك؟

سعيد: لم تستو القلوب.

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت، فجمعه بين يديه.

فقال سعيد: إن كنت جمعت هذا لتتقي به فزع يوم القيامة فصالح وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء من الدنيا إلا ما طاب وزكا.

ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ بالناي بكى سعيد.

فقال: ما يبكيك أهو اللعب؟

قال سعيد: هو الحزن. أما النفخ فذكَّرني يومًا عظيمًا يوم ينفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت من غير حق!! وأما الأوتار فمن الشاة تُبعث يوم القيامة!!

قال الحجاج: ويلك يا سعيد.

فقال: لا ويل لمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة.

قال الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة أقتلك؟

فقال: اختر أنت لنفسك فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة؟

قال: أتريد أن أعفو عنك؟

فقال: إن كان العفو، فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه.

فلما خرج ضحك فأُخبر الحجاج بذلك فردوه إليه.

وقال: ما أضحكك؟

فقال: عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله عليك.

فأمر بالنطع فبسط وقال: اقتلوه.

فقال سعيد: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين.

قال الحجاج: كبوه على وجهه.

قال سعيد: منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال الحجاج: اذبحوه.

قال سعيد: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله خذها مني حتى تلقاني بها يوم القيامة، اللهم لا تسلّطه على أحد يقتله بعدي[1].

* * *

---

(١) وفيات الأعيان (٢ / ٣٧١).

بين حطيط والحجاج

جيء بالعالم حطيط الزيات إلى الحجاج، فلما دخل عليه. قال: أنت حطيط؟

قال: نعم، سل عما بدا لك فإني عاهدت الله عند المقام[1] على ثلاث خصال إن سُئِلتُ لأصدقنَّ وإن ابتُليتُ لأصبرن وإن عُوفيتُ لأشكرن.

قال الحجاج: فما تقول فيَّ؟

قال: أقول فيك إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظُّنة.

قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟

قال: أقول إنه أعظم جرمًا منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه، فأمر الحجاج أن يضعوا عليه العذاب، فانتهى به العذاب إلى أن شُقق له القصب، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدُّون ـ يستلون ـ قصبة قصبة، حتى انتحلوا لحمه، فما سمعوه يقول شيئًا، فقيل للحجاج إنه في آخر رمق.

فقال: أخرجوه فارموا به في السوق.

قال جعفر ـ وهو الراوي ـ: فأتيته أنا وصاحب له.

فقلنا له: حطيط! ألك حاجة؟

قال: شربة ماء.

فأتوه بشربة ثم استشهد، وكان عمره ثماني عشرة سنة ـ رحمه الله[2] ـ.

---

(١) مقام إبراهيم عليه السلام عند الكعبة المشرفة.

(٢) الإحياء الجزء الخامس ص (٥٤).

بين سعيد بن المسيب وهشام بن إسماعيل

قال يحيىٰ بن سعيد، كتب هشام بن إسماعيل والي المدينة إلىٰ عبد الملك بن مروان أن أهل المدينة قد أطبقوا علىٰ البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب.

فكتب أن اعرضه علىٰ السيف فإن مضىٰ فاجلده خمسين جلدة وطُف به في أسواق المدينة، فلما قدم الكتاب علىٰ الوالي دخل سليمان بن يسار، وعروة ابن الزبير وسالم بن عبد الله علىٰ سعيد بن المسيب وقالوا: جئناك في أمر قد قدم كتاب عبد الملك إن لم تبايع ضربت عنقك ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثًا فأعطنا إحداهن، فإن الوالي قد قَبِل منك أن يقرأ عليك الكتاب فلا تقل لا، ولا نعم.

قال: يقول الناس: بايع سعيد بن المسيب، ما أنا بفاعل وكان إذا قال: لا، لم يستطيعوا أن يقولوا: نعم.

قالوا: تجلس في بيتك، ولا تخرج إلىٰ الصلاة أيامًا فإنه يقبل منك إذا طلبك من مجلسك فلم يجدك.

قال: فأنا أسمع الأذان فوق أذني حيَّ علىٰ الصلاة ما أنا بفاعل.

قالوا: فانتقل من مجلسك إلىٰ غيره، فإنه يرسل إلىٰ مجلسك، فإن لم يجدك أمسك عنك.

قال: أفَرقًا من مخلوق!! ما أنا متقدم شبراً ولا متأخر فخرجوا وخرج إلىٰ

صلاة الظهر فجلس في مجلسه الذي كان فيه، فلما صلى الوالي بعث إليه فأتي به.

فقال: إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك.

قال: نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين: بيعة للوليد، ومثلها لسليمان في وقت واحد فلما رآه قد مضى أمر به فجُرد فإذا عليه ثياب من شعر.

فقال: لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن فضربه خمسين سوطًا، ثم طاف به أسواق المدينة، فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال إن هذه الوجوه ما نظرت إليها منذ أربعين سنة[1]. ومنعوا الناس أن يجالسوه فكان من ورعه إذا جاء إليه أحد يقول له: قم من عندي، كراهية أن يُضرب بسببه[2].

* * *

(١) لأنه كان لا ينظر إلى قفا رجل في الصلاة إذ كان يصلي في الصف الأول ولم تفته تكبيرة الإحرام منذ أربعين سنة.

(٢) وفيات الأعيان (٢ / ٣٧٧) وسير أعلام النبلاء (٤ / ٢٣١) والحلية (٢ / ١٧٠).

بين أبي حازم
وسليمان بن عبد الملك

حين قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وهو يريد مكة وأرسل إلىٰ عالمها الجليل أبي حازم، فلما دخل عليه.

قال سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت.

فقال: لأنكم خرّبتم آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تُنقلُوا من العمران إلىٰ الخراب.

فقال سليمان: كيف القدوم علىٰ الله.

قال: يا أمير المؤمنين، أما المحسن فكالغائب يقدم علىٰ أهله وأما المسيء فكالآبق يقدم علىٰ مولاه.

فبكىٰ سليمان وقال: ليت شعري ما لي عند الله؟!

قال أبو حازم: اعرض نفسك علىٰ كتاب الله حيث قال: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].

قال سليمان: فأين رحمة الله؟

قال: قريب من المحسنين.

قال: يا أبا حازم أي عباد الله أكرم؟

فقال: أهل البر والتقوىٰ.

قال: فأي الأعمال أفضل؟

فقال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم.

قال: أي الكلام أسمع؟

فقال: قول الحق عند من تخاف وترجو.

قال: فأي المؤمنين أخسر؟

فقال: رجل خطأ في هوىٰ أخيه وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره.

قال سليمان: ما تقول فيما نحن فيه؟

فقال: أو تُعفيني؟

قال: لابد، فإنها نصيحة تُلْقِها إليَّ.

فقال: إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا منهم، حتىٰ قتلوا منهم مقتلة عظيمة وقد ارتحلوا، فلو شعرت بما قالوا وما قيل لهم.

فقال رجل من جلسائه: بئسما قلت.

قال أبو حازم: إن الله قد أخذ الميثاق علىٰ العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

فقال سليمان: يا أبا حازم، كيف لنا أن نصلح للناس؟

قال: تدع الصلف، وتستمسك بالعروة[1] وتَقسم بالسوية.

(١) في الأصل (المروه) ولعلها تصحيف.

قال: كيف المأخذ به؟

قال: أن تأخذ المال في حِلِّه، وتضعه في أهله.

قال: يا أبا حازم، ارفع إليَّ حوائجك؟

قال: تنجيني من النار، وتدخلني الجنة؟

قال: ليس ذلك إليَّ.

قال: فلا حاجة لي غيرها، ثم قام فأرسل إليه بمائة دينار فردها إليه، ولم يقبلها[١].

* * *

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٤٢٣).

بين عالم وسليمان بن عبد الملك

دخل أحدهم على سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إني مُكلِّمك بكلام فاحتمله وإن كرهته، فإن وراءه ما تحب إن قبلته.

فقال: إنا نجود بسعة الاحتمال على من نرجو نصحه، ولا نأمن غشه، فكيف بمن نأمن غشه ونرجو نصحه؟!

فقال: يا أمير المؤمنين إنه تكَنَّفَك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياهم بدينهم، ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله تعالى، ولم يخافوا الله فيك، حرب الآخرة سلم الدنيا، فلا تأمنهم على من ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألوا في الأمانة تضييعًا وفي الأمة خسفًا وعسفًا وأنت مسئول عما اجترحوا وليسوا بمسئولين عما اجترحت، فلا تُصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبْنا من باع آخرته بدنيا غيره.

فقال له سليمان: أما إنك قد سللت لسانك وهو أقطع من سيفك.

قال: أجل، يا أمير المؤمنين ولكن لا عليك[1].

* * *

(1) الإحياء الجزء الخامس ص١٢٢.

بين غلام وعمر بن عبد العزيز

لما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز، وفدت الوفود من كل بلد لبيان حاجتها وللتهنئة فوفد عليه الحجازيون فتقدم غلام هاشمي للكلام وكان حديث السن.

فقال عمر: لينطق من هو أسن منك.

فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فإذا منح الله عبدًا لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا فقد استحق الكلام، وعرف فضله من سمع خطابه ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك.

فقال عمر: صدقت، قل ما بدا لك.

فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين: نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئه، وقد أتيناك لمنِّ الله الذي منَّ علينا بك ولم يقدمنا إليك رغبة أو رهبة.

أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا، وأما الرهبة فقد أمِنَّا جورك بعدلك.

فقال عمر: عظني يا غلام.

فقال: أصلح الله أمير المؤمنين: أنَّ ناسًا من الناس غرَّهم حلم الله عنهم، وطول أملهم، وكثرة ثناء الناس عليهم، فزلت الأقدام فهووا في النار.

فلا يغرنك حلم الله عنك، وطول أملك، وكثرة ثناء الناس عليك، فتزل قدمك فتلحق بالقوم. فلا جعلك الله منهم، وألحقك بصالحي هذه الأمة. ثم سكت.

فقال عمر: كم عمر الغلام؟

فقيل له ابن إحدىٰ عشرة سنة ثم سأل عنه فإذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهم، فأثنىٰ عليه خيرًا ودعا له.

بين مكحول ويزيد بن عبد الملك

جلس التابعي الجليل مكحول عالم أهل الشام في مجلسه يلقي درسه كعادته، وحوله طلاب العلم يأخذون عنه، إذ أقبل الخليفة الأُموي يزيد بن عبد الملك في زينته وتبختره، وجاء إلىٰ حلقة مكحول، فأراد الطلاب أن يوسِعوا له.

فقال مكحول: دعوه يتعلم التواضع[(١)].

بين طاووس وهشام بن عبد الملك

إن هشام بن عبد الملك قدم حاجًا إلىٰ مكة فلما دخلها قال: ائتوني برجل من الصحابة.

فقيل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا.

فقال: من التابعين.

فأُتي بطاووس اليماني العالم الجليل ـ رحمه الله ـ.

فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بإمرة المؤمنين. ولكن قال:

السلام عليك يا هشام، ولم يُكنه، وجلس بإزائه.

وقال: كيف أنت يا هشام، فغضب هشام غضبًا شديدًا حتىٰ همَّ بقتله.

(١) سير أعلام النبلاء (٥ / ١٥٠).

فقيل له: أنت في حرم الله وحرم رسوله، ولا يمكنك ذلك.

فقال: يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت؟

قال: وما الذي صنعت؟

قال هشام: خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تُقبِّلْ يدي، ولم تُسلم بإمرة المؤمنين، ولم تكنني، وجلست بإزائي دون إذني، وقلت: كيف أنت يا هشام؟!.

فقال: أما ما فعلت من خلع نعلي بحاشية بساطك فإني أخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ولا يعاقبني ولا يغضب عليّ.

وأما قولك لم تُقبل يدي فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة أو ولده من رحمة، وأما قولك لم تسلم بإمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بإمرتك فكرهت أن أكذب، وأما قولك لم تكنني فإن الله سمى أنبياءه وأولياءه، فقال: يا داود ويا يحيى ويا عيسى وكنى أعداءه فقال: تبت يدا أبي لهب وتب.

وأما قولك جلست بإزائي فإني سمعت أمير المؤمنين عليًا رضي الله عنه يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله قوم قيام.

فقال هشام: عظني.

قال: سمعت أمير المؤمنين عليًا رضي الله عنه يقول: إن في جنهم حيات كالقلال، وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته، ثم قام وخرج[1].

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٥١٠).

بين طاووس وابن نجيح

عن ابن طاووس قال: كنت لا أزال أقول لأبي: إنه ينبغي أن يُخرجَ علىٰ هذا السلطان، وأن يفعل به.

قال: فخرجنا حجاجًا، فنزلنا في بعض القرىٰ، وفيها عامل - يعني لأمير اليمن - يقال له ابن نجيح، وكان من أخبث عمالهم، فشهدنا صلاة الصبح في المسجد فجاء ابن نجيح فقعد بين يدي طاووس فسلم عليه فلم يجبه، ثم كلّمه فأعرض عنه، ثم عدل إلىٰ الشق الآخر فأعرض عنه، فلما رأيت ما به قمت إليه فمددت يده وجعلت أسائله وقلت له: إن أبا عبد الرحمن لم يعرفك فقال العامل: بلىٰ معرفته لي فَعَلَتْ ما رأيت!، قال: فمضىٰ أبي لا يقول لي شيئًا، فلما دخلت المنْزل قال: أي لكع بينما أنت زعمت تريد أن تخرج عليهم بسيفك لم تستطع أن تحبس عنه لسانك[1].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤١).

بين طاووس وسليمان بن عبد الملك

جاء الخليفة سليمان بن عبد الملك يومًا إلىٰ طاووس، فلم ينظر إليه، فقيل له في ذلك.

فقال: أردت أن يعلم أن لله رجالاً يزهدون فيما لديه[1].

* * *

بين طاووس والمنصور

ورد أن أبا جعفر المنصور استدعىٰ طاووس - أحد علماء عصره - ومعه مالك ابن أنس - رحمهما الله تعالىٰ - فلما دخلا عليه، أطرق ساعة ثم التفت إلىٰ طاووس.

فقال له: حدثني عن أبيك.

فقال: حدثني أبي أن رسول الله ﷺ قال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القيَامَةِ رَجُلٌ أَشْرَكَهُ اللهُ فِي حُكْمِهِ فَأَدْخَلَ عليهِ الجَورَ في عدْله**». فأمسك ساعة.

قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه ثم التفت إليه أبو جعفر

فقال: عظني يا طاووس.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، إن الله تعالىٰ يقول: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ**

(١) وفيات الأعيان (٢ / ٤٢٤)

﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٣].

قال مـالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه فأمسك عنه ثم قال: ناولني الدواة، فأمسك ساعة حتى أسودَّ ما بيننا وبينه، ثم قال: يا طاووس ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه.

فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟

فقال: أخشى أن تكتب بها معصية لله، فأكون شريكك فيها فلما سمع ذلك

قال: قوما عني.

قال طاووس: ذلك ما كنا نبغ منذ اليوم.

قال مالك: فما زلت أعرف لطاووس فضله[1].

* * *

(١) تذكرة الحفاظ (١/ ١٦٠) وفيات الأعيان (٢/ ٥١١).

بين ابن أبي ذؤيب وأبي جعفر المنصور

عن الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قال: حدثني عمي محمد بن علي قال: إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب وكان والي المدينة الحسن بن يزيد.

قال: فأتىٰ الغفاريون فشكوا إلىٰ أبي جعفر شيئًا من أمر الحسن بن يزيد.

فقال الحسن هذا: يا أمير المؤمنين، سل عنهم ابن أبي ذؤيب.

قال: نسأله.

فقال: ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب.

فقال: أشهد أنهم تحطم في أعراض الناس، كثير الأذىٰ عليهم.

فقال أبو جعفر: أفسمعتم؟

فقال الغفاريون: يا أمير المؤمنين سله عن الحسن بن يزيد.

فقال: يا ابن أبي ذؤيب، ماتقول في الحسن بن يزيد؟

فقال: أشهد أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه.

فقال: سمعت يا حسن ما قال فيك وهو الشيخ الصالح؟

فقال: يا أمير المؤمنين، سله عن نفسك؟

فقال: ما تقول فيّ؟

قال: تُعفني يا أمير المؤمنين .

قال: أسألك بالله إلا أخبرتني؟

قال: تسألني بالله كأنك لم تعرف نفسك!!

قال: والله! لتخبرني؟

قال: أشهد أنك أخذت المال من غير حقه فجعلته في غير أهله، وأشهد أنك الظلم ببابك فاش .

قال: فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه .

ثم قال: أما والله لولا أني جالس ههنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك .

قال: فقال ابن أبي ذؤيب : يا أمير المؤمنين قد ولي أبو بكر وعمر وأخذا الحق وقسما بالسوية وأخذا بأقفاء فارس والروم وأصغرا أنوفهم .

قال: فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله .

قال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك .

فقال ابن أبي ذؤيب: والله يا أمير المؤمنين إني لأنصح لك من ابنك المهدي .

قال: فبلغنا أن ابن أبي ذؤيب لما انصرف من مجلس المنصور لقيه سفيان الثوري .

فقال: يا أبا الحارث : لقد سرّني ما خاطبت به هذا الجبار ولكن ساءني قولك له ابنك المهدي .

فقال: يغفر الله لك يا أبا عبد الله كلنا مهدي كلنا كان في المهد[1] .

(١) الإحياء الجزء السابع ص٧٧ .

بين الحسن البصري
والحجاج بن يوسف الثقفي

لما ولي الحجاج بن يوسف الثقفي العراق وطغىٰ في ولايته وتجبر كان الحسن البصري أحد الرجال القلائل الذين تصدوا لطغيانه وجهروا بين الناس بسوء أفعاله وصدعوا بكلمة الحق في وجهه من ذلك أن الحجاج بنىٰ لنفسه بناء في واسط فلما فرغ منه نادىٰ في الناس أن يخرجوا للفرجة عليه والدعاء له بالبركة.

فلم يشأ الحسن أن يفوِّت علىٰ نفسه فرصة اجتماع الناس هذه، فخرج إليهم ليعظهم ويذكرهم ويزهدهم بعرض الدنيا، ويرغبهم بما عند الله - عز وجل - ولما بلغ المكان ونظر إلىٰ جموع الناس وهي تطوف بالقصر المنيف مأخوذة بروعة بنائه مدهوشة بسعة أرجائه، مشدودة إلىٰ براعة زخارفه، وقف فيهم خطيبًا وكان في جملة ما قاله: لقد نظرنا فيما ابتنىٰ أخبث الأخبثين، فوجدنا أن فرعون شيَّد أعظم مما شيَّد وبنىٰ أعلىٰ مما بنىٰ، ثم أهلك الله فرعون وأتىٰ علىٰ ما بنىٰ وشيد. ليت الحجاج يعلم أن أهل السماء قد مقتوه وأن أهل الأرض قد غروه، ومضىٰ يتدفق علىٰ هذا المنوال حتىٰ أشفق عليه أحد السامعين من نقمة الحجاج، فقا له: حسبك يا أبا سعيد. . حسبك، فقال الحسن: لقد أخذ الله الميثاق علىٰ أهل العلم ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

وفي اليوم التالي دخل الحجاج إلىٰ مجلسه وهو يتميز من الغيظ وقال لجلاَّسه: تبًا لكم وسحقًا، يقوم عبد من عبيد أهل البصرة ويقول فينا ما شاء أن يقول ثم لا يجد فيكم من يرده أو ينكر عليه، والله لأسقينكم من دمه يا معشر

الجبناء، ثم أمر بالسيف والنطع فأحضرا، ودعا بالجلاد فمُثل واقفًا بين يديه، ثم وجَّه إلىٰ الحسن بعض شرطه، وأمرهم أن يأتوا به.

وما هو إلا قليل حتىٰ حضر الحسن فشخصت إليه الأبصار ووجفت عليه القلوب فلما رأىٰ الحسن السيف والنطع والجلاد حرك شفتيه ثم أقبل علىٰ الحجاج وعليه جلال المؤمن وعزة المسلم ووقار الداعية إلىٰ الله.

فلما رآه الحجاج علىٰ حاله هذا هابه أشد الهيبة وقال له هاهنا يا أبا سعيد.. هاهنا.. ثم ما زال يوسع له ويقول: هاهنا... والناس ينظرون إليه في دهش واستغراب حتىٰ أجلسه علىٰ فراشه.

ولما أخذ الحسن مجلسه التفت إليه الحجاج وجعل يسأله عن بعض أمور الدين، والحسن يجيبه عن كل مسألة بجنان ثابت، وبيان ساحر، وعلم واسع.

فقال له الحجاج: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد، ثم دعا بغالية وطيَّبَ له بها لحيته وودعه.

ولما خرج الحسن من عنده تبعه حاجب الحجاج وقاله له: يا أبا سعيد، لقد دعاك الحجاج بغير ما فعل بك وإني رأيتك عندما أقبلت ورأيت السيف والنطع فحركت شفتيك، فما قلت؟!

فقال الحسن: لقد قلت يا ولي نعمتي وملاذي عند كربتي اجعل نقمته بردًا وسلامًا عليَّ كما جعلت النار بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم[1].

* * *

(١) صور من حياة التابعين (٢/ ١٧).

بين أبي يوسف القاضي
وهـارون الـرشيـد

عندما طلب هارون الرشيد من أبي يوسف القاضي وضع كتاب الخراج لم يفت القاضي أن يقدّم النصيحة للخليفة في مقدمة الكتاب، فقال يا أمير المؤمنين: إن الله ـ وله الحمد ـ، قد قلّدك أمراً عظيماً ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب، قلّدك أمر هذه الأمة، فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير، وقد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم وليس يلبث البنيان إذا أسس على غير التقوىٰ أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه. فلا تضيعن ما قلدك الله أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في العمل بإذن الله، لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت، إن الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعمل فإنه لا عمل بعد الأجل، وإن الرعاة مؤدُّون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه، فأتم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهاره، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته، ولا تزغ فتزيغ رعيتك، وإياك والأمر بالهوىٰ، والأخذ بالغضب وإذا نظرت إلى أمرين، أحدهما للاخرة والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على الدنيا، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنىٰ، وكن من خشية على حذر، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد، ولا تخف في الله لومة لائم، واحذر، فإن الحذر بالقلب وليس باللسان، واتق الله فإنما التقوىٰ بالتوقي ومن يتق الله يتقه.

إني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك، ورعية ما استرعاك الله،

وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله، فإنك إن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدىٰ وتَعْمىٰ في عينيك وتتخفىٰ رسومه ويضيق عليك رحبه وتنكر منه ما تعرف، وتعرف منه ما تنكر، فخاصم نفسك خصومة من الفلج لها لا عليها، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك علىٰ يديه مما لو شاء رده عن مواطن الهلكة بإذن الله.

وأورده أماكن الحياة والنجاة فإن ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه آخذ وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ووفاه الله أضعاف ما وفىٰ له.

فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك ويضيعك بما أضعت أجرك، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم، وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره فلست تنسىٰ، ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يغفل عنك ولا يضيع حقك من هذه الدنيا في هذه الليالي والأيام كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحًا وتهليلاً وتمجيداً والصلاة علىٰ رسول الله ﷺ نبي الرحمة وإمام الهدىٰ[1].

❊ ❊ ❊

(١) مقدمة كتاب الخراج للإمام أبي يوسف القاضي.

بين أبي حنيفة والمنصور

انتقض أهل الموصل على أبي جعفر المنصور، وقد اشترط المنصور عليهم أنهم إن انتقضوا تحل دماؤهم له، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم الإمام أبو حنيفة.

فقال: أليس صحيحًا أنه عليه السلام قال: «المؤْمِنُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ»، وأهل الموصل قد شرطوا ألا يخرجوا عليَّ وقد خرجوا على عاملي، وقد حلت دماؤهم.

فقال رجل منهم: يدك مبسوطة عليهم، وقولك مقبول فيهم فإن عفوت فأنت أهل العفو، وإن عاقبت فبما يستحقون.

فقال لأبي حنيفة: ما تقول أنت يا شيخ؟ ألسنا في خلافة نبوة وبيت أمان؟!

فأجاب أنهم شرطوا لك ما لا يملكون، وهو استحلال دمائهم، وشرطت عليهم ما ليس لك، لأن دم المسلم لا يحل إلا بأحد معان ثلاث[1].

فأمرهم المنصور بالقيام، فتفرقوا، فدعاه وحده.

فقال: يا شيخ. القول ما قلت، انصرف إلى بلادك ولا تفت الناس بما هو شين على إمامك فتبسط أيدي الخوارج[2].

* * *

(١) يشير الإمام أبي حنيفة - رحمه الله تعالى - إلى قوله عليه الصلاة والسلام «لا يحلُّ دم امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث، النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة» متفق عليه.

(٢) المناقب لابن الجوزي (٢/ ١٧).

بين أبي حنيفة والمنصور

أراد أبو جعفر المنصور أن يولي أبا حنيفة القضاء فأبىٰ فحلف عليه ليفعلن، فحلف أبو حنيفة ألا يفعل، فقال الربيع بن يونس الحاجب: ألا ترىٰ أمير المؤمنين يحلف.

فقال أبو حنيفة: أمير المؤمنين علىٰ كفارة أيمانه أقدر مني علىٰ كفارة أيماني، وأبىٰ أن يلّبي الأمر.

قال الربيع: رأيت المنصور ينازل أبا حنيفة في أمر القضاء، وهو يقول: اتق الله ولا ترعىٰ أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا مأمون الرضا، فكيف أكون مأمون الغضب؟ لو اتجه الحكم عليك، ثم هددتني أن تغرقني في الفرات أو تلي الحكم لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون من يكرمهم لك، ولا أصلح لذلك فقال له: كذبت أنت تصلح.

فقال له: قد حكمت لي علىٰ نفسك كيف يحل لك أن تولي قاضيًا علىٰ أمانتك وهو كذاب[1]؟!.

❊ ❊ ❊

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٤٠٧).

بين الأوزاعي وعبد الله بن علي

لما دخل عبد الله بن علي دمشق، بعد أن أجلىٰ بني أمية عنها، طلب الأوزاعي، فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه قال الأوزاعي: دخلت عليه، وهو علىٰ سرير وفي يده خيرزانه، والمسوَّدة عن يمينه وشماله معهم السيوف مصلته، والغمد والحديد، فسلمت عليه فلم يرد. نكت بتلك الخيرزانة التي في يده.

ثم قال: يا أوزاعي ما ترىٰ فيما صنعناه من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد والبلاد؟ أجهادًا ورباطًا هو؟

فقلت: أيها الأمير سمعت يحيىٰ بن سعيد الأنصاري يقول: سمعت محمد ابن إبراهيم التيمي يقول: سمعت علقمة بن وقاص يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَات وإنَّمَا لكُلِّ امرىء ما نوى، فمن كانتْ هجرتُهُ إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[1].

فنكت بالخيرزانة أشد ما ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيدهم علىٰ قبضات سيوفهم.

ثم قال: يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أمية.

فقلت: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحلُّ دم امريءٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاثٍ،**

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

النفس بالنفس والثيب الزَّاني والتاركُ لدنيه المفارقُ للجماعة»[١].

فنكت أشد من ذلك.

ثم قال: ما تقول في أموالهم؟

قلت: إن كانت في أيديهم حرامًا فهي حرام عليك أيضًا، وإن كانت حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعي فنكت أشد ما كان ينكت قبل ذلك.

ثم قال: ألا نوليك القضاء.

قلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون عليَّ في ذلك إني أحب من ابتدأوني به من الإحسان.

قال: كأنك تحب الانصراف.

قلت: إن روائي حُرَمًا، وهن يحتجن القيام عليهن وسترهن، وقلوبهن مشغولة بسببي.

انتظرت رأسي أن يسقط بين يدي فأمرني بالانصراف[٢].

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) مجلة العربي العدد (٧١) سنة ١٩٦٤م. الأوزاعي فقيه أهل الشام.

بين الأوزاعي والمنصور

وهذا الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي قال محدثًا عن نفسه بعث إليَّ أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل، فأتيته، فلما وصلت إليه سلمت عليه بالخلافة، فرد عليّ واستجلسني، ثم قال لي.

ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي؟

قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين.

قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم.

قلت: انظر يا أمير المؤمنين، أن لا تجهل شيئًا مما أقول.

قال: وكيف أجهله؟! وأنا أسألك عنه وفيه وجهت إليك، وأقدمتك له.

قلت: أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به.

قال الأوزاعي: فصاح بي الربيع وأهوىٰ بيده إلىٰ السيف فانتهره المنصور،

وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة!

فطابت نفسي وانبسطت في الكلام.

فقلت: يا أمير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيَّما عبْدٌ جاءَتْهُ موعظةٌ من الله في دينه فإنَّها نعمةٌ من الله سيقت إليه فإنْ قبلَهَا بِشُكْرٍ وإلاَّ كانتْ حجَّةً من الله عليه ليزداد إثمًا، ويزداد الله بها سخطًا عليْهِ**».

يا أمير المؤمنين: من كره الحق فقد كره الله إن الله هو الحق المبين، إن الذي

ليَّن قلوب أمتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله ﷺ، وقد كان بهم رءوفًا رحيمًا مواسيًا لهم بنفسه من ذات يده محمودًا عند الله وعند الناس فحقيق بك أن تقوم له بالحق وأن تكون بالقسط له فيهم قائمًا، ولعوراتهم ساترًا، ولا تغلق عليك دونهم الأبواب ولا تقيم دونهم الحجاب تبتهج بالنعمة وتبتئس بما أصابهم من سوء.

يا أمير المؤمنين: قد كنت في شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم، وكل له عليك نصيب من العدل، فكيف إذا انبعث منهم فئام وراء فئام، وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بليْة أدخلتها عليه، وظلمة سقتها إليه.

يا أمير المؤمنين: إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك.

يا أمير المؤمنين: بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك يا أمير المؤمنين: قد سأل جدك العباسُ النبيَّ ﷺ إمارة مكة أو الطائف أو اليمن فقال النبي ﷺ: «**يا عبَّاسُ يا عمَّ النبيِّ نفسٌ تحْييها خيْرٌ منْ إمارة لا تُحْصيهَا**» نصيحة منه لعمه وشفقة عليه وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئًا إذ أوحى الله إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: «**يا عبّاس، يا صفيَّة عمَّةَ النَّبي، ويا فاطمةُ بنتُ محمَّد إني لست أغني عنكم من الله شيئًا لي عملي، ولكم عملكم**».

وقد قال عمر بن الخطاب: الأمراء أربعة: فأمير قوي ظلف نفسه وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله، يد الله باسطة عليه بالرحمة، وأمير فيه ضعف

ظلف نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله، وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذي قال فيه رسول الله: «**بئس الرُّعَاةُ الحُطَمَــةُ**»[1] فهو الهالك وحده، وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعًا. ثم قال: يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام لله بحقه وإن أكرم الكلام عند الله التقوىٰ، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه، ومن طلبه بمعصية الله أذله ووضعه، فهذه نصيحتي إليك والسلام عليك. ثم نهضت فقال لي إلىٰ أين؟.

فقلت: إلىٰ الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله.

فقال: أذنت لك وشكرت نصيحتك وقبلتها.

قال محمد بن مصعب فأمر له بمال يستعين به علىٰ خروجه فلم يقبله.

وقـــال: أنا في غنىٰ عنه وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا، وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في ذلك[2].

❋ ❋ ❋

---

(١) والحطمة: اسم من أسماء النار لأنها تحطم ما يلقىٰ فيها.

(٢) روىٰ هذه النصيحة الحافظ ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء.

بين سفيان الثوري والخليفة المهدي

قال الإمام سفيان الثوري: لما حج المهدي قال: لابد لي من سفيان، فوضعوا لي الرصد حول البيت، فأخذوني بالليل، فلما مَثلت بين يديه قال لي: لأي شيء لا تأتينا فنستشيرك في أمرنا فما أمرتنا من شيء صرنا إليه، وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه.

فقلت له: كم أنفقت في سفرك هذا؟

قال: لا أدري لي أمناء ووكلاء.

قلت: فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدي الله تعالى فسألك عن ذلك. لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حجّ قال لغلامه: كم أنفقت في سفرنا هذا؟

قال: يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً.

فقال: ويحك! أجحفنا بيت مال المسلمين.

وقد علمت ما حدَّثنا به منصور عن الأسود عن علقمة عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**رُبَّ مُتَخَوِّض في مال الله ومالِ رسُوله فيما شاءتْ نفْسُهُ له النَّارُ غَدًا**».

فيقول أبو عبيد الكاتب: أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا؟

فيجيبه سفيان بقوة وعزة المسلم: أسكت إنما أهلك فرعونَ هامانُ وهامانَ فرعونُ[1].

(١) المسند للأستاذ: أحمد شاكر الجزء الأول. وفيات الأعيان (٢ / ٣٨٧).

وهذا موقف ثان له: في يوم قال الخليفة المهدي للخَيْزُرَانِ: أريد أن أتزوج، فقالت له: لا يحل لك أن تتزوج عليّ، قال: بلىٰ قالت له: بيني وبينك من شئت.

قال: أترضين سفيان الثوري؟.

قالت: نعم.

فوجه إلى سفيان: فقال: إن أم الرشيد تزعم أنه لا يحل لي أن أتزوج عليها، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ ثم سكت فقال له سفيان أتم الآية يريد قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، وأنت لا تعدل، فأمر له بعشرة آلاف درهم فأبىٰ أن يقبلها[1].

وهذا موقف ثالث له: قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدي وأتىٰ سفيان الثوري كبير علماء المسلمين في عصره فلما دخل عليه سلم ولم يسلم بالخلافة والربيع قائم علىٰ رأسه متكئًا علىٰ سيفه يرقب أمره فأقبل عليه المهدي بوجه طلق.

وقال له: يا سفيان انظر هاهنا وهاهنا وتظن أن لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشىٰ أن نحكم فيك بهوانا.

قال سفيان: إن تحكم فيَّ، يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل.

فقال الربيع له: يا أمير المؤمنين ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ أتأذن لي أن أضرب عنقه.

فقال له المهدي: اسكت ويلك وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقىٰ

(١) وفيات الأعيان (٢ / ٣٨٩).

لسعادتهم اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه في حكم فكتب عهده ورفعه إليه فأخذه وخرج ورمى به في دجلة وغاب عن أنظار الناس فطلب في كل بلد فلم يوجد فتولى القضاء مكانه شريك النخعي[1].

وهذا موقف رابع له: دخل على أبي جعفر المنصور، العالم الجليل سفيان الثوري وسأله أن يرفع إليه حاجته فأجابه اتق الله فقد ملأت الأرض ظلمًا وجورًا فطأطأ المنصور رأسه ثم أعاد عليه السؤال، فأجابه إنما نزلت هذه المنْزلة بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعًا، فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم فطأطأ المنصور شاكرًا ثم كرر السؤال ولكن سفيان تركه وانصرف[2].

* * *

(١) تذكرة الحفاظ (١/ ١٦٠) وفيات الأعيان (٢/ ٣٩٠).
(٢) الإحياء الجزء الخامس ص١٢٠ .

بين حماد بن سلمة
ومحمد بن سليمان

قال ابن سليمان: دخلت على حماد بن سلمة فإذا ليس في البيت إلا حصي وهو جالس وفي يديه مصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه ومطهرة يتوضأ منها، فبينما أنا جالس إذ دق الباب.

فقال حماد: يا حبيبة اخرجي فانظري من هذا؟

فقالت: رسول محمد بن سليمان يستأذن؟

فقال حماد: ائذني له، فإذا معه رسالة من الأمير، فإذا فيها بعد أن سلم أما بعد: فصبَّحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته، وقعت مسألة، فأتنا نسألك عنها، والسلام.

فقال: يا حبيبة، هلمّ الدواة.

ثم قال لي: اقلب كتابه، واكتب أما بعد.

فأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون لأحد، فإن وقعت لك مسألة فأتنا، وسل ما بدا لك، وإن أتيتني فلا تأتيني بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح إلا تقيًا والسلام.

فبينما أنا جالس إذ دق الباب.

فقال: يا حبيبة.. اخرجي، فانظري من هذا؟

قال: محمد بن سليمان.

قال: قولي له يدخل وحده، فدخل وجلس بين يديه وبدأ.

فقال: مالي إذا نظرت فيك امتلأت منك رعبًا .

قال حماد: حدثني ثابت البناني قال : سمعت أنسا يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إنَّ العَالِمَ إذَا أرَادَ بِعلمِه وجه الله هابه كلُّ شيءٍ، وإذا أراد به أنْ يكنز الكنوزَ هَابَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ**» .

فقال: ما تقول ـ رحمك الله ـ في رجل له ابنان وهو على أحدهما أرضى فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله؟

فقال حماد: لا يفعل ـ رحمك الله ـ فإني سمعت أنسًا يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إذا أرَادَ اللهُ أنْ يُعَذِّبَ عبْدًا منْ عباده في حياته وفَّقَهُ إلى وَصِيَّةٍ جَائِرَةٍ**» فعرض عليه مالاً ، فلم يقبل ، وخرج[1] .

* * *

(1) الإسلام بين العلماء والحكام ص٩٩ .

بين صالح المري والمهدي

بعث المهدي إلىٰ صالح المري، قال صالح فلما دخلت عليه قلت يا أمير المؤمنين احمل لله ما أُكلمك به اليوم فإن أولىٰ الناس بالله أحملهم لغلظة النصيحة فيه وجدير بمن له قرابة برسول الله ﷺ أن يرث أخلاقه ويأتم بهديه، وقد ورثك الله من فهم العلم وإنارة الحجة ميراثًا قطع به عذرك، فمهما ادعيت من حجة، أو ركبت من شبهة لم يصح لك فيها برهان من الله، حَلَّ بك من سخط الله بقدر ما تجاهلته من العلم، أو أقدمت عليه من شبهة الباطل واعلم أن رسولُ الله ﷺ خصم من خالف في أمته، يبتزها أحكامها، ومن كان محمد ﷺ خصمه كان الله خصمه فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حُججًا تضمن لك النجاة، أو استسلم للهلكة.

واعلم أن أبطأ الصرعىٰ نهضةً صريع الهوىٰ، وأن أثبت الناس قدمًا يوم القيامة آخذهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ فمثلك لا يكابر بتجديد المعصية ولكن تمثل له الإساءة إحسانًا، ويشهد عليه خونة العلماء وبهذه الحبالة تصيدت الدنيا نظراءك، فأحسن الحمل، فقد أحسنت إليك الأداء.

فبكىٰ المهدي، ثم أمر له بشيء، فلم يقبله.

وحكىٰ بعض الكتاب أنه رأىٰ هذا الكلام مكتوبًا في دواوين المهدي[1].

* * *

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٤٩٤).

بين الإمام مالك
وجعفر بن سليمان

سعي بالإمام مالك إلىٰ جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس - وهو ابن عم أبي جعفر المنصور - وقالوا له: إنه لا يرىٰ أيمان بيعتكم هذه بشيء، فغضب جعفر ودعا به، وجرده وضربه بالسياط، ومدت يده حتىٰ انخلعت كتفه، وارتكب منه أمرًا عظيمًا، فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة.

وذكر ابن الجوزي في «شذور العقود» في سنة سبع وأربعين ومائة وفيها ضُرب مالك بن أنس سبعين سوطًا لأجل فتوىٰ لا توافق غرض السلطان[1].

* * *

(١) وفيات الأعيان (٤/ ١٣٧).

بين الفضيل بن عياض والرشيد

قال الفـضيل بن الربيع: كنت بمنزلي ذات يوم وقـد خلعت ثيـابي وتهيـأت للنوم، فإذا بقرع شديد علىٰ بابي، فقلت ـ في قلق ـ : من هذا ؟

قـال الطارق : أجب أمير المؤمنين، فـخرجت مسـرعًـا أتعثر في خطوي فإذا بالرشيـد قـائمًا علىٰ بابي وفي وجهه تجهم حزيـن فقلت : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك .

فـقـال: ويحك قـد حاك في نفسي شيء أطار النوم من أجفـاني، وأزعج وجداني شيء لا يذهب به إلا عالم تقي من زُهادك، فانظر لي رجلاً أسأله .

ثم يقول ابن الربيع : حتىٰ جئت به إلىٰ الفضيل بن عياض .

فقال الـرشيد: امض بنا إليه، فأتيناه، وإذا هـو قائم يصلي في غـرفته وهو يقـرأ قـوله تعـالىٰ : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] .

فقال الرشيد: إن انتفعنا بشيء، فبهذا .

فقرعت الباب .

فقال الفضيل: من هذا؟

قلت: أجب! أمير المؤمنين .

فقال: مالي ولأمير المؤمنين .

فقلت: سبحان الله أما عليك طاعته .

فنَزل ففتح الباب ثم ارتقىٰ الغرفة فأطفأ السراج، ثم التجأ إلىٰ زاوية من زوايا الغرفة، فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفي إليه.

فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالىٰ غداً.

قال ابن الربيع: فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي.

فقال الرشيد: خذ فيما جئناك له يرحمك الله.

فقال الفضيل بن عياض: وفيما جئت وقد حمّلت نفسك ذنوب الرعية التي سمتها هوانًا، وجميع من معك من بطانتك وولاتك تضاف ذنوبهم إليك يوم الحساب، فبك بغوا، وبك جاروا وهم مع هذا أبغض الناس لك وأسرعهم فراراً منك يوم الحساب حتىٰ لو سألتهم عند انكشاف الغطاء عنك وعنهم أن يحملوا عنك سقطًا - جزءاً - من ذنب، ما فعلوه، ولكان أشدهم حبًا لك أشدهم هربًا منك.

ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله وحمد بن كعب ورجاء بن حيوة وهم ثلاثة من العلماء الصالحين فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي فعد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله، فليكن كبير المسلمين عندك أبًا وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ابنًا، فوقِّر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن علىٰ ولدك.

وقال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إن شئت وإني أقول لك: يا هارون، إني أخاف عليك أشد الخوف يومًا تذل فيه الأقدام، فبكىٰ هارون.

قال ابن الربيع: فقلت ارفق بأمير المؤمنين.

فقال: تقتله أنت وأصحابك، وأرفق به أنا.

ثم قال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخَلْق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه فافعل، وإياك أن تصبح أو تمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أصْبَحَ لَهُمْ غَاشًا لَمْ يُرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّة**»[1].

فبكىٰ الرشيد. ثم قال: هل عليك دين؟

فقال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم أُلهمَ حُجتي.

قال الرشيد: إنما أعني ديْن العباد.

فقال: إن ربي لم يأمرني بهذا، وقد قال عز وجل: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فقال الرشيد: هذه ألف دينار خذها وأنفقها علىٰ عيالك وتقو بها علىٰ عبادتك.

قال: سبحان الله! أنا أدلك علىٰ طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا.

قال ابن الربيع: فخرجنا من عنده.

---

(١) رواه البخاري (١٣ / ١١٢) (١٤٣) في كتاب الإيمان.

فقال هارون الرشيد: إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين اليوم[١].

ويحكى أن الرشيد قال له يومًا: ما أزهدك! فقال الفضيل: أنت أزهد مني،

قال: وكيف ذلك؟

قال: لأني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة والدنيا فانية والآخرة باقية[٢].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٧٨) وقال الذهبي حكاية عجيبة والغلابي غير ثقة ا.هـ، قلت ولكن قد تابعه محمد بن سعد الحراني، فالله أعلم.

(٢) وفيات الأعيان (٤/ ٤٨).

بين شعيب بن حرب
وهارون الرشيد

قال شعـيب بن حـرب: بينما أنا في طريق مكة، إذ رأيت هارون الرشيد، فقلت في نفسي قد وجب عليك الأمر والنهي، فقالـت لي: لا تفعل فإن هذا رجل جبار ومتىٰ أمرته ضرب عنقك.

فقلت في نفسي: لابد من ذلك فلما دنا مني صحت: هارون قد آذيت الأمة وأتعبت البهـائم، فقال: خذوه، ثم أدخلت عليه وهو علىٰ كرسي وبيده عمود يلعب به.

فقال: ممن الرجل؟

فقلت: من أفناء الناس.

فقال: ممن ثكلكتك أمك؟!

قلت: من الأبناء.

قال: وما حملك أن تدعوني باسمي؟

فــقلت: أنا أدعو الله باسمه فأقول ياالله، يا رحـمن، وما ينكر من دعائي باسمك، وقد رأيت الله سمىٰ في كتابه أحب الخلق إليه محمداً وكنىٰ أبغض الخلق إليه أبا لهب.

فقال: أخرجوه[1].

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٤٧٠).

بين منذر بن سعيد
والخليفة الناصر

لقد أقبل الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله على عمارة الزهراء أيما إقبال وأنفق من أموال الدولة في تشييدها وزخرفتها ما أنفق، وهي في حقيقة حالها مجموعة من القصور الفاخرة وكان يشرف بنفسه على شئون البناء والزخرفة حتى شغله ذلك ذات مرة عن شهود صلاة الجمعة وكان منذر بن سعيد يتولى خطبة الجمعة والقضاء ورأى خروجًا من تبعة التقصير فيما أوجبه الله على العلماء، أن يلقي على الخليفة الناصر درسًا بليغًا يحاسبه فيه على إسرافه وإنفاقه في مدينة الزهراء ورأى أن يكون ذلك على ملأ من الناس في المسجد الجامع بالزهراء فلما كان يوم الجمعة اعتلى المنبر، والخليفة الناصر حاضر، والمسجد غاص بالمصلين وابتدأ خطبته قرأ قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٥].

ثم مضى في ذمِّ الإسراف على البناء بكل كلام جزل وقول شديد ثم تلا قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

وراح يحذِّر وينذر ويحاسب حتى ادكر من حضر من الناس وخشعوا وأخذ الناصر من ذلك بأوفر نصيب، وقد علم أنه المقصود به فبكى وندم على تفريطه. غير أن الخليفة لم يحتمل صدره لتلك المحاسبة العلنية ولشدة ما سمع.

فقال شاكيًا لولده الحكم: والله لقد تعمدني بخطبته وما عنى بها غيري فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي . . ثم استشاط غيظًا عليه متذكرًا كلماته وأراد أن يعاقبه لذلك!!

فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة، وجعل يلزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف خطيب جامع قرطبة.

ولكن لما رأى ولده الحكم تعلق والده بالزهراء والصلاة في مسجدها العظيم.

قال له: فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة به إذا كرهته، ولكن الناصر زجره.

قائلاً: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه ـ لا أم لك ـ يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟.

هذا ما لا يكون وإني لأستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه ولكن أحرجني فأقسمت ولوددت أن أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي بل يصلي منذر بالناس حياته وحياتنا ـ إن شاء الله ـ فما أظن أنا نعتاض منه أبدًا.

ولما اشتدت الفجوة بين الشيخ منذر بن سعيد والخليفة عبد الرحمن الناصر نتيجة محاسبة المنذر له في إسرافه على بناء الزهراء. أراد ولده الحكم أن يزيل ما بينهما فاعتذر له عند الخليفة.

فقال: يا أمير المؤمنين إنه رجل صالح وما أراد إلا خيراً، لو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك، ويريد بالبنية هنا القبة التي بناها الناصر بالزهراء واتخذ قراميدها من فضة وبعضها مغشى بالذهب وجعل سقفها نوعين صفراء

فاقعة إلى بيضاء ناصعة يستلب الأبصار شعاعها .

فلما قال له ولده ذلك أمر فُفرشت بفرش الديباج وجلس فيها لأهل دولته .

ثم قال لقرابته ووزرائه: أرأيتم أم سمعتم ملكًا كان قبلي صنع مثل ما صنعت؟

فقالوا: لا والله ياأمير المؤمنين وإنك الأوحد في شأنك فبينما هم على ذلك إذ دخل منذر بن سعيد ناكسًا رأسه ، فلما أخذ مجلسه قال له ما قال لقرابته ، فأقبلت دموع المنذر تنحدر على لحيته لسوء ما رأى .

وقال : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من قيادتك هذا التمكن مع ما آتاك الله تعالى وفضلك به على المسلمين حتى ينْزلك منازل الكافرين .

فاقشعر الخليفة من قوله ، وقال له .

انظر ما تقول كيف أنزلني الله منازلهم؟ .

فقال: نعم . أليس الله يقول : ﴿ **وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ** ﴾ [الزخرف : ٣٣] .

فوجم الخليفة ونكس رأسه مليًا وجعلت دموعه تنحدر على لحيته ثم أقبل على المنذر وقال له : جزاك الله خيرًا وعن الدين خيرًا ، فالذي قلت هو الحق .

ثم قام من مجلسه وأمر بنقض سقف القبة ، وأعادها أميره ترابًا على صفة غيرها[1] .

* * *

(١) مقال بين خليفة وقاض في مجلة الأزهر لشهر رمضان سنة ١٣٧١هـ للأستاذ عبد الحميد العبادي ، وانظر الإسلام بين العلماء والحكام ٩٣ .

بين الكيلاني والمقتفي

وهذا الشيخ عبد القادر الكيلاني - رحمه الله تعالى - يقف على منبره محاسبًا المقتفي لأمر الله ومنكرًا عليه تولية يحيى بن سعيد المشهور بابن المزاحم الظالم القضاء، فقال له مخاطبًا: وليت على المسلمين أظلم الظالمين وما جوابك غدًا عند رب العالمين أرحم الراحمين؟!

فارتعد الخليفة، وعزل المذكور لوقته[١].

بين العز بن عبد السلام ونجم الدين أيوب

كان لمماليك الأتراك نفوذ في الدولة الإسلامية في أواخر حكم العباسيين وامتد نفوذهم حتى أصبحوا أمراء في الدولة أيام حكم نجم الدين أيوب في مصر وكان الشيخ العزُّ قاضيًا للقضاة فيها، وقام - رحمة الله عليه - مصلحًا لأمر القضاء منفذًا بحزم أحكام الشرع لا تأخذه في ذلك لومة لائم، فنظر في حقيقة قضية أولئك الأمراء التي أثارها هو ثم أصدر قضاءه الآتي:

قال السبكي[٢]: ذكر كائنة الشيخ مع أمراء الدولة من الأتراك وهم جماعة ذكروا أن الشيخ لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فبلغهم ذلك، فعظم الخطب فيه واحتدم الأمر والشيخ

---

(١) قلائد الجواهر ص٨.

(٢) الطبقات، الجزء الخامس ص٨٤.

مصمم لا يصحح لهم بيعًا ولا شراء ولا نكاحًا وتعطلت مصالحهم بذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة فاشتاط غضبًا، واجتمعوا، وأرسلوا إليه.

فقال: نعقد لكم مجلسًا ويُنادىٰ عليكم لبيت مال المسلمين ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلىٰ السلطان فبعث إليه فلم يرجع فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة، حاصلها الإنكار علىٰ الشيخ في دخوله في هذا الأمر، وأنه لا يتعلق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه علىٰ حمار، وأركب عائلته علىٰ حمير أخرىٰ، ومشىٰ خلفهم من القاهرة قاصدًا الشام فلم يصل إلىٰ نحو نصف بريد حتىٰ لحقه غالب المسلمين لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه له يتخلف ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم فبلغ السلطان الخبر، وقيل له متىٰ راح ذهب ملكك قبله، فرجع واتفقوا معه علىٰ أن ينادي علىٰ الأمراء فأرسل نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه فانزعج النائب.

فقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا.

فركب بنفسه في جماعة، وجاء إلىٰ بيت الشيخ، والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، فخرج ولد الشيخ، فرأىٰ من نائب السلطنة ما رأىٰ فعاد إلىٰ أبيه وشرح له الحال، فما اكترث لذلك ولا تغير.

وقال: يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله ثم خرج كأنه قضاء الله قد نزل علىٰ نائب السلطنة فحين وقع بصره علىٰ النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها وارتعدت مفاصله، فبكىٰ وسأل الشيخ أن يدعو له.

وقال: يا سيدي، خير أي شيء تعمل؟

قال: أنادي عليكم وأبيعكم .

قال: ففيم تصرِف ثمننا؟

قال: في مصالح المسلمين .

قال: من يقبضه .

قال: أنا ، فتم له ما أراد ونادىٰ علىٰ الأمراء واحداً واحداً وغالىٰ في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير - وهذا لم يسمع قبله لأحد - رحمه الله ورضي عنه [1] .

* * *

---

(١) راجع الإسلام بين العلماء والحكام ١٩٧ .

بين العز بن عبد السلام ونجم الدين أيوب

إن خلافًا نشأ واشتد، وخصامًا طفق منذرًا بالكيد والحرب بين الأخوين، سلطان الشام الملك الصالح إسماعيل، وسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب، وقد أوجس إسماعيل خيفة من نجم الدين أيوب، فاستعان بالصليبيين أعداء الإسلام، وتحالف معهم على قتال أخيه، وأعطاهم مقابل ذلك مدينة صيدا -على رواية السبكي- وكذلك قلعة صفد وغيرها -على رواية المقريزي وغيره- وأمعن إسماعيل في هذه الخيانة فسمح للصليبيين أن يدخلوا دمشق ويشتروا منها السلاح وآلات الحرب وما يريدون، وأثار هذا الصنيع المنكر استياء المسلمين وعلمائهم، فهبَّ الشيخ العز واقفًا في وجه الخيانة والخائنين، وأفتى بتحريم بيع السلاح لهم، وصعد على منبر جامع الأموي بدمشق في يوم الجمعة، حيث كان خطيبه الرسمي، وأعلن الفتوى، وشدَّد في الإنكار على السلطان وفعلته المنكرة وخيانته الفظيعة للأمة الإسلامية، وقطع من الخطبة الدعاء للسلطان إسماعيل وهو بمثابة الإعلان بنزع البيعة ورفع الولاء عن السلطان يومئذ وصار يدعو بدعاء منه: اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد يعز فيه أولياؤك ويذل فيه أعداؤك ويعمل فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك- والمصلون يضجون بالتأمين على دعائه- ولم يكن السلطان حاضرًا تلك الخطبة إذ كان خارج دمشق ولما أعلمه رجاله بذلك أمر بعزل الشيخ عن خطبة الجمعة واعتقاله مع صاحبه الشيخ ابن الحاجب المالكي لاشتراكه معه في هذا الإنكار.

وكان أنصار الشيخ قد أشاروا عليه بأن يغادر البلاد وينجو بنفسه من يد

السلطان وأعدوا له وسائل الهرب، ولكنه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ أبىٰ ذلك وألحوا عليه، فأصر علىٰ الإباء فعرضوا عليه بأن يختبيء في مكان أمين لا يهتدي إليه السلطان ورجاله، فرفض هذا العرض أيضًا وقال: والله لا أهرب ولا أختبيء وإنما نحن في بداية الجهاد ولم نعمل شيئًا بعد وقد وطنت نفسي علىٰ احتمال ما ألقىٰ في هذا السبيل والله لا يضيع عمل الصابرين.

ثم لما قدم إسماعيل إلىٰ دمشق أفرج عنهما بعد الاعتقال ولكن العز بن عبد السلام أمر بملازمة داره وأن لا يفتي ولا يجتمع بأحد البتة فاستأذنه في صلاة الجمعة مؤتمًا بإماها وأن يعيد إليه طبيب أو مزين (حلاق) إذا احتاج إليهما وأن يدخل الحمام فأذن له في ذلك ومرت الأيام والشيخ في إقامته الجبرية، وقد منع من الإفتاء والاتصال بأحد من إخوانه أو طلابه وتعطلت هوايته المفضلة وواجبه المقدس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فطلب الهجرة من دمشق قاصدًا مصر، وأفرج عنه بعد محاورات ومراجعات فأقام بدمشق ثم انتزع منها إلىٰ بيت المقدس، فوافاه الملك الناصر داود في الفور فقطع عليه الطريق وأخذه وأقام بنابلس مدة وجدت له معه خطوب ثم انتقل إلىٰ بيت المقدس حيث أقام مدة ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلىٰ بيت المقدس يقصدون الديار المصرية فسير الصالح إسماعيل بعض خواصه إلىٰ الشيخ بمنديله، وقال له: تدفع منديلي إلىٰ الشيخ وتتلطف له غاية التلطف وتستنْزله وتعده بالعودة إلىٰ مناصبه علىٰ أحسن حال فإن وافقك فتدخل به علي، وإن خالفك فاعتقله في خيمة إلىٰ جانب خيمتي، فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته.

ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلىٰ مناصبك وما كنت عليه زيادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير.

فقال الشيخ: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل

يده، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد، الحمد الله الذي عافاني مما ابتلاكم به.

فقال الرسول: يا شيخ قد رسم لي أن توافق على ما يطلب وإلاّ اعتقلتك!

فقال الشيخ: افعلوا ما بدا لكم فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان وكان الشيخ يقرأ القرآن في معقتله والسلطان يسمعه.

فقال يومًا لملوك الفرنج: تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟

فقالوا: نعم.

قال: هذا أكبر قسوس المسلمين، قد حبسته لإنكاره علي تسليمي لكم حصون المسلمين وعزلته عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ثم أخرجته فجاء إلى القدس وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم!!

فقالت له ملوك الفرنج: لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه وشربنا مرقتها[1].

* * *

(١) (وا إسلاماه) لأحمد بكثير(١٠٠)، وانظر الطبقات للسبكي.

بين النووي والظاهر بيبرس

لما خرج الظاهر بيبرس إلىٰ قتال التتار بالشام أخذ فتاوىٰ العلماء بجواز أخذ مال من الرعية يستنصر به علىٰ قتالهم، فكتب له فقهاء الشام بذلك فأجازوه.

فقال: هل بقي من أحد؟.

فقيل له: نعم بقي الشيخ محي الدين النووي.

فطلبه فحضر.

فقال له: اكتب خطك مع الفقهاء فامتنع.

فقال: ما سبب امتناعك؟

فقال: أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير (بندقدار) وليس لك مال، ثم مَنَّ الله عليك وجعلك ملكًا وسمعت عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة من ذهب وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلي فإذا انفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود والصرف بدلا من الحوائص وبقيت الجواري بثيابهن دون الحُلي، أفتيتك بأخذ المال من الرعية فغضب الظاهر من كلامه، وقال: اخرج من بلدي - يعني دمشق.

فقال: السمع والطاعة وخرج إلىٰ نوىٰ.

فقال الفقهاء: إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدىٰ به فأعده إلىٰ دمشق.

فرسم برجوعه، فامتنع الشيخ.

وقال: لا أدخلها والظاهر فيها، فمات بعد شهر[1].

---

(١) من أخلاق العلماء الجزء التاسع.

بين ابن تيمية وغازان

وردت الأنباء في أواخر سنة ٦٩٨هـ بزحف غازان التتري وجيشه من إيران نحو حلب وفي وادي سليمة يوم ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ التقى جمع غازان بجمع الناصر بن قلاوون وبعد معركة حامية الوطيس هزم جمع الناصر وولى الجند وأمراؤهم الأدبار ونزح أعيان دمشق إلى مصر يتبعون سير الناصر، حتى خلت دمشق من حاكم أو أمير أو أعيان البلاد، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية بقي صامداً مع عامة الناس فاجتمع شيخ الإسلام مع من بقي من أعيان البلاد، واتفق معهم على تولي الأمور وأن يذهب هو على رأس وفد من الشام لمقابلة غازان فقابله في بلدة النبك وقد دارت بينهما مناقشة عنيفة قال البالسي: قال الشيخ ابن تيمية لغازان وترجمانه يترجم كلام الشيخ: أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاضي وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا، فغزوتنا، وبلغت بلادنا على ماذا؟، وأبوك وجدك كانا كافرين وما غزوا بلاد الإسلام بعد أن عاهدونا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت وجرت مع ابن تيمية وغازان أمور قام بها ابن تيمية كلها لله ثم قرب غازان إلى الوفد طعاماً فأكلوا إلا ابن تيمية فقيل له: ألا تأكل.

فقال: كيف آكل من طعامكم وكله مما نهبتموه من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟

وغازان مصغ لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه، وأن غازان من شدة ما أوقع في قلبه من الهيبة والمحبة سأل مَنْ هذا الشيخ؟.

إني لم أر مثله، ولا أثبت قلبًا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا رأيتني

أعظم انقياداً لأحد منه .

فأخبر بحاله، وما هو عليه من العلم والعمل ثم طلب منه غازان الدعاء .

فقال الشيخ يدعو فقال: اللهم إن كان عبدك هذا إنما يقاتل لتكون كلمتك العليا وليكون الدين كله لك، فانصره وأيده، وملكه البلاد والعباد وإن كان قد قام رياء وسمعة وطلبًا للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره، وغازان يؤمن على دعائه ويرفع يديه .

قال البالسي: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفًا من أن نتلوث بدم ابن تيمية إذا أمر بقتله، فلما خرجنا من عنده قال قاضي القضاة نجم الدين وغيره: كدت تهلكنا وتهلك نفسك والله لا نصحبك من هنا، فقال: وإني والله لا أصحبكم .

قال البالسي: فانطلقوا عصبة وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه فتسامعت به الخواتين والأمراء وأصحاب غازان فأتوه يتبركون بدعائه وهو سائر إلى دمشق، ووالله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه .

وكنت أنا في جملة من كان معه وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتار فشلحوهم - أي سلبوهم - ثيابهم وما معهم[1] .

* * *

(١) مختصر منهاج السنة للذهبي ص٣٣٢ .

الختام

وبعد فهذا آخر ما تم جمعه واختياره من المواقف التاريخية وأسأل الله تعالى أن ينفع إخواني المسلمين وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وكتبه

وحيد بن عبد السلام بالي

عفا الله عنه وعن جميع إخوانه المسلمين آمين

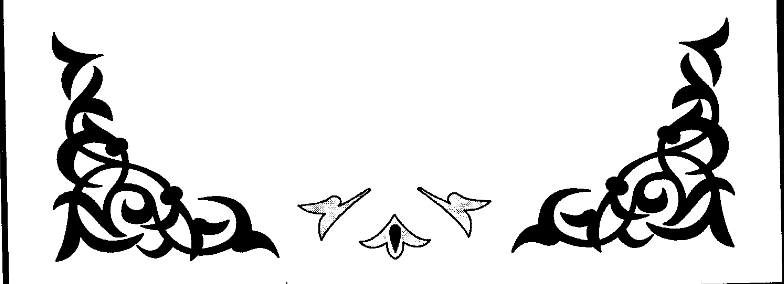


المحاضرة الخامسة

محاسبة النفس

تأليف

وحيد بن عبد السلام بالي



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

وبعد...

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وإنّ ما قَلّ وكفىٰ خير مما كثر وألهىٰ، وإن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين.

اعلم أخي المسلم ـ وفقك الله ـ أن النفس البشرية كالطفل إن أدبتها وهذبتها صلحت، وإن أهملتها وتركتها خابت وخسرت، أو كالبعير إن عقلتها ثبتت، وإن تركتها شردت.

ومن هذا المنطلق كتبت هذه الكلمات في محاسبة النفس، وترويضها لكي تكون دافعًا لي ولإخواني في محاسبة أنفسنا، ومعاملتها بما تستحق.

وقد قسمت هذه الكلمة إلىٰ ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في وجوب محاسبة النفس.

الفصل الثاني: في فوائد محاسبة النفس.

الفصل الثالث: في كيفية محاسبة النفس.

وأسأل الله - تبارك وتعالىٰ - أن يرزقنا الإخلاص في الأقوال والأفعال، والحركات والسكنات.

وصل اللهم وسلم وبارك علىٰ عبدك ورسولك محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وكتبه

أفقر الخلق إلى الله

وحيد بن عبد السلام بالي

مدينة أبها في غرة شهر شعبان من عام ١٤١٠هـ

النوايا التي يمكن أن يستحضرها المحاضر قبل إلقاء هذه المحاضرة

أولاً: النوايا العامة:

١ - ينوي القيام بتبليغ الناس شيئًا من دين الله إمتثالاً لقول النبي ﷺ: «بلِّغوا عني ولو آية» رواه البخاري.

٢ - رجاء الحصول علي ثواب مجلس العلم[١].

٣ - رجاءأن يرجع من مجلسه ذلك مغفوراً له[٢].

٤ - ينوي تكثير سواد المسلمين والالتقاء بعباد الله المؤمنين.

٥ - ينوي الاعتكاف في المسجد مدة المحاضرة - عند من يرىٰ جواز ذلك من الفقهاء - لأن الاعتكاف هو الانقطاع مدّة لله في بيت الله.

٦ - رجاء الحصول علىٰ أجر الخطوات إلىٰ المسجد الذي سيلقي فيه المحاضرة[٣].

---

(١) روىٰ مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

(٢) روىٰ الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٧) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم علىٰ ذكر، فتفرقوا عنه إلا قيل لهم قوموا مغفوراً لكم»، ومجالس الذكر هي المجالس التي تذكر بالله وبآياته وأحكام شرعه ونحو ذلك.

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من غدا إلىٰ المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».

وفي صحيح مسلم عنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته ثم مضىٰ إلىٰ بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرىٰ ترفع درجة».

٧ ـ رجاء الحصول على ثواب انتظار الصلاة بعد الصلاة، إذا كان سيلقي محاضرته مثلاً من المغرب إلى العشاء، أو من العصر إلى المغرب[١] .

٨ ـ رجاء أن يهدي الله بسبب محاضرته رجلاً . فيأخذ مثل أجره[٢] .

٩ ـ ينوي إرشاد السائلين، وتعليم المحتاجين، من خلال الرد على أسئلة المستفتين[٣] .

١٠ ـ ينوي القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ إن وجد ما يقتضي ذلك[٤] .

١١ ـ ينوي طلب النضرة المذكورة في قول النبي ﷺ: «**نضّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها**». رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦) .

ـ ثم قد يفتح الله على المحاضر بنوايا صالحة أخرى فيتضاعف أجره لقول النبي ﷺ: «**وإنما لكل امرئ ما نوى**». متفق عليه .

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال أحدكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة» .

ـ وروى البخاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: « الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه لذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه» .

(٢) ،(٤) روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم» .

ـ وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا» .

(٣) روى الترمذي وصححه الألباني عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير» .

وصلاة الملائكة الاستغفار .

ثانيًا: النوايا الخاصة:

١ - ينوي بذلك تذكير نفسه أولاً بأمر المحاسبة .

٢- ينوي بذلك حث المسلمين على محاسبة أنفسهم .

٣ - ينوي بذلك تعريف المسلمين بكيفية محاسبة النفس .

٤ - ينوي بذلك التعاون مع المسلمين على البر والتقوى .

٥ - رجاء أن يتصل عبدٌ بالله بسببك فتأخذ أجره .

عناصر المحاضرة:

١ - وجوب محاسبة النفس .

٢ - فوائد محاسبة النفس .

٣ - كيفية محاسبة النفس .

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

وجوب محاسبة النفس

إن النفس بطبيعتها تميل إلىٰ الشهوات واللذات والهوىٰ، فلابد إذن من محاسبة هذه النفس، ومنعها عن الشر، ودفعها إلىٰ الخير، فهي المَيْدَانُ الأول الذي يجب الاهتمام به، فمنها يفلح الإنسان، ومنها يخسر، ولقد أقسم المولىٰ تبارك وتعالىٰ في كتابه الكريم أنه لا فلاح ولا نجاح إلا بتزكية النفس وتطهيرها، ثم بيّن بعد ذلك أن إهمالها وتركها في المعاصي موجبٌ للخسران الذي ما بعده خسران فقال: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ١-١٠].

قال قتادة: قد أفلح من زكىٰ نفسه بالطاعة، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل.

وقد جاء الأمر الإلهي للمؤمنين جميعًا بمحاسبة النفس، حيث قال تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الحشر: ١٨].

قال ابن كثير -رحمه الله- في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**﴾: أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم، وعرضكم علىٰ ربكم.

ثم قال في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم، وأحوالكم، لا تخفىٰ عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير. اهـ.

وقال تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

يخبرنا الله في هذه الآية أنه قد أحاط بخلقه علمًا، فهو سامع لكلامهم، راءٍ لمكانهم حيث كانوا، وأين كانوا.

ومن هنا وجب علىٰ المسلم أن يلبي نداء الله عز وجل، فيحاسب نفسه، ويعاقبها علىٰ التفريط، ويعاتبها علىٰ التقصير، وكيف لا يحاسب المسلم نفسه وهو يعلم أن الله يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور؟!

وعن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأمَانّي**» رواه الترمذي، وحسَّنه، وقال الترمذي: «دان نفسه»: حاسبها.

وفي البخاري، عن أنس رضي الله عنه قال: «**إِنَّكُم لتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هيَ أدقُّ في أعيُنِكُم من الشَّعْرِ، إنْ كُنَّا لنَعُدُّها على عهد النبي ﷺ من المُوبِقاتِ**».

قال البخاري ـ رحمه الله ـ: يعني بذلك المهلكات.

وذكر الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «حاسبوا أنفسكم قَبْلَ أن تُحاسبوا، وزِنُوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، فإنَّهُ أهون عليكم في الحساب غداً أن تُحاسِبُوا أنفسكُم اليومَ، وتَزَيَّنُوا للعَرْضِ الأكبرِ، يومئذٍ تُعْرضُوْنَ لا تخفىٰ منكم خافية».

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «إن المؤمن ـ والله ـ ما تراه إلا يلوم نفسه علىٰ كل حالاته، يَسْتَقْصِرُها في كل فعل فيندم ويلوم نفسه. وإن الفاجر ليمضي قُدُمًا لا يعاتب نفسه».

(يستقصرها): يعني يتهمها بالتقصير.

فكن أخي المسلم ممن يحاسب نفسَهُ ولا تكن الآخر.

وقال قتادة ـ رحمه الله ـ في قوله تعالىٰ: ﴿**وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨]: «أضاع نفسه وغبن، ومع ذلك تراه حافظًا لماله مُضيعًا لدينه».

وقال ميمون بن مهران: «لا يكون العبد تقيًا حتىٰ يكون لنفسه أشدَّ محاسبةً من الشريك لشريكه. ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوَّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك».

وقال ميمون بن مهران أيضًا: «إنَّ التَّقِيَّ أشدُّ محاسبة لنفسه من سلطان عاصٍ ومن شريك شحيح».

وذكر الإمام أحمد، عن وهب قال: مكتوب في حكمة آل داود «حقٌّ علىٰ العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويَصْدُقُونَهُ عن نفسه، وساعة يُخَلِّي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يَحِلُّ ويَجمُلُ، فإن في هذه الساعة عونًا علىٰ تلك الساعات، وإجمامًا للقلوب».

وكتب عمر بن الخطاب إلى بعض عماله: «حَاسِب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلىٰ الرضا والغِبْطَةِ، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلىٰ الندامة والخسارة».

قال الحسن: «المؤمن قَوَّام على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير مُحاسبة، إن المؤمن يُفاجِئه الشيء ويعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات حيلَ بيني وبينك، ويَفْرُطُ منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا؟ مالي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبدًا، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يَسْعى في فِكَاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره، وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله».

قال مالك بن دينار: «رَحِمَ الله عبدًا قال لنفسه: أَلَسْت صاحبةَ كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمّهَا ثم خطَمَها، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل، فكان لها قائدًا».

***

الفصل الثاني

فوائد محاسبة النفس

إن لمحاسبة النفس فوائد كثيرة منها:

أولاً: الاطلاع على عيوبها:

إن من مداومة الإنسان على محاسبة نفسه يعلم عيوبها، وَزَلاتها، ومواطن الضعف فيها، فيبدأ بعلاجها، وَوَصفِ الدَّواءِ لها، ولكن لا يَتَسنَّىٰ ذلك إلا بعد معرفة مواطن الداء.

ولذلك قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن لم يَطَّلعْ على عَيْبِ نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطَّلع على عيبها مَقَتَها في ذات الله».

وقد روىٰ الإمام أحمد، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: «لا يَفْقَه الرجل كل الفقه حتىٰ يَمْقُتَ الناس في جنب الله، ثُمَّ يرجع إلىٰ نفسه فيكون لها أشدَّ مقتًا».

وقال مطرف بن عبد الله: «لولا ما أعلم من نفسي لقليت[1] الناس».

وقال أبو بكر بن عبد الله المزني: «لَمَّا نَظَرْتُ إلىٰ أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم»

ولما احتضر سفيان الثوري دخل عليه أبو الأشهب وحماد بن سلمة، فقال له حماد: يا أبا عبد الله أليس قد أمِنْتَ مّما كنت تخافه؟ وَتَقْدُم على من ترجوه وهو أرحم الراحمين؟ فقال: يا أبا سلمة أتطمع لمثلي أن يَنْجُوَ من النار؟ قال:

---
(١) قليتُ: بغضتُ

إي والله إني لأرجو ذلك.

وذكر عن مسلم بن سعيد الواسطي قال: أخبرني حماد بن جعفر بن زيد: أن أباه أخبره قال: «خرجنا في غزاة إلىٰ كائل، وفي الجيش (أُشَيْم بن صلة) فنزل الناس عند العتمة، فصلوا ثم اضطجع فقلت: لأرمقن عمله، فالتمس غفلة الناس حتىٰ إذ قلت: هدأت العيون، وثب فدخل غيضة قريبًا منا فدخلت علىٰ إثره، فتوضأ ثم قام يصلي وجاء أسد حتىٰ دنا منه، فصعدت في شجرة، فتراه التفت أو عدّه جروًا؟ فلما سجد قلت: الآن يفترسه، فجلس، ثم سلم، ثم قال: أيها السبع اطلب الرزق من مكان آخر، فولىٰ وإن له لزئيرًا أقول: تصدع الجبال منه، فما زال كذلك يصلي حتىٰ طلع الصبح، ثم جلس فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، ومثلي يصغر أن يجترئ أن يسألك الجنة، ثم رجع. وأصبح كأنه بات علىٰ الحشايا، وأصبحت وبي من الفترة شيء الله عالم به».

وهكذا كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يحاسبون أنفسهم، فأثمرت المحاسبة استصغار العمل، ودنو الأجل، واتهام النفس.

فهذا محمد بن واسع يقول: «لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد أن يجلس إليَّ».

وذُكِرَ داود الطائي عند بعض الأمراء فأثنوا عليه فقال: «لو يعلم الناس بعض مَا نحن فيه ما ذلَّ لنا لسان بذكر خير».

وقال أبو حفص: «من لم يتهم نفسه علىٰ دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلىٰ مكروهها في سائر أوقاته، كان مغرورًا ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها».

واعلم أخي المسلم أن الاطلاع على عيوب النفس يثمر مقت النفس وازدراءها، وهذا يرفع العبد عند الله درجات.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو به العبد من الله تعالى في لحظة واحدة أضعاف ما يدنو بالعمل».

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن الحسن بن أنس، حدثنا منذر، عن وهب «أن رجلاً سائحًا عَبَد الله عز وجل سبعين سنة، ثم خرج يومًا فقلَّل عملَه وشكا إلى الله تعالى منه، واعترف بذنبه، فأتاه آتٍ من الله فقال له: إن مجلسك هذا أحب إليَّ من عملك فيما مضى من عمرك».

وليست هذه دعوة إلى ترك العمل والتفرغ للعبادة، ولكنها تنبيه للعبد أن يجتهد في العبادة، وليعلم أنه مقصر في حق مولاه الذي أنعم عليه بنعم لا تعد ولا تحصى، وهذا من صفات الصادقين.

ولكن الهدف من الاطلاع على عيوب النفس وآفاتها هو معالجتها كي تُشفى من هذه الأمراض، وتتخلص من هذه العيوب، وبذلك يتقي الإنسان نفسه، ويطهرها، ويزكيها، وهذا هو طريق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

ثانيًا: الاستعداد للرحيل

واعلم أخي المسلم أن محاسبة النفس تجعلك دائم الاستعداد ليوم القيامة تُعِدّ الزاد، وتستكثر منه، وليعلم كل مسلم أنه ليس للمرء في الدنيا مقام، ولا عليها قرار، فالآخرة خير لمن اتقى، ولا تظلمون فتيلاً، يوم القيامة يوم الحسرة والندامة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ

أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠]. يومها لا يعرف أحدٌ أحدًا، ولو كان قريبًا، أو عزيزًا، بل لو كان أباه، أو أخاه، أو أمه، أو ابنه ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

ألا يكفي ذلك زجرًا للعاصي، وتنبيهًا للغافل، وإيقاظًا للنائم، وتذكيرًا للناسي، فيهبوا جميعًا ويتوبوا إلىٰ ربهم، ويعودوا إلىٰ منهاج نبيهم، ويقطعوا عهدًا جديدًا مع ربهم، ويعدوا الزاد ليوم الميعاد، ويستكثروا من الخيرات قبل فوات الأوان: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

قال الفضيل بن عياض: «المؤمن في الدنيا مهموم حزين، همه مرمة جهازه، ومن كان في الدنيا كذلك، فلا هم له إلا التزود بما ينفعه عند العودة إلىٰ وطنه، فلا ينافس أهل البلد - الذي هو غريب بينهم - في عزهم، ولا يجزع من الذل عندهم».

وقال أيضًا: «إنما أنت أيام مجموعة كلما مضىٰ يوم مضىٰ بعضك».

وقال داود الطائي: «إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتىٰ ينتهي ذلك بهم إلىٰ آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زادًا لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمدك، فكأنك بالأمد قد بغتك».

واعلم أخي المسلم أنك من الدنيا مسافر، فلابد من الزاد لهذا السفر الطويل، والأمر الخطير. وقد أحسن من قال:

سَبِيلُكَ في الدُّنْيا مُسافر ... ولابُدَّ مِنْ زَادٍ لِكُلِّ مُسَافِرِ
ولابُدَّ للإنْسَانِ مِنْ حَمْلِ عُدَّةٍ ... ولا سِيَّمَا إنْ خَافَ صَوْلَةَ قَاهِرِ

وقال بعض الحكماء: «من كانت الأيام والليالي مطاياه سارت به، وإن لم يسر».

وفي هذا المعنى قال بعضهم:

ومَا هذه الأيامُ إلا مراحلُ ... يحثُّ بها داعٍ إلى الموت قَاصِد
وأعجبُ شيءٍ لوْ تأمَّلتَ أنَّها ... منازلُ تُطوَى والمُسَافِرُ قَاعِدُ

وقال بعضهم:

نَسِيْرُ إلى الآجالِ في كُلِّ لَحْظَة ... وأيَّامُنَا تُطْوَى وَهُنَّ مَرَاحِلُ
ولَمْ أرَ مِثْلَ المَوْتِ حقًّا كأنَّهُ ... إذا ما تخطَّتْهُ الأمانِيُّ بَاطِلُ
وما أقْبَحَ التفريطَ في زمنِ الصِّبا ... فكيف والشيبُ للرأس شاغل
تَزَوَّدْ من الدنيا بزادٍ مِنَ التُّقَى ... فَعُمْرُكَ أيَّامٌ وَهُنَّ قلائلُ

فإذا كان الموت قد أحاط بنا من كل جانب، والأيام والليالي تنقلنا من هذه الدنيا، فما العمل؟ العمل ما تجده في قول الفضيل بن عياض - رحمه الله - حيث قال لرجل: كم أتت عليك؟ فقال الرجل: ستون سنة. قال الفضيل: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ.

فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الفضيل: أتعرف تفسير ما قلت؟ من عرف أنه لله عبد، و إنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فَلْيَعُدَّ للسؤال جوابًا.

فقال الرجل: فما الحيلة؟

قال: يسيرة.

قال: ما هي؟

قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضىٰ، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذت بما مضىٰ وما بقي»

وفي هذا المعنىٰ قال بعضهم:

وإن المرْءَ قدْ سَارَ ستِّينَ حَجَّةٍ ... إلى منْهَلٍ وِرْدُهُ قَرِيبُ

ثالثًا: تولُّد خلق الحياء من الله: لأن المسلم إذا حاسب نفسه علىٰ التفريط والتقصير في جنب الله تعالىٰ، ورأىٰ نعم الله إليه نازلة ومعاصيه وذنوبه إلىٰ ربه صاعدة، علم قدر نفسه وهوانها، وتولد عنده خُلُقُ الحياء من الله تبارك وتعالىٰ، وقد قال النبي ﷺ: «**الحَيَاءُ شُعْبَةٌ منَ الإِيمَانِ**». متفق عليه.

رابعًا: الازدياد من العمل الصالح: ومحاسبة النفس تدفع العبد علىٰ الإزدياد من العمل الصالح، والتزود من الدنيا قبل الرحيل، لأنه بمحاسبته لنفسه يعلم قدر الدنيا وهوانها، وعظم الآخرة وثوابها، فيرحل بقلبه من الفانية إلىٰ الباقية: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾ [الذاريات: ٥٠].

خامسًا: دوام الخشية من الله: إن العبد إذا استمر علىٰ محاسبته لنفسه، وتوبيخها، وتقريعها صار من العارفين بالله، العالمين به علم اليقين الذين قال الله فيهم ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨] لأن العلم إذا لم يزد صاحبه خشية لله فليس بعلم نافع.

فالعلم علمان: علم علىٰ اللسان، وعلم في القلب، فأما العلم الذي علىٰ اللسان فهو حجة الله علىٰ خلقه، وأما العلم الذي في القلب فهو الخشية.

الفصل الثالث

كيفية المحاسبة

يقول ابن القيم ـ رحـمه الله تعالى ـ: «محاسبة النفس نوعـان: نوع قبل العمل، ونوع بعده».

فأما النوع الأول:

فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتىٰ يتبين رجحانه علىٰ تركه. قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «رحم الله عبدًا وقف عند هَمِّه، فإن كان لله مضىٰ، وإن كان لغيره تأخر».

أما النوع الثاني:

محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

أحـدها: محاسبتها علىٰ طاعة قصرت فيها من حق الله تعالىٰ فلم توقعها علىٰ الوجه الذي ينبغي. وحق الله تعالىٰ في الطاعة ستة أمور هي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

الثاني: أن يحاسب نفسه علىٰ كل عمل كان تَرْكُهُ خيرًا له من فعله.

الثـالث: أن يحاسب نفسه علىٰ أمر مباح أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح،

ويفوته الظفر به؟ اهـ.

وغاية ذلك أن يحاسب العبد نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصًا تداركه إما بقضاء أو إصلاح. ثم يحاسبها على المنهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة، والاستغفار، والحسنات الماحيات. ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشت إليه رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه.

وأخيراً أسأل الله - تبارك وتعالى - أن يعلمنا العلم النافع، ويرزقنا العمل الصالح، وسبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

* * *

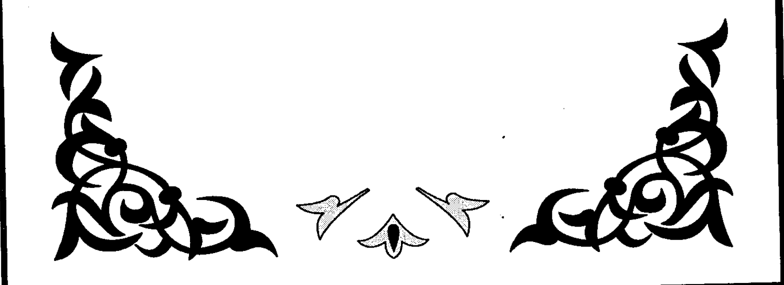


المحاضرة السادسة

فاكهة المجالس

تأليف

وحيد بن عبد السلام بالي



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد:

فأصل هذه الرسالة خطبة كنت قد ألقيتها في مسجد (الفرقان)[1] بمنشأة عباس العامرة - حفظها الله من كيد الكائدين، ومكر الماكرين، وثبَّت أهلها على الصراط المستقيم، وجميع المسلمين في كل أرض يذكر فيها رب العالمين - فلما وجدت لها وقعًا في النفوس وتأثيراً في القلوب، لا من أجل الخطيب فإنه من أقل الناس علمًا، ولكن من أجل الموضوع ذاته، والمرض الذي يعالجه، والداء الذي استشرى بين خواص الناس فضلاً عن عوامهم.

لما رأيت ذلك كذلك، أحببت أن أفردها في رسالة، رغم أنني كنت قد ذكرت ذلك مختصراً في كتابي «حفظ اللسان»[2]، ولكنني زدت هنا بعض الفوائد، ورتبت الموضوع لكي يكون جاهزاً أمام يد الخطباء والمحاضرين إذا ما أرادوا أن يتناولوه في خطبهم ومحاضراتهم، وايم الله ما يوجد مجتمع الآن من مجتمعات المسلمين - حسب علمي - إلا وهو في حاجة إلى هذا الموضوع، بل وتكراره حتى يثبت عندهم ويصير من المُسلمات والدعاة يعرفون ذلك جيداً.

---

(١) يوم الجمعة (١٩ / ٤ / ١٤١٧هـ).

(٢) طبع بعنوان (٤٠ خطأ للسان).

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتي وحسنات من ذكره من الدعاة إلى الله، وأن يجعله لوجهه خالصًا، وأن لا يجعل لأحد فيه شيئًا، وأن ينفعنا به يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

وحيد بن عبد السلام بالي

منشأة عباس في ٢٢ / ٣ / ١٤١٧هـ

النوايا التي يمكن أن يستحضرها المحاضر قبل إلقاء هذه المحاضرة

أولاً: النوايا العامة:

١ ـ ينوي القيام بتبليغ الناس شيئًا من دين الله إمتثالاً لقول النبي ﷺ: «بلِّغوا عني ولو آية» رواه البخاري.

٢ ـ رجاء الحصول علي ثواب مجلس العلم[١].

٣ ـ رجاءأن يرجع من مجلسه ذلك مغفوراً له[٢].

٤ ـ ينوي تكثير سواد المسلمين والالتقاء بعباد الله المؤمنين.

٥ ـ ينوي الاعتكاف في المسجد مدة المحاضرة ـ عند من يرىٰ جواز ذلك من الفقهاء ـ لأن الاعتكاف هو الانقطاع مدّة لله في بيت الله.

٦ ـ رجاء الحصول علىٰ أجر الخطوات إلىٰ المسجد الذي سيلقي فيه المحاضرة[٣].

---

(١) روىٰ مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

(٢) روىٰ الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٧) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم علىٰ ذكر، فتفرقوا عنه إلا قيل لهم قوموا مغفوراً لكم»، ومجالس الذكر هي المجالس التي تذكر بالله وبآياته وأحكام شرعه ونحو ذلك.

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من غدا إلىٰ المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».

وفي صحيح مسلم عنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته ثم مضىٰ إلىٰ بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرىٰ ترفع درجة».

٧ ـ رجاء الحصول على ثواب انتظار الصلاة بعد الصلاة، إذا كان سيلقي محاضرته مثلاً من المغرب إلى العشاء، أو من العصر إلى المغرب[١] .

٨ ـ رجاء أن يهدي الله بسبب محاضرته رجلاً . فيأخذ مثل أجره[٢] .

٩ ـ ينوي إرشاد السائلين، وتعليم المحتاجين، من خلال الرد على أسئلة المستفتين[٣] .

١٠ ـ ينوي القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ إن وجد ما يقتضي ذلك[٤] .

١١ ـ ينوي طلب النضرة المذكورة في قول النبي ﷺ: «**نَّضر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها**».رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

ـ ثم قد يفتح الله على المحاضر بنوايا صالحة أخرى فيتضاعف أجره لقول النبي ﷺ: «**وإنما لكل امرئ ما نوى**». متفق عليه .

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال أحدكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة».

ـ وروى البخاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: « الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه».

(٢)، (٤) روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم».

ـ وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا».

(٣) روى الترمذي وصححه الألباني عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير».

وصلاة الملائكة الاستغفار .

ثانيًا: النوايا الخاصة:

١ ـ تنوي بهذه المحاضرة تذكير نفسك أولاً بخطورة الغيبة .

٢ـ تنوي بها تحذير المسلمين من الغيبة .

٣ ـ تنوي بها تصحيح مفهوم الغيبة عند كثير من المسلمين .

٤ ـ تنوي بها تعريف المسلمين كيف يتخلصون من الغيبة .

٥ ـ تنوي بها العمل على تقليل وقوع الغيبة في المجتمع المسلمين .

عناصر المحاضرة:

١ ـ معنى الغيبة وأنواعها .

٢ ـ الأسباب الباعثة على الغيبة .

٣ ـ كيف تتخلص من الغيبة؟

٤ ـ متى تباح الغيبة؟

٥ ـ الترهيب من الغيبة .

* * *

فاكهة المجالس

عناصر الموضوع

١ - ذمُّ الغِيبةِ.

٢ - معنى الغِيبةِ.

٣ - أنواعُ الغِيبةِ.

٤ - الأسبابُ الباعثةُ على الغِيبةِ.

٥ - العلاجُ الذي يمنعُ اللسانَ عن الغِيبةِ.

٦ - هل تُقبلُ توبةُ المغتابِ.

٧ - ما يجوز من الغِيبةِ.

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وبعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد: أيها المسلمون الكرام موضوع خطبتنا اليوم هو: «**فاكهة المجالس**» أتدرون ما هذه الفاكهة؟

* **إنها الغيبة:** نعم إنها نَهْش أعراض المسلمين، والذي دفعني للحديث في هذا الموضوع هو ما رأيته من انتشار هذا المرض بين خواص المسلمين فضلاً عن عوامهم، وبين طلاب العلم فضلاً عن جهلاء الناس.

لا يستطيب المجلس إلا بهذه الفاكهة، ولا تُستحسن المسامرةُ إلا بذكرها، حتى كادت تعم مجالس المسلمين! فلا يكاد يخلو منها مجلس إلا ما رحم ربك.

فرائحة الغيبة المُنتنة أصبحت تفوح من المجالس العامة والخاصة، تشمها على قارعة الطريق، وفي المنتديات، وفي وسائل المواصلات، وحتى غرف النوم أصبحت تفوح منها رائحة الغيبة المُنتنة، فما أن يدخل الرجل غرفة نومه حتى تستلمه زوجته: أمك صفاتها كذا وكذا...، وأختك...، وعمتك...، وخالتك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١ . ذم الغيبة

اعلم أن ربَّنا - تبارك وتعالى - قد نهانا عن الغيبة، وصور المغتاب بأقبح صورة في كتابه، وشبهه بأقذر حيوان، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

فقد شبه المغتابَ بالكلب، والكلب هو الحيوان الوحيد الذي يأكل لحم أخيه بعد موته، فالأسد لا يفعلها، وكذلك الذئب، حتى الثعلب يشمئز منها ولا يفعلها.

لا يفعلها إلا الكلب، ولو كُشف عنا الغطاء لرأينا معظم مجالس الناس اليوم - إلا من رحم ربك - بين أيديهم مسلمٌ ينهشون في لحمه، كل منهم يتناول قطعة، ولا أحد يرد عن عرض أخيه، أو يحمله من بين أيديهم فينحيه.

- ومن عجائب الأقدار أنني أثناء تحضيري لهذه الخطبة، اتصل بي أحد الناس من إحدى الدول القريبة، وأخذ يغتاب مسلمًا، فقلت له: لا تغتبه، فقال: قد وقع في خطأ، فقلت: اتصل به وعرِّفه خطأه، ولا تُشهِّر به وتفضحه.

- واعلم أن ذكرك أخاك في غيبته بما يكره محَرم عليك، ففي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال:

«كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُه، وَعِرْضُهُ»[1] وَعِرْضُهُ: شرفه، وكرامته، وسيرته.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) وغيره.

ـ واعلم أخي المسلم: أنه لن يسلم لك إسلامك، ولن يتحقق لك كمال إيمانك، إلا إذا سلم المسلمون من شر لسانك، فقد روى البخاري في صحيحه، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «**الْمسلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِه وَيَدِه، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هجَرَ مَا نهَى اللهُ عنْهُ**»(١).

ـ واعلم أخي المسلم: أنك إذا أطلقت لسانك في أعراض المسلمين، فإن ذلك دليل على أن الإيمان لم يستقر في قلبك، ولم يتمكن من وجدانك، لأنه لو وصل إلى أعماق قلبك لمنعك من اغتياب الناس، فقد روى أبو داود بسند جيد (٤ / ٢٧) من حديث أبي برزة الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أسمع العواتق في بيوتهن، قال:

«**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بلِسَانه ولَمْ يُؤْمنْ بقَلْبه، لا تَغْتَابُوا المُسلمينَ، ولا تتَّبعُوا عَوَرَاتهم، فإنَّ من اتَّبع عوْرَةَ أخيه يتَّبعِ اللهُ عورتَهُ، ومَنْ يتَّبعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، يَفضَحْهُ في جوْف بَيْته**»(٢).

ـ وكما أن ذكر الله ـ تعالى ـ يُقوي الإيمان، فإن ذكر الناس يضعف الإيمان، ويُقرب العبد من الشيطان.

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: والله للغيبة أسرع في دين الرجل من الأكَلَة في الجسد.

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: عليكم بذكر الله فإنه دواء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء.

(١) صحيح: رواه البخاري (١٠) وغيره.

(٢) حسن: رواه أبو داود (٤٨٨٠) وأحمد (١٩٢٧٧) وقال الألباني: حسن صحيح.

فمسكينٌ هذا الرجل الذي يحافظ على الصلاة في جماعة، ويحافظ على أذكار الصباح المساء، ولا يمر عليه يوم إلا وقد تلا جزءاً من كتاب ربه -عز وجل- ولكنه رغم ذلك يبيت يوم يبيت ولا حسنة له.

أين ذهبت طاعاتُه؟ أين حسناتُه؟

إنه وزعها على الناس، فرَّقها بلا حساب، لأنه لا يجلس في مجلس إلا وتناول أعراض الناس، حقًّا إنه لمفلس، يجمع الحسنات ولا ينتفع بها، ويتعب ولا يستفيد، وصدق الحبيب -ﷺ- يوم قال -كما ثبت في مسلم-: «**أَتَدْرُونَ ما المُفْلسُ؟**»، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قالَ: «**المُفْلسُ منْ أمَّتي مَنْ يأتي يَوْمَ القيامَة بصلاة، وصيام، وزَكَاة، ويأتي وقد شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأكَلَ مَالَ هَذَا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا منْ حَسَنَاته، وهذا منْ حَسَنَاته، فإنْ فَنيتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أنْ يَقْضيَ مَا عَلَيْه أُخذَ منْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّار**»[1].

وهذا الحسن البصري -رحمه الله-: قيل له: إن فلانًا قد اغتابك، فبعث إليه الحسن رُطبًا على طبق، وقال: قد بلغني أنك أهديت إليَّ من حسناتك، فأردتُ أن أكافئك عليها، فاعذرني فإنني لا أقدر أن أكافئك على التمام.

واستمع إلى عقابك في القبر قبل يوم القيامة أيها المغتابُ، ففي «الصحيحين» من حديث ابن عباس -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ مرَّ على قبرين، فقال:

«**أما إنَّهُمَا لَيُعَذَّبَان، ومَا يُعَذَّبَان في كَبير، بَلَى إنَّهُ كبيرٌ، أمَّا أحدهُمَا: فكَانَ لا**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨١).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣١٦) ومسلم (٢٩٢).

يستترُ منْ بَولِه، وأما الآخر: فَكَانَ يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ بالنَّميمة»[٢].

وفي رواية لابن أبي الدنيا في «الصمت» بسند جيد من حديث جابر: «وأمَّا أحَدُهُمَا: فَكَانَ يَغْتَابُ النَّاسَ»، وفي رواية للطيالسي: «أمَّا أحَدُهُمَا: فَكَانَ يأكُلُ لُحُومَ النَّاسِ».

فالمغتاب يُعَذَّب في القبر بسبب الغيبة، ولكن كيف يُعذَّب في قبره؟ يَخْمُشُ وجهه بأظفاره حتى يسيل الدم من وجهه، وفمه، وعينه، ومنخره، كما كان يغتاب الناس في الدنيا، جزاءً وفاقًا.

فقد روى الإمام أحمد، وأبو داود بسند صحيح، من حديث أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال:

«لَمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بقَوْم لهُمْ أظْفَارٌ منْ نُحَاس، يخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وصُدورَهُمْ فقُلْتُ: منْ هؤُلاء يَا جِبْريلُ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعرَاضهم»[١].

* * *

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٢٩٢٧) وأبو داود (٤٨٧٨) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢١٣).

معنى الغيبة

واعلم أن الغيبة ذكرُك أخاك بما يكره لو بلغه ذلك، حتىٰ وإن كانت هذه الصفات فيه.

فقد ثبت في «مسلم» أن النبي ﷺ قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الغيبَةُ؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكْرُك أخَاكَ بمَا يَكْرَه**»، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «**إنْ كَانَ فيه ما تَقُولُ فَقَد اغْتَبْتَهُ، وإنْ لمْ يَكُنْ فِيه ما تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ**»[1].

ـ فإن كنت تريد النصيحة فعلاً فعليك أن تستر أخاك، ولا تفضحه في المجالس، وتتصل به سراً، وتخبره بعيوبه، لكي يصلحها.

واعلم أن الغيبة لا تتوقَّف علىٰ اللسان، بل قد تكون بالجوارح والأعضاء، مثل من يمشي خلف الأعرج يمثل مشيته، ومثل من ذكر عنده إنسان فيخرج لسانه استهزاءً، أو يقطِّب جبينه اشمئزازاً.

قال تعالىٰ: ﴿**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ**﴾ [الهمزة: ١].

والهمز: هو الطعن في الناس بالقول.

واللمز: هو انتقاص الناس بالفعل.

وقال سبحانه: ﴿**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ**﴾ [القلم: ١٠، ١١].

والهمَّاز: هو المغتاب.

والمشّاء بالنميم: هو الذي يمشي بين الناس بالنميمة.

ففي هذه الآية جمع بين الغيبة والنميمة.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٩) والترمذي (١٩٣٤).

أنواع الغيبة

والغيبة خمسة أنواع:

١ ـ الغيبة في البدن:

كقولك فلان أعور، أو أقرع، أو طويل أو قصير، أو أسود أو أصفر، أو نحيف جداً، أو بدين جداً وما شابه ذلك من الأوصاف التي يكره ذكرها.

٢ ـ الغيبة في النسب:

ذكر نسبه على جهة الانتقاص لا على جهة التعريف، كقولك: فلان لا أصل له، ليس من عائلة، خسيس، أو زبال، أو ذكر صفة عادية لكن يذكرها على سبيل الانتقاص، مثل: فلان صعيدي ـ وأنت تعني أنه لا يفهم ـ أو فلاح ـ وأنت تعني أنه غير متحضر، أو متمدن، وأنت تعني أنه ليس عنده نخوة ولا شهامة.

٣ ـ الغيبة في الخلق:

مثل فلان مُتكبر، أو بخيل، أو مرائي، أو مُتهور، أو سريع الغضب، أو جبان، وباللهجة العامية (هلفوت، هجَّاص).

٤ ـ الغيبة في الأمور المتعلقة بالدنيا:

مثل كثير الكلام، كثير النوم، قذر الثياب، لا يهتم بمظهره.

٥ ـ الأمور المتعلقة بالدين:

مثل قولك: هو سارق، كذاب، أو شارب للخمر، أو لا يُحسن الوضوء، غير

ملتزم، . . يطيل ثوبه، مُغتاب، نمام، لا يفقه شيئًا في دينه.

واحذر - أخي المسلم - من تلبيس إبليس، فإن هذا النوع من الغيبة مزلّة أقدام، حيث يُصور لك الشيطان أنه من باب النصيحة في الدين وليس كذلك، بل هو من باب الفضيحة، ولكن النصيحة الصادقة أن تتصل به سرًا وتخبره بعيوبه، وتدعو له بظاهر الغيب أن يعافيه الله منها.

وصدق الشافعي يوم قال:

تعمدني بنصحك بانفرادي ... وجنبني النصيحة في الجماعه

فإن النصح بين الناس نوع ... من التوبيخ لا أرضى استماعه

تنبيه:

لو رأيت رجلاً من بلدتك تعرفه جيدًا، ولكنك رأيته في مكان ما يرتكب معصية، أو يدخن، أو يفعل شيئًا لا يمكن أن يفعله في قريته . . فماذا تفعل؟

قد تذهب إلى قريتك فتذكره للناس بما رأيته عليه من المعصية، أو على الأقل تخبر أهلك وأصدقاءك بذلك، وهذا خطأ والصواب: أنه يجب عليك أمران:

الأول: أن تنصحه فيما بينك وبينه.

الثاني: أن تستر عليه، فلا تخبر بذلك أحدًا «**ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا وفي الآخرة**»

* * *

الأسباب الباعثة على الغيبة

والدوافع إلى الغيبة سبعة:

١ ـ أن يشفي غيظه:

وذلك إذا كان بينه وبين رجل خصومة، فيستشفي بذكر مساوئه، وانتقاصه في المجالس.

٢ ـ مجاملة الأصدقاء:

حيث يسمعهم يتفكّهون بذكر أعراض الناس، فبدلاً من أن ينهاهم ويزجرهم، إذا به يُساعدهم ويُجاملهم، ولو تذكر هذا الرجل قول الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] لارتدع وازدجر.

٣ ـ مدح النفس بتنقيص الغير:

كمن ذُكر عنده رجل، وذُكِر فضله وعلمه وشرفه، فيقول: نعم هو كذلك غير أن فيه كذا وكذا...، ويسول له الشيطان أنه من باب النصيحة، ولو كان صادقًا لنصحه سرًا وما فضحه جهرًا.

٤ ـ الحسد:

كأن يسمع الناس يثنون علىٰ رجل، فيتحرك الحسد في قلبه، فيريد زوال النعمة عنه، فلا يجد سبيلاً إلىٰ ذلك إلا بالقدح فيه. وعلامة ذلك: أنه يستثقل أن يسمع ثناء الناس علىٰ هذا الرجل في حضرته، ولو كان هذا المغتاب موقنًا

بالقضاء والقدر ما وصل إلىٰ هذه المرتبة من الحسد، لأن النِّعم بيد المنعم العليم الحكيم.

٥ ـ السخرية والاستهزاء:

كمن يغتابُ الناسَ ليُضحك الجالسين، وما دفعه إلىٰ ذلك إلا احتقارُ أخيه المسلم. ألا يعلم هذا المغتابُ أن ذلك من أعظم الشر، وأغلظ الذنوب، فقد قال النبي ﷺ كما ثبت في «مسلم» «**بِحَسْب امْرِئٍ منَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخَاهُ المُسْلِمَ**»[1].

٦ ـ إظهار الرحمة:

مثل أن يقول: مسكين فلان قد غمني أمره وما أصيب به، فقد أصبح يتهاون في صلاة الفجر، أو: لقد حلق لحيته أو: لقد ابتلي بذنب كذا، ولو كان هذا المغتاب صادقًا في إظهار الرحمة لأغمه أيضًا نشر ذنوبه بين الناس، ولدعىٰ له بظهر الغيب، أو نصحه بعيدًا عن الخلق.

٧ ـ تكلف الغضب لله:

كأن يقول: انظروا إلىٰ فلان كيف تعدىٰ حدود الله، أو انتهك حرمات الله، ولو كان صادقًا في غضبه لله لقابله وغضب عليه، وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، ولكنه خبيث أو جاهل.

❊ ❊ ❊

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) وغيره.

كيف تتخلص من الغيبة؟

بخمسة أمور:

١ ـ **أن تعلم**: أن الغيبة من الذنوب التي تعرضك لسخط الله وغضبه، وأن تستحضر ما ذكرناه من الأخبار في ذم الغيبة.

٢ ـ **أن تعلم**: أنك بذلك تنتقل حسناتك إلىٰ من اغتبته حتىٰ تصل إلىٰ درجة الإفلاس، وذلك في يوم تكون أحوج إلىٰ الحسنة الواحدة التي تنجو بها من النار، وتدخل بها الجنة.

٣ ـ هل تحب أن يغتابك أحد، ويستهزئ بك في المجالس؟ بالطبع: لا، فعامل الناس بما تُحب أن يعاملوك به.

٤ ـ أن تُطهر قلبك من الأسباب الباعثة علىٰ الغيبة كالحقد، والحسد، وحب المدح، والرياء، وغير ذلك من أمراض القلوب[1].

٥ ـ إذا حدثتك نفسك بذكر عيب في مسلم ففتِّش في نفسك، فإنك واجد مثل ذلك أو أشد، فإن لم تجد، فإن الانشغال بعيوب الناس من أعظم العيوب.

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: ياابن آدم، إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتىٰ لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتىٰ تبدأ بإصلاح ذلك العيب من نفسك، فإذا فعلت ذلك، كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلىٰ الله من كان هكذا. اهـ.

(١) راجع وقاية الإنسان/ فصل مداخل الشيطان لإفساد القلوب للكاتب.

فإذا دعتك نفسك لذكر عيوب الناس، فسل نفسك:

* هل أدركت تكبيرة الإحرام مع الإمام في الصلوات الخمس اليوم؟
* هل قمت تصلي لله الليلة؟
* هل تلوت جزءاً من كتاب ربك اليوم؟
* هل دعوت للمسلمين اليوم؟
* هل دعوت لوالديك اليوم؟
* هل غضضت بصرك عن المحرمات اليوم؟
* هل تصدّقت بصدقة اليوم؟
* هل صمت هذا الأسبوع يومًا لله؟
* هل خشعت في صلاتك اليوم؟؟ وكنت مع الله فيها من التكبير إلى التسليم؟؟ ـ وهذا من أصعب الأسئلة ـ.
* هل صليت الضحى اليوم؟
* هل حافظت على السنن الرواتب اثنتي عشرة ركعة؟
* هل قلت أذكار الصباح والمساء اليوم؟
* هل ذكرت الله خاليًا اليوم ففاضت عيناك؟أم أنت من الغافلين؟!
* هل صليت الفجر جماعة ثم جلست في المسجد تذكر الله حتى طلعت الشمس ثم صليت ركعتين لتنال أجر حجة وعمرة[1]؟

فإنك ستجد تقصيراً لا محالة، فحاول أن تقوم فتستدرك ما فاتك، وأن تستغفر وتتوب وتندم على ما لا يمكن استدراكه قبل فوات الأوان.

قال عوف: دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج، فقال: إن الله حكم عدل. ينتقم للحجاج ممن اغتابه، كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه، وإنك إذا لقيت الله غداً كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج.

---

(١) روى الترمذي وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» عن أنس أن النبي ﷺ قال: «من صلى الصبح في جماعة ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة، تامة، تامة، تامة».

كفارة الغيبة

اعلم أن الغِيبةَ من كبائر الذنوب، ومن عظائم الآثام وأن هذا الذنب له وجهان: وجه يتعلق بحق الله تعالى حيث ارتكبت أمرًا حرَّمه الله، والتوبة منه تكون بالاستغفار والتوبة والندم، وطلب العفو من الله.

ووجه يتعلق بحق العبد؛ وهو ذكر عيوب أخيك المسلم، وهذا الحق لا يمكن التوبة منه إلا باستسماح صاحبه وطلب العفو منه، والتأسف على ما بدر منك، فإن سامحك سقط حقه، وإن أبى بقي هذا الحق معلقًا حتى يستوفيه من حسناتك يوم القيامة.

وكنت أجلس مع رجلين يومًا، فبعد ما قام أحدهما وانصرف، قال لي الآخر: هذا لا يهتم بمنظره ونظافة ثيابه، فقلت له: إذًا قُم فالحق به وأخبره.

قال: أخبره بماذا؟

قلت: بأنك اغتبته، واطلب منه السماح والعفو.

قال: لكنه سوف يغضب.

قلت: فلماذا تذكره إذًا؟

قال: وقد يُحرجُني وأنا أستحيي من ذلك.

قلت: ذق مرارة طلب العفو منه، كما تلذذت بذكر عيوبه في غيبته، فما سمعته اغتاب أحدًا بعدها.

*** هل يجب على صاحب الحق أن يسامح؟**

لا يجب عليه ذلك، بل يُستحب له، فإن شاء عفا وصفح وسامح، وإن شاء

لم يُسامح .

كالرجل الذي سرق مبلغًا من المال وأراد أن يتوب ، فعليه أن يستغفر ويندم ويُقلع عن الذنب ، ويُرجع المال إلىٰ صاحبه ، أو يستسمح صاحبه ، فإن شاء سامحه ، وإن شاء لم يسامحه بل أصر علىٰ أخذ حقه .

فكذلك في الغيبة لأن الحق المعنوي كالحق المادي ، وقد يكون أشد ، فربما تكون كلمة قيلت في مسلم أشدّ ضرراً عليه من مبلغ كبير من المال أخِذَ منه .

وكان بعض السلف لا يُحلِّلُ أحدًا اغتابه .

قال سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ: لا أحلل من ظلمني .

وقال ابن سيرين ـ رحمه الله ـ: إني لم أحرمها عليه فأحللها له ، إن الله حرّم الغيبة عليه ، وما كنت لأحلل ما حرّم الله أبدًا .

❊ ❊ ❊

أشد أنواع الغيبة

اعلم ـ أخي الكريم ـ أن من أشد أنواع الغيبة:

الخوض في أعراض أهل العلم والدعاة إلىٰ الله، وذلك لأن اغتيابهم تنفير للناس من دعوتهم التي هي دعوة الإسلام، وتحذير للناس من طريقهم الذي هو طريق الله، فذكر عيوب طلاب العلم والدعاة إلىٰ الله صد عن سبيل الله، فانتبه.

قال الإمام ابن عساكر ـ رحمه الله تعالىٰ:

اعلم يا أخي ـ وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب[1]، بلاه الله قبل موته بموت القلب، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2] [النور: ٦٣].

فإن قال قائل: فإن أخطأ العالم فماذا نصنع؟ أنسكت علىٰ هذا الخطأ؟ أم نبينه؟

الجـــواب: أن هذه مسألة تزلُّ فيها الأقدام فقد تختلط الغيبة ببيان الحق، ويشتبه الأمران.

ولا ينتبه لذلك إلا من وفقه الله وسدده، وجعل له فرقانًا يفرق به بين الحق والباطل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

فعلىٰ طالب العلم: أن يبين الخطأ ولا يتجاوزه بالقدح في العالم أو التقليل

(١) الانتقاص.

(٢) نقلاً عن المجموع (١ / ٤٦).

من شأنه، أو اتهام فهْمِه، أو غير ذلك مما لو بلغ العالم لكرهه.

فمثلاً يقول: لقد أفتى الشيخ فلان بكذا واستدل على ذلك بثلاثة أدلة، وهذا خطأ، لأن الدليل الأول صحيح - مثلاً - ولكن لا دلالة فيه؛ ويبين ذلك، والثاني ضعيف لا تقوم به حجة؛ ويبين ضعفه، والثالث صحيح من حيث الثبوت لكنه أخطأ في تحقيق المناط؛ ويبين وجه الخطأ، ثم يذكر الصواب، وليحذر في أثناء جوابه أن يستجره الشيطان للغمز أو اللمز، كقوله مثلاً: وهذه قضية واضحة لا تخفى على صغار طلاب العلم.

أو كقوله: هذا واضح لكنه حاد عنه للهوى، أو: وهذا من قلة فهمه، أو: لقد جاءنا بما لم يأت به الأوائل.

أو كقوله: وهذا يدل على جهله بهذا العلم، أو أي عبارة تشعر القارئ أو المستمع باحتقار العالم، أو التقليل من شأنه. أما إن كان الطالب ذا ورع فسوف يلتمس العذر للشيخ[1]، ويذكر من علمه وتقواه وورعه ما يغمر تلك الزلة في بحار حسناته، ثم يُردف ذلك ببيان الحق.

كقوله: ومن المعروف أن هذا الشيخ له جهود مشكورة في نشر السنة، ولكنه أخطأ في هذه المسألة وكفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه.

وكقوله: والشيخ له باع طويل في الفقه، ولكن الواضح أن الحق خلاف ما قاله في هذه المسألة.

واعلم أن هذه الكلمات إذا صدرت من طالب العلم فإنما هي بمثابة دروس تربوية عملية لمن يستمع إليها أو يقرؤها من الجيل الناشئ[2].

---

(١) راجع رسالة «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

(٢) راجع «الركائز الأساسية لطالب العلم» لكاتب هذه السطور.

ابحث معي

أخي المسلم، أنا لا أخفيك سراً أنني منذ سنوات طويلة أبحث عن صديق صادق يُنبهني إذا غفلت، ويُذكّرني إذا نسيت، ويزجرني إذا اغتبت أمامه أحداً، ولكنني حتى الآن لم أجده، وإن كنت أعلم أنه في الناس عزيز، بل أعز من الكبريت الأحمر، لكنني لن أيأس فسوف أبحث وأبحث لعلني أجده.

لقد وجدت قائم الليل، ووجدت حافظ القرآن، ووجدت من يغض بصره، ووجدت من يحفظ لسانه عن الكذب، ووجدت من يتحرى أكل الحلال، ووجدت من يؤثر أخاه المسلم على نفسه، ووجدت من ينفق في سبيل الله كثيراً.. لكنني ما وجدت من يردني عن الغيبة إذا وقعت فيها!!

إنما وجدت من إذا سمعني أغتاب الناس جاملني بذكر مساوئهم.

وثانياً: يمتعض لكنه يستحيي أن يقول لي: اتق الله.

وثالثاً: يسكت فلا يوافق أو يعارض.

ورابعاً: يفتتح هو الحديث بالغيبة.

* أخي إذا وجدت هذا الصديق فعض عليه بالنواجذ، فإنه جوهرة، بل هو أثمن من الذهب والفضة.

* * *

الأمور التي تباح فيها الغيبة

أولاً: التظلم:

* يجوز للمظلوم أن يتظلم عند القاضي، ويقول: ظلمني فلان بكذا، أو أكل حقي، أو اغتصب أرضي.

ثانيًا: الاستعانة على تغيير المنكر:

* وذلك بذكر معاصي العاصي عند من يقدر على ردعه إلى الصواب، كمن يرى شابًا لا يصلي فيخبر أباه، أو وجده يعاكس الفتيات فيذكر هذه المساوئ لأبيه شريطة أن يكون هدفه رده إلى الصواب لا التشهير به وفضيحته، وإن تمكن من نصيحته في السر فهو أفضل، أو من يرى موظفًا يرتشي فأخبر مديره ليرده عن أخذ الرشوة... وهكذا.

ثالثًا: الاستفتاء:

*كمن يقول للمفتي: ظلمني أبي أو أخي أو عمي، فما هو الطريق الشرعي في أخذ حقي منه؟ أو: إن أرحامي يسيئون معاملتي في كذا وكذا، فما موقفي منهم وكيف أصلهم.

ولكن الأفضل أن يذكر السؤال بدون ذكر أسماء، فيقول مثلاً: ما الحكم في رجل له خال فعل معه كذا وكذا...؟

فإن سمى كان ذلك جائزًا كما ثبت في «البخاري» (٩ / ٥٠٧ فتح)، و«مسلم» (١٢ / ٧ نووي) عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قالت هند امرأة أبي سفيان للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح[1]، وليس يعطيني ما يكفيني

(١) هذه الصفة غيبة لكنها جازت في هذا المقام.

وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «**خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالمَعْرُوفِ**».

ولم ينهها عن الغيبة في هذه الحالة والنبي ﷺ لا يقر باطلاً.

رابعًا: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم:

وذلك من وجوه:

* **منها**: جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة.

* **ومنها**: المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو مجاورته.

فلو جاءك رجل يسألك عن إنسان تقدم للزواج من ابنته، وقال لك: ما رأيك فيه؟ جاز لك بل وجب عليك أن تذكر عيوبه إن كنت تعلمها، فتقول مثلاً: هذا إنسان بخيل جدًا، أو تقول: هذا إنسان متهاون في الصلاة أو مُخادع.

ولو جاءك من يستشيرك في إنسان أراد أن يشاركه في تجارة، وأنت تعلم أن هذا الإنسان يأكل أموال الناس، وجب عليك بيان ذلك نصيحة للمسلمين.

ولو جاءك من يستشيرك في شراء بيت بجوار فلان فإن كنت تعلم أن فلانًا هذا سيئ الخلق، أو يسيء معاملة الجيران، وجب عليك بيان ذلك، ولكن ينبغي في ذلك كله أن تكون نيتك النصيحة لله ولعباده، ولا يكون هدفك التشفي وذكر العيوب، فإن الغيبة محرمة أصلاً، ولكنها أبيحت هنا للحاجة فانتبه.

* **ومنها**: إذا رأيت طالب علم يتردد إلى مبتدع ليأخذ عنه العلم، فيجب عليك أن تنصحه، وتبين له حال هذا المبتدع، بشرط أن تقصد النصيحة، وهذا

مما يغلط فيه كثير من الناس[1] ، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويُلَبِّس عليه الشيطان، ويُخيل إليه أنه نصيحة فليتفطن لذلك.

* **ومنها**: أن يكون له منصب لا يستطيع أن يقوم به خير قيام، أو يهمل بأداء الواجب.. أو غير ذلك مما يضر بمصالح المسلمين، فحينئذ يجوز أن تذكره بهذا العيب عند الحاكم ليزيله ويولي من يصلح.

خامسًا: التعريف:

* أن يكون الإنسان معروفًا بلقب كالأعرج، والأعمىٰ، والأعمش، حتىٰ صار علمًا عليه لا يُعرف إلا به، فلا إثم علىٰ من يقول: روىٰ أبو الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة، فهذا لا بأس به في الرواية وغيرها، بشرط ألا يقصد الانتقاص ولكن يقصد التعريف.

سادسًا: المجاهر بالفسق:

* أن يكون مجاهرًا بالفسق كالُمخنث، والمجاهر بشرب الخمر، والمجاهر بأكل أموال الناس، والمجاهر بفعل الفاحشة، وما شابه ذلك، فيجوز أن تذكره بما فيه نصيحة للمسلمين.

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: ليس لفاجر حرمة ـ وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر.

قال الصلت بن طريف: قلت للحسن: الرجل الفاسق المعلن بفجوره، ذكري له بما فيه غيبة؟ قال الحسن: لا، ولا كرامة.

* * *

(١) فقد يختلف مع هذا العالم في بعض المسائل من الفروع ونحوها فيحذر منه الطلاب، وهذا خطأ.

قاصمة الظهر

لقد زين الشيطان لبعض الشباب الذين ينتمون إلىٰ بعض الجماعات الإسلامية أن يُطلق لسانه في غيره من الشباب المسلم الذي ينتمي إلىٰ جماعة غير جماعته، وكأنه لا حرمة له، وخيَّل إليه الشيطان أن هذا جائز، وإذا نصحته، ردَّ عليك قائلاً: هذا مبتدع، وهذا لعمري قاصمة الظهر، وآكلة الحسنات.

إن كان هذا المذكور مُبتدعًا، فيجوز لك أن تذكر بدعته وتبين الصواب بالأدلة الشرعية التي تتناول هذه البدعة فقط، ولا يجوز لك أن تتجاوز ذلك إن كنت للسانك من الحافظين، وعلىٰ أعراض المسلمين من المحافظين، لكن التحزب، والموالاة والمعاداة علىٰ الشعارات والأسماء وضيق الأفق هو الذي دفع كثيرًا من الشباب المسلم الطيب، القائم اللَّيل، أن يغتاب إخوانه وينهش في أعراضهم.

إخواني.. اللهَ اللهَ في أعراض المسلمين.

ولقد أسميتها بقاصمة الظهر لأن الأمل معقود بهؤلاء الشباب الذين يعملون لإعلاء راية التوحيد.

* * *

فصل في الترهيب من الغيبة

١ -عن أبي بكرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال في خطبة الوداع: **«إنَّ دمَاءَكُمْ وَأَموَالكمْ وأعْرَاضكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمكُم هَذَا، في شهْرِكُمْ هَذَا، في بَلَدِكُمْ هَذَا، ألا هَلْ بَلَّغْتُ»**(١).

٢ -عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«الربا اثْنَانَ وَسَبْعُونَ بَابًا، أدْنَاهَا مِثْل إتْيَان الرَّجُل أمَّهُ، وإنَّ أرْبَى الربا اسْتطالَةُ الرَّجُلِ في عرضِ أخيه»**(٢).

٣ -عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: خطبنا رسول الله ﷺ فذكر أمر الربا، وعظم شأنه وقال:

«إنَّ الدِّرْهَم يصيبُهُ الرَّجُلُ منَ الرِّبَا أعْظَمُ عنْدَ الله في الخَطيئَة من ستٍّ وثلاثين زنْيَةً يزنيها الرَّجُلُ، وإنَّ أرْبَى الرِّبا عِرْضُ الرَّجُل المُسْلم»(٣).

٤ -عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«منْ أرْبَى الرِّبَا اسْتَطَالَةُ المَرْءِ في عرض أخيه»**(٤).

٥ -عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ منَ الكبَائر**

---

(١) صحيح: رواه البخاري رقم (١٧٣٩) ومسلم (١٦٧٩).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط» وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٣٠) صحيح لغيره.

(٣) صحيح لغيره: رواه ابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة» وقال الألباني في «صحيح الرغيب» (٢٨٣١): صحيح لغيره.

(٤) صحيح لغيره: رواه البزار بإسنادين أحدهما قوي قاله الحافظ المنذري وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٣٢).

استطالة الرَّجُل في عرْض رجُل مُسْلم بغَيْر حق، ومنَ الكبَائر السَّبَّتان بالسبَّة» (١).

٦ - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا - قال بعض الرواه: تعني قصيرة - فقال: «لَقَدْ قُلْت كَلمَةً لوْ مُزجتْ بمَاء البَحْر لمزَجَتْه»(٢)(٣).

٧ - عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أنهم ذكروا عند رسول الله رجلاً، فقالوا: لا يأكل حتى يُطعم، ولا يرحل حتى يُرحل له، فقال النبي ﷺ: «اغتَبتُمُوهُ»، فقالوا: يا رسول الله، إنما حدثنا بما فيه، قال: «حَسْبُكَ إذَا ذَكَرْتَ أخَاكَ بمَا فيْه»(٤).

٨ - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: كنا عند النبي ﷺ فقام رجل، فوقع فيه رجل من بعده، فقال النبي ﷺ: تَخَلَّلْ»، فقال: وما أتخلل؟ ما أكلت لحمًا! قال: «إنَّكَ أكَلْتَ لَحْمَ أخيكَ»(٥).

٩ - عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ مر على بغل ميت فقال لبعض أصحابه: «لأنْ يَأكُلَ الرَّجُلُ منْ هَذَا حتَّى يَمْلأَ بَطْنَهُ، خيْرٌ لَهُ منْ أنْ يأكُلَ لَحْمَ رجُلٍ مُسْلمٍ»(٦).

---

(١) صحيح لغيره: رواه أبو داود وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٣٢).
(٢) مزجته: عكَّرته وكدَّرته.
(٣) صحيح: رواه أبو داود والبيهقي والترمذي وقال: حسن صحيح وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٣٤).
(٤) حسن لغيره: رواه الأصبهاني بإسناد حسن قاله الحافظ المنذري، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٨٣٦).
(٥) صحيح لغيره: حديث غريب، رواه أبي بكر بن أبي شيبة والطبراني واللفظ له - ورواته رواة الصحيح وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» برقم: (٢٨٣٧).
(٦) رواه أبو الشيخ ابن حبان وغيره موقوفًا صححه الألباني برقم (٢٨٣٨).

١٠ ـ وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بي مررْتُ بقومْ لهُمْ أظفَارٌ من نُحَاس، يخْمُشُونَ وجوههُمْ وصدُورَهُم فقلْتُ: من هؤلاء يا جبريلُ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»(١).

١١ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح منتنة: فقال رسول الله ﷺ: «أتَدْرُونَ مَا هَذِه الريْحُ؟ هذه ريحُ الذينَ يغتابونَ المؤمنينَ»(٢).

١٢ ـ عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: بينَمَا أنَا أماشي رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي، ورجل عن يساره، فإذا نحن بقبرين أمامنا، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّهما ليُعذبان وما يُعذبَان في كَبِير وبَلى فأيكُمْ يأتيني بجريدَة؟» فاستبقنا، فسبقته فأتيته بجريدة، فكسرها نصفين، فألقى على ذا القبر قطعة وعلى ذا القبر قطعة، وقال: «إنَّه يُهَوِنُ عَليهمَا مَا كانَتَا رَطبَتَين، ومَا يُعذَّبَانِ إلا فِي الغيبَة والبَول»(٣).

١٣ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أتَدْرُونَ مَنِ المفْلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إنّ المفلسَ منْ أمَّتيَ من يَأتي يوم القِيَامَة بصَلاة وصيَام وزكَاة ويأتي وَقد شتَم هَذَا، وقَذَفَ هذَا، وأكَلَ مالَ هَذَا وسَفَكَ دمَ هذَا، وضَرَبَ هَذَا، فيُعطَى هذَا منْ حَسنَاته وهَذَا من

---

(١) صحيح: رواه أبو داود برقم (٤٨٧٨) وصححه الألباني برقم ٢٨٣٩ في صحيح الترغيب.

(٢) حسن لغيره: رواه أحمد ورواة أحمد ثقات وقال الألباني: حسن لغيره في صحيح الترغيب برقم (٢٨٤٠).

(٣) حسن صحيح: رواه أحمد وغيره بإسناد رواته ثقات، وقال الألباني: حسن صحيح في صحيح الترغيب برقم (٢٨٤١).

حَسَناتـه، فإنْ فنيتْ حسَناتُـهُ قَبْل أن يُقضَى مـا عليه أخـذَ منْ خطاياهم فطُرحتْ عليه، ثمّ طُرحَ في النّار»(١).

١٤ ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أتَدْرُون مَا الغيبَة» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكركَ أخَاكَ بمَا يكرهُ» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إنْ كَانَ فيه ما تقُولُ فَقَد اغْتَبتَهُ، وإنْ لمْ يَكُنْ فيه ما تقُولُ فقَد بَهتّهُ»(٢).

١٥ ـ عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «منْ قال في مُؤمن ما ليس فيه، أسْكنَه الله رَدغَة الخَبَال حتّى يخرُج ممّا قَالَ»(٣).

ردغة الخبال: هي عصارة أهل النار.

١٦ ـ عن أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذَبَّ عنْ عرْض أخيه بالغيبَة، كَانَ حَقًّا على الله أنْ يُعتقَه منَ النّار»(٤).

١٧ ـ عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «منْ ردَّ عنْ عرْضِ أخيه، ردّ اللهُ عن وَجهه النّارَ يومَ القيَامَة»(٥).

---

(١) صحيح: رواه مسلم رقم (٢٥٨١) والترمذي برقم (٢٤١٨)، وأحمد (٧٩٦٩) وقال الألباني في «صحيح الترغيب» صحيح ـ برقم (٢٨٤٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم برقم (٢٥٨٩)، أبو داود برقم (٤٨٧٤) والترمذي برقم (١٩٣٤) وقال الألباني «صحيح الترغيب»: صحيح برقم (٢٨٤٤).

(٣) صحيح: ـ رواه أبو داود برقم (٣٥٩٧) وأحمد برقم (٥٣٦٢) وقال الألباني في صحيح الترغيب برقم (٢٨٤٥) أنه صحيح.

(٤) صحيح لغيره: رواه أحمد بإسناد حسن وصححه الألباني برقم (٢٨٤٧) في «صحيح الترغيب».

(٥) صحيح لغيره: رواه الترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني برقم (١٩٣١)، وأحمد برقم (٢٦٩٩٥).

١٨ ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: «مَنْ نصرَ أخاهُ المُسْلمَ بالغيْبِ، نَصَرهُ اللهُ فيْ الدّنيا والآخِرَةِ»[1].

١٩ ـ «والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين أنيابكما».

«يعني لحم الذي اغتاباه» السلسلة الصحيحة برقم (٢٦٠٨).

وصلىٰ الله علىٰ النبي محمد وعلىٰ إخوانه النبيين

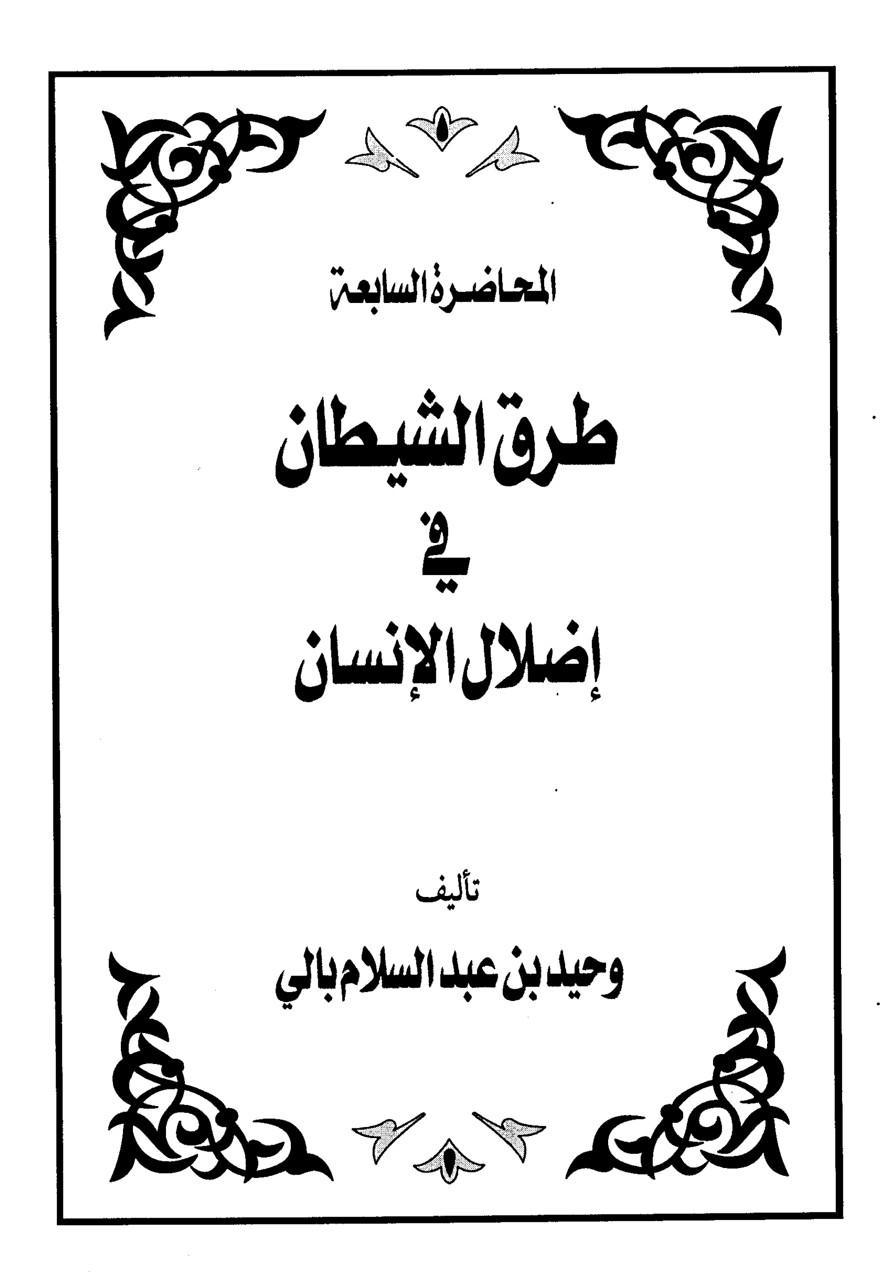
وآله المطهرين ومن سار علىٰ نهجهم إلىٰ يوم الدين.

وكتبه

الفقير إلى عفو ربه

وحيد بالي

(١) حسن لغيره: موقوف، حسنه الألباني وقال: حسن لغيره في «صحيح الترغيب» برقم (٢٨٤٩).



المحاضرة السابعة

طرق الشيطان في إضلال الإنسان

تأليف

وحيد بن عبد السلام بالي

(المبتكرات)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحَمْدَ لله نَحمَدُهُ وَنستَعينُه وَنستَغْفره، ونَعُوذُ بالله منْ شُرُور أَنفُسنَا وَمنْ سَيئَات أَعـمَالنَا، مَنْ يَهده اللهُ فَلا مُضلَّ لهَ، ومَنْ يُضْللْ فَلا هَاديَ لَهُ، وأَشْهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورسولُهُ.

وبَعْدُ:

فَإنَّ عَدَاوةَ الشَّيْطَان للإنْسَان مُسْتَحْكمَةٌ، والحَرْبُ بَينَهُمَا ظَاهرة واضحَة، وَهَدَفُ الشَّيطَان أَنْ يُغْويَ بَني آدَمَ جَميعًا حتّىٰ يكُونُوا معَهُ في جَهَنَّمَ، كي لا يكُونَ وحْدَهُ هُنَاكَ، ولذَلكَ كَانَ منَ الواجب عَلَىٰ كُلّ مُسْلم أَنْ يَعْرفَ أَسَاليبَ الشَّيطَان ليحْذَرَهَا، وَمداخلَهُ ليَتَجَنَّبَهَا، وطُرقَهُ ليَبْتَعدَ عَنْهَا، وَقَدْ وضَّحْتُ ذَلكَ كُلَّهُ بفضْل الله وتَوْفيقه في كتَابي: «**وِقَايَةُ الإنْسَانِ منَ الجنِّ والشَّيطَان**».

ولَكنّي أَفْردتُ طُرقَ الإضْلال وأَسَاليبَ الشَّيطَان في الإغْوَاء في تلْكَ الرسَالَة لَمَّا وَجَدْتُهَا قَدْ عَمَّتْ بهَا البَلْوىٰ وَجهلَهَا كثير منَ النَّاس.

سَائلاً الله تَبَاركَ وتَعَالَىٰ أَنْ يَنْصُرَنا عَلَىٰ الشَّيْطان، وأَنْ لا يَجْعلَ لَه عَلَيْنَا

سُلْطَانًا وَلا إِلَىٰ قُلُوبِنَا سَبِيلاً، كَمَا أَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَحفظَنَا بحفْظه، ويَكلأَنَا برعَايَته ويُوفّقنَا لكشْف مُخَطّطَات الشَّيطان، وأَنْ يُجَنّبَنا الوُقُوعَ فيهَا إنَّه علَىٰ كُلّ شيءٍ قَدير وَبالإجَابَة جَدير.

وَصَلّ اللَّهُمَّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آله وَصَحْبه وَسَلّمْ.

وكَتَبَهُ

وحيد بالي

النوايا التي يمكن أن يستحضرها المحاضر قبل إلقاء هذه المحاضرة

أولاً: النوايا العامة:

١ - ينوي القيام بتبليغ الناس شيئًا من دين الله إمتثالاً لقول النبي ﷺ: «**بلِّغوا عني ولو آية**» رواه البخاري.

٢ - رجاء الحصول علي ثواب مجلس العلم[١].

٣ - رجاءأن يرجع من مجلسه ذلك مغفوراً له[٢].

٤ - ينوي تكثير سواد المسلمين والالتقاء بعباد الله المؤمنين.

٥ - ينوي الاعتكاف في المسجد مدة المحاضرة - عند من يرىٰ جواز ذلك من الفقهاء - لأن الاعتكاف هو الانقطاع مدَّة لله في بيت الله.

٦ - رجاء الحصول علىٰ أجر الخطوات إلىٰ المسجد الذي سيلقي فيه المحاضرة[٣].

---

(١) روىٰ مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

(٢) روىٰ الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٧) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم علىٰ ذكر، فتفرقوا عنه إلا قيل لهم قوموا مغفوراً لكم»، ومجالس الذكر هي المجالس التي تذكر بالله وبآياته وأحكام شرعه ونحو ذلك.

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من غدا إلىٰ المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».

وفي صحيح مسلم عنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته ثم مضىٰ إلىٰ بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرىٰ ترفع درجة».

٧ ـ رجاء الحصول على ثواب انتظار الصلاة بعد الصلاة، إذا كان سيلقي محاضرته مثلاً من المغرب إلى العشاء، أو من العصر إلى المغرب[(١)] .

٨ ـ رجاء أن يهدي الله بسبب محاضرته رجلاً. فيأخذ مثل أجره[(٢)] .

٩ ـ ينوي إرشاد السائلين، وتعليم المحتاجين، من خلال الرد على أسئلة المستفتين[(٣)] .

١٠ ـ ينوي القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ إن وجد ما يقتضي ذلك[(٤)] .

١١ ـ ينوي طلب النضرة المذكورة في قول النبي ﷺ: «**نَضَّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها**». رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦) .

ـ ثم قد يفتح الله على المحاضر بنوايا صالحة أخرى فيتضاعف أجره لقول النبي ﷺ: «**وإنما لكل امرئ ما نوى**». متفق عليه .

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال أحدكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة» .
ـ وروى البخاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه» .

(٢)، (٤) روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم» .
ـ وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا» .

(٣) روى الترمذي وصححه الألباني عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير» .
وصلاة الملائكة الاستغفار .

ثانيًا: النوايا الخاصة:

١ - ينوي بإلقاء هذه المحاضرة تحذير المسلمين من كيد الشياطين.

٢ - ينوي بها كشف خطط الشيطان.

٣ - ينوي بها حث الناس على الطاعات وتنفيرهم من المعاصي السيئات.

٤ - ينوي بها حث المسلمين علي الثبات على الحق وعدم الضعف أمام اغراءات الشياطين.

٥ - ينوي بها تحذير المسلم من خطوات الشيطان التي تأتي في صورة النصح للإنسان.

* * *

الخبرة المديدة

لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا مَارَسَ عملاً مُعَيَّنًا خَمْسِينَ عَامًا مَثَلاً؛ لأَصْبَحَ فيه مُحَنَّكًا بِمَدَاخله وطُرُقه وخفايَاه، فهَذَا إبليس عَلَيْه لَعْنَةُ الله منْ يَوم طَرْده منَ الجَنَّة حَتَّى الآنَ لَيْسَ لَهُ عَمَل إلا إضْلالُ الخَلْق وإغوَاؤهُمْ، فَهَذه المُدَّةُ الطَّويلَةُ وتلكَ الخبْرَة المَديدَةُ جعَلَتْهُ يَخْتَرعُ أَفَانينَ في الإِغْوَاء وَالإِضْلال فَمنْ هَذه الحيل:

١ـ تَزْيينُ البَاطل.

٢ـ تَسْميَةُ المَعَاصي بأَسمَاء محببة.

٣ـ تَسْميَةُ الطَّاعَات بأسماء منفرة.

٤ـ دُخُولُهُ إلى النَّفْس من أحبّ الأبواب إليها.

٥ـ التدرُّجُ في الإضلال.

٦ـ الصَّدُّ عن الحق.

٧ـ إظهارُ النُّصْح للإِنْسَان.

٨ـ الاستعانةُ بشياطين الإنس.

وإليكَ بيانُها بالتَّفْصيل:

١. تزيين الباطل

إنَّ البَاطلَ لَهُ صُورَةٌ قَبيحَة وَسيم وَقحَة، وَلذَلكَ يَعْمدُ الشَّيْطَانُ إلَى هَذا البَاطل فَيُغَطّيه بغطاء جَميل ويُلْبسُهُ رداءً حَسَنًا ثُمَّ يزيّنُهُ ويُحَسّنُهُ ثُمَّ يبدأُ في إغْواء العَبْد به ومَا عَلمْنَا ذَلكَ إلا منْ قَوْل الشَّيطَان نَفسه حينَ قَال لربّه: ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩]. فالتَّزْيينُ أَوَّلاً ثُمَّ الإِغْوَاءُ.

قَالَ ابنُ القيِّم رَحمهُ اللهُ تعَالَى:

«ومنْ مكَايده أَنَّهُ يَسْحَرُ العَقْلَ دائمًا حتَّىٰ يكيدَهُ، وَلا يَسْلَمُ من سحْره إلا مَن شَاءَ اللهُ، فَيُزيّنُ لَهُ الفعْلَ الذي يَضُرُّهُ حَتَّىٰ يُخيّل إلَيْه أَنَّهُ منْ أَنْفَع الأَشْيَاء وينَفّرُهُ منَ الفعل الَّذي هُوَ من أَنْفَع الأشْيَاء، حَتَّىٰ يُخَيّل لَهُ أَنَّه يَضُرُّهُ.

فَلاَ إلَهَ إلا اللهُ فَكَمْ فُتنَ بهَذَا السّحر إنْسَان! وَكَمْ حَالَ به بَيْنَ القَلْب وَبَيْنَ الإسْلام وَالإيمَان وَالإحسَان! وَكَمْ جَلَّى البَاطلَ وَأَبرزَهُ في صُورةٍ مُسْتَحسَنَةٍ! وكَمْ شنَّعَ الحَقَّ وَأَخْرجَهُ في صُورةٍ مُسْتَهْجَنَةٍ! وكم بَهْرَج منَ الزيُوف عَلَىٰ النَاقدينَ، وكَمْ رَوَّجَ منَ الزَّغَل عَلىٰ العَارفينَ، فَهُوَ الَّذي سَحَرَ العُقُولَ حَتَّىٰ أَلقىٰ أَرْبَابَهَا في الأَهْوَاء المُخْتَلفة، وَالآرَاء المُتشَعّبَة وَسَلَكَ بهمْ في سُبُل الضَّلال كُلَّ مَسْلَكٍ، وأَلقاهُمْ منَ المَهَالك في مَهْلكٍ بَعدَ مَهْلكٍ.

وزَيَّنَ لَهُم عبَادَةَ الأصْنَام وقَطيعَةَ الأَرْحَام ووَأْد البَنَات، ونكَاحَ الأُمَّهَات ووَعَدَهُمْ بالفوز بالجَنَّات مَعَ الكُفْر وَ الفُسُوق والعصْيَان، وَأبرزَ لهُم الشركَ في صُورَة التَّعْظيم، وَالكُفْرَ بصفَات الرّب تَعَالَىٰ وَعُلُوّه وَتكلُّمه بكُتُبه في قَالَب

التَّنزيه، وتَرْكَ الأمر بالمَعْرُوف والنَّهيَ عَن المُنْكَر في قَالَب التَّوَدُّد إلَى النَّاس، وَحُسْنَ الخُلُق مَعَهُمْ وَالعَملَ بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وَالإعْرَاضَ عَمَّا جَاءَ به الرَّسُولُ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ في قَالَب التَّقْليد، والاكْتفَاء بقوْل مَنْ هُوَ أَعْلَمُ منْهُ، وَالنّفاقَ والادهانَ في دين الله في قَالَب العَقْل المعيش الَّذي يَنْدَرجُ به العَبدُ بَيْنَ النَّاس»[1] . اهـ.

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١ / ١١٠).

٢. تسمية المعاصي بأسماء مُحبَّبة

مِنْ صُور هَذَا التَّزيين تَسْمِيَةُ الفَواحش والمَعَاصي بأسماء مُحَبَّبَة إلَىٰ النُّفوس لكَي يُخْفي خُبْثهَا وَفُحْشَهَا ؛ فَهُوَ الَّذي سَمَّىٰ الشَّجَرة بشَجَرة الخُلْد ﴿ **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ** ﴾ [طه : ١٢٠].

يَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ الله تَعَالَى: «وَقَدْ وَرَّثَ أَتْبَاعَهُ تَسْمِيَةَ الأُمور المُحَرَّمَة بالأَسْمَاء الَّتي تُحبُّ النُّفُوس مُسَمَّيَاتها، فَسَمّوا الخَمْرَ بأُمّ الأَفْرَاح . . .»(١).

فَهُمُ الَّذينَ يُسَمُّونَ الرِّبَا بالفَائدَة، وَيُسَمُّونَ التَّبَرُّجَ الفَاضحَ بحُرِّية المَرْأَة، وَيُسَمُّونَ الاخْتلاطَ المُسْتَهتر بالتَّقَدُّم وَالتَّمَدُّن، وَيُسَمُّونَ المُغَنّيَةَ الفاسقَةَ الفَاجرَةَ بالفَنَّانَة.

وَيُسَمُّونَ المُمَثّلَةَ الخَليعَةَ بالبَطَلَة، وَيَجْمَعُونَ كُلَّ هَذَا الفسْقَ وَالفُجُورَ وَالعصْيَانَ تَحْتَ اسم الفن، كُلُّ هَذَا ليَجْذبُوا قُلُوبَ النَّاس إلَىٰ فُحْشهمْ وَخُبْثهمْ.

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١ / ١١٢).

٣.تسمية الطاعات بأسماء منفرة

إنَّ الحَقَّ تَكُونُ عَلَيْه مسْحَة من نور، وَتَعْلُوهُ إشْرَاقَة وَضَّاءَة، فَلَوْ ظَلَّ كَمَا هُوَ دُونَ تَشْويه أَوْ تَقْبيح لتَهَافَتَتْ إلَيْه النُّفُوسُ، وَأَصْغَتْ إلَيْه الأَسْمَاعُ وَرَكَنَتْ إلَيْه القُلُوبُ؛ وَلذَا كانَ دَوْرُ الشَّيْطَان الأَوَّل هُوَ تَقْبيحَ صُورَة الحَقّ وَتَشْويهَهَا وَتَسْميَتُهُ بأَسْمَاء مُنَفّرَة، فَهُوَ الَّذي أَوْحَىٰ إلَىٰ أَوْليَائه منْ كُفَّار مَدْيَنَ أَنْ يَقُولُوا للنَّاس: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

وَهُوَ الَّذي أَوْحَىٰ إلَىٰ أَوْليَائه منْ كُفَّار قَوْم فرْعَونَ بتَسْميَة مُوسَىٰ وَهَارُونَ سَاحرَين ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣].

وَهُوَ الَّذي أَوْحَىٰ إلَىٰ أَوْليَائه منَ الكُفَّار منْ قَوْم عَادٍ أَنْ يَقُولُوا لنَبيّهمْ هودٍ عليه السلامُ: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وَهُوَ الَّذي أَوْحَىٰ إلَىٰ أَوْليَائه منْ كُفَّار قُرَيْشٍ بتَسْميَة رَسُول الله ﷺ بالسَّاحر وَالكَاهن وَالشَّاعر وَالمَسْحُور وَالمَجْنُون وَغَيرهَا منَ الأَسْمَاء المُنَفّرَة: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾ [الفرقان: ٨].

وَلَكنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ نَفَىٰ كُلَّ مَا نسبَ إلَىٰ رَسُول الله ﷺ منْ زُورٍ وبُهْتَانٍ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

وَقَالَ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤١: ٤٣]، وَهُوَ الَّذي أَوْحَىٰ إلَىٰ أَوليَائه منْ كُفَّار قريشٍ بتَسْميَة أَتْبَاع النَّبيّ ﷺ بالصَّابئينَ.

وَمَا زَالَ الشَّيْطَانُ يَسيرُ في نَفْس الخطَّة وَبتلْكَ الوَسَائل حَتَّىٰ زَمَاننَا هَذَا، فَهُوَ

الَّذي أَوْحَىٰ إِلَىٰ أَوْلِيَائه بتَسْمِيَة المُتَمَسِّكينَ بهَدْي النَّبي ﷺ وَالمُسْتَنّين بُسنَّته بالمتَطرِّفينَ وَالمُتعَصِّبينَ.

كَمَا يُسَمُّونَ البُعْدَ عَن المَعَاصي وَدُور الفسْق وَالفُجُور انغلاقًا وَيُسَمُّونَ الحجَابَ الشَّرعيَّ خَيْمَةً، وَيُسَمُّونَ المَرْأَةَ الَّتي التزَمَتْ بأَمْر ربِّها وَجَلسَتْ في بَيْتهَا رَجْعيَّةً وَمُتَخَلِّفَةً، كُلُّ ذَلكَ منْ وَحْي الشَّيْطَان إليهمْ.

وَلَكنْ أُنَادي أَهْلَ الحَقّ: لا تَجْعَلُوا هَذَا يُثْني منْ عَزمكُمْ فَتَترَاجَعُوا عَنْ سُنَّة نَبيِّكُمْ، بَلْ ازْدَادُوا تَمَسُّكًا وَقُولُوا:

لا تَلْمِزُونَا يَا خَفَافيشَ الدُّجَى	بتَطَرُّف وَتَسَرُّع وَتَشَدُّد
لا تَقْذفُونَا بالشُّذُوذ فَإِنَّنَا	سرْنَا عَلى نَهْج الخَليل مُحَمَّد
وَلكُلِّ قَوْلٍ تَسْتَدلُّ بآيَة	أَو بالحَديث المُسْتَقيم المُسْنَد
وَالنَّسْخُ نَعْرفُ وَالعُمُومُ وَإِنَّنَا	مُتَفَطِّنُون لمُطْلَق وَمُقَيِّد
ونُصُوصُ وَحْي الله نُتْقنُ فَهْمَهَا	لاَ تَحْسَبُونَ الفَهْمَ كَالرَّأْي الرَّدي
وَإذَا تَعَارَضَت النُّصُوصُ فَإنَّنَا	بأُصُول سَادَتنا الأئمة نَهْتَدي

* * *

٤. دخوله إلى النفس من أحبّ الأبواب إليها

إنَّ عَدُوَّ الله لا يَدخُلُ عَلَىٰ النَّفْس إلا منَ البَاب الَّذي تُحبُّهُ وتَهْوَاهُ ؛ لأَنَّهُ بذَلكَ يُحقّقُ مُرَادهَا وهَوَاهَا فَيَجدُ الشَّيْطَانُ منَ النَّفْس عونًا ومنَ الهَوَىٰ مَدَدًا .

يَقُولُ ابْنُ القَيِّم: «وَهَذا بَابُ كَيْده الأَعْظَم الَّذي يَدْخُلُ منْهُ عَلَىٰ ابْن آدَمَ فَإنَّهُ يَجْري منْهُ مَجْرَىٰ الدَّم حَتّىٰ يُصَادفَ نَفْسَهُ ويُخَالطَهُ، وَيسْأَلَهَا عَمَّا تُحبُّه وتُؤْثرُهُ، فَإذَا عَرَفَهُ اسْتَعَان بهَا عَلَىٰ العَبْد وَدَخلَ عَلَيْه منْ هَذَا البَاب .

وكَذَلكَ عَلَّمَ إخْوَانَهُ وَأَوْليَاءَهُ منَ الإنْس إذَا أَرَادُوا أَغْرَاضَهُمُ الفَاسدَةَ منْ بَعضهمْ بَعْضًا أَنْ يَدْخُلُوا عَلَيْهمْ منَ البَاب الَّذي يُحبُّونَهُ وَيَهْوُونَهُ فَإنَّهُ بَاب لا يُخْذَلُ عَنْ حَاجَته مَنْ دَخَل منْهُ، وَمَنْ رَامَ الدُّخُولَ منْ غَيْره فَالْبَابُ عَلَيْه مَسدُود وَهُوَ عَنْ طَريق مَقْصده مَصْدُود . اهـ . »[1] .

* * *

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ١١٢).

٥. التدرج في الإضلال

إنَّ الشَّيْطَانَ لا يَأْتِي الإِنْسَانَ وَيَقُولُ لَهُ: افعَلْ هَذه المَعْصيَةَ أو ارْتكبْ هَذه الفَاحشَةَ، وَإِنَّمَا يُقَرِّبُهُ منهَا خُطْوَةً خُطْوَةً.

وَقَديمًا قَالُوا: «نَظْرَة فابتسَامَة فكَلام فَموعد فَلقَاء» وهنَا يَقعُ المَحْظُورُ، فَلذَلكَ حَذَّرَنَا اللهُ تباركَ وَتَعَالَىٰ من اتِّبَاع خُطُوَات الشَّيْطَان فَقَالَ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ [النور: ٢١].

فَهَذَا نداءُ شَفَقَةٍ وَرَحْمَةٍ منَ الرَّؤوف الرَّحيم إلَىٰ عبَاده مُحَذِّرًا لَهُمْ منْ اتِّبَاع طُرق الشَّيطَان وَمَسَالكه وَمُنَبِّهًا عَلَىٰ أَنَّهُ يَجبُ عَلَىٰ العبد أَنْ يُغْلقَ بَابَ الطَّريق منْ أَوَّله كي لا يَنْدَرجَ مَعَهُ في الغوايَة والضَّلال.

وَمَنْ فهمَ مَقَاصدَ الشَّريعة تَبَيَّنَ لَهُ ذَلكَ بوضُوحٍ، فَمَا قاعدَةُ «**سَدِّ الذَّرَائع**» إلا منْ هَذَا القَبيل، وَكَذَا تَحْريمُ الخَلوَة بالأَجْنَبية وَغَضُّ البَصَر، فَكُنْ مُتَيَقِّظًا أَخي المُسْلم لخطَط الشَّيطان وَحَبَائله.

وَيُروَى عَنْ وَهب بْن مُنَبِّه قَالَ: كَانَ عَابدًا في بَني إسْرَائيلَ وَكَانَ أعبدَ أَهْل زَمَانه، وَكَانَ في زَمَانه ثَلاثَةُ إخْوَة لَهُمْ أُخْت وَكَانَتْ بكْرًا لَيس لَهُمْ أُخْت غيرهَا، فَخَرَجَ البَعْثُ عَلَىٰ ثَلاثَتهمْ فَلَمْ يَدْرُوا عندَ مَنْ يَخْلُفُونَ أُختَهُمْ وَلا مَنْ يَأْمَنُونَ عَليهَا، وَلا عندَ مَنْ يَضَعُونَهَا.

قَالَ: فَأَجْمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُفُوهَا عندَ عَابد بَني إسْرَائيلَ وَكَانَ ثقَةً في أَنفُسهمْ، فَأَتَوْهُ فَسَأَلُوهُ أَنْ يخلُفُوهَا عندَهُ فَتكُون في كَنَفه وَجوَاره إلَىٰ أَنْ

يَرجعُوا منْ غزَاتهم ، فَأَبَىٰ ذَلكَ وتَعوَّذَ بالله عز وجل منْهُم ومنْ أُخْتهمْ .

قَالَ: فَلَمْ يزَالُوا به حتَّىٰ أَطَاعهُمْ فقَالَ : أَنْزلُوهَا في بيتٍ حيَالَ صَومَعَتي .

قَالَ: فَأَنْزَلُوهَا في ذَلكَ البَيت ثُمَّ انطَلَقُوا وتَركُوهَا ، فمكَثتْ في جوَار ذَلكَ العابد زَمَانًا ينزلُ إليْهَا بالطَّعَام منْ صَومعَته فَيَضعهُ عندَ باب الصَّومعَة ، ثُمَّ يُغلقُ بَابَه ويَصعَدُ إلَىٰ صَومعَته ثُمَّ يَأْمرُهَا فتَخْرُجُ منْ بَيْتهَا فتأْخُذ مَا وَضعَ لَهَا منْ طَعَامٍ .

قَالَ: فتَلَطَّفَ لَه الشَّيطَانُ فَلَمْ يزَلْ يُرغّبُهُ في الخَير ويُعَظّمُ عَليه خُرُوج الجَارية منْ بيتهَا نَهاراً ويُخوّفهُ أَنْ يرَاهَا أَحد فيَعلقَهَا ، فَلَو مَشيت بطَعَامهَا حتَّىٰ تَضعَهُ عَلَىٰ بَاب بَيتهَا كَانَ أَعْظَمَ لأَجرك .

قَالَ: فَلَمْ يزَلْ به حتَّىٰ مَشىٰ إلَيهَا بطَعَامهَا ووَضعَهُ عَلَىٰ بَاب بَيتهَا ولَمْ يُكَلّمْهَا .

قَالَ: فَلَبثَ عَلَىٰ هَذه الحَالَة زَمَانًا .

ثُمَّ جَاءَهُ إبليسُ فَرَغَّبَهُ في الخَير والأَجْر وَحَضَّهُ عَلَيه .

قَالَ: لَوْ كُنْتَ تَمشي إلَيهَا بطَعَامهَا حتَّىٰ تَضعَهُ في بيتها كانَ أَعظَمَ لأَجْركَ .

قَالَ: فَلَمْ يزَلْ به حتَّىٰ مَشىٰ إلَيهَا بالطّعَام ثُمَّ وَضعَهُ في بيتهَا ، فَلَبثَ عَلَىٰ ذَلكَ زَمَانًا .

ثُمَّ جَاءَهُ إبليسُ فَرَغَّبَهُ في الخَير وَحَضَّهُ عَلَيه .

فَقَالَ: لَوْ كُنتَ تُكلمُهَا وتُحدثُها فتَأْنس بحَديثك فإنَّهَا قَدْ استَوحَشَتْ وَحْشَةً شَديدَةً .

قَالَ: فَلَمْ يزَلْ به حتَّى حدَّثَها زَمَانًا يطَّلعُ إليهَا منْ فوق صومعَته .

ثُمَّ أتَاهُ إبْليسُ بَعد ذلكَ فقالَ : لَوْ كُنتَ تنزلُ إليهَا فتَقْعُدُ عَلَى بَاب صَومَعَتكَ وتُحدّثهَا وتَقْعُد هيَ عَلَى بَاب بيتهَا فتحدثك كَانَ آنس لَهَا .

فَلَمْ يزَلْ به حتَّى أنزَلَهُ وأجْلَسَهُ عَلَى بَاب صَومعَته يُحَدّثها وتُحدّثه وتَخْرجُ الجَاريةُ منْ بَيتهَا حتَّى تقْعُدَ عَلَى بَاب بيتها فلَبثا زمَانًا يتحدّثان .

ثُمَّ جاءَهُ إبْليسُ فرَغّبَهُ في الخير والثَّواب فيمَا يصْنَعُ بهَا . وقَالَ :

لَوْ خرَجْتَ منْ بَاب صَومَعَتكَ ثُمَّ جَلَستَ قَريبًا منْ بَاب بيتهَا فحَدَّثْتَهَا كَانَ آنس لَهَا ، فَلَمْ يَزَلْ به حتَّى فعَلَ .

قَالَ: فَلَبثَ ذَلكَ زَمَانًا .

ثُمَّ جَاءَهُ إبْليسُ عَليه لَعْنَةُ الله فرَغَّبَهُ في الخَير وفيمَا لَهُ عندَ الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى منْ حسْن الثَّواب فيمَا يَصْنَعُ بهَا ، وقَالَ لَهُ :

لَو دَنَوتَ منْهَا وجَلَستَ عندَ بَاب بيتهَا فحَدَّثْتَهَا ولَمْ تَخرجْ منْ بَيتها ففعَل ، فكَانَ يَنزلُ منْ صَومعَته فيَقفُ عَلَى بَاب بيتها فيُحدّثها .

فَلَبثَ على ذلك حينًا .

ثُمَّ جَاءَهُ إبْليسُ فقَالَ : لَوْ دَخلْت البيتَ مَعهَا فتُحدّثهَا ، ولَمْ تَتركْهَا تُبرزُ وَجْهَهَا لأحَد كَانَ أحْسَنَ بكَ ، فَلَمْ يزَلْ به حتَّى دَخلَ البَيْتَ فجَعلَ يُحَدّثُهَا نَهارَهَا كُلَّهُ فَإذَا مَضَى النَّهَارُ صعَدَ إلى صَوْمَعَته .

ثُمَّ أتَاهُ إبْليسُ بَعْدَ ذَلكَ فَلَمْ يزَلْ يُزيّنُهَا لَهُ حتَّى ضَرَبَ العَابدُ عَلَى فخذهَا وقبَّلهَا .

فَلَمْ يزَلْ به إبْليسُ يحسّنُهَا في عَيْنه ويُسَوّلُ لَهُ حتَّى وقعَ عَلَيْهَا فأحْبلَها فوَلَدتْ لَهُ غُلامًا .

فَجَاءَهُ إبْليسُ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إنْ جَاءَ إخْوَةُ الجَارِيَة وَقَدْ وَلَدَتْ منكَ كَيفَ تَصْنَعُ؟ لا آمَنُ أَنْ تُفْتَضحَ أَوْ يَفْضَحُوكَ، فاعْمدْ إلَىٰ ابْنهَا فاذْبَحْهُ وادفنْهُ فَإنَّها ستَكْتُمُ ذَلكَ عَلَيْكَ مَخَافَةَ إخْوَتها أَنْ يَطَّلعُوا عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ بهَا فَفعَل، فَقَالَ:

أَتَرَاهَا تَكْتُمُ إخْوَتَهَا مَا صَنَعْتَ بهَا وَقَتَلْتَ ابْنَهَا؟

قَالَ: خُذْهَا وَاذْبَحْهَا وَادْفنْهَا مَعَ ابْنهَا.

فَلَمْ يَزَلْ به حَتَّىٰ ذَبَحَهَا وَأَلْقَاهَا في الحُفْرَة مَعَ ابْنهَا وَأَطْبَقَ عَلَيْهِمَا صَخْرَةً عَظيمَةً وَسَوَّىٰ عَلَيْهمَا وَصَعدَ إلَىٰ صَوْمَعَته يَتَعَبَّدُ فيهَا.

فَمَكَثَ بذَلكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ حَتَّىٰ أَقْبَلَ إخْوَتُهَا منَ الغَزْو فَجَاءُوا فَسَأَلُوا عَنْهَا فَنَعَاها لَهُمْ وَتَرَحَّمَ عَلَيْهَا وَبَكَاهَا وَقَالَ: كَانَتْ خَيْرَ امرأَةٍ وَهَذَا قَبْرُهَا فَانظُرُوا إلَيْه.

فأَتَىٰ إخْوَتُهَا القَبْرَ فَبَكَوْا أُخْتَهُمْ وَتَرَحَّمُوا عَلَيْهَا فأَقَامُوا عَلَىٰ قَبْرهَا أَيَّامًا ثُمَّ انصَرَفُوا إلَىٰ أَهَاليهمْ.

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهمُ اللَّيْلُ وَأَخَذُوا مَضَاجعَهُمْ جَاءَهُمُ الشَّيْطَانُ في النَّوْم عَلَىٰ صُورَة رَجُلٍ مُسَافر فَبَدَأَ بأَكْبَرهمْ فَسَأَلَهُ عَنْ أخته فأَخْبَرَهُ بقَوْل العَابد وَمَوْتهَا وَتَرَحُّمه عَلَيْهَا وَكَيْفَ أَرَاهُمْ مَوْضعَ قَبْرهَا فَكَذَّبَهُ الشَّيْطَانُ، وَقَالَ:

لَمْ يَصْدُقْكُمْ أَمْرَ أُخْتكُمْ إنَّهُ قَدْ أَحْبَلَ أُخْتَكُمْ وَوَلَدَتْ لَهُ غُلامًا فَذَبَحَهُ وَذَبَحهَا مَعَهُ فَزَعًا منْكُمْ وَأَلْقَاهُمْ في حُفَيْرَةٍ احْتَفَرَهَا خَلْفَ بَاب البَيْت الَّذي كَانَتْ فيه عَنْ يَمين مَنْ دَخَلَهُ، فَانطَلقُوا فادْخُلُوا البَيْتَ، فَإنَّكُمْ سَتَجدونَهُمَا كَمَا أَخْبَرْتُكُمْ هُنَاكَ جَميعًا.

وأَتَىٰ الأَوْسَطَ في مَنَامه فَقَالَ لَهُ مثْلَ ذَلكَ.

وأَتَىٰ أَصْغَرَهُمْ فَقَالَ لَهُ مثْلَ ذَلكَ.

فَلَمَّا استَيْقَظَ القَوْمُ أَصْبَحُوا مُتَعَجِّبينَ مِمَّا رأَىٰ كُلُّ وَاحدٍ منْهُمْ .

فَأَقْبلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يقُولُ كُلُّ واحدٍ منْهمْ : لَقَدْ رأَيْتُ اللَّيْلَةَ عَجَبًا فَأخْبرَ بَعْضُهُم بَعْضًا بِمَا رأَىٰ .

فَقَالَ كَبيرهُمْ: هَذَا حُلْم لَيْسَ بشيء فَامْضُوا بنَا ودَعُوا هذا عَنْكُمْ .

قَالَ أَصْغَرُهُمْ: وَالله لا أَمْضي حَتَّىٰ آتي إلَىٰ هَذا المَكَان فَأنْظُرَ فيه .

فانطَلَقُوا جَميعًا حَتَّىٰ أَتَوا البَيْتَ الَّذي كَانَتْ فيه أُخْتُهُمْ ففتَحُوا البَابَ وبَحثُوا المَوْضعَ الَّذي وُصفَ لَهُمْ في مَنَامهمْ فَوَجَدُوا أُخْتَهُمْ وابْنَها مَذْبُوحَيْن في الحُفَيْرَة كَمَا قيلَ لَهُمْ، فَسَأَلُوا عَنْهَا العَابدَ فَصدَّقَ قَوْلَ إبْليسَ فيمَا صَنَعَ بهمَا .

فَاسْتَعْدَوا عَلَيْه ملكَهُمْ فَأُنْزلَ منْ صَوْمَعَته وقُدّمَ ليُصْلَبَ .

فَلَمّا أَوْثَقُوهُ عَلَىٰ الخَشَبَة أَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ لَهُ : قَدْ عَلمْتَ أَنّي أَنَا صَاحبُكَ الَّذي فَتَنَكَ بالمَرْأَة حَتَّىٰ أَحْبَلْتَهَا وَذَبَحْتَهَا وابْنَهَا، فإنْ أَنْتَ أَطَعْتَني اليَوْمَ وكفرتَ بالله الَّذي خَلَقَكَ وصَوَّرَكَ خَلَّصْتُكَ مِمَّا أَنْتَ فيه .

قَالَ: فَكَفَرَ العَابدُ بالله، فَلَمَّا كَفرَ بالله تَعَالَىٰ خَلَّىٰ الشَّيْطَانُ بَيْنَه وَبَيْنَ أَصْحَابه فَصَلَبُوهُ[1] .

قَالَ المُفَسِّرُونَ: في هَذَا وَأَمْثَاله نَزَلَتْ : ﴿ **كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ⁽¹⁵⁾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ⁽¹⁶⁾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الحشر: ١٥ ـ ١٧] .

هكَذَا خَطَّطَ لَهُ الشَّيْطَانُ وَدَبَّرَ، حَتَّىٰ نَالَ منْهُ مَا يُريدُ وَمَا وَقَعَ هَذَا العَابدُ فيمَا

(١) تلبيس إبليس (٢٦) .

وَقَعَ فيه إلا منْ جَهْله بمَدَاخل الشَّيْطان وَخُطُواته، فَلَوْ أَنَّهُ امْتَنَعَ عَلَيْه منْ أَوَّل خُطْوَةٍ لَرَدَّهُ خَاسئًا.

رَوَى ابْن الجَوْزِيّ بسَنَده إلَى وَهْب بْن مُنَبِّه قَالَ: كَانَ رَاهب في صَوْمَعَته في زَمَن المَسيح عَلَيْه السَّلامُ، فَأَرَادَهُ إبْليسُ فَلَمْ يَقْدرْ عَلَيْه، فَأَتَاهُ بكُلِّ رَائدةٍ فَلَمْ يَقْدرْ عَلَيْه، فأَتَاهُ مُتَشَبِّهًا بالمَسيح، فَنَادَاهُ: أَيُّهَا الرَّاهبُ، أَشْرفْ عَلَيَّ أُكَلِّمُكَ، قَالَ: انْطَلقْ لشَأْنكَ فَلَسْتُ أَرُدُّ مَا مَضَى منْ عُمري.

فَقَالَ: أَشْرفْ عَلَيَّ فَأَنَا المَسيحُ، فَقَالَ: إنْ كُنْت المَسيحَ فَمَالي إلَيْكَ حَاجَة، أَلَسْتَ قَدْ أَمَرْتَنَا بالعبَادَة وَوَعَدْتَنَا القيَامَة؟ انْطَلَقْ لشَأْنكَ فَلا حَاجَةَ لي منْكَ، فانْطَلَقَ اللَّعينُ وَتَرَكَهُ[1].

انْظُرْ إلَى كلا العَابدَيْن:

الأَوَّلُ: أَضَلَّه الشَّيْطَانُ بسَبَب جَهْله.

وَالثَّاني: عُصمَ منَ الشَّيْطَان بسَبَب علْمه، وَلذَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ: **«فَضْلُ العَالم عَلَى العَابد كَفَضْلي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ منْ أَصْحَابي»**[2].

* * *

(١) تلبيس إبليس (٢٩).

(٢) رواه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال: حسن صحيح.

٦. الصدّ عن الحق

أَخَذَ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ نَفْسه عَهْدًا لَيُضلَّنَّ بَني آدَمَ ولَيُغْويَنَّهُمْ أَجْمَعينَ إلا مَنْ اعتصَمَ منْهُمْ بالله تَعَالَىٰ وتَحَصَّنَ بحصْن الإخْلاَص، فَذَلكَ لا سَبيلَ للشَّيطَان عَليه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وَقَالَ القُرْطُبيُّ رَحمَهُ الله تَعَالَى في قَوْله: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: أَيْ بالصَّدّ عَنْهُ وتَزيين البَاطل حَتَّىٰ يَهْلكُوا كَمَا هَلَكَ. قَالَ: وَالصّراطُ المُسْتقيمُ هُوَ الطَّريقُ المُوَصّلُ إلَىٰ الجَنَّة. ا. هـ[1].

قَالَ الحكَمُ بْنُ عُتَيْبَةَ ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: منْ دُنيَاهمْ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: منْ آخرَتهمْ، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: يَعني حَسنَاتهمْ، ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾: يَعني سَيِّئَاتهمْ.

قَالَ ابْنُ القَيِّم رَحمَهُ اللهُ: السُّبُل الَّتي يَسلُكُهَا الإنسَانُ أَرْبَعَة لا غَيْرَ، فَإنَّهُ تَارَةً يَأْخُذُ عَنْ جهَة يَمينه، وتَارَةً عَنْ شمَاله، وتَارَةً أَمَامَهُ، وتَارَةً يَرْجعُ خَلْفَهُ، فَأَي سَبيلٍ سَلَكَهَا في هَذه وَجَدَ الشَّيطَانَ عَلَيهَا رَصدًا لَهُ فَإنْ سَلَكَهَا في طَاعةٍ وَجَدَهُ عَلَيْهَا يُثَبِّطُهُ عَنْهَا ويَقْطَعُهُ أَوْ يعَوقُهُ ويُبَطّئُهُ، وَإنْ سَلَكَهَا لمَعصيَة وَجَدَهُ عَلَيهَا حَاملاً لَه وَخَادمًا وَمُعينًا وَمُمَنّيًا، وَلَو اتُّفقَ لَهُ الهُبُوطُ إلَىٰ أَسْفَل لأَتَاهُ هُنَاكَ. اهـ.[2].

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٧٥).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٤).

رَوَىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائيُّ منْ حَديث سَبرةَ بْن أَبي الفاكه أَنَّهُ سَمع النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ: «إنَّ الشَّيطَانَ قَعَدَ لابْن آدَمَ بطُرُقه، فَقَعَدَ لَهُ بطريق الإِسْلام فَقَالَ: أَتسْلمُ وتَذَرُ دينَكَ وَدينَ آبَائكَ وآبَاء آبَائكَ؟ فعَصَاهُ وأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بطَريق الهجْرَة فَقَالَ: تُهَاجرُ وتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ وَإنَّمَا مَثَلُ المُهَاجر كَمَثَل الفَرَس في الطِّوَل فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بطريق الجهَاد فَقَالَ: تُجَاهدُ وَهُوَ جَهْدُ - أَي تَلَفُ - النَّفْس وَالمَال فَتُقَاتل فَتُقْتَل فَتُنْكَح المَرْأَةُ وَيُقسم المَالُ؟ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلكَ - كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخلَهُ الجَنَّةَ، وَمَنْ قُتلَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخلَهُ الجَنَّةَ، وإنْ غَرقَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدخلَهُ الجَنَّة، وَإنْ وَقَصتْه دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخلَهُ الجَنَّةَ»[1].

قَالَ النَّحَّال: وَهَذَا قَول حسن وَشَرْحُهُ: أَنَّ مَعنَىٰ ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: منْ دُنيَاهُمْ حَتَّىٰ يُكَذِّبُوا بمَا فيهَا منَ الآيَات وأَخْبَار الأُمَم السَّالفَة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: منْ آخرَتهمْ حَتَّىٰ يُكذِّبُوا بهَا، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: منْ حَسنَاتهمْ وَأمور دينهمْ وَيَدلُّ عَلَىٰ هَذَا قَولُه: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾، ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾: يَعني سَيِّئَاتهمْ، أَيْ يَتَّبعُونَ الشَّهَوات لأَنَّهُ يزيِّنُهَا لَهُمْ، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾: أَيْ مُوَحِّدينَ طَائعينَ مُظْهرينَ الشُّكْرَ. اهـ.[2].

وَصحَ عَن ابن عَبَّاس رَضي الله عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: وَلَمْ يَقُلْ: «منْ فوقهمْ» لأَنَّهُ عَلمَ أَنَّ الله منْ فَوقهمْ، قَالَ قَتَادَةُ: أَتَاكَ الشَّيطَانُ يَا بن آدَمَ منْ كُلِّ وجْه غَيرَ أَنَّهُ لَمْ يَأْتكَ منْ فَوقكَ لَمْ يَستَطعْ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَينَ رَحمَة الله.[3].

---

(١) رواه النسائي (٥/ ٢١) قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (١٣٨٩): إسناده صحيح.
(٢) تفسير القرطبي (٧/ ١٧٦).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٣).

قَالَ شَقيق: «مَا منْ صَبَاحٍ إلا قَعَدَ ليَ الشَّيطَانُ عَلَىٰ أَرْبَعَة مَراصدَ منْ بَين يَدَيَّ وَمنْ خَلْفي وَعَنْ يميني وَعَنْ شمَالي، فَيَقُولُ: لاتَخَفْ فَإنَّ اللهَ غَفُور رَحيم، فَأَقْرأ: ﴿وإني لغفارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثُمَّ اهتدىٰ﴾[سورة طه: ٨٢]

وأَما من خَلْفي فَيُخوفني الضَّيعَةَ عَلَىٰ مَنْ أَخْلُفُهُ فَأَقْرأُ: ﴿ومَا من دابَّة في الأرض إلاَّ على الله رزقُها﴾[هود: ٦]، وَمنْ قبَل يَميني يَأْتيني منْ قبَل النِّسَاء فَأَقْرأُ: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وَمنْ قبَل شمَالي يَأْتيني منْ قبَل الشَّهوات فَأَقْرأُ: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾[سبأ: ٥٤][1].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٤).

٧. إظهار النصح للإنسان

إنَّ الشَّيْطَانَ لا يَأْتي الإنْسَانَ وَيَقُولُ لَهُ: افعَلْ كَذَا منَ المَعَاصي لكَي تَنَالَ العَذابَ الأليمَ، وَإنَّمَا يَأْتيه في صُورَة النَّاصح الأمين، وبهَذه الحيلَة تَمكَّنَ منْ إغْوَاء أبَوَيْنَا وإخْرَاجهمَا منْ الجَنَّة ﴿**وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ [الأعراف: ٢١]، وَلذَلكَ حَذَّرَنَا اللهُ منْ هَذه الفتْنَة وَتلْكَ الحيلَة قَائلاً: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ**﴾ [الأعراف: ٢٧].

كَمَا رُويَ عَنْ بَعْض السَّلَف أنَّهُ قَالَ: إذَا جَاءَكَ الشَّيْطَانُ في الصَّلاة فَقَالَ: إنَّك تُرائي فزدْهَا طُولاً فَلا نَجَاة إلا بمُخَالَفَة الشَّيْطَان وَلَوْ أظْهَرَ النُّصْحَ للإنْسَان.

* * *

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٦٧).

٨ـ الاستعانة بشياطين الإنس

إنَّ منَ النَّاس مَنْ تُخَالطُ بَشاشَةُ الإسْلام قَلْبَهُ فَيَقْوىٰ إيمَانُهُ ويَعْلُو يَقينُهُ ويُخَالطُ الإسْلامُ لَحْمَهُ ودَمَهُ فَلا يسيرُ إلا علَىٰ هَدْيه ولا يَسْتَضيء إلا بنُوره ولا يَقْتَدي إلا برَسُوله ﷺ فَهُوَ مُلْتَزم بالإسْلام في كُلّ صَغيرةٍ وكَبيرةٍ منْ أُمُور حَيَاته، وهَذَا الصنْفُ منَ النَّاس ـ وَهُمْ قَليل ـ يأْتيهمُ الشَّيْطَانُ بكُلّ شَاردَةٍ ووَاردَةٍ فَلا يَسْتَطيعُ أَنْ يُغْويَهُمْ فَبَعْدَ مَا تُعْجزُهُ الحيَلُ مَعَهُمْ يَسْتَنْجدُ بأَوْليَائه منْ شَيَاطين الإنْس ليُعَاونُوهُ في تلْكَ المُهمَّة.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإنَّ الشَّيَاطينَ لَيُوحُونَ إلَىٰ أَوْليَائهمْ ليُجَادلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فَنَجدُ الشَّابَّ إذَا هَدَاهُ اللهُ للالْتزَام بالإسْلام الْتزَامًا كَاملاً والسَّيْر عَلَىٰ نَهْج خَيْر الأَنَام ﷺ جَاءَتْهُ الفتَنُ منْ كُلّ جَانبٍ تُكَشّرُ عَنْ أَنْيَابهَا، فَإذَا اسْتَعْصَمَ بحَبْل الله وَصَبَرَ وَتَغَلَّبَ عَلَىٰ شَيَاطين الجنّ وَانْتَصرَ عَلَيْهمْ جَاءَهُ أَصْدقَاءُ السُّوء وأَتْرَابُ الفُسُوق يُثَبّطُونَ منْ عَزيمَته ويُوهنُونَ منْ قُوَّته في الحَقّ وَيَقُولُونَ لَهُ: «مَالَكَ قَدْ حَرَمْتَ نَفْسَكَ منْ مُتَع الحَيَاة فَلَمْ تَعُدْ تَنْظُرُ إلَىٰ الفَتَيَات الجَميلات ولا تُشاهدُ الأَفْلاَم والمَسْرَحيَّات ولا تَسْتَمعُ إلىٰ الفَنَّانينَ والفَنَّانَات وتَرَكْتَ الحَفَلات والسَّهرَات وتَرَكْتَ الرّبَا في المُعَامَلات وأَصْبَحْتَ تَقُولُ: هَذَا حَلال وهَذَا منَ المُحَرَّمَات؟ إنَّا نَرَاكَ قَدْ ضَيَّعْتَ شَبَابَك وَفَاتَكَ كَثير منَ اللَّذَّات...».

فَقُلْ لَهُمْ:

إنّي أَخَافُ منَ الضَّلال وإنَّني ... أَمْشي عَلَى نَهْج الحَبيب مُحمَّد
عَزَفْتُ نَفْسي عَن الدنْيَا وزينَتهَا ... ورَغبْتُ فيمَا عند رَبّي الأَمْجَد
ورَغبْتُ عَنْ سُبُل الضَّلالَة كُلّهَا ... فَأَنَا بغَيْر مُحَمَّد لا أَقْتَدي

وَأَدْعُوكَ إِلَى هذا الطَّرِيقِ فَإِنَّهُ ... طَرِيقُ المَجْدِ وَالهَدَى والسُّؤْدَدِ

فَرُبَّمَا لاَ يَسْتَجِيبُ لَكَ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَة فَقُلْ لَهُ:

إِنِّي رَأَيْتُ عَوَاقِبَ الدُّنْيَا ... فَتَرَكْتُ مَا أَهْوَى لما أَخْشَى
فَكَّرْتُ فِي الدُّنيَا وَعَالَمِهَا ... فَإِذَا جَمِيعُ أُمُورِهَا تَفْنَى
وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى القُبُورِ فَمَا ... مَيَّزتُ بَيْنَ العَبْدِ وَالمَولَى

فَإِنْ شَعرْتَ منْهُ ليناً فَزِدْهُ:

مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ المَوتَ مُدْرِكُهُ ... والقَبْرَ مَسْكَنُهُ والبَعْثَ مَخْرَجُهُ
وَأَنَّهُ بَيْنَ جَنَّات سَتُبْهِجُهُ ... يوْمَ القِيَامَة أَوْ نَار سَتُنْضِجُهُ
فَكُلُّ شَيء سوَى التَّقوى به سمجٌ ... ومَا أَقَامَ عَلَيْه منْهُ أَسْمَجُهُ
ترى الَّذي اتَّخَذَ الدُّنْيَا لَهُ وَطَنًا ... لَمْ يَدر أَنَّ المَنَايَا سَوفَ تُزعِجُهُ

فَإِنْ وَجَدْتَهُ أَسيراً لغَفْلَة فَذكِّرْهُ بِقَوْلكَ:

نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... ولَيْلُكَ نَومٌ وَالأَمْس لَكَ لاَزمُ
تُسَرُّ بمَا يفْنَى وتَفرحُ بالمُنَى ... كَمَا سُرَّ باللَّذَّات في النَّوم حَالمُ
وَشُغْلُكَ فيمَا تَكْرَهُ غِبَّة ... كَذَلكَ فِي الدُّنيَا تَعيشُ البَهَائِمُ

فَإِنْ وَجَدْتَهُ مَغْرُوراً بفُتُوَّته وَشَبَابه فَقُلْ لَهُ:

نَعَمْ أَنْتَ الشُّجَاعُ لَوْ كُنْت تَبْقَى ... غَيْرَ أَنَّه لاَ بَقَاءَ للإِنْسَانِ
لَيسَ فيمَا بَدَا لَنَا منْكَ عَيْبٌ ... كَانَ فِي النَّاسِ غَيْرَ أَنَّكَ فَانِ

ثُمَّ ذَكِّرْهُ بِقَوْلك:

نَسيرُ إِلَى الآجَالِ في كُل لَحظَة ... وَأَيامُنَا تُطوَى وَهُنَّ مَرَاحلُ
ولَمْ نرَ مثلَ المَوت حَقًا كَأَنَّهُ ... إِذَا مَا تَخطَّتْهُ الأَمَانيُّ بَاطلُ
تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَا بزَاد منَ التُّقَى ... فَعُمْرُكَ أَيَّامٌ تُعَدُّ قَلائلُ

ثُمَّ قُلْ لَهُ نَاصِحًا:

يَا خَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتِه ... أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ مِمَّا فِيهِ خُسْرَانُ

أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ واسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا ... فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لا بِالجِسْمِ إِنْسَانُ

فَإِنْ قَبِلَ نُصْحَكَ وَعَمِلَ بِقَوْلِكَ فَالحَمْدُ لله، وإِنْ أَصَرَّ عَلَىٰ أَنْ يأْخُذَكَ مَعَهُ في طريق الغوَايَة والضَّلال فَاحْذَرْهُ فَإِنَّهُ منْ شَيَاطين الإِنْس.

قَالَ مَالكُ بْنُ دينَارٍ: «إِنَّ شَيْطَانَ الإِنْس أشَدُّ عَلَيَّ منْ شَيْطَان الجنّ، وَذَلكَ أَنّي إذَا تَعَوَّذْتُ بالله ذَهَبَ عَنّي شَيْطَانُ الجنّ، وَشَيْطَانُ الإِنْس يَجيئني فَيَجُرُّني إِلَىٰ المَعَاصي عَيَانًا»(1).

فَنَعُوذُ بالله منْ شَيَاطين الإِنْس وَالجنّ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقينَا شَرَّهُمْ وَيَكْفينَا مَكْرَهُم.

* * *



المحاضرة الثامنة

معركة الشيطان مع بني الإنسان

تأليف

وحيد بن عبد السلام بالي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فهذه كلمات كتبتها عن طبيعة المعركة بين الإنسان والشيطان، ليكون المسلم على حذر من عدوه، وليتخذ الوسائل المشروعة في سبيل الدفاع عن نفسه ضد هجمات الشيطان الآثمة.

وأسأل الله تعالى أن يرزقنا الصدق والإخلاص في القول والعمل، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارِك على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وكتبه

وحيد بن عبد السلام بالي

منشأة عباس في ٢٤ ذي القعدة

النوايا التي يمكن أن يستحضرها المحاضر قبل إلقاء هذه المحاضرة

أولاً: النوايا العامة:

١ ـ ينوي القيام بتبليغ الناس شيئًا من دين الله إمتثالاً لقول النبي ﷺ: «**بلّغوا عني ولو آية**» رواه البخاري.

٢ ـ رجاء الحصول علي ثواب مجلس العلم[١].

٣ ـ رجاءأن يرجع من مجلسه ذلك مغفوراً له[٢].

٤ ـ ينوي تكثير سواد المسلمين والالتقاء بعباد الله المؤمنين.

٥ ـ ينوي الاعتكاف في المسجد مدة المحاضرة ـ عند من يرىٰ جواز ذلك من الفقهاء ـ لأن الاعتكاف هو الانقطاع مدّة لله في بيت الله.

٦ ـ رجاء الحصول علىٰ أجر الخطوات إلىٰ المسجد الذي سيلقي فيه المحاضرة[٣].

(١) روىٰ مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

(٢) روىٰ الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٧) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم علىٰ ذكر، فتفرقوا عنه إلا قيل لهم قوموا مغفوراً لكم»، ومجالس الذكر هي المجالس التي تذكر بالله وبآياته وأحكام شرعه ونحو ذلك.

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من غدا إلىٰ المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».
وفي صحيح مسلم عنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته ثم مضىٰ إلىٰ بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرىٰ ترفع درجة».

٧ - رجاء الحصول على ثواب انتظار الصلاة بعد الصلاة، إذا كان سيلقي محاضرته مثلاً من المغرب إلى العشاء، أو من العصر إلى المغرب[1] .

٨ - رجاء أن يهدي الله بسبب محاضرته رجلاً. فيأخذ مثل أجره[2] .

٩ - ينوي إرشاد السائلين، وتعليم المحتاجين، من خلال الرد على أسئلة المستفتين[3] .

١٠ - ينوي القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - بالحكمة والموعظة الحسنة - إن وجد ما يقتضي ذلك[4] .

١١ - ينوي طلب النضرة المذكورة في قول النبي ﷺ: «**نَضّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها**».رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

- ثم قد يفتح الله على المحاضر بنوايا صالحة أخرى فيتضاعف أجره لقول النبي ﷺ: «**وإنما لكل امرئ ما نوى**». متفق عليه.

---

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال أحدكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة».

- وروى البخاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه».

(٢)، (٤) روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم».

- وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا».

(٣) روى الترمذي وصححه الألباني عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير». صلاة الملائكة الاستغفار.

ثانيًا: النوايا الخاصة بهذه المحاضرة:

١ ـ ينوي بها تقوية الإنسان للانتصار على الشيطان.

٢ ـ ينوي بها تعريف المسلم كيف يتغلب على خطط الشيطان.

٣ ـ ينوي بها تعريف المسلم ببعض مداخل الشيطان ليحذرها.

٤ ـ ينوي بها تعريف المسلم كيف يتغلب على وسوسة الشيطان في الصلاة.

٥ ـ ينوي بها تعريف المسلم بالطرق التي يُضعف بها شيطانه ويُقوي بها إيمانه.

* * *

من هو الشيطان؟

يقول ابن جرير الطبري: الشيطان في كلام العرب: كل متمرد من الجن، والإنس، والدواب، وكل شيء.

قال: وكذلك قال ربنا جل ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فجعل من الإنس شياطين مثل الذي جعل من الجن، ثم ساق بسنده عن أسلم العدوي - رضي الله عنه - أن عمر - رضي الله عنه - ركب برذونا فجعل يتبختر به، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبختراً، فنزل عنه وقال: ما حملتموني إلا على شيطان ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي.

قلت: وسنده حسن، والبرذون: هو الدابة[1].

قال: وإنما سمي المتمرد من كل شيء شيطانًا، لمفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله، وبعده عن الخير[2].

* * *

---

(١) لسان العرب (١ / ٢٥٢).
(٢) جامع البيان (١ / ٤٩).

البداية

عندما خلق الله آدم عليه السلام، أمر الملائكة بالسجود جميعًا؛ لأنهم: ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ولكن كان هناك مخلوق يتعبد معهم وليس من جنسهم، إذ أنهم خُلقوا من نور وهو خلق من نار، فخانه أصله ساعة الابتلاء، فأبىٰ السجود لآدم متعللاً بأنه أشرف من آدم، فقارن بين الأصول ولم يلتفت إلىٰ الآمر بالسجود، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

ويا للعجب! إنه يقر بأن الخالق هو الله، بل يُقر بأن المحيي والمميت هو الله، حيث قال: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤] ولكن هل ينفع العلم بدون العمل؟!

كلا، ثم كلا، بل يكون وبالاً علىٰ صاحبه وحجة عليه يوم القيامة، وهنا صدر الأمر الإلهي بالطرد واللعن: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥]، ومن هنا تأصّلت العداوة بينه وبين آدم ففكر في الانتقام والتشفي.

* * *

التخطيط العاجل

وهنا فكّر في خطة ماكرة خبيثة فنطق على عجل: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦].

قال الأستاذ سيد قطب: «لقد طلب النظرة إلىٰ يوم البعث، لا ليندم علىٰ خطيئته في حضرة الخالق العظيم، ولا ليتوب إلىٰ الله ويرجع ويُكفّر عن إثمه الجسيم، ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه الله وطرده، ويربط لعنة الله له بآدم، ولا يربطها بعصيانه لله». اهـ[1].

* **الأهداف المنشودة:** وبعد ما اطمأن لبقائه إلىٰ يوم البعث، حين قال الله له: ﴿... فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر: ٣٧-٤٠] بدأ يسرد تفاصيل الخطة ويفصح عن الأهداف المنشودة غير خائف ولا هياب فقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠] قال الأستاذ سيد قطب - رحمه الله -: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ حدد عدته فيها: (التزيين)؛ تزيين القبيح وتجميله، و (الإغراء) بزينته المصطنعة علىٰ ارتكابه، وهكذا لا يجترح الإنسان الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتجمّله، وتظهره في غير حقيقته وردائه، فليفطن الناس إلىٰ عدة الشيطان.

وليحذروا كلما وجدوا في أمر تزيينًا، وكلما وجدوا من نفوسهم إليه اشتهاءً، ليحذروا فقد يكون الشيطان هناك، إلا أن يتصلوا بالله ويعبدوه حق

(١) الظلال (٤/ ٢١٤١).

عبادته، فليس للشيطان - بشرطه هو - على عباد الله المخلصين من سبيل: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١].

* **الهجمة الأولى**: لقد أخذ الشيطان على نفسه عهداً لَيُعَادِيَنَّ بني آدم أجمعين، ومن هذا يقوم بالهجمة الأولى على الآدمي لحظة ولادته لينذره بالحرب، فلا صلح ولا هوادة، إنما هي حرب ضروس، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ يطْعَنُ في جَنْبَيْه بإصْبَعَيْه حينَ يولَدُ غَيْرَ عيسَى ابنِ مريمَ؛ ذهبَ يَطْعَنُ فَطَعَنَ في الحجَابِ**»[٢].

ولذلك يستهلّ المولود صارخًا من طعنة الشيطان، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله قال: «**ما من مولود يُولَدُ إلا نَخسَهُ الشَّيْطَانُ فَيَسْتَهل صارخًا منْ نخْسَةِ الشَّيْطان إلا ابن مريمَ وأُمَّهُ**»، ثم قال: أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] متفق عليه[٣].

* * *

(١) الظلال (٤ / ٢١٤١).

(٢) رواه البخاري (٦ / ٣٣٧ فتح).

(٣) رواه البخاري (٨ / ٢١٢ فتح) ومسلم (١٥ / ١٢١ نووي).

الفرق بين عداوة الشيطان وعداوة الإنسان

قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله: «فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أن الله ـ تعالى ـ يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً، ولا يبغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين آدم من قبل». اهـ[1].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٣).

التشكيك في التوحيد

إن التوحيد هو أساس الإسلام وصرحه الشامخ، وهو السر في انتصارات المسلمين الأول، وعليه قامت الإمبراطورية الإسلامية لأنه هو الذي يصنع الرجال، وعليه مدار الإسلام، ولهذا كانت معظم هجمات الشيطان موجهة نحو هذا الأساس وذلك الصرح، ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأتي الشَّيْطانُ أحَدَكُمْ فيَقُولُ: منْ خَلَقَ كذا؟ منْ خلَقَ كَذَا؟ حتَّى يقُولَ: منْ خَلَقَ ربَّكَ؟ فإذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله، ولْيَنتَهِ**» اللفظ للبخاري[1].

* * *

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٣٧ فتح)، ومسلم (٢/ ١٥٣ نووي).

عقد الشيطان وكيفية حلها

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْقِدُ الشَّيْطان عَلَى قَافية رأس أحَدكُمْ إذا هُوَ نَائمٌ ثَلاثَ عُقَد يَضْربُ على مكان كُلِّ عُقْدَة: عليك لَيْلٌ طويلٌ فارْقُدْ. فإذا استيقظ فَذكَرَ اللهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإذَا تَوضَّأ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأصْبَحَ نَشيطًا طَيِّب النَّفْسِ، وإلا أصْبَحَ خَبيثَ النَّفْسِ كسلانَ»[1].

قال النووي - رحمه الله: «واختلف العلماء في هذه العقد:

فقيل: هو عَقْد حقيقي، بمعنى عقد السحر للإنسان ومنعه من القيام، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، فعلى هذا هو قول يقوله يؤثر في تثبيط النائم كتأثير السحر.

وقيل: يحتمل أن يكون فعلاً يفعله كفعل النفاثات في العقد.

وقيل: هو من عقد القلب وتصميمه، فكأنه يوسوس في نفسه ويُحدثه بأن عليك ليلاً طويلاً فتأخر عن القيام، وقيل: هو مجازي كنى به عن تثبيط الشيطان عن قيام الليل». اهـ[2].

قال الحافظ: «وقوله: (يَضْرِبُ) أي: بيده على العقد تأكيدًا وإحكامًا لها

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٤ فتح) مسلم (٦/ ٦٦ نووي).
(٢) شرح مسلم (٦/ ٦٥).

قائلاً ذلك» اهـ[١].

قلت: ولذلك يُسمي بعض الناس هذا الحديث (حديث الضرب على القفا)، وهذه الصفات الثلاث لا ينالها إلا الغافل الذي ينام دون أن يذكر الله، أو دون أن يقرأ آية الكرسي.

فإذا قال قائل: إن لفظ الحديث عام في الغافل وغيره.

نقول: إن عموم هذا الحديث مخصص بحديث أبي هريرة في قراءة آية الكرسي عند النوم، وإلى هذا مال الحافظ فقال: «يمكن أن يقال: يختص بمن لم يقرأ آية الكرسي لطرد الشيطان». اهـ[٢].

قال النووي: «**فَأَصبَحَ نَشيطا طَيِّبَ النَّفْسِ**»: معناه لسروره بما وَفَّقه الله الكريم له من الطاعة، ووعده به من ثوابه، مع ما يبارك في نفسه وفي تصرفه في كل أموره، مع ما زال عنه من عقد الشيطان وتثبيطه. اهـ[٣].

قال الحافظ: (والذي يظهر أن في صلاة الليل سراً في طيب النفس وإن لم يستحضر المصلي شيئًا من ذلك): اهـ[٤].

قلت: وهو الحق، ولا يشعر بذلك إلا من ذاق حلاوته وآنس قرب الله في هذه اللحظات.

قال النووي: «**وَأَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْس كَسلانَ**»: معناه لما عليه من عقد

(١) فتح الباري (٣/ ٢٥).
(٢) فتح الباري (٣/ ٢٧).
(٣) شرح مسلم (٦/ ٦٦).
(٤) فتح الباري (٣/ ٢٦).

الشيطان وآثار تثبيطه واستيلائه، مع أنه لم يُزِل ذلك عنه .

قال: وظاهر الحديث أن من لم يجمع بين الأمور الثلاثة، وهي : الذكر، والوضوء، والصلاة، فهو داخل فيمن يصبح خبيث النفس كسلان . اهـ[١] .

قال الحافظ: ذكر شيخنا الحافظ أبو الفضل بن الحسين الترمذي : أن السِّر في افتتاح صلاة الليل بركعتين خفيفتين المبادرة إلىٰ حل عقدة الشيطان[٢] .

قلت: وهذا ملحظ جيد لولا ما يعكر عليه من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ (ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره علىٰ إحدىٰ عشرة ركعة، يُصلي أربعًا فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا»[٣] .

وهدف الشيطان من هذا كله تثبيط العبد عن قيام الليل، وضرب الكسل عليه، حتىٰ يتمكن من الاستيلاء عليه طوال يومه، وهذه من المكائد الخبيثة التي يكيد بها الشيطان للإنسان ولكن كيف تبطل هذه المكيدة؟

* **بالوضوء قبل النوم:** لما ثبت في «الصحيحين» : أن رسول الله ﷺ قال للبراء بن عازب : «**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ**»[٤] .

* **أن توتر قبل النوم:** لما جاء عن ابن عمر : أنه قال : (ما أصبح رجل علىٰ غير وتر إلا أصبح علىٰ رأسه جرير قدر سبعين ذراعًا) قال الحافظ : رواه سعيد ابن منصور بسند جيد[٥] .

---

(١) شرح مسلم (٦ / ٦٧) .

(٢) فتح الباري (٣ / ٢٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٣ / ٣٣ فتح) ومسلم (٦ / ١٧ نووي) .

(٤) رواه البخاري (١ / ٣٥٧ فتح) ومسلم (١٧ / ٣٢ نووي) .

(٥) فتح الباري (٣ / ٢٥) .

أما إذا كنت تقوم قبل الفجر فتوتر، فبها ونعمت.

والجرير: هو الحبل الذي يُخطم به البعير[١] فكأن الشيطان أمسك بزمامه فهو يوجهه حيثما شاء.

* **تجمع كفيك وتقرأ فيها المعوذات، ثم تنفث فيهما، ثم تمسح بهما ما استطعت من جسدك بادئًا برأسك:** وهذا ثابت في «صحيح البخاري» من حديث عائشة[٢].

* **تقرأ الآيتين الآخيرتين من سورة البقرة:** لما جاء في «الصحيحين» من حديث أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**الآيَتَان مِنْ آخِرِ سُورة البَقَرة مَنْ قَرَأَهُمَا في لَيلَة كَفَتَاهُ**»[٣].

قال النووي: (قيل: معناه كفتاه من قيام الليل، وقيل: من الشيطان. وقيل: من الآفات ويحتمل الجميع)[٤]. اهـ.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (الصحيح: كفتاه شر ما يؤذيه). اهـ[٥] قلت: وهل هناك أذىً للإنسان أعظم من تسلُّط الشيطان عليه؟ فيتناوله من باب أولى.

* **تقرأ آية الكرسي بتدبر وتفهم:** فهي تحفظك من الشيطان حتى تصبح، وهذا ثابت في «البخاري» من حديث أبي هريرة، وفي الترمذي[٦] من حديث أبي أيوب، وابن حبان من حديث أبي بن كعب.

---

(١) لسان العرب (١/ ٥٩٢).
(٢) البخاري (١١/ ١٢٥ فتح).
(٣) رواه البخاري (٧/ ٣١٨ فتح) ومسلم (٢/ ٩٢ نووي).
(٤) شرح مسلم (١١/ ١٢٥ فتح).
(٥) الوابل الصيب (٩١).
(٦) سنن الترمذي (٥/ ١٤٢).

* **تسبح ثلاثًا وثلاثين، وتحمد ثلاثًا وثلاثين، وتكبر أربعًا وثلاثين:** وهذا ثابت في «الصحيحين» من حديث علي رضي الله عنه[١].

* **تضع يدك اليمنى تحت خدك الأيمن، وتنام على جنبك الأيمن، وتقول: باسْمكَ ربِّي وضَعْتُ جَنْبي وبكَ أرْفَعُه إن أمْسكتَ نَفْسي فَارْحَمْهَا، وإنْ أرسَلتَهَا فَاحْفَظْهَا بمَا تَحفَظُ به عبادكَ الصَّالحين[٢].**

* ثم يقول: «**بسْم الله وَضَعْتُ جَنْبي، اللهُمَّ اغفرْ لي ذَنْبي، وأخْسئْ شَيْطَاني، وفُكَّ رهَاني، واجْعَلْني في النَّدي الأَعْلَى**» قال النووي: رواه أبو داود بإسناد حسن[٣].

* **ثم تذكر الله حتى يغلبك النوم:** فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذَا أوىَ الإنْسَانُ إلى فرَاشه ابتدَرَهُ مَلَكٌ وَشَيْطانٌ، فيَقُولُ الملَكُ: اختمْ بخَيْر، ويقُولُ الشَّيْطانُ: اختمْ بشَرٍّ. فإذا ذَكَرَ الله حتَّى يَغْلبَهُ ـ يعني النَّوْمَ ـ طَرَدَ الملكُ الشَّيْطَانَ ـ وبات يكْلؤُهُ ـ أي يَحْرسُهُ ـ فإذا استيقظ ابتدرَهُ ملَكٌ وشيطانٌ فيقولُ الملكُ: افتحْ بخَيْر، ويقُولُ الشَّيْطانُ: افْتحْ بشرٍّ، فإنْ قال: الحمدُ لله الذي أحْيَا نَفْسي بعدَ موتهَا، ولم يمتها في منامها، الحمدُ لله الذي يُمْسكُ السَّموات والأرض أن تزولا، ولئنْ زالتا ما أمسكهما من أحد من بعده، الحمد لله الذي يُمْسكُ السمَاءَ أن تَقَعَ عَلَى الأرض إلا بإذنه، طرَدَ الملكُ الشَّيطانَ وظَلَّ يكْلؤُهُ**» صححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

* * *

(١) رواه البخاري (١١ / ١١٩ فتح) ومسلم (٧ / ٤٦ نووي).
(٢) رواه البخاري (١١ / ١٢٦ فتح)، ومسلم (١٧ / ٣٧ نووي).
(٣) الأذكار (٧٧).

استهزاء الشيطان بمن أهمل قيام الليل

إذا نام الإنسان حتىٰ يصبح ولم يقم شيئًا من الليل، ازداد عليه الشيطان تسلطًا، ويتضح ذلك مما ورد في «الصحيحين»، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: ذكر عند رسول الله ﷺ رجل نام حتىٰ أصبح، قال: «**ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطانُ في أذنيْه أوْ في أذنه**»[١].

قال الحافظ: واختُلف في بول الشيطان، فقيل هو علىٰ حقيقته. قال القرطبي وغيره: «لا مانع من ذلك إذ لا إحالة[٢] فيه؛ لأنه ثبت أن الشيطان يأكل ويشرب، وينكح فلا مانع من أن يبول».

وقيل: هو كناية عن سد الشيطان أذن الذي ينام عن الصلاة حتىٰ لا يسمع الذكر.

وقيل: معناه أن الشيطان ملأ سمعه بالأباطيل فحجب سمعه عن الذكر.

وقيل: هو كناية عن ازدراء الشيطان به.

وقيل: إن الشيطان استولىٰ عليه واستخف به حتىٰ اتخذه كالكنيف المعدّ للبول، إذ من عادة المستخف بالشيء أن يبول عليه اهـ.[٣].

روى الإمام أحمد عن الحسن البصري قال: إن بوله والله لثقيل. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ (حسب الرجل من الخيبة والشر أن ينام حتىٰ يصبح، وقد بال الشيطان في أذنه) رواه محمد بن نصر، وقال الحافظ: صحيح الإسناد[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٨ فتح)، و مسلم (٦/ ٦٤ نووي).

(٢) لا إحالة فيه: أي هذا جائز غير مستحيل.

(٣) فتح الباري (٣/ ٢٨).

(٤) فتح الباري (٣/ ٢٩).

تنغيص النوم وتحزين المسلم

ومن مكائده أعاذنا الله منه: أنه يُري الإنسان في منامه أحلامًا مزعجة، كي يحزنه ويؤلمه، فقد روىٰ مسلم في صحيحه، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رأيت في المنام كأن رأسي ضرب، فتدحرج فاشتدتُّ علىٰ أثره، فقال رسول الله ﷺ للأعرابي: «**لا تُحَدث النَّاسَ بِتَلَعُّبِ الشَّيْطان بكَ في مَنَامك**»[1].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «الرُّؤيَا ثلاثةٌ: فالرُّؤْيَا الصَّالحةُ بُشْرىَ من الله، ورُؤْيَا تحزين منَ الشَّيْطان، ورُؤْيَا ممَّا يُحَدِّثُ المرءُ نَفْسه، فإنْ رأى أحَدكُمْ ما يكرهُ فَلْيَقُمْ، فَلْيُصلِّ، ولا يُحَدِّثْ بهَا النَّاسَ»[2]. وفي «الصحيحين» من حديث أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**الرُّؤْيَا الصَالحَةُ منَ الله، والحُلْمُ من الشَّيْطَان. فَمَنْ رأى شَيْئًا يَكْرَهَهُ فَلْيَنفُثْ**[3] **عن شمَاله ثلاثًا، وَليَتَعوَّذْ منَ الشَّيْطانَ فَإنَّها لا تَضرُّهُ**»[4].

وبجمع طرق هذا الحديث يتبين أن للرؤيا آدابًا يُستحب للمسلم اتباعها إذا كانت الرؤيا صالحة: يحمد الله عليها، ويستبشر بها، ويحدث بها من يحب دون من يكره.

وإذا كانت الرؤيا مكروهة: يتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، وأن

(١) رواه مسلم (١٥ / ٢٧ نووي)، وابن ماجة (٢ / ١٢٨٧).
(٢) رواه البخاري (١٢ / ٤٠٤ فتح) ومسلم (١٥ / ٢١ نووي).
(٣) النفث: هو تفل بدون ريق.
(٤) رواه البخاري (١٢ / ٣٨٣ فتح) ومسلم (١٥ / ١٦ نووي).

يتفل[١] عن يساره ثلاثًا، ولا يذكرها لأحد، ويتحول عن جنبه، ويقوم فيصلي.

قال الحافظ: قد ذكر العلماء هذه الأمور، فأما الاستعاذة من الشيطان: فلما وقع في بعض طرق الحديث أنها منه، وأنه يُخيل بها لقصد تحزين الآدمي والتهويل عليه.

وأما التفل: فقال عياض: أمَرَ به طردًا للشيطان الذي حضر الرؤيا المكروهة وتحقيرًا له، واستهزاءً، وخصت به اليسار؛ لأنه محل الأقذار ونحوها.

وأما التحول: فللتفاؤل بتحول تلك الحال التي كان عليها.

وأما الصلاة فلما فيها من التوجه إلىٰ الله، واللجوء إليه. اهـ. مختصراً[٢].

أما صفة الاستعاذة فقد قال إبراهيم النخعي:

إذا رأىٰ أحدكم في منامه ما يكره فليقل إذا استيقظ: أَعُوذُ بِمَا عَاذَتْ به مَلائكةُ الله وَرُسُله منْ شَرِّ رُؤْيَايَ هَذه أنْ يُصيبني منْهَا ما أكْرَهُ في ديني وَدُنْيَاي.

قال الحافظ: أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة وعبد الرزاق بأسانيد صحيحة[٣].

قال النووي: (وأما قوله: «فَإنَّهَا لا تَضُرُّهُ» فمعناه: أن الله تعالىٰ جعل هذا سببًا لسلامته من مكروه يترتب عليها، كما جعل الصدقة وقاية للمال وسببًا لدفع البلاء). اهـ[٤].

---

(١) يتفل: يبصق بصقًا خفيفًا.
(٢) فتح الباري (١٢/ ٣٧١).
(٣) فتح الباري (١٢/ ٣٧١).
(٤) شرح مسلم (١٥/ ١٨).

الشيطان يضحك من المتثائب

وذلك لأن التثاؤب ينشأ عن الكسل، فيكون المتثائب في حالة لا يستطيع معها أن يؤدي الطاعات على أكمل وجه، ومما يضحك الشيطان أن المتثائب يكون في منظر غير جميل، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «**إنَّ اللهَ يُحبُّ العُطَاسَ، ويَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ، فَإذَا عَطَس فَحَمدَ الله فَحَقٌّ على كلِّ مسلم سَمعَهُ أنْ يُشَمِّتَهُ**[١] **وأمَّا التَّثَاؤُبَ فهُوَ منَ الشَّيْطان فَلْيَردَّهُ ما استطاع فإذا قال: هَا ؛ ضَحكَ منْهُ الشَّيْطانْ**»[٢].

وفي «سنن ابن ماجه» عن أبي هريرة مرفوعًا: «**إذَا تَثَاءَبَ أحَدُكُمْ فَلْيَضَعَ يَدَهُ عَلَى فيه، ولا يعوي؛ فَإنَّ الشَّيطان يَضحَكُ منْهُ**»[٣].

قال الحافظ: (شبه التثاؤب الذي يسترسل معه بعواء الكلب تنفيراً عنه واستقباحًا له). فإن الكلب يرفع رأسه ويفتح فاه ويعوي. والمتثائب إذا أفرط في التثاؤب شابهه.

قال: ومن هنا تظهر النكتة في كونه يضحك منه لأنه صيره ملعبة له بتشويه خلقه في تلك الحالة»[٤].

وفي «صحيح مسلم»، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذَا تَثَاءَبَ أحَدُكُمْ فَلْيُمْسكْ بيَده عَلَى فيه، فَإنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ**»[٥].

---

(١) يشمته: أي: يقول له يرحمكم الله، فيرد العاطس ويقول: يهديكم الله ويصلح بالكم.
(٢) رواه البخاري (٦ / ٣٣٨ فتح)، ومسلم (١٨ / ١١٢ نووي) بنحوه.
(٣) سنن ابن ماجه (١ / ٦١٢).
(٤) فتح الباري (١٠ / ٦١٢).
(٥) مسلم (١٨ / ١٢٢ نووي) ورواه الدارمي أيضًا (١ / ٣٢١).

قال الحافظ: (يحتمل أن يراد به الدخول حقيقة، وهو - وإن كان الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، لكنه لا يتمكن منه ما دام ذاكراً لله تعالىٰ، والمتثائب في تلك الحالة غير ذاكر، فيتمكن الشيطان من الدخول فيه حقيقة، ويحتمل أن يكون أطلق الدخول وأراد التمكن منه؛ لأن من شأن من دخل في شيء أن يكون متمكنًا منه). اهـ[1].

قال النووي: (قال العلماء: أمر بكظم التثاؤب ورده ووضع اليد علىٰ الفم لئَلا يبلغ الشيطان مراده من تشويه صورته ودخوله فمه وضحكه منه). اهـ[2].

ومن الجميل هنا أن نذكر ما رواه ابن أبي شيبة، والبخاري في «التاريخ» من مرسيل ابن الأصم، قال: ما تثائب النبي ﷺ قط[3]!.

* * *

(١) فتح الباري (١٠/ ٦١٢).
(٢) شرح مسلم (١٨/ ١٢٣).
(٣) فتح الباري (١٠/ ٦١٢).

أين يبيت الشيطان؟

في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا اسْتَيْقظَ أحدُكُمْ منْ مَنَامه، فَلْيَسْتَنْثر ثَلاثَ مَرَّات فَإنَّ الشَّيْطانَ يَبيتُ عَلَى خَيَاشيمه**» اللفظ لمسلم[1] و (الخيشوم): الأنف. و (الاستنثار): هو إخراج الماء من الأنف بعد استنشاقه والمقصود هو تنظيف الأنف من الداخل.

قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ: يحتمل أن يكون قوله ﷺ: «**فَإنَّ الشَّيْطانَ يَبيتُ عَلَى خياشيمه**»، على حقيقته، فإن الأنف أحد منافذ الجسم التي يتوصل إلى القلب منها.

قال: ويحتمل أن يكون على الإستعارة، فإن ما ينعقد من الغبار ورطوبة الخياشيم قذارة توافق الشيطان[2]. اهـ.

قال الحافظ: ظاهر الحديث أن هذا لكل نائم، ويحتمل أن يكون مخصصًا بمن لم يحترز من الشيطان بشيء من الذكر كحديث أبي هريرة الذي فيه: «**فَكَانَتْ لَهُ حرْزًا منَ الشَّيْطان**» وحديث آية الكرسي وفيه: «**ولا يقْربُكَ شَيْطانٌ**» ويحتمل أن يكون المراد بنفي القرب هنا: لا يقرب من المكان الذي يوسوس فيه وهو القلب فيكون مبيته على الأنف ليتوصل منه إلى القلب إذا استيقظ. اهـ[3].

* * *

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٢٧ نووي).
(٢) شرح النووي لمسلم (٣/ ١٢٧).
(٣) فتح الباري (٦/ ٣٤٣).

من خططه الخبيثة

روى الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: (إن الشيطان طاف بأهل مجلس ذكر ليفتنهم، فلم يستطع أن يفرق بينهم، فأتى حلقة يذكرون الدنيا فأغرى بينهم حتى اقتتلوا، فقام أهل الذكر فحجروا بينهم، فتفرقوا).

بعث الشيطان جنوده لفتنة الناس

روى مسلم، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ إبْليسَ يضَعُ عرشَهُ على الماء ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فأدْنَاهمْ منْهُ منزلَةً أعْظَمهُم فتْنَةً، يَجيءُ أحَدُهُمْ، فيقُولُ: فعلتُ كذاَ وكذاَ، فيقُولُ: ما صَنَعْتَ شيئًا. قال: ثُمَّ يَجيءُ أحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: مَا تَركْتُهُ حَتَّى فرَّقْتُ بَيْنَهُ وبَيْنَ امْرأته، قالَ: فَيُدْنيه منْهُ، ويَقُولُ: نعْمَ أنْت».

قال الأعمش: أراه قال: «فَيَلْتَزِمُهُ»(١).

عن أبي موسى الأشعري، قال: «إذا أصبَحَ إبْليسُ بَثَّ جنُودَهُ في الأرْضِ، فَيَقُولُ: مَنْ أضَلَّ مُسْلمًا ألْبَسْتُهُ التَّاجَ، فَيَقُولُ لَهُ القَائلُ: لمْ أزلْ بفُلان حتَّى طلَّقَ امرأتُه قال: يُوشكُ أن يتزوجَ، ويَقُولُ آخَرُ: لمْ أزلْ بفُلان حتَّى زَنَى. قال: أنْتَ! ويَقُولُ آخَرُ: لمْ أزلْ بفُلان حتَّى شرب الخمر. قال: أنت: ويَقُولُ آخَرُ: لمْ أزل بفُلان حتَّى قَتَل، فيقُولُ: أنتَ أنتَ!»(٢). رواه أحمد وابن حبان وصححه الألباني.

---

(١) رواه مسلم (١٧ / ١٠٧ نووي).

(٢) صححه الألباني في «الصحيحة» برقم (١٢٨٠).

الوسوسة دليل عجز الشيطان

إن الشيطان يتلاعب بالكافر تلاعبًا، ويغويه ويقوده إلىٰ الفساد في الأرض، ويريد أن يفعل ذلك بالمؤمن فيعجز، ولا يستطيع إلا الوسوسة لا يزيد عليها، ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، قال: «**تِلْكَ مَحْضُ الإيمان**»[١] رواه مسلم.

وجاء أناس إلىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «**وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟**»، قالوا: نعم، قال: «**ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»[٢] رواه مسلم.

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ» «ومَحْضُ الإيمان» معناه: استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان؛ فإن استعظام هذا، وشدة الخوف منه ومن النطق به، فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققًا، وانتفت عنه الريبة والشكوك[٣].

* * *

(١) رواه مسلم (٢/ ١٥٣ نووي).
(٢) رواه مسلم (٢/ ١٥٣ نووي).
(٣) شرح مسلم (٢/ ١٥٤ نووي).

الوسوسة في الصلاة

روى مسلم في صحيحه، عن أبي العلاء: أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي ﷺ فقال: إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي، وقراءتي يُلبِّسها علي، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خنْزَبٌ، فإنْ أحْسَسْتَهُ فَتَعوَّذْ بالله منْهُ، واتْفُلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلاثًا**». قال: ففعلت، فأذهبه الله عنّي[١].

تنبيه: أورد الغزالي في الإحياء[٢] هذا الحديث عن عمرو بن العاص، وتبعه على ذلك دكتور السيد الجميلي[٣] وهو غلط فتنبه.

وفي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحَدَكُمْ إذا قَامَ يُصَلِّي جَاءَهُ الشَّيْطانُ فَلَبَّس عَلَيْه، حتَّى لا يَدْري كَمْ صلَّى، فإذَا وَجَدَ ذلك أحَدُكُمْ فَلْيَسْجُدْ سَجْدتَيْن وَهُوَ جَالس**»[٤].

واعلم: أن الشيطان يدخل على المصلي من بابين لا ثالث لهما:

المدخل الأول: ما يتعلق بالحواس الظاهرة: كمن يصلي وهو يسمع صوتًا عاليًا، فيشغله عن صلاته، ومن يقع نظره أثناء الصلاة على شيء يعجبه كزخرفة وغيره، وهذا الباب إنما يُسد بقطع تلك العوائق والشواغل، ولذلك لما لَبِس رسول الله ﷺ الخميصة التي أهداها إليه أبو جهم، وعليها عَلَم، وصلى بها نزعها بعد صلاته، وقال: «**اذْهَبُوا بهَا إلى أبي جَهْم فَإنَّها ألْهَتْني آنفًا عنْ**

(١) رواه مسلم (١٤/ ١٩٠ نووي).
(٢) الإحياء (١٣٨٧).
(٣) في كتابه السحر وتحضير الأرواح (٨٥).
(٤) البخاري (٣/ ١٠٤ فتح) ومسلم (٥/ ٧٥ نووي).

صلاتي، وائتوني بأنْبجَانية أبَي جَهْمٍ» متفق عليه، من حديث عائشة - رضي الله عنها.

وروىٰ النسائي، من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ كان علىٰ المنبر، وفي يده خاتم، فرماه، وقال: «شغَلَني هَذَا؛ نَظْرَةٌ إلَيْه ونَظْرَةٌ إليكُمْ»[١] قال العراقي: سنده صحيح.

ولذلك كره العلماء زخرفة المساجد؛ لأنها تُلهي المصلي عن الصلاة، فقد روىٰ ابن خزيمة في صحيحه: أن عمر أمر ببناء المساجد فقال: (أكن الناس من المطر، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس) وعلقه البخاري - رحمه الله)[٢].

وقال الإمام أحمد: (ولا يكتب في القبلة شيء؛ لأنه يشغل قلب المصلي)[٣].

أما المدخل الثاني: فهو ما يتعلق بالقلب فمن أشرب قلبه حب الدنيا، فلا يمكن أن يتخلص منها لا في الصلاة ولا في غيرها؛ لأن من أحب شيئًا أكثر من التفكير فيه، فتراه في الصلاة يقوم، و يقعد، وينحني، ويسجد، وقلبه بالدنيا مشغول، ومن فكرة إلىٰ أخرىٰ.

ولعمر الله، إن هذا المدخل عظيم لا يكاد ينفك عنه إلا من وفقه الله، وليس له علاج إلا معرفة قدر الدنيا وحقارتها، وأن نكثر من قول: (اللهم اجعل الدنيا في أيدينا، ولا تجعلها في قلوبنا) وأن نتذكر هيبة الله أثناء الوقوف أمامه، فهو الذي قصم الفراعنة، وانحنت له رقاب الجبابرة.

---

(١) رواه النسائي وصححه الألباني في «صحيح النسائي» (٤٨٨٣).

(٢) البخاري (١/ ٥٣٩ فتح).

(٣) المغني: (٢/ ٧٣).

النسيان من الشيطان

قال الدكتور الأشقر: ومن ذلك ما فعله بآدم، فما زال يوسوس له حتى أنساه ما أمره به ربه: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥].

وقال صاحب موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف: ٦٣].

ونهى الله رسوله أن يجلس هو أو أحد من أصحابه في المجالس التي يُستهزأ فيها بآيات الله، ولكن الشيطان قد يُنسي الإنسان مراد ربه منه، فيجالس هؤلاء المستهزئين: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الانعام: ٦٨].

وطلب النبي يوسف ـ عليه السلام ـ من السجين الذي ظن بأنه سينجو من القتل ويعود لخدمة الملك أن يذكره عند مليكه، وأنسى الشيطان هذا الإنسان أن يذكر لملكه نبي الله يوسف، فمكث يوسف في السجن بضع سنين: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٤٢].

وإذا تمكن الشيطان تمكنًا كليًا فإنه ينسيه الله بالكلية: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩] والمراد بهؤلاء المنافقون كما تدل عليه الآية السابقة لهذه الآية، وسبيل التذكر هو ذكر الله لأنه يطرد الشيطان ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٤]. اهـ[1].

---

(١) عالم الجن والشياطين (٧٠).

إشعال العداوة بين الناس

وهذا هدف من أهداف الشيطان الخبيثة، يسلك إليه كل طريق ويتخذ له كل وسيلة ومن هذه الوسائل الخمر، فإنها تزيل العقل، وتفقد التوازن، وعندئذ يتمكن الشيطان من الإنسان، فيقوده إلىٰ ما يريد، فقد روىٰ البيهقي بسنده، عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: (اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة، فدخل معها فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه حتىٰ أفضىٰ إلىٰ امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله، ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر، فسقته كأسًا، فقال: زيدوني فلم يرم حتىٰ وقع عليها، وقتل النفس) صحح ابن كثير سنده[1].

ومن هذه الوسائل أيضًا الميسر (القمار): لأنها توقع العداوة بين الناس وتورث الحقد في النفوس.

ومنها: (الأنصاب): التي تعبد من دون الله وهي وسيلة كبرىٰ لتسلط الشيطان علىٰ الإنسان، فيلعب به كما يلعب الصبيان بالكرة.

ومن هذه الوسائل أيضًا: (الأزلام): أي القداح التي يستقسم بها الكفار في الجاهلية وهي تساوي في زماننا هذا ما يسمونه «الحظ» وكذا «الاستفتاح» وهو فتح المصحف، ثم النظر فيه، فالآية التي يقع نظره عليها أنها حظه، وهذا كله من عمل الشيطان ولذلك حذرنا الله منه بقوله: ﴿**إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ**

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٩٧).

وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

ومن تلك الوسائل أيضًا الكلمة فإنها أحيانًا تُحمل على غير معناها فتوقع العداوة والبغضاء، ولذلك أمرنا بالقول الحسن فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

قال سيد قطب: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ على وجه الإطلاق وفي كل مجال، فيختاروا أحسن ما يقولوه. بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة، فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تَفْلتُ، وبالرد السيِّئ يتلوها، فإذا روح الود والمحبة والوفاق يشوبها الخلاف ثم الجفوة، ثم العداوة، والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب تُندي جفافها وتجمعها على الود الكريم[1]. اهـ.

وإذا انتقل بنا الحديث إلى الآداب النبوية وجدنا رسول الله ﷺ يسد كل ثغرة يدخل منها الشيطان. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يُشيرَنَّ أحَدُكُمْ إلى أخيه بالسِّلاح، فَإِنَّهُ لا يَدْري لَعَلَّ الشَّيْطَانَ أنْ يَنْزعَ في يَده، فَيَقَعَ في حُفْرَة من النَّار**» رواه البخاري ومسلم[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**اتَّقوا النَّارَ، ولَو بشقِّ تَمْرة فَمَنْ لَمْ يجدْ فَبكلَمَة طَيِّبة**» رواه البخاري ومسلم من حديث عدي بن حاتم[3] وهذا كله إنما هو لسدِّ باب عظيم من أبواب الشيطان الرجيم، ألا وهو التحريش بين المسلمين وإشعال نار الفتنة بينهم، فعن جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أيسَ أنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ في جَزيرة العَرَب، ولَكنْ في التَّحْريش بَيْنَهُمْ**» رواه مسلم[4].

---

(١) الظلال (٤ / ٢٢٣٤).
(٢) الظلال (٤ / ٢٢٣٤).
(٣) راه البخاري (٧٠٧٢) ومسلم (٢٦١٧).
(٤) رواه البخاري (٦٠٢٣) ومسلم (١٠١٦).

مكان الشيطان في الإنسان

قال النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ»[١] متفق عليه.

وفي رواية أخرى: «إِنَّ الشَّيطانَ يَبْلُغُ مِنَ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ»[٢] متفق عليه.

قال الحافظ: (قيل: هو على ظاهره، وإن الله ـ تعالى ـ أقدره على ذلك، وقيل: هو على سبيل الاستعارة من كثرة إغوائه، وكأنه لا يفارق كالدم فاشتركا في شدة الاتصال وعدم المفارقة). اهـ[٣].

وقال ابن عباس: (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس). اهـ[٤].

ومن هنا يتبين لنا: أن الشيطان يستطيع أن ينفذ في جسم الإنسان، ولذلك يختار القلب مكانًا؛ لأنه هو القائد والأعضاء جنوده، فإذا سيطر الشيطان على القلب خضعت الجوارح، ولذلك يقول النبي ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ» متفق عليه من حديث النعمان بن بشير[٥].

ولكن هناك قلوبًا تحيط بها أسوار الإيمان وحصون التقوى، وعليها حراس الذكر فلا يستطيع الشيطان أن يدخلها إلا خلسة فإذا دخلها قام حراس الذكر فطردوه خارج الحصون مذمومًا مدحورًا.

(١) رواه مسلم (٢٨١٢). (٢) رواه البخاري (٤ / ٢٨٢ فتح) ومسلم (١٤ / ١٥٥ نووي).

(٣) البخاري (٤ / ٢٧٨ فتح) مسلم (١٤ / ١٥٧ نووي).

(٤) فتح الباري (٤ / ٢٨٠).

(٥) تفسير ابن كثير (٤ / ٥٧٥).

قوة الإيمان تضعف الشيطان

قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب : «**وَالذي نفْسِي بيَده ما لقيكَ الشَّيْطانُ سالكًا فجًا، إلا سلك فجًا غيرَ فَجِّكَ**»[1] متفق عليه .

قـال الحـافظ[2]: فيه فضيلة عظيمة لعمر ، تقتضي أن الشيطان لا سبيل له عليه ، لا أن ذلك يقتضي وجود العصمة إذ ليس فيه إلا فرار الشيطان منه أن يشاركه في طريق يسلكها ، ولا يمنع ذلك من وسوسته بحسب ما تصل إليه قدرته ، فإن قيل : عدم تسليطه عليه بالوسوسة يؤخذ بطريق مفهوم الموافقة لأنه إذا منع من السلوك في طريقه فأولىٰ ألا يلابسه بحيث يتمكن من وسوسته له فيمكن أن يكون حفظ من الشيطان .

قـال: ووقع في حديث حفصة ، عند الطبراني في «الأوسط» بلفظ : «**إنَّ الشَّيطانَ لا يَلْقَى عُمَرَ منْذُ أن أسْلَمَ إلا خرَّ لوَجْهِه**» . اهـ.

فانظر أخي المسلم إلىٰ قوة الإيمان كيف تؤثر في الشيطان حتىٰ تصل إلىٰ درجة الخوف والهروب .

وروي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : (التقىٰ شيطان المؤمن وشيطان الكافر فإذا شيطان الكافر دهين سمين كاس ، وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن : ما لك مهزول؟ !

فـقـال: أنا مع رجل إذا أكل سمىٰ الله فأظل جائعًا ، وإذا ادهن سمىٰ الله

---

(١) البخاري (١ / ١٢٦) ومسلم (١١ / ٢٨)

(٢) البخاري (٣٢٩٤) ومسلم (٢٣٩٦) .

فأظل شعثًا، وإذا لبس سمىٰ الله فأظل عريانًا، وإذا شرب سمىٰ الله فأظل عطشانًا، فقال: ولكني مع رجل لا يفعل شيئًا من ذلك فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه).

وروىٰ ابن أبي الدنيا، عن قيس بن حجاج قال: (قال شيطاني: دخلت فيك وأنا مثل الجزور - أي البعير - وأنا فيك اليوم مثل العصفور، قال: قلت ولِمَ؟ قال: تذيبني بكتاب الله).

وقال أحد الصحابة كنت ردف النبي ﷺ علىٰ حمار، فعثر الحمار فقلت: تعس الشيطان، فقال لي النبي ﷺ: **«لا تَقُلْ تَعسَ الشَّيْطانُ؛ فإنَّكَ إذا قُلْتَ: تعَسَ الشَّيْطانُ؛ تَعَاظَمَ في نَفْسه، وقال: صرَعْتُهُ بقُوَّتي، وإذا قُلت: بسم الله تصاغرتَ إليه نفسه حتى يكون أصغرَ من ذُباب»** قال المنذري رحمه الله: رواه أحمد بإسناد جيد[1].

* * *

(١) فتح الباري (٧/ ٤٧).

مزامير الشيطان

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: « **الجَرَسُ مَزَامِيرُ الشَّيطانِ** » رواه مسلم.

ولما كانت الشياطين تصحب الجرس تخلّت الملائكة عن الرفقة التي معها جرس، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تَصْحَبُ المَلائكَةُ رُفْقَةً فِيهَا كَلْبٌ أَوْ جَرَسٌ**»[1] رواه مسلم.

الشيطان لحاس

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الشَّيْطان حسَّاسٌ لحاسٌ فاحذروا على أنفسكم، ومن باتَ وفي يده رِيحُ غَمَرٍ**[2] **فأصابه شيءٌ فلا يلومنَّ إلا نفسه**» رواه الترمذي[3]، والحاكم كلاهما من طريق يعقوب بن الوليد المدني، ويعقوب هذا قال الحافظ عنه: كذبه أحمد وغيره[4].

قال المنذري: «لكن رواه البيهقي، والبغوي، وغيرهما من حديث زهير بن معاوية، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبي هريرة، وحسنه البغوي وهو كما قال»[5]. اهـ.

---

(١) رواه مسلم (١٤/ ٩٤ نووي).
(٢) الغمر ـ بالتحريك ـ: الدسم والزهونة من اللحم، كالوضر من السمن، أثر طعمه ورائحته.
(٣) الترمذي (٣/ ١٩٠).
(٤) تقريب التهذيب (٢/ ٣٧٧).
(٥) الترغيب (٤/ ٢١٢).

قلت: وروى الشطر الثاني منه أبو داود[١] من طريق أحمد بن يونس حدثنا زهير به، وفي «صحيح مسلم»[٢]، عن جابر - رضي الله عنه - قال سمعت النبي ﷺ يقول: «**إنَّ الشَّيْطانَ يحْضُرُ أحَدَكُمْ عنْدَ كُلِّ شيء من شأنه حتَّى يحضُرَ عندَ طعامه. فإذَا سقطتْ منْ أحدكم اللقمة فليُمط ما كانَ بها من أذىً ثُمَّ ليأكُلْهَا، ولا يدَعْها للشَّيطان، فإذا فرغَ فليَلعَقَ أصابعَهُ، فإنَّهُ لا يدري في أيِّ طعامه تكُونُ البَركَةُ**».

وفي «الصحيحين»[٣] عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «**إذا أكلَ أحَدُكُمْ فلاَ يَمْسَح يَدَهُ حتَى يَلْعقَهَا أو يُلْعِقَهَا**».

* * *

(١) أبو داود (٣/ ٣٦٦).
(٢) رواه مسلم (١٣ / ٢٠٧ نووي).
(٣) رواه البخاري (٩ / ٥٧٧ فتح)، ومسلم (١٣ / ٢٠٣ نووي).

الأسواق معركة الشيطان

قال سلمان[1]: (لا تكوننَّ إن استطعت أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشيطان، وبها ينصب رايته).

قال النووي ـ رحمه الله ـ: شبه السوق وفعل الشيطان بأهلها، ونيله منهم بالمعركة، لكثرة ما يقع فيها من أنواع الباطل كالغش، والخداع، والأيمان الخائنة، والعقود الفاسدة، والبخس، والبيع على بيع أخيه، والشراء على شرائه، والسوم على سومه، وبخس المكيال والميزان.

قال: وقوله: (بها تنصب رايته) إشارة إلى ثبوته هناك، أو اجتماع أعوانه إليه للتحريش بين الناس وحملهم على هذه المفاسد المذكورة ونحوها فهي موضعه وموضع أعوانه. اهـ[2].

* * *

(١) رواه مسلم (١٦ / ٧ نووي).
(٢) شرح النووي (١٦ / ٧).

خاتمة

نسأل الله تبارك وتعالى
أن يعصمنا من الشيطان بفضله ورحمته
فهو ولي ذلك والقادر عليه

وكتبه

وحيد عبد السلام بالي





المحاضرة التاسعة

فتح المنان
في
صفات عباد الرحمن

تأليف

وحيد بن عبد السلام بالي





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالىٰ من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

فإني لما انتهيت من كتابي «وصف الجنة من صحيح السنة» وألقيته في محاضرة عامة علىٰ جمع من الشباب المسلم، فوجدت شوقهم إليها قد زاد، وكأنهم يريدون أن يدفعوا النفس والمال في سبيل الوصول إليها، وكأني بهم وهم ينظرون حولهم يتلمسون الطريق، فقمت بوضع هذ الكتاب، ليبين لهم الطريق، وينير لهم السبيل، مستمداً ذلك من كتاب الله تبارك وتعالىٰ، فهو النور، وهو الهدىٰ، ومن سنة رسول الله ﷺ الصحيحة، ثم الآثار عن الصحابة والتابعين.

وأسميته:

«فتح المنان في صفات عباد الرحمن»

والله أسأل أن يجنبني الزلل في القول والعمل، وأن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجعله ذخراً لي في حياتي وبعد مماتي، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلِّ اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

وحيد بن عبد السلام بالي

المدينة المنورة في ٢٨/ ١/ ١٤٠٨هـ

النوايا التي يمكن أن يستحضرها المحاضر قبل إلقاء هذه المحاضرة

أولاً: النوايا العامة:

١ ـ ينوي القيام بتبليغ الناس شيئًا من دين الله إمتثالاً لقول النبي ﷺ: «**بلِّغوا عني ولو آية**» رواه البخاري.

٢ ـ رجاء الحصول على ثواب مجلس العلم[1].

٣ ـ رجاءأن يرجع من مجلسه ذلك مغفوراً له[2].

٤ ـ ينوي تكثير سواد المسلمين والالتقاء بعباد الله المؤمنين.

٥ ـ ينوي الاعتكاف في المسجد مدة المحاضرة ـ عند من يرى جواز ذلك من الفقهاء ـ لأن الاعتكاف هو الانقطاع مدّة لله في بيت الله.

٦ ـ رجاء الحصول على أجر الخطوات إلى المسجد الذي سيلقي فيه المحاضرة[3].

---

(١) روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

(٢) روى الإمام أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٠٧) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم على ذكر، فتفرقوا عنه إلا قيل لهم قوموا مغفوراً لكم»، ومجالس الذكر هي المجالس التي تذكر بالله وبآياته وأحكام شرعه ونحو ذلك.

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح».

وفي صحيح مسلم عنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من تطهر في بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطواته: إحداها تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة».

٧ ـ رجاء الحصول على ثواب انتظار الصلاة بعد الصلاة، إذا كان سيلقي محاضرته مثلاً من المغرب إلى العشاء، أو من العصر إلى المغرب[١] .

٨ ـ رجاء أن يهدي الله بسبب محاضرته رجلاً . فيأخذ مثل أجره[٢] .

٩ ـ ينوي إرشاد السائلين، وتعليم المحتاجين، من خلال الرد على أسئلة المستفتين[٣] .

١٠ ـ ينوي القيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ إن وجد ما يقتضي ذلك[٤] .

١١ ـ ينوي طلب النضرة المذكورة في قول النبي ﷺ: «**نَضَّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها، ثم أداها إلى من لم يسمعها**».رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

ـ ثم قد يفتح الله على المحاضر بنوايا صالحة أخرى فيتضاعف أجره لقول النبي ﷺ: «**وإنما لكل امرئ ما نوى**». متفق عليه .

(١) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يزال أحدكم في صلاة مادامت الصلاة تحبسه، لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة».

ـ وروى البخاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه، ما لم يحدث، تقول: اللهم اغفر له اللهم ارحمه».

(٢)، (٤) روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم».

ـ وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا».

(٣) روى الترمذي وصححه الألباني عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله وملائكته، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير».

وصلاة الملائكة الاستغفار .

فتح المنان في صفات عباد الرحمن

ثانيًا: النوايا الخاصة بهذه اللقاءات:

١ ـ تنوي بها تعريف المسلمين بالصفات التي تؤهلهم لدخول الجنة .

٢ ـ حث المسلمين على التواضع وعدم الكبر .

٣ ـ حث المسلمين على الحلم .

٤ ـ حث المسلمين على قيام الليل .

٥ ـ تخويف المسلمين من النار ليبتعدوا بذلك عن معصية الجبار .

٦ ـ حث المسلمين على الاعتدال في الإنفاق وعدم الإسراف أو التقتير .

٧ ـ حض المسلمين على إخلاص العبودية لله وحده .

٨ ـ تحذير المسلمين من قتل معصوم الدم .

٩ ـ تحذير المسلمين من زنا الفرج والجوارح .

١٠ ـ ترغيب المسلمين في التوبة من الذنوب والمعاصي والتقصير في جنب الله .

١١ ـ تحذير المسلمين من شهادة الزور .

١٢ ـ ترغيب المسلمين في الإعراض عن اللغو .

١٣ ـ حثهم على المسارعة في الاستجابة لأوامر الله .

١٤ ـ حثهم على الدعاء بصلاح الأهل والذرية .

١٥ ـ حثهم على التقوى والخوف من الله .

١٦ ـ تعريفهم بجزاء الصالحين في الآخرة .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥)

الصفة الأولى

التــواضــع

هذه أول صفة وصف الله بها عباد الرحمن.

قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

أي: بسكينة ووقار؛ من غير جبرية ولا استكبار.

ولمعرفة هذه الصفة لابدَّ من معرفة نقيضها، ألا وهو الكبر.

الآيات في ذم الكبر:

قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥].

وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال: ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٧٢].

* * *

الأحاديث في ذم الكبر ومدح التواضع

عن عياض بن حمار - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد**»(١)

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلاَّ عزًا، وما تواضع أحد لله إلاَّ رفعه الله**»(٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من آدمي، إلاَّ في رأسه حَكَمَة**(٣)**، بيد مَلَك، فإذا تواضع، قيل للمَلَك، ارفع حكمته، وإذا تكبَّر، قيل للملك: ضع حَكَمته**»(٤) .

وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون**(٥)**، المتشدقون**(٦) **والمتفيهقون**».

قالوا: يا رسول الله! قد علمنا الثرثارين والمتشدقين؛ فما المتفَيْهِقون؟ قال: «المستكبرون»(٧) .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما؛ قالا: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عزَّ وجلَّ: «**العزُّ إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني، عذبته**»(٨) .

عن حارثة بن وهب رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه: مسلم (١٦/ ١٤١ - نووي)، والترمذي (٣/ ٢٥٤).

(٣) (الحكمة)؛ بفتح الحاء والكاف: هي ما تجعل في رأس الدابة كالزمام

(٤) رواه الطبراني، وحسنه: المنذري في «الترغيب» (٥/ ١٨٢)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٢).

(٥) (الثرثار): كثير الكلام تكلفًا.

(٦) (المتشدق): المتفاصح

(٧) رواه الترمذي.

(٨) رواه مسلم (١٦/ ١٧٣) نووي.

«ألا أخبركم بأهل النار، كل عُتُلٍّ[١] جوَّاظٍ مستكبرٍ»[٢] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : **«إن أهل النار كل جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مستكبر جمَّاعٍ منَّاعٍ، وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون»**[٣] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال : **«احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم، فقضى الله بينهما:إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي أعذِّبُ بك من أشاء، ولكليكما عليَّ ملؤها»**[٤] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذاب، وعائل[٥] مستكبر»**[٦] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع النبي ﷺ يقول : **«من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر؛ كبَّه الله لوجهه في النار»**[٧] .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال : **«لا يدخل الجنة**

---

(١) (العتل) : الغليظ الجافي .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٧٤١) .

(٤) رواه مسلم في كتاب «صفة الجنة والنار» (١٧/ ١٨١ ـ نووي) .

(٥) (عائل) : فقير .

(٦) رواه مسلم (٢/ ١١٥ ـ نووي) .

(٧) رواه أحمد، ورواته رواة الصحيح، قاله المنذري في «الترغيب» (٥/ ١٨٧) وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١١/ ١٩٣٤) : «إسناده صحيح» .

من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق**[١]، **وغمط الناس**[٢] »[٣].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: « **بينما رجل ممَّن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء**[٤]، **خسف به؛ فهو يتجلجل** [٥] **في الأرض إلى يوم القيامة**»[٦].

وعنه أيضًا: أن رسول الله ﷺ قال: «**من جرَّ ثوبه خيلاء، لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»[٧].

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الرجل يذهب بنفسه**[٨]، **حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم**»[٩].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صور الرجال، يغشاهم الذُّلُّ من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم، يقال له: بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقَوْن من عصارة أهل النار، طينة الخبال**»[١٠].

---

(١)(بطر الحق): رد الحق وعدم قبوله.
(٢)(غمط الناس): احتقارهم.
(٣)رواه مسلم.
(٤)(الخيلاء): الكبر والتعجب.
(٥)«يتجلجل: يغص وينزل.
(٦)رواه البخاري.
(٧)رواه البخاري، ومسلم.
(٨)(يذهب بنفسه): يتكبر ويتعالىٰ.
(٩)رواه الترمذي وحسنه (٣/ ٢٤٤).
(١٠)رواه النسائي والترمذي وحسنه.

الآثار في ذم الكبر والمتكبرين:

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «**لا يحقرنَّ أحدٌ أحدًا من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير**».

وقال وهب بن منبه رحمه الله: «**لما خلق الله جنة عدن، نظر إليها، فقال: أنت حرام على كل متكبر**».

وقال الأحنف بن قيس: «**عجبًا لابن آدم! يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين!**».

وقال الحسن البصري رحمه الله: «**العجب من ابن آدم! يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين، ثم يعارض جبار السماوات والأرض**».

وقال محمد بن علي بن الحسين رحمه الله: «**ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط، إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك، قلَّ أو كثر**».

وقال النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «**إن للشيطان مصالي وفخوخًا، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه، البطر بأنعم الله، والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله**».

❊ ❊ ❊

درجات المتكبرين[1]

١ ـ المتكبر على الله:

وهو أغلظ المتكبرين كفرًا وأكثرهم عنادًا وعتوًا، فتجده لا يقر بوجود الله، كالدهريين في القديم، وكالشيوعيين الآن، بل ربما زاد طغيانه فادَّعىٰ لنفسه الألوهيَّة، كالنمرود الذي حاجَّ إبراهيم في ربه.

قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨]

وكفرعون الذي ادَّعىٰ لنفسه الألوهيَّة والربوبيَّة معًا:

فقال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨].

وقال: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤].

٢ ـ المتكبر على الرسل:

الذي لا تطاوعه نفسه من الانقياد لبشر:

ولذلك قال المشركون: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال فرعون وملؤه: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

وقد أخبر الله تبارك وتعالىٰ عن المتكبرين على الرسل بقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٩٤].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١١/ ١٩٤٩) علىٰ دَخَن ما فيه، فاحذره.

٣ ـ المتكبر على العباد:

وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبىٰ نفسه عن الانقياد لهم، وتدعوه إلىٰ الترفع عليهم، فيزدريهم، ويستصغرهم، ويأنف من مساواتهم.

ولذلك قال كفار قريش لرسول الله ﷺ: كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء (وأشاروا إلىٰ فقراء المسلمين) ؟! فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢][1].

وقال ﷺ: «**بحسب إمرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم**»[2].

أنواع المتكبرين[3]:

١ ـ من الناس من يتكبَّر بملكه أو مكانته الاجتماعية، ويقوِّي هذا الكبر ويعظمه كثرة مديح المتقربين وإطراء المتملقين، الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبًا، والتملق خديعة وملعبًا، فيمدحونه بما ليس فيه، ويرفعونه فوق شأنه ومرتبته، فيظن ذلك حقًا، فيزداد كبراً.

وقد قيل: عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح؟! ولمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب؟!.

وقال الشاعر:

يا جاهلاً غرَّهُ إفراطُ مادحِهِ ... لا يَغْلِبَنْ جهلُ مَنْ أطراكَ علمَك بكْ

أثنى وقالَ بلا علمٍ أحاطَ به ... وأنتَ أعلمُ بالمحصولِ منْ ريبكْ

هذا النوع من الكبر منتشر في الملوك والرؤساء، ولذلك يجب عليهم أن

(١، ٢) رواه مسلم.

(٣) راجع: «وقاية الإنسان من الجن والشيطان» للمؤلف.

يبعدوا عنهم بطانة السوء التي تزين لهم سوء أفعالهم، ولا تبين لهم قبيح أعمالهم فترديهم وتهلكهم، وهؤلاء الملوك لو عقلوا لعلموا أن المُلكَ أيام لا تدوم، ولو دام لغيرهم، ما وصل إليهم.

﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [آل عمران: ٢٦].

فلا يبقى لهم إلا السيرة الحسنة أو السيئة.

٢ ـ ومن الناس من يتكبَّر بماله، وهذا مغفّل جاهل؛ لأنه لو كان عاقلاً، لعلم أن المال عاريَّة، يمكن أن يأخذه الله في أي وقت وبأي سبب:

كصاحب الجنة، قال تعالىٰ: ﴿**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا**﴾ [الكهف: ٣٥]، فأرسل الله تعالىٰ علىٰ جنته حسبانًا من السماء، فتركها خاوية علىٰ عروشها.

وكقارون الذي تكبر بماله الذي كثر، حتىٰ إن مفاتيح الخزائن لا يستطيع حملها عصبةٌ من الرجال، الأقوياء، فخسف الله تعالىٰ به الأرض، فكانت عاقبته الخسران المبين.

ولو أن الله ابتلىٰ ذلك الفتىٰ بمرض؛ لتمنىٰ أن يؤخذ منه ماله كله وترد إليه صحته كما روي أن ملكًا من ملوك المسلمين طلب كوبًا من الماء ليشرب؛ فجاءه الخادم بالكوب، وقال له: أيها الملك! لا تشرب، حتىٰ أسألك سؤالاً. قال: سل قال: إذا مُنع منك هذا الكوب فبكم تشتريه؟ قال الملك: بنصف ملكي. قال: فإذا شربته، ووقف في مثانتك، فلم ينزل؛ فكم تدفع حتىٰ تنزله؟ قال: ملكي كله، قال: إذًا؛ فملكك لا يساوي بولة واحدة!.

٣ ـ ومن الناس من يتكبَّر بقوته وصحته، وهذا رجل غافل لأن القوة ليست هي مقياس الشرف بين الناس، وهل قوة هذا الرجل تكافئ قوة حمار أو بغل؟! ولو كانت القوة هي المقياس؛ لاستحق الحمار أن يكون مديراً، والبغل أن يكون وزيراً، والفيل أن يكون رئيسًا، ولكن المدار على العقل، فبه يصل الإنسان إلى معرفة ربه وخالقه، وبه يسير الإنسان في الناس سيراً حسنًا، وهو الذي يجنب صاحبه المضار والمهالك.

وقد نسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأبيات الآتية:

إنّ المَكَارمَ أخلاقٌ مُطَهَّرةٌ ... فَالعَقْلُ أوَّلُها والدِّينُ ثانيها

والعِلْمُ ثالثُها والحِلْمُ رابعُها ... والجُودُ خامسُها والعُرْفُ سادِيها

والبِرُّ سابِعُها والصَّبْرُ ثامِنُها ... والشُّكْرُ تاسِعُها واللّيْنُ عاشِيها[١]

فانظر هداك الله أنه لم يَعُد القوة والفتوة من المكارم، لأنها لا تكون مفخرة إلاَّ إذا استخدمت في الخير والإصلاح.

وقد روي أن أبا حنيفة رحمه الله كان يلقي على تلامذته درس فقه، وكان مادًا رجليه، فدخل المسجد رجل حسن الهيئة فارع الطول، وأتى حلقة أبي حنيفة ليستمع، فضم أبو حنيفة رجليه احترامًا للقادم، وظل يلقي درسه، حتى وصل إلى قوله: وقت المغرب يبدأ من غروب الشمس إلى غياب الشفق الأحمر من السماء. فقال: هذا الرجل: يا شيخ! أرأيت إن لم تغرب الشمس؟! فقال أبو حنيفة: الآن آن لأبي حنيفة أن يمدَّ رجليه.

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص١١٠).

وقد قيل:

يَزينُ الفَتَى في النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِه ... وإنْ كانَ مَحْظوراً عَلَيه مَكَاسِبُهْ
يَشينُ الفَتَى في النَّاس قلَّةُ عَقْله ... وإنْ كَرُمَتْ أعْرَاقُهُ ومَنَاسِبُه
يعيشُ الفَتَى في النَّاس بالعقل إنَّهُ ... عَلَى العَقْلِ يجري علْمُهُ وتَجَاربُه
وأفْضَلُ قَسْمِ الله للمَرْء عَقْلُهُ ... فَلَيْسَ مِنَ الأشْيَاء شيءٌ يُقَاربُهْ
إذا أكْمَلَ الرَّحْمَن لِلمَرءِ عَقْلَهُ ... فقدْ كَمُلَتْ أخْلاقُهُ ومآرِبُهْ.

٤ -ومن الناس من يتكبَّر بعلمه، وهذا أجدر به أن يسمى جاهلاً؛ لأن العلم إن لم يزد صاحبه تواضعًا وخشية، فليس بعلم نافع.

فالعلم عِلْمان: علم على اللسان، وعلم في القلب

فالعلم الذي على اللسان هو حجة الله على خلقه.

وأما العلم الذي في القلب فهو الخشية.

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان! ما شأنك؟ ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[1].

وكيف يسمى الرجل عالمًا وبه آفة الكبر؟!

يا أيُّها الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غيره ... هَلاَّ لنَفْسكَ كَان ذا التَّعْليمُ
تَصِفُ الدَّواءَ لذي السِّقام وذي الضنى ... كَيْما يَصِحُّ به فأنْتَ سَقيمُ

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٣١ ـ فتح) ومسلم (١٨/ ١١٨ ـ نووي).

ابْدأْ بنَفْسِكَ فـانْهَـهـا عن غـيِّـهـا فـإذا انْـتَـهَـيْتَ عنهُ وأنْـتَ حكيمُ
فهـناكَ تُعْذَرُ إنْ وَعَظْـتَ ويُقْتَـدى بالقَـوْلِ منكَ ويُقْبَلُ التَّعليم
لا تَنْـهَ عنْ خُـلُقٍ وتَـأْتِيَ مِـثْلَـهُ عـارُ علـيكَ إذا فَـعَلْتَ عظيـمُ

٥ ـ ومن الناس من يتكبَّر بجماله وحسن صورته، وهذا أكثر ما يكون في النساء، ولو عقلت المتكبرة بجمالها؛ لعلمت أن الجمال من نصيب الدود، ولو تخيلت صورتها في القبر بعدما أكل الدود لحومها وعينها ومنخرها، لرأت منظرًا مرعبًا مخيفًا، بل إن هذا الجمال في الدنيا معرض للآفات والأمراض، فكم من مرض ترك الجميلة شوهاء والفاتنة نكراء، فينفر منها الناس بعدما كانوا يتلهفون على رؤيتها.

يا مُظْهِـرًا للـكِبْـرِ إعـجـابًا بصـورته انظر خـلاكَ فـإنَّ الـنَّتْنَ تَثْـريبُ
لو فكَّرَ الناسُ فـيـمـا في بُـطونهـمُ مـا استَـشْـعَـرَ الكِبْـرَ شبـانٌ لا شـيبُ
هـل في ابنِ آدمَ مثلُ الرأسِ مـكْرُمةَ وَهُوَ بخَـمْسٍ منَ الأقْذَارِ مَضْروبُ
أَنفٌ يسـيلُ وأُذْنٌ ريحُـها سـهِـكُ والعينُ مُـرْفَـضَّـةٌ والثَّـغْرُ مَلْعـوبُ
يا ابنَ التُّـراب ومـأكولَ التُّـرابِ غدًا أقْـصِـرْ فـإنَّكَ مـأكـولٌ ومشـروبُ

* * *

فضل التواضع:

قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

أي: ألن لهم القول وارفق بهم.

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

أي: رحماء بالمؤمنينَ متواضعين لهم.

قال عمر رضي الله عنه: «إن العبد إذا تواضع لله، رفع الله حكمته، وقال: انتعش رفعك الله، وإذا تكبر وعدا طوره، رهصه الله في الأرض، وقال: اخسأ خسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير، حتى إنه لأحقر عندهم من الخنزير».

وقال جرير بن عبد الله: «انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد تجاوزت الشمس النطع، فسويته عليه، ثم إن الرجل استيقظ، فإذا هو سلمان الفارسي رضي الله عنه، فذكرت له ما صنعت، فقال: يا جرير! تواضع لله في الدنيا، فإنه مَنْ تواضع لله في الدنيا، رفعه الله يوم القيامة، يا جرير! أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة؟ قلت: لا. قال: إنه ظلم الناس بعضهم بعضًا في الدنيا».

وقالت عائشة رضي الله عنها: «إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات: التواضع»

وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع: «أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من صبيٍ قبلته ولو سمعته من أجهل الناس، قبلته».

وقال ابن المبارك: «رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونكَ في نعمة

الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل».

وقال قتادة: «من أعطي مالاً، أو جمالاً، أو ثيابًا، أو علمًا، ثم لم يتواضع فيه؛ كان عليه وبالاً يوم القيامة».

وقيل لعبد الملك بن مروان: أي الرجل أفضل؟ قال: «من تواضع عن قدرة، وزهد عن رغبة، وترك النصرة عن قوة».

وقال الحسن: «التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلمًا إلا رأيت له عليك فضلاً».

وقيل: «أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه، وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه».

وقيل أيضًا: «لا عز إلا لمن تذلل لله عزَّ وجلَّ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عزَّ وجلَّ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عزَّ وجلَّ، ولا ربح إلا لمن باع نفسه لله عزَّ وجلَّ».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «وجدنا الكرم في التقوى والغنى في اليقين، والشرف في التواضع».

* أمثلة من تواضع النبي ﷺ:

لقد ضرب لنا النبي ﷺ المثل الأعلى في التواضع:

وكيف لا وهو الذي زكَّاه الله بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤].

وقال له أيضًا: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

بل كان رحيم القلب، خافض الجناح، لين الجانب.

فمن مظاهر تواضعه ﷺ: أنه كان إذا مرَّ بصبيان صغار يلعبون؛ سلم عليهم[١] .

ولقد بلغ التواضع بالنبي ﷺ أنه كان يعاون أهله في عمل البيت :

فعن الأسود بن يزيد؛ قال: سألت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إليها»[٢] .

ولقد كان التواضع ظاهراً في كل أفعال النبي ﷺ، حتىٰ في طعامه وشرابه :

فكان ﷺ إذا أكل، لعق أصابعه الثلاث[٣] .

وقال ﷺ: **«إذا سقطت لقمة أحدكم، فليمط عنها الأذى، وليأكلها ولا يدعها للشيطان»**[٤] .

ومن تواضعه ﷺ أنه كان يجيب الدعوة إلىٰ الطعام، ولو كان قليلاً وكان يقبل الهدية، وإن كانت شيئًا مستصغراً في نظر الناس :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ؛ قال: **«لو دعيت إلى كراع[٥] لأجبت، أو ذراع، ولو أهدي إليَّ ذراع أو كراع، لقبلت»**[٦] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة! لو شئت لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملك، إن حجزته لتساوي الكعبة، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت نبيًا عبدًا وإن شئت نبيًا**

---

(١) متفق عليه عن أنس.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه مسلم (١٣/ ٢٠٤ ـ نووي).
(٤) رواه مسلم (١٣/ ٢٠٥ ـ نووي).
(٥) (الكراع): هو جزء من الحيوان لا يكون فيه لحم كثير، وهو ما بين الركبة والساق.
(٦) رواه البخاري.

ملكًا» قال: «**فنظرت إلى جبريل**» قال: «**فأشار إليَّ أن ضع نفسك**». قال: «**فقلت: نبيًا عبدًا**» **فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا؛ يقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»**[١].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه؛ قال: «كان حديث رسول الله القرآن، يكثر الذكر، ويقصر الخطبة، ويطيل الصلاة، ولا يأنف ولا يستكبر أن يذهب مع المسكين والضعيف حتىٰ يفرغ من حاجته»[٢].

ومن تواضعه ﷺ أنه كان يرتدف علىٰ الدابة في وقت كان الناس يأنفون من ذلك.

فعن معاذ رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي ﷺ علىٰ حمار يقال له: عفير فقال: «**يا معاذ! هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟**» قلت: الله ورسوله أعلم. **قال:« فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»** فقلت يا رسول الله! أفلا أبشر به الناس؟ قال«**لا تبشرهم فيتكلوا**»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنه؛ قال: «كان رسول الله يجلس علىٰ الأرض، ويأكل علىٰ الأرض، ويعقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك علىٰ خبز الشعير»[٤].

وعن الحسين بن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ترفعوني فوق حقي؛ فإن الله تعالى اتخذني عبدًا قبل أن يتخذني رسولاً**»[٥].

---

(١) رواه أبو يعلي وإسناده حسن، قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٩).
(٢) رواه الطبراني، وإسناده حسن. قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٠).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٥٨ ـ فتح)، ومسلم (١/ ٢٣٢ ـ نووي).
(٤) رواه الطبراني، وإسناده حسن. قاله الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٠).
(٥) رواه الطبراني، وإسناده حسن، قاله الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢١).

وعن عمر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**لا تطروني**[١] **كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[٢].

* أمثلة من تواضع الصحابة رضي الله عنهم:

عن عمر المخزومي قال: «نادىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصلاة جامعة! فلما اجتمع الناس وكثروا، صعد المنبر، فحمد الله، وأثنىٰ عليه بما هو أهله، وصلىٰ علىٰ نبيه ﷺ، ثم قال: لقد رأيتني أرعىٰ علىٰ خالات لي من بني مخزوم، فيقبض لي القبضة من التمر والزبيب فأظل يومي - وأي يوم - ثم نزل، فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين ما زدت علىٰ أن قمئت[٣] نفسك؟ فقال: ويحك يا ابن عوف! إني خلوت فحدثتني نفسي، فقالت: أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك؟! فأردت أن أعرفها نفسها».

وعن الحسن رحمه الله قال: «خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه في يوم حار واضعًا بردائه علىٰ رأسه، فمر به غلام علىٰ حمار، فقال: يا غلام! احملني معك؛ فوثب الغلام عن الحمار، وقال: اركب يا أمير المؤمنين! قال: لا اركبْ وأركبُ أنا خلفك، تريد تحملني علىٰ المكان الوطيء وتركب أنت علىٰ الموضع الخشن! فركب خلف الغلام، فدخل المدينة وهو خلفه والناس ينظرون إليه».

وعن سان بن سلمة الهذلي قال: «خرجت مع الغلمان ونحن بالمدينة نلتقط البلح، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه معه الدرة، فلما رآه الغلمان تفرقوا

(١) (الإطراء): مجاوزة الحد في المدح.
(٢) متفق عليه.
(٣) (قمئت): عبت

في النخل» قال: «وقمت وفي إزاري شيء قد لقطته فقلت: يا أمير المؤمنين! هذا ما تلقي الريح» قال: «فنظر إليه في إزاري، فلم يضربني، فقلت: يا أمير المؤمنين! الغلمان الآن بين يدي وسيأخذون ما معي. قال: كلا امش» قال: «فجاء معي إلىٰ أهلي».

وعن عبد الله الرومي؛ قال: «كان عثمان رضي الله عنه يلي وضوء الليل بنفسه، فقيل: لو أمرت بعض الخدم فكفوك، فقال: لا، إن الليل لهم يستر حون فيه».

وعن الحسن؛ قال: «رأيت عثمان رضي الله عنه نائمًا في المسجد في ملحفة، ليس حوله أحد، وهو أمير المؤمنين».

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد»: «أن عليًا رضي الله عنه اشترىٰ تمرًا بدرهم، فحمله في ملحفته، فقال له رجل: أحمل عنك يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، أبو العيال حق أن يحمل».

وعن جرموز قال: «رأيت عليًا رضي الله عنه وهو يخرج من القصر وعليه قطريتان[1] إزار إلىٰ نصف الساق، ورداء مشمر قريب منه، ومعه درة له، يمشي بها في الأسواق، ويأمرهم بالتقوىٰ وحسن البيع، ويقول: أوفوا الكيل والميزان».

وأخرج الطبراني بسند حسن عن عبد الله بن سلام: أنه مرَّ في السوق وعليه حزمة من حطب، فقيل له: ما يحملك علىٰ هذا وقد أغناك الله عن هذا؟ قال: أردت أن أدفع الكبر؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة من في قلبه خردلة من كبر**»[2].

---

(١) (قطريتان)، نوع من الثياب الخشنة.

(٢) راجع: «حياة الصحابة» (٢/ ٥٥٨).

وعن ثابت بن أبي مالك؛ قال: «رأيت أبا هريرة رضي الله عنه أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان، فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن مالك!».

هكذا كان حال الجيل الذي تربَّىٰ في المدرسة المحمديَّة، تربوا علىٰ يد الرسول ﷺ، ورحم الله الإمام مالك حيث قال: «لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، فمن أراد الصلاح والفلاح؛ فعليه بالاقتداء برسول الله ﷺ والاقتباس من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومَن نهج واقتفىٰ آثارهم، لأنهم كانوا إسلامًا يمشي علىٰ الأرض، كما كان معلمهم وإمامهم ﷺ قرآنًا يمشي علىٰ الأرض.

* * *

الصفة الثانية

الحلم

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء؛ لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلاَّ خيرًا؛ كما كان رسول الله ﷺ، لا تزيده شدَّة الجاهل عليه إلا حلمًا» أهـ[١].

والحلم: هو ضبط النفس عن هيجان الغضب.

وقال تعالىٰ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورىٰ: ٤٣].

الأحاديث في فضل الحلم:

عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**»[٣].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٢٥).

(٢) رواه مسلم (١/ ١٨٩ - نووي)، والترمذي (٣/ ٣٤٧).

(٣) رواه البخاري (١٠/ ٤٤٩ - فتح).

وعنها: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه**»[١] .

وعنها: أن النبي ﷺ قال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**»[٢] .

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من يحرم الرفق؛ يحرم الخير كله**»[٣] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بمن حرم عليه النار ؟(أو: بمن تحرم عليه النار؟) تحرم على كل قريب هين لين سهل**»[٤] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن لي قرابة، أصِلُهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلونَ عليَّ، فقال النبي ﷺ: «**لئن كنت كما قلت؛ فكأنما تسفُّهم الملّ**[٥] **، ولا يزال معك من الله تعالى ظهير**[٦] **عليهم ما دمت على ذلك**»[٧] .

ولقد بيَّن لنا النبي ﷺ أن القوة المعتبرة ليست هي القوة البدنية التي بها يغلب الرجل الناس، إنما هي القوة الإيمانية التي بها يضبط الإنسان نفسه ويتحكم في تصرفاته عند هيجان نار الغضب في قلبه.

---

(١) رواه مسلم (١٦/ ١٤٦ـ نووي).
(٢) رواه مسلم (١٦/ ١٤٧ـ نووي).
(٣) رواه مسلم (١٦/ ١٤٠ـ نووي).
(٤) رواه الترمذي، وقال: «حسن غريب». (٣/ ٦٦).
(٥) (تسفهم الملّ): تجعلهم يأكلون الرماد الحار.
(٦) (ظهير): معين.
(٧) رواه مسلم: (١٦/ ١١٥ـ نووي).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس الشديد بالصُّرعة**[(١)] **، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[(٢)] .

ثم إن الرجل المؤمن إذا جهل عليه جاهل أو سفه عليه سفيه أو سابَّه سابٌّ، فأعرض عنه؛ فإن الله يؤيده بملك يدافع عنه ويرد بدلاً منه؛ لأن الله قد أخذ على نفسه عهداً ليدافعنَّ عن الَّذين آمنوا، فقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [الحج: ٣٨].

وعن النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه؛ قال: سبَّ رجل رجلاً عند رسول الله ﷺ، فجعل المسبوب يقول: عليك السلام، فقال رسول الله ﷺ: «**أما إن ملكًا بينكما يذب عنك، كلما شتمك هذا، قال له: بل أنت، وأنت أحق به. وإذا قلت له: وعليك السلام، قال: لا، بل عليك، وأنت أحق به**»[(٣)] .

ولقد حثَّ النبي ﷺ على العفو والصفح.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! كم أعفو عن الخادم؟ فصمت عنه النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله! كم أعفو عن الخادم؟ قال: «**كل يوم سبعين مرة**»[(٤)] .

وعن أبي الأحوص عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله! الرجل أمرُّ به فلا يقريني ولا يضيفني، فيمر بي أفأجزيه؟ قال: «**لا؛ أقره**»[(٥)(٦)] .

هكذا كان النبي ﷺ يعلمهم أن يجازوا المسيء بالإحسان، والقاطع بالصلة،

---

(١) (الصرعة): الذي يصرع الناس ويغلبهم.

(٢) رواه: البخاري (١٠/ ٥١٢ ـ فتح)، ومسلم (١٦/ ١٦٢ ـ نووي).

(٣) رواه أحمد، وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٢٥): «إسناده حسن».

(٤) رواه الترمذي، وقال: «حسن غريب» (٣/ ٢٢٦).

(٥) (أقره): أضفه، و (القرى): الضيافة

(٦) رواه الترمذي، وقال: «حسن صحيح» (٣/ ٢٤٦).

والمانع بالإعطاء، وأن يعلقوا آمالهم برب الأرض والسماء، فهو الذي يملك الجزاء، وبيده العطاء.

كان دائمًا يزهدهم في النفع الدنيوي، ويرغبهم في النفع الأخروي.

فعن معاذ بن أنس الجهني عن النبي ﷺ قال: «**من كظم غيظًا وهو يستطيع أن ينفذه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور شاء**»[1].

الآثار في فضل الحلم:

قال عمر رضي الله عنه: «تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم».

وقال علي رضي الله عنه: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكنَّ الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت؛ حمدت الله تعالى، وإذا أسأت، استغفرت الله تعالى».

وقال الحسن: «أطلبوا العلم، وزيِّنوه بالوقار والحلم».

وقال معاوية رحمه الله: «لا يبلغ العبد مبلغ الرأي، حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم».

وقال معاوية لعمرو بن الأهتم: أي الرجال أشجع؟ «قال: من ردَّ جهله علمه. قال: أي الرجال أسخى؟ قال: من بذل دنياه لصلاح دينه».

وقال أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾: «هو الرجل يشتمه أخوه، فيقول: إن كنت كاذبًا فغفر الله لك، وإن كنت صادقًا؛ فغفر الله لي».

وقال معاوية لعرابة بن أوس: «بم سدت قومك؟ قال: يا أمير المؤمنين! كنت

(١) رواه الترمذي، وقال: «حسن غريب» (٣/ ٢٥١).

أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعىٰ في حوائجهم».

وقيل: «العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قائده، والرفق والده، واللين أخوه، والصبر مرشده».

وقال وهب بن منبه: «من يرحم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يجهل يُغلب، ومن يعمل يخطئ، ومن يحرص علىٰ الشر لا يَسْلم، ومن لا يدع المراء يُشْتم، ومن لا يكره الشر يأثم، ومن يكره الشر يُعصم، ومن يتبع وصية الله يحفظ، ومن يحذر الله يأمن، ومن يتول الله يمنع، ومن لا يسأل الله يفتقر، ومن يأمن مكر الله يُخذل، ومن يستعن بالله يظفر».

وقال بعضهم:

أحبُّ مكارمَ الأخلاقِ جَهْدي ... وأكْرَهُ أنْ أعيبَ وأنْ أعابا

وأصْفَحُ عنْ سبابِ الناسِ حِلمًا ... وشرُّ الناسِ مَنْ يَهْوى السِّبابا

ومَنْ هابَ الرِّجالَ تَهَيَّبوهُ ... ومَنْ حَقَرَ الرِّجالَ فلنْ يُهابا

الأسباب الباعثة على الحلم[1]:

يقول الماورديُّ: «الحلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوي الألباب؛ لما فيه من سلام العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد».

١ - ومن أسبابه الباعثة عليه: الرحمة للجهال، وذلك من خير يوافق رقة.

وقد قيل في «منثور الحكم»: «من أوكد أسباب الحلم الرحمة للجهال».

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه لرجل أسمعه كلامًا: «يا هذا! لا تغتر في سبِّنا، ودع للصلح موضعًا؛ فإنا لا نكافئ من عصىٰ الله فينا بأكثر من أن نطيع

(١) راجع: «أدب الدنيا والدين» (ص٢٢٥).

الله فيه» أهـ باختصار[١] . وهذه الرحمة وتلك الشفقة نابعتان من علم المؤمن بأن الذي يَؤُزُّ الجاهل ويسلطه بالسب والشتم هو الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا** ﴾ [مريم: ٨٣].

ولذلك أمرنا ربنا بأن لا نحرك ألسنتنا إلا بكل طيب، حتىٰ لا ندع فرصة للشيطان بالنزوغ بيننا، فقال: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا** ﴾ [الإسراء: ٥٣].

٢ ـ ومن أسباب الحلم أيضًا: الرغبة فيما عند الله من الثواب.

وقد مرَّ بنا قول النبي ﷺ: «**من كظم غيظًا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور شاء**»[٢] .

وإن المؤمن إذا طمع فيما عند الله احتقر الدنيا، وهان عليه ما فيها من سرور وحزن وغنىٰ وفقر، وهذا الطمع وتلك الرغبة يدفعانه إلىٰ مراقبة الله عزَّ وجلَّ في كل أقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، فإذا غضب غضب لله، وإذا أحب أحب لله، وإذا أبغض أبغض لله وإذا أعطىٰ أعطىٰ لله وإذا منع منع لله، فهو محقق العبودية لله؛ لأنه يطمع فيما عند الله.

٣ ـ ومن أسبابه الترفع عن السباب والنطق بالألفاظ البذيئة.

وذلك من شرف النفس، وعلو الهمة؛ كما روي «أن المسيح عليه السلام مرَّ علىٰ قوم من اليهود، فقالوا له شرًّا، فقال لهم خيرًا، فقيل له: إنهم يقولون شرًّا وأنت تقول خيرًا؟! فقال: كل ينفق مما عنده».

٤ ـ ومن أسبابه: محبة امتثال أمره ﷺ حيث قال: «**من كان يؤمن بالله**

---

(١) راجع: «أدب الدنيا والدين» (ص٢٢٥).

(٢) رواه الترمذي، وقال: «حسن غريب» (٣/ ٢٥١).

واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت»[1] .وإن هذا الصمت مؤلم للجاهل، كما قيل:

وَلَلكَفُّ عن شَتْمِ اللئيم تكرُّمًا أضرُّ لهُ من شَتْمِهِ حينَ يُشْتَمُ

وقيل أيضًا:

إذا نَطَقَ السَّفيهُ فلا تُجِبْهُ فخَيْرٌ منْ إجابَتِه السُّكوتُ
سَكَتُّ عنِ السَّفيهِ فَظَنَّ أني عَييتُ عنِ الجوابِ وما عَييتُ

وقال رجل لضرار بن القعقاع: والله لو قلت واحدة؛ لسمعت عشرًا فقال له ضرار: «والله لو قلت عشرًا؛ لم تسمع واحدة».

وقال بعضهم:

وفي الحِلْمِ رَدْعٌ للسَّفيهِ عنِ الأذى وفي الخُرْقِ[2] إغراءٌ فلا تَكُ أَخْرَقا
فَتَنْدَمَ إذْ لا يَنْفَعَنْكَ ندامةٌ كما ندمَ المَغْبونُ[3] لَمَّا تفرَّقا

«وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعامر بن مرة الزهري: من أحمق الناس؟ قال: من ظَنَّ أنه أعقل الناس. قال: صدقت. فمن أعقل الناس؟ قال: من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهال».

٥ ـ ومن أسبابه الاستحياء من جزاء الجواب، وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة.

وقال بعض الحكماء: «احتمال السفيه خير من التحلي بصورته، والإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته».

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٥٣٣ ـ فتح)، ومسلم (٢/ ١٨ ـ نووي) والترمذي (٤/ ٧٠).
(٢) (الخرق): الجهل.
(٣) (المغبون): المغلوب في البيع والشراء.

وقال بعضهم:

وإنْ تَكُ قد سابَبْتَني فقَهرْتَني ... هنيئًا مريئًا أنتَ بالفُحْشِ أحْذَقُ[١]

وقال الأحنف بن قيس: «ما عاداني أحد قط؛ إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه».

فأخذه الخليل بن أحمد الفراهيدي، فنظمه شعرًا، فقال:

سأُلزِمُ نفسي الصَّفحَ عن كلِّ مذنبٍ ... وإنْ كَثُرَتْ منهُ إليَّ الجرائمُ

فمَا الناسُ إلاَّ واحدٌ من ثلاثةٍ ... شريفٌ ومشروفٌ[٢] ومثلٌ مقاومُ[٣]

فأمَّا الذي فَوْقي فأعْرِفُ قَدْرَهُ ... وأتْبَعُ فيه الحَقَّ والحقُّ لازمُ

وأمَّا الذي دوني فأَحْلَمُ دائبًا ... أصونُ به عِرْضي وإنْ لام لائمُ

وأمَّا الذي مِثْلي فإنْ زَلَّ أو هفا ... تفضَّلْتُ إنَّ الفَضْلَ بالفَخْرِ حاكمُ

واعلم أن الحلم لا يظهر إلا ساعة الغضب؛ كما قيل: «ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواضع: لا يعرف الجواد إلا في العسرة، والشجاع إلا في الحرب، والحليم إلا في الغضب».

وقال الشاعر:

لَيسَتِ الأحْلامُ في حالِ الرِّضى ... إنَّما الأحلامُ في حالِ الغَضَبْ

---

(١) (أحذق) أجدر. ومعنى البيت: أي إن كانت شتمتني فأنت أهل لأن تخرج من فمك هذا الكلام البذئ.

(٢) (مشروف): وضيع.

(٣) (مقاوم): مكافئ، أي: مثلي في الشرف.

وقيل أيضًا:

مَن يَدَّعي الحِلْمَ أغْضِبْهُ لِتَعْرِفَهُ لا يُعرَف الحلمُ إلاَّ ساعةَ الغَضَبِ

أمثلة من حلم النبي ﷺ:

عن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيته منه يوم العقبة إذ عرضت نفسي**[١] **على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب**[٢]**، فرفعت رأسي، وإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني قال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، فناداني ملك الجبال، فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني إليك لتأمرني بأمرك؛ فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين**»[٣]. فقال النبي ‹: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم**[٤] **من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**»[٥].

هكذا كان يلاقي النبي ﷺ من الكفار في بداية دعوته، فكان يقابله بالحلم والصفح كما سلف بيانه، ولقد ظل الحلم رائده حتي بعد قيام الدولة الإسلامية وامتداد سلطانها، فكان يأتي الرجل من أجلاف البادية، فيغلظ لرسول الله ﷺ القول: فيهمُّ الصحابة أن يقعوا به، فيمنعهم النبي ﷺ، ويقابل هذه الشدة باللين، والغلظة بالرحمة، والفظاظة بالحلم.

---

(١) (عرضت نفسي): عرضت دعوتي.

(٢) (قرن الثعالب) مكان بينه وبين مكة مسيرة يوم وليلة.

(٣) (الأخشبين): الجبلان المحيطان بمكة.

(٤) (من أصلابهم): من ذريتهم.

(٥) رواه البخاري (٦/ ٣١٢ ـ فتح)، ومسلم (١٢/ ١٥٤ ـ نووي)

فعن أنس رضي الله عنه قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي ، فجبذه[١] بردائه جبذة شديدة ، فنظرت إلىٰ صفحة عاتق[٢] النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد ! مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه ، فضحك ثم أمر له بعطاء[٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بال أعرابي في المسجد ، فقام الناس إليه ليقعوا فيه ، فقال النبي ﷺ : «**دعوه، وأريقوا على بوله سجلاً**[٤] **من ماء (أو ذنوبًا من ماء) فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين**»[٥] .

وعن عبد الله رضي الله عنه قال : لما كان يوم حُنَين آثر النبي ﷺ ناسًا ، أعطىٰ الأقرع بن حابس رضي الله عنه مئة من الابل ، وأعطىٰ عيينة رضي الله عنه مثل ذلك ، وأعطىٰ ناسًا ، فقال رجل : ما أريد بهذه القسمة وجه الله . فقلت : لأخبرنَّ النبي ﷺ : فقال : «**رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[٦] .

ويتجلىٰ حلم النبي ﷺ عندما تريد يهودية أن تسمّه ، ثم يحضروها بين يديه ، ويطلبون منه أن يأذن لهم في قتلها ، فيأبىٰ أن يقتلها أو يعاقبها .

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة ، فأكل منها ، فجيء بها إلىٰ رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك؟ قالت :

---

(١) (جبذة) : جذبة .
(٢) (صفحة عاتق) : الصفحة هي الجانب ، والعاتق ما بين العنق والكتف .
(٣) رواه البخاري (١٠/ ٣٧٥ ـ فتح) ، ومسلم (٧/ ١٤٦ ـ نووي) .
(٤) (سجلاً) : هو الدلو الممتلئة بالماء .
(٥) رواه البخاري (١/ ٣٢٤ ـ فتح) .
(٦) رواه البخاري

أردت لأقتلك، فقال: «**ما كان الله ليسلطك عليّ** (**أو قال على ذلك**) قالوا: **ألا تقتلها؟** قال: «**لا**» قال أنس: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله[(١)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه إلىٰ النبي ﷺ، فقال: إن دوسًا قد عصت وأبت فادع الله عليهم فاستقبل القبلة رسول الله ﷺ ورفع يديه فقال الناس: هلكوا.

فقال: «**اللهم اهد دوسًا وائت بهم، اللهم اهد دوسًا وائت بهم، اللهم اهد دوسًا وائت بهم**»[(٢)] .

* أمثلة من حلم الصحابة رضي الله عنهم:

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه رجلاً ميسور الحال، فكان ينفق علىٰ رجل من أقاربه يدعىٰ مِسْطَح، فلما افترىٰ المنافقون حادثة الإفك تكلم فيها مسْطَح، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، فنزل قول الله تعالىٰ: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾[النور: ٢٢].

فقال أبو بكر: «لا؛ نحب أن يغفر الله لنا» وعاد إلىٰ الإنفاق عليه[(٣)] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل علىٰ ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ـ وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانًا ـ فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي! لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه» قال ابن عباس: «فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٠ ـ فتح)، ومسلم (١٤/ ١٨٧ ـ نووي).

(٢) رواه البخاري (١١/ ١٩٦ ـ فتح).

(٣) رواه البخاري (٨/ ٤٥٥ ـ فتح) ومسلم (١٧/ ١١٣ ـ نووي).

قال: ها يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هَمَّ أن يوقع به، فقال الحر: يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله عزَّ وجلَّ»[1].

* * *

(١) رواه البخاري (٨/ ٣٠٥ ـ فتح).

الصفة الثالثة

قيام الليل

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾

أي: يحبون الليل بالعبادة، فهم مستيقظون حيث ينام الناس، ومنتبهون حيث يغفل الناس؛ لأنهم أخلصوا الحب لله تبارك وتعالى فتلذذوا بمناجاته.

ولقد أحسن القائل فيهم:

امْنعْ جُفونَكَ أنْ تذوقَ منامَــا — واذْرِ الدُّموعَ على الخُدود سجاما

واعلَمْ بأنَّك ميِّتٌ ومُحاسَبٌ — يا مَنْ على سُخْطِ الجَليلِ أقاما

لله قَومٌ أخْلَصوا في حبِّه — فَرَضي بِهِمْ وأخْتَصَّهُم خُدَّاما

قومٌ إذا جَنَّ الظَّلامُ عليهمُ — باتوا هنالكَ سُجَّدًا وقياما

خُمْصُ البُطونِ من التعففُ ضُمَّرًا — لا يعرفونَ سوى الحلالِ طعاما

قال ابن عباس: «من صلىٰ ركعتين أو أكثر بعد العشاء، فقد بات لله ساجدًا أو قائمًا»[1].

ولقد وصف الله عباده المؤمنين بقيام الليل في أكثر من آية:

فقال سبحانه: ﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

---

(١) تفسير القرطبي» (١٣/ ٧٢).

الأحاديث في فضل قيام الليل:

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عبد الله! لا تكن مثل فلان، كان يقومُ الليلَ، فترك قيام الليل**»[١].

متفق عليه، أخرجه البخاري في (التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل، وباب من نام عند السحر) وفي (الصوم)، ومسلم في (الصيام، باب النهي عن صيام الدهر).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ذكر عند النبي ﷺ رجل نام ليله حتى أصبح؛ قال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه، (أو قال: في أذنه)».

متفق عليه[٢] أخرجه: البخاري في (التهجد: باب إذا نام ولم يصل بال الشيطان في أذنه) و(بدء الخلق، باب إبليس وجنوده)، ومسلم في (صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة: عليك ليل طويل، فارقد. فإذا استيقظ فذكر الله تعالى، انحلَّت عقدة، فإن توضأ، انحلت عقدة، فإن صلى: انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»[٣]. متفق عليه. أخرجه البخاري في (التهجد، باب عقد الشيطان على قافية الرأس) و(بدء الخلق)، ومسلم في (صلاة المسافرين، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع). (قافية الرأس): آخره.

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال. «**أيها الناس**

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٣٧ ـ فتح)، ومسلم (٨/ ٤٤ ـ نووي).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٢٣٥ ـ فتح) ومسلم (٦/ ٦٣ ـ نووي).

(٣) رواه البخاري (٦/ ٣٣٥، ٣/ ٢٢٤ ـ فتح)، ومسلم (٦/ ٦٥ ـ نووي).

أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[١] .

رواه الترمذي في (أبواب صفة القيامة، باب أفشوا السلام وأطعموا الطعام، رقم ٢٤٨٧)، وقال: «حديث صحيح».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**»[٢] .

رواه مسلم في (كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم).

وعن جابر رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الصلاة أفضل؟ قال: «**طول القنوت**».

رواه مسلم في (صلاة المسافرين، باب أفضل الصلاة طول القنوت).

المراد بـ(القنوت): القيام[٣] .

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه أياه، وذلك كل ليلة**»[٤] .

رواه مسلم في (صلاة المسافرين، باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله رجلاً قام من الليل فصلَّى، وأيقظ امرأته، فإن أبت، نضح في وجهها الماء، ورحم الله**

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦٥).
(٢) رواه مسلم (٨/ ٥٤ ـ نووي).
(٣) رواه مسلم (٦/ ٣٥ ـ نووي).
(٤) رواه مسلم (٦/ ٣٥).

امرأة قامت من الليل فصلَّت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»[(١)] .

قال النووي : (رواه أبو داود بإسناد صحيح في الصلاة، باب قيام الليل) .

وعن أبي سعيد رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا أيقظ الرجل أهله من الليل، فصليا (أو: صلى ركعتين جميعًا)؛ كتبا في الذاكرين والذاكرات**»[(٢)] .

قال النووي : «رواه أبو داود بإسناد صحيح في (الصلاة، باب قيام الليل)» .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال : «**في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها»فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائمًا والناس نيام**»[(٣)] .

قال المنذري : «رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن» .

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ حتىٰ تورمت قدماه، فقيل له : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال : «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟**»[(٤)] .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه : عن رسول الله ﷺ : «**عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم**».

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ٣٣) بإسناد صحيح .

(٢) رواه أبو داود (٢/ ٣٣) بإسناد صحيح .

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد صحيح، قاله المنذري في «الترغيب» (٢/ ٢٤)، وحسنه الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٥٤) .

(٤) رواه البخاري (٣/ ١٤ ـ فتح)، ومسلم (١٧/ ١٢٦ ـ نووي) .

قال الهيثمي في «المجمع»[1] : «رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث، قال عبد الملك بن شعيب : كاتب الليث ثقة مأمون، وضعَّفه جماعة من الأئمة» أهـ.

قلت : منهم النسائي والإمام أحمد وابن خزيمة، ولكن وثَّقه آخرون مثل يحيىٰ بن معين وابن عدي وأبو حاتم، وقال المنذري : «قد رویٰ عنه البخاري في «صحيحه»[2] ؛ فمثل هذا حديثه لا ينزل عن مرتبة الحسن - إن شاء الله -، ولذلك حسنه الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء»[3] .

والحديث قد رواه الطبراني في «الكبير» عن سلمان الفارسي رضي الله عنه .

وفيه عبد الرحمن بن سليمان بن أبي الجون؛ قال الحافظ في «التقريب»[4] : «صدوق يخطئ» ومثل هذا حديثه حسن في الشواهد .

وللحديث طريق ثالثة عن بلال، ولا يصح، لأن فيه محمد بن سعيد الشامي المصلوب، وهو كذاب وضَّاع، ولذلك رویٰ الترمذي (٥/ ٢١٣) حديث أبي أمامة هذا، وقال : «هذا أصح من حديث أبي إدريس عن بلال» .

وعن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية**»[5] .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال : جاء جبريل إلىٰ النبي ﷺ، فقال : «يا محمد ! عش ما شئت، فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزّه

(١) «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥١).
(٢) «الترغيب» (٦/ ٣٤٨).
(٣) «تخريج الإحياء» (٤/ ٦٣٤).
(٤) «التقريب» (١/ ٤٨٢).
(٥) قال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٢٨) : «رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن» .

استغناؤه عن الناس»[1] .

وعن عمرو بن عَبَسة رضي الله عنه : أنه سمع النبي ﷺ يقول : «**أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن**»[2] .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «**ثلاثة يحبهم الله، ويضحك إليهم، ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئة، قاتل وراءها بنفسه لله عزَّ وجلَّ، فإما أن يقتل، وإما أن ينصره الله عزَّ وجلَّ ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه، والذي له امرأة حسناء، وفراش لين حسن فيقوم من الليل، فيقول: يذر شهوته ويذكرني ولو شاء رقد. والذي إذا كان في سفر، وكان معه ركب، فسهروا، ثم هجعوا، فقام من السحر في ضراء وسراء**»[3] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**»[4] .

وعن يزيد بن الأخنس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «**لا تنافس إلا في اثنتين: رجل أعطاه الله قرآنًا، فهو يقوم به آناء الليل والنهار، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني ما أعطى فلانًا، فأقوم به كما يقوم، ورجل أعطاه الله مالاً، فهو ينفق منه ويتصدق، فيقول رجل مثل ذلك**»[5] .

---

(١) قال الحافظ المنذري في «الترغيب» (٢/ ٢٩) : «رواه الطبراني في «الأوسط» وإسناده حسن» .

(٢) رواه الترمذي ، وقال : «حسن صحيح غريب» .

(٣) قال الحافظ المنذري في «الترغيب» (٢/ ٣٣) : «رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن» .

(٤) رواه البخاري (٩/ ٧٣ - فتح) .

(٥) قال المنذري في «الترغيب» (٢/ ٣٦) : «رواه الطبران في «الكبير» ورواته ثقات مشهورون» . ورواه أبو يعلى من حديث أبي سعيد ونحوه بإسناد جيد .

وعن فضالة بن عبيد وتميم الداري رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: «**من قرأ عشر آيات في ليلة كتب له قنطار، والقنطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة، يقول ربك عزَّ وجلَّ، اقرأ وارق بكل آية درجة، حتى ينتهي إلى آخر آية معه، يقول الله عزَّ وجلَّ للعبد: اقبض. فيقول العبد بيده: يا رب! أنت أعلم، يقول: بهذه الخلد، وبهذه النعيم**»[١].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كان الرجل في حياة رسول الله ﷺ إذا رأىٰ رؤيا قصَّها علىٰ رسول الله ﷺ، فتمنيت أن أرىٰ رؤيا أقصها علىٰ النبي ﷺ. قال: وكنت غلامًا شابًّا عزبًا، وكنت أنام في المسجد علىٰ عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلىٰ النار، فإذا هي مطوية كطيِّ البئر، وإذا لها قرنان كقرني البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، قال: فلقيهما ملك، فقال لي: لم ترع. فقصصتها علىٰ حفصة، فقصتها حفصة علىٰ رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**نعْمَ الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل**» قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلاَّ قليلاً[٢].

الأثار في فضل قيام الليل:

قال الحسن البصري رحمه الله: «ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال» فقيل له: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهًا؟ قال: «لأنهم خلوا بالرحمن، فألبسهم نوراً من نوره».

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٦٧): «رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وفيه إسماعيل بن عياش، ولكنه من روايته عن الشاميين، وهي مقبولة». قلت: قبلها أحمد بن حنبل ويحيىٰ بن معين والنسائي وغيرهم، كما قال الحافظ في «تهذيب التهذيب» (١/ ٣٢١) وبهذا يكون الحديث حسنًا.

(٢) رواه: البخاري (٣/ ٦ ـ فتح) ومسلم (١٦/ ٣٨ ـ نووي).

وقال أيضًا: «إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل».

وقال الفضيل بن عياض: «إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار، فاعلم أنك محروم، وقد كثرت خطيئتك».

وقد روي أن مالك بن دينار بات يردد هذه الآية حتى أصبح: ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال مالك بن دينار: «سهوت ليلة عن وردي ونمت، فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما يكون، وفي يدها رقعة، فقالت لي: أتحسن تقرأ؟ فقلت: نعم. فدفعت إليَّ الرقعة، فإذا فيها:

أألهَتْكَ اللَّذائذُ والأماني ... عن البيضِ الأوانسِ في الجنانِ

تَعيشُ مُخَلَّدًا لا موتَ فيها ... وتَلْهو في الجنانِ معَ الحِسانِ

تَنَبَّهْ من مَنامكَ إنَّ خيرًا ... منَ النَّوْمِ التَّهَجُّدُ بالقُرانِ

ويروى عن أزهر بن مغيث - وكان من القوامين - أنه قال: «**رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء أهل الدنيا فقلت لها: من أنت؟ قالت: حوراء. فقلت: زوجيني نفسك؟ فقالت: اخطبني إلى سيدي وأمهرني فقلت: وما مهرك؟ قالت: طول التهجد**».

الأسباب الميسرة لقيام الليل[1]:

اعلم أخي المسلم أن قيام الليل من أثقل الطاعات على النفوس إلا من يسَّره الله عليه، وهناك أمور لو تمسَّك بها الانسان؛ ليسَّرت عليه قيام الليل، وهذه الأمور تنقسم إلى قسمين: أمور ظاهرة، وأخرى باطنة:

(١) انظر «إحياء علوم الدين» (٤/ ٦٣٨) عن نظر في الكتاب ومخالفاته.

الأمور الظاهرة:

١ ـ أن لا يكثر الأكل، فيكثر الشرب فيغلبه النوم، ويثقل عليه القيام، وقد قيل: لا تأكل كثيراً فتشرب كثيراً فتنام كثيراً فتخسر كثيراً.

٢ ـ أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيئ بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب؛ فإن ذلك مجلبة للنوم.

٣ ـ ألا يترك القيلولة بالنهار، للاستعانة بها على قيام الليل.

٤ ـ أن يتجنب ارتكاب المعاصي، فإن ذلك مما يقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة.

وقال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد! إني أبيت معافى، وأحب قيام الليل، وأعدُّ طهوري؛ فما بالي لا أقوم؟ فقال: «قيدتك ذنوبك».

هذه هي الأمور الظاهرة.

الأمور الباطنة:

١ ـ سلامة القلب عن الحقد على المسلمين، وعن البدع، وعن فضول هموم الدنيا.

٢ ـ خوف غالب يلزم القلب، مع قصر الأمل، فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم، طار نومه وعظم حذره:

وقد قيل:

مَنَعَ القُرانُ بوَعْدِه ووَعِيدِه ... مُقَلَ العُيون بلَيْلها أنْ تَهْجَعا

فَهِمُوا عنِ المَلِكِ الجَليلِ كَلامَهُ ... فرِقابُهُمْ ذَلَّتْ إليه تَخَضُّعا

وقد قيل أيضًا:

إذا مـا الليلُ أظلمَ كـابَدوهُ فَيُسْفِرُ عنهُمُ وهُمُ رُكوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهُم فقاموا وأهلُ الأرضِ في الدُّنيا هُجوعُ

٣ ـ أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأحاديث والآثار؛ فإن ذلك يدفعه على العمل، وييسِّر عليه المشقة.

٤ ـ تذكر حلاوة المناجاة والوقوف بين يدي الله، ولا يشعر بهذه الحلاوة وتلك اللذة، إلا من أخلص الحب لله، وجرَّد الاتباع لرسول الله ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١][1].

* * *

(١) راجع: رسالة «الأمور الميسرة لقيام الليل» للمؤلف.

الصفة الرابعة

الخوف من النار

يقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ .

قال القرطبي: «أي: هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وجلون من عذاب الله» أهـ[1] .

فهذه صفة كل مؤمن، يجتهد في الطاعات ويخاف عذاب الله تبارك وتعالى كما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ [المعارج: ٢٧ - ٢٨].

وكيف لا يخافون عذاب الله وهو القائل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وقال أيضًا: ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٥ - ١٦].

ومن المعلوم أنه لا يسكن الخوفُ من النار قلبَ العبد إلا إذا تخيَّلها وتصوَّرها، ولا يتسنَّى له ذلك إلا بمعرفة الأخبار الواردة فيها، ولذلك سأسوق لك لقطات من وصف النار أجارنا الله منها بمنِّه وكرمه:

---

(١) تفسير القرطبي» (١٣/ ٧٢).

* أبواب النار:

قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

عن عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الجنة لها ثمانية أبواب،. والنار لها سبعة أبواب**»[١].

* شدة حرِّها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءًا من نار جهنم». قالوا، والله، إن كانت لكافية. قال: «إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا، كلهنَّ مثل حرِّها**»[٢].

* لون جهنم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضَّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودَّت، فهي سوداء كالليل المظلم**»[٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**أترونها حمراء كناركم هذه ؟! لهي أسود من القار**»[٤].

* قعر جهنم:

عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غزوان رضي الله عنه فقال: «إنه ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم، فيهوي فيها سبعين عامًا، ما يدرك لها قعرًا، والله لتملأنهُ، أفعجبتم؟!»[٥].

(١) رواه أحمد، وصححه الألباني في «السلسة الصحيحة» برقم (١٨١٢).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٣٣٠ـفتح)، ومسلم (١٧/ ١٧٩ ـنووي).

(٣) رواه الترمذي (٤/ ١١١)، . وهو حسن.

(٤) رواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٩٤) بسند صحيح.

(٥) رواه مسلم (١٨/ ١٠٢ـنووي).

عن الحسن البصري رحمه الله، قال: «وكان عمر يقول: أكثروا ذكر النار؛ فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها الحديد»[1].

* سلاسل جهنم:

يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً﴾ [الإنسان: ٤].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو أن رصاصة مثل هذه (وأشار إلى مثل الجمجمة) أرسلت من السماء إلى الأرض (وهي مسيرة خمس مئة سنة) لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفًا الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها»**[2].

* شراب أهل النار:

قال تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٥-١٧].

* طعام أهل النار:

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦-٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«لو أن قطرة من**

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ١٠٤) بسند حسن.

(٢) رواه الترمذي (٤/ ١٠٩)، قال: «هذا حديث إسناده حسن صحيح».

الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟!»[١].

*** غلظ أجسام أهل النار وقبح مناظرهم:**

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣-١٠٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**ضرس الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث**»[٢].

وعنه أيضًا عن النبي ﷺ، قال: «**إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعًا، وإن ضرسه مثل أحد، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة**»[٣].

وعنه أيضًا عن النبي ﷺ قال: «﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]: **تشويه النار، فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته**»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتدري ما سعة جهنم؟ قلت: لا. قال: أجل والله، والله ما تدري، إن بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفًا تجري في أودية القيح والدم»[٥].

*** أهون أهل النار عذابًا:**

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ١٠٧)، وقال: «حسن صحيح».

(٢) رواه مسلم (١٧/ ١٨٦ - نووي)، والترمذي (٤/ ١٠٤).

(٣) رواه الترمذي (٤/ ١٠٥)، وقال: «حسن غريب صحيح».

(٤) رواه الترمذي (٤/ ١٠٩)، وقال: «حسن غريب صحيح».

(٥) قال المنذري في «الترغيب» (٦/ ٢٦١): «رواه أحمد بإسناد صحيح».

«إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه»(١) .

*** تفاوت درجات العذاب:**

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبته، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته»(٢) .

*** غمسة في النار تنسي نعيم الدنيا:**

قال تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

وعن أنس رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم! هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب: ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال: يا ابن آدم! هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك من شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرَّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»(٣) .

*** بكاء أهل النار وصراخهم:**

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٤١٧ - فتح)، ومسلم (٣/ ٨٥ - نووي).
(٢) رواه مسلم (١٧ - ١٨٠ - نووي).
(٣) رواه مسلم (١٧/ ١٤٩ - نووي).

فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

وعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل النار ليبكونَ حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت، وإنهم ليبكونَ الدم (يعني: مكان الدمع)»(١).

*** بعث النار:**

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك». قال: «يقول: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، فذاك حين يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد» فاشتد ذلك عليهم، فقالوا: يا رسول الله! أيُّنا ذلك الرجل؟! فقال: «أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا، ومنكم رجل» قال: ثم قال: «والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة» قال: فحمدنا الله وكبرنا. ثم قال: «والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو الرقمة في ذراع الحمار»(٢).

*** كلام النار يوم القيامة:**

يقول تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

---

(١) رواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني علىٰ شرط الشيخين في «السلسة الصحيحة» برقم (١٦٧٩).

(٢) رواه البخاري (١١/٣٣٨-فتح) ومسلم (٣/٩٧-نووي).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج عنق من النار يوم القيامة، له عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، يقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصورين»[1].

* ثياب أهل النار:

قال سبحانه: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥٠].

* عظَم جهنم:

قال سبحانه: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالنار يوم القيامة، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، يجرونها»[2].

* فضل الخوف من الله عزَّ وجلَّ:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾. [المؤمنون: ٥٧].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عزَّ وجلَّ، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه

---

(٢) رواه الترمذي (٤/ ١٠٣)، وقال: «حسن صحيح غريب».

(١) رواه: مسلم (١٧/ ١٧٩ - نووي)، والترمذي (٤/ ١٠٣).

وتفرقـا عليه، ورجل دعـته امـرأة ذات منصب وجمـال، فقال: إني أخـاف الله، ورجل ذكر الله خاليًا، ففاضت عيناه»[١] .

وعنه أيضًا: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن إلى الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»[٢] .

وعن ابن عبـاس رضي الله عنهـما قال: سـمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسـهما النار: عين بكت من خـشية الله، وعين باتت تحرس في سـبيل الله»[٣] .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خـشية الله، وقطرة دم تهراق في سـبيل الله، وأما الأثران: فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله»[٤] .

*** خوف النبي ﷺ:**

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن».

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي (٣/ ٩٣)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ١٢).

(٣) رواه الترمذي، وقال: «حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زريق» اهـ.

قلت: وشعيب هذا صدوق يخطئ كما قال الحافظ في «التقريب» (١/ ٣٥٢)، وفيه علة ثانية، وهي عنعنة عطاء الخراساني، وهو مدلس كما قال الحافظ أيضًا في «التقريب» (٢/ ٣٢).

ولكن للحديث شواهد يتوَّىٰ بها:

منها: الحديث الذي مرَّ قبله.

ومنها: ما رواه أحمد والنسائي والحاكم عن أبي ريحانة: أن رسول الله ﷺ قال: «حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله، وذكر عينًا ثالثة» وهو حسن.

وشاهد ثالث رواه أبو يعلي عن أنس بن مالك ورواته ثقات.

وشاهد رابع رواه الطبراني عن معاوية بن حيدة، وفي سنده أبو حبيب العنقري.

(٤) رواه الترمذي (٣/ ١٠٩)، وقال: «حسن غريب».

قلت: يا رسول الله ! أقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت عليه سورة النساء، حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]. «قال حسبك الآن» فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان(١) .

عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قال: فغطى أصحاب رسول الله «وجوههم ولهم حنين»(٢) .

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: «أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»(٣) .

* خوف الصحابة رضي الله عنهم:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبيِّ بن كعب رضي الله عنه: «إن الله عزَّ وجلَّ أمرني أن أقرأ عليك: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ قال: وسمَّاني؟ قال: «نعم». فبكى أبيّ»(٤) .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما اشتد برسول الله ﷺ وجعه؛ قيل له في الصلاة قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فقالت عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن غلبه البكاء فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»(٥) .

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٢٥٠ ـ فتح)، ومسلم (٦/ ٨٧ ـ نووي).

(٢) رواه البخاري (٨/ ٢٨٠ ـ فتح)، ومسلم (١٥/ ١١١ ـ نووي).

(٣) رواه أبو داود (١/ ٢٣٨)، والترمذي في «الشمائل»، وقال النووي: «إسناده صحيح».

(٤) رواه البخاري (٧/ ١٢٧ ـ فتح)، ومسلم (٦/ ٨٥ ـ نووي).

(٥) رواه البخاري في «الصلاة»، ومسلم في (كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر).

وعن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: «أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أُتِيَ بطعام، وكان صائمًا، فقال: قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه وهو خير مني فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بُردة، إن غطي بها رأسه، بدت رجلاه، وإن غُطي بها رجلاه، بدت رأسه، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط (أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا) قد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام»[1].

* * *

(٥) رواه البخاري (٣/ ١٤١ ـ فتح).

الصفة الخامسة
التوسط في الإنفاق

يقول تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء علىٰ أهليهم فيقصرون في حقهم، فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا» اهـ[1].

وقال يزيد بن أبي حبيب في هذه الآية: «أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعامًا للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثيابًا للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم علىٰ عبادة ربهم، ومن اللباس ما يستر عورتهم ويكفهم من البرد والحر». اهـ[2].

وقال عمر لابنه عاصم: «يا بني! كل في نصف بطنك، ولا تطرح ثوبًا حتىٰ تستخلقه، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله في بطونهم وعلىٰ ظُهورهم»[3] اهـ.

وقد قيل:

إذا أنت قد أعطيتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ ... وفَرْجَكَ نالا مُنْتَهى الذَّمِّ أجمعا

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٢٥).
(٢) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٧٣).
(٣) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٧٤).

وقيل أيضًا:

إذا المَرْءُ أعطى نفسَهُ ما اشْتَهَتْ ... ولم يَنْهَها تاقَتْ إلى كُلِّ باطِلِ

وساقَتْ إليه الإثْمَ والعارَ بالذي ... دَعَتْهُ إليه مِن حلاةِ عاجلِ

فضل الإنفاق وذم البخل:

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال تعالى: ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ**﴾ [الليل: ٨-١١].

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [التغابن: ١٦].

عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»(١).

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟**» **قالوا: يا رسول الله! ما منَّا أحد إلا ماله أحب إليه: قال: «فإن ماله ما قدَّم، ومال وارثه ما أخَّر»**(٢).

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلاَّ سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما**

(١) رواه البخاري (١/ ١٦٥ - فتح)، ومسلم (٦/ ٩٨ - نووي).
(٢) رواه البخاري (١١/ ٢٦٠ - فتح).

قـدم، وينظر أشـأم منه؛ فلا يرى إلا مـا قـدم، وينظر بين يديه، فـلا يرى إلا النار تلقاء وجهه؛ فاتقوا النار ولو بشق تمرة»[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فـيه؛ إلا وملكان ينزلان، فيقـول أحدهما: اللهم أعط منفقًـا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تَلَفًا»[٢] .

وعنه أيضًـا: أن رسـول الله ﷺ قـال: «قـال تـعـالى: أنفق يا ابـن آدم ينفق عليك»[٣] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام، على من عرفت ومن لم تعرف»[٤] .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم! إنك إن تبذل الفـضل خيـر لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كـفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»[٥] .

وعن أنس رضي الله عنه قـال: «مـا سئل رسـول الله ﷺ عن الإسـلام شيـئًا إلاَّ أعطاه، ولقـد جاءه رجل فأعطاه غنـمًا بين جبلين، فـرجع إلى قومـه فقـال: يا قوم! أسلموا؛ فإن محمداً يعطي عطاءَ من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليُسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيراً حتي يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»[٦] .

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٤٤٨ ـ فتح)، ومسلم (٧/ ١٠١ ـ نووي).
(٢) رواه البخاري (٣/ ٣٠٤ ـ فتح) ومسلم (٧/ ٩٥ ـ نووي).
(٣) رواه البخاري (١١/ ٣٥٢ ـ فتح)، ومسلم (٧/ ٧٩ ـ نووي).
(٤) رواه: البخاري (١/ ٥٥ ـ فتح) ومسلم (٢/ ٩ ـ نووي).
(٥) رواه مسلم (٧/ ١٢٦ ـ نووي).
(٦) رواه مسلم (١٥/ ٧٢ ـ نووي).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عزّ وجلّ**»(١).

وعن عمرو بن سعد الأنماري رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثًا فاحفظوه، ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد ظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزًا، ولا فتح عبد باب مسألة إلاّ فتح الله عليه باب فقر، وأحدثكم حديثًا فاحفظوه: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلمًا، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًا؛ فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النيَّة، يقول: لو أن لي مالاً، لعملت بعمل فلان، فهو نيته، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً، ولم يرزقه علمًا، فهو يتخبط في ماله بغير علم، ولا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا؛ فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً وعلمًا، فهو يقول: لو أن لي مالاً، لعملت فيه بعمل فلان؛ فهو نيته، فوزرهما سواء**»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها: أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟**» فقالت: «**ما بقى منها إلا كتفها. قال: «بقي كلها غير كتفها**»(٣).

ومعنى الحديث: أنهم تصدقوا بالشاة إلا كتفها، فبين النبي ﷺ أن الذي تصدقوا به هو الباقي في الآخرة، وأن الجزء الذي أكلوه (كتفها) هو الفاني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق**

---

(١) رواه مسلم (١٦/ ١٤١ ـ نووي).
(٢) رواه الترمذي، وقال: «حسن صحيح».
(٣) رواه الترمذي، وقال: «حسن صحيح».

بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه،[١] حتى تكون مثل الجبل»[٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «بينما رجل يمشي بفلاة[٣] ، من الأرض، فسمع صوتًا في سحابة، اسق حديقة فلان! فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة[٤] ، فإذا شرجة[٥] من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء؛ فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: ما اسمك يا عبد الله؟ فقال: لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان؛ لاسمك؛ فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذا قلت هذا فإني أنظر ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأرد فيها ثلثًا»[٦] .

وعن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك مَن كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[٧] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ عاد بلالاً، فأخرج له صبراً من تمر، فقال: «ما هذا يا بلال؟» قال: ادخرته لك يا رسول الله! قال: «أما تخشى أن يجعل لك بخار من نار جهنم؟! انفق يا بلال، ولا تخشى من ذي العرش إقلالاً»[٨] .

---

(١) (الفلو): المهر.

(٢) رواه البخاري (٣/ ٢٨٧ ـ فتح)، ومسلم في (الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب).

(٣) (الفلاة): الصحراء.

(٤) (الحرة): الأرض الملبسة حجارة سوداء.

(٥) (الشرجة): الفتحة التي تجمع الماء.

(٦) رواه مسلم (١٨/ ١١٤ ـ نووي).

(٧) رواه مسلم (١٦/ ١٣٤ ـ نووي).

(٨) رواه: أبو يعلي، والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» بإسناد حسن، قاله المنذري في «الترغيب» (٢/ ١٨٣).

وعنه أيضًا رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من آتاه الله مالاً، فلم يؤد زكاته، مثل له شجاعًا أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - يعني: بشدقيه ، ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك**»، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾»(١) .

ولقد بيَّن المولى تبارك وتعالى أن الفوز والفلاح في ترك البخل والشح، فقال: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩].

وعنه أيضًا: أن رسول الله ﷺ قال: «**قال تعالى: يا عبدي! أنفق، أنفق عليك**»، وقال: «**يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغض ما بيده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع**»(٢) .

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**شر ما في الرجل: شح هالع، وجبن خالع**»(٣) .

علاج البخل:

قال بعضهم: «اعلم أن البخل سببه حب المال، ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال، مع طول الأمل، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم، ربما أنه كان لا يبخل بماله، إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب، وإن كان قصير الأمل،

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٦٨ - فتح).
(٢) رواه البخاري (١٣/ ٣٩٣ - فتح)، ومسلم (٧/ ٨٠ - نووي).
(٣) رواه أبو داود (٣/ ١٢) بإسناد حسن.

ولكن إذا كان له أولاد، أقام الولد مقام طول الأمل، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه، فيمسك المال لأجلهم، ولذلك قال النبي ﷺ: «**الولد مبخلة مجبنة محزنة**»[1] فإذا انضاف إلىٰ ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق، قوي البخل لا محالة.

السبب الثاني: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره إذا اقتصر علىٰ ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف، وهو شيخ بلا ولد، ومعه أموال كثيرة، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة، ولا بمداواة نفسه عند المرض، بل صار محبًّا للدنانير، عاشقًا لها، يلتذ بوجودها في يده وبقدرته عليها، فيكنزها تحت الأرض، وهو يعلم أنه يموت، فتضيع، أو يأخذها أعداؤه، ومع هذا، فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة، وهذا مرض للقلب عظيم، عسير العلاج، لا سيما في كبر السن، وهو مرض مزمن، لا يرجىٰ علاجه، فإن الدنانير رسول يبلغ الحاجات، فصارت محبوبة لذلك، لأن الموصل إلىٰ اللذيذ لذيذ، ثم قد تنسىٰ الحاجات، ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه، وهو غاية الضلال، بل من رأىٰ بينه وبين الحجر فرقًا فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة.

فهذه أسباب حب المال، إنما علاج كل علة بمضادة سببها، فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم، وتعالج التفات القلب إلىٰ الولد بأن خالقه خلق معه رزقه، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالاً وحاله أحسن ممن ورث، وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده، ويريد أن

(١) قال في «أسنى المطالب» (٢٦٧): «ضعيف، فيه عطية العوفي، رواه ابن ماجه».

يترك ولده بخير، وينقلب هو إلىٰ شر، وأن ولده إن كان تقيًّا صالحًا فالله كافية، وإن كان فاسقًا فيستعين بماله علىٰ المعصية، وترجع مظلمته إليه، ويعالج أيضًا قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء، وما توعَّد الله به علىٰ البخل من العقاب العظيم.

ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخلاء، ونفرة الطبع عنهم، واستقباحهم له، فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره، ويستثقل كل بخيل من أصحابه، فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه.

فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة، هاجت رغبته في البذل إن كان غافلاً، فإن تحركت الشهوة، فينبغي أن يجيب الخاطر الأول، ولا يتوقف، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه» اهـ[1] باختصار.

*** ذم الإسراف والتبذير:**

كما نهىٰ الله تبارك وتعالىٰ عن البخل والتقتير نهىٰ أيضًا عن الإسراف والتبذير.

ولذلك يقول ربنا عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩].

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى آمرًا بالاقتصاد في العيش، ذامًا للبخل، ناهيًا عن السرف: ﴿**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ**﴾ أي: لا تكن بخيلاً منوعًا لا تعطي أحدًا شيئًا. ﴿**وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**﴾ أي: ولا تسرف

(١) «الإحياء» (١٠/ ١٨٠٥).

في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك وتخرج أكثر من دخلك، ﴿**فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ أي: فتقعد إن بخلت ملومًا يلومك الناس ويذمونك، وإن بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء حتى ضعفت وعجزت عن السير» اهـ[1] باختصار.

ويقول ربنا عز وجلَّ: ﴿**وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا**﴾.

قال ابن مسعود: «التبذير: الإسراف في غير حق».

وقال قتادة: «التبذير: الإسراف في المعصية».

وقال مجاهد: «لو أنفق إنسان ماله كله في الحق، لم يكن مبذرًا، ولو أنفق مدًّا في غير حق كان مبذرًا».

فالإسراف مذموم: سواء كان في المأكل والمشرب أو في اللباس أو في البناء أو في الأثاث أو في الكلام أو في الصمت أو في السهر أو في النوم أو في الجوع أو في الشبع أو في غيرها من الأمور.

وسنتناول نوعًا واحدًا من أنواع الإسراف بالشرح والتفصيل وهو:

الإسراف في الطعام:

يقول تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾.

ويقول النبي ﷺ: «**ما ملأ آدمي وعاء شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لُقَيماتٌ يُقِمْنَ صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»[2].

فالمؤمن يأكل في ثلث بطنه، ويترك الباقي للشرب والنفس، ثم إن المؤمن

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧).

(٢) رواه أحمد وأهل السنن، وقال الترمذي «حديث حسن»، وابن ماجه (٢/ ١١١١).

قنوع، يتقوَّت بأقل الأشياء، فهو يختلف عن الكافر الذي يأكل ولا يشبع، ويأخذ ولا يقنع.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: أضاف رسول الله ﷺ ضيفًا كافرًا، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة، فحلبت، فشرب حلابها، ثم أخرىٰ، فشرب حلابها، ثم أخرىٰ، فشرب حلابها، حتىٰ شرب سبع شياه، ثم إنه أصبح فأسلم، فأمر له رسول الله ﷺ بشاة، فشرب حلابها، ثم أمر له بأخرىٰ، فلم يستتمه، فقال رسول الله ﷺ: **«إن المؤمن ليشرب في معيٍّ واحد والكافر يشرب في سبعة أمعاء»**[1].

وليس هذا خاصًّا بالشرب، بل هو عام في الأكل كله، ولذلك يقول النبي ﷺ: **«المسلم يأكل في معيٍّ واحد، والكافر في سبعة أمعاء»**[2].

فينبغي علىٰ المسلم ألا يشبع في الدنيا، لأنها ليست داره، ولا مستقره، وليؤخر اللذائذ والمتع للآخرة حيث جنة عرضها السماوات والأرض، أعدها الله نزلاً لعباده المتَّقين.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أهل الشبع في الدنيا هم أهل الجوع غدًا في الآخرة»**[3].

ولقد وضع لنا النبي ﷺ قاعدة نسير عليها في أمور حياتنا، فقال: **«كلوا، واشربوا، وتصدقوا؛ ما لم يخالطه إسراف ولا مخيلة»**[4].

وقال عمر بن الخطاب: **«إياكم والبطنة، فإنها ثقل في الحياة نتن في الممات»**.

---

(١) رواه مسلم (١٤/ ٢٥ - نووي).

(٢) رواه البخاري (٩/ ٥٣٦ - فتح)، ومسلم (٤/ ٢٤ - نووي).

(٣) رواه الطبراني بإسناد حسن، قاله المنذري في «الترغيب» (٤/ ١٩٩).

(٤) رواه النسائي، وابن ماجه (٢/ ١١٩٢)، وهو حديث حسن.

وقال لقمان لأبنه: «**يا بني! إذا امتلأت المعدة، نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة**».

وقال أبو سليمان الداراني: «**من شبع، دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة المناجاة، وتعذَّر عليه حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق؛ لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع، وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وإن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد والشباع يدورون حول المزابل**».

وقال نافع: «جاء رجل بجوارش إلىٰ ابن عمر رضي الله عنه، فقال: ما هذا؟ قال: شيء يهضم به الطعام. قال: ما أصنع به؟! إنه ليأتي عليَّ الشهر ما أشبع فيه من الطعام».

وقال محمد بن واسع: «من قلَّ طعامه، فهم وأفهم، وإن كثرة الطعام ليثقل صاحبه عن كثير مما يريد».

وقال أبو عبيدة الخواص: «حتفك في شبعك، وحفظك في جوعك، إذا أنت شبعت ثقلت، فنمت؛ استمكن منك العدو، فجثم عليك».

وقال عمرو بن قيس: «إياكم والبطنة؛ فإنها تقسِّي القلب».

وقال الحسن: «كانت بلية أبيكم آدم عليه السلام أكلة، وهي بليتكم إلىٰ يوم القيامة».

وقد قيل: «إذا أردت أن يصحَّ جسمك ويقل نومك، فأقلل من الأكل».

وقال بشر: «ما ينبغي للرجل أن يشبع اليوم من الحلال؛ لأنه إذا شبع من الحلال دعته نفسه إلىٰ الحرام».

وقال إبراهيم بن أدهم: «من ضبط بطنه، ضبط دينه، ومن ملك جوعه، ملك الأخلاق الصالحة، وإن معصية الله بعيدة من الجائع قريبة من الشبعان،

والشبع يميت القلب، ومنه يكون الفرح والمرح والضحك».

وروي: «أن إبليس لعنه الله قال ليحيىٰ عليه السلام: ربما شبعت فأثقلناك عن الصلاة. فقال: يحيىٰ: لله عليَّ ألاَّ أشبع أبدًا، فقال إبليس عليه لعنة الله: ولله عليَّ ألاَّ أنصح مسلمًا أبدًا».

وقال الشافعي: «الشبع يستثقل البدن، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة».

فمن الواجب علىٰ المسلم أن يكون في كل أموره وسطًا بين الإسراف والتبذير، والبخل والتقتير. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولننتقل إلىٰ الصفة السادسة من صفات عباد الرحمن.

❊ ❊ ❊

الصفة السادسة

إخلاص العبودية لله وحده

يقول الله تعالىٰ : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ .

فعباد الرحمن يخلصون العبادة لله وحده، ولا يصرفون شيئًا منها لغيره، سواء كان ملكًا مقربًا، أو نبيًّا مرسلاً، أو عبدًا صالحًا .

ولكن ما العبادة؟

يقول ابن تيمية رحمه الله : «**العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة**».

ولقد قسم العلماء العبادات إلىٰ أربعة أقسام .

١ ـ **القسم الأول:** العبادات البدنية : كالصلاة، والصيام، والركوع، والسجود، والاعتكاف، والحج، والطواف .

٢ ـ **القسم الثاني:** العبادات المالية، كالزكاة، والصدقة، والذبح، والنذر .

٣ ـ **القسم الثالث:** العبادات القلبية : كالخشوع، والخضوع، والذل، والانكسار، والإخبات، والمحبة، والتوكل، والإنابة، والاستعانة، والخوف، والرجاء، والتعظيم .

٤ ـ **القسم الرابع:** العبادات القولية : كالحلف، والاستغاثة، والاستعاذة، والدعاء، وتلاوة القرآن .

أولاً العبادات البدنية:

* الصلاة:

يجب أن تكون خالصة لله عزَّ وجلَّ، لقوله تعالىٰ: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

ويدخل في هذا تحريم بناء المساجد علىٰ القبور أو الصلاة في المسجد المقبور فيه.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد» قالت عائشة، فلولا ذاك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا**»[(١)] .

ولقد جاء النهي الصريح من رسول الله ﷺ عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد.

فعن جندب بن عبد الله البجلي: أنه سمع النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «**قد كان لي فيكم إخوة وأصدقاء، وإني أبرأ إلى الله أن يكون لي فيكم خليل، وإن الله عزَّ وجلَّ قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»[(٢)] .

ولقد سمىٰ النبي ﷺ من يتخذ القبور مساجد شرار الخلق.

---

(١) رواه: البخاري (٣/ ٢٥٥-فتح)، ومسلم (٥/ ١٢-نووي).

(٢) رواه مسلم (٥/ ١٣-نووي).

فعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن من شرار الخلق من تدركه الساعة وهم أحياء، ومن يتخذ القبور مساجد**»[١].

ولذلك قال العلماء بتحريم الصلاة في المساجد التي بها القبور.

يقول صاحب كتاب «الزواجر»: «قال بعض الحنابلة: قصد الرجل الصلاة عند القبر متبركًا به عين المحادة لله ورسوله، وابتداع دين لم يأذن به الله؛ للنهي عنها ثم إجماعاً، فإن أعظم المحرمات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد أو بناؤها عليها، ويجب المبادرة لهدمها وهدم القباب التي على القبور، إذ هي أضر من مسجد الضرار، لأنها أسست على معصية رسول الله ﷺ، لأنه نهى عن ذلك، وأمر بهدم القبور المشرفة»[٢].

وقال القرطبي في «تفسيره»: «قال علماؤنا: يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد»[٣].

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هل تصح الصلاة في المسجد إذا كان فيه قبر والناس تجتمع فيه لصلاتي الجماعة والجمعة أم لا؟ وهل يمهد القبر أو يعمل عليه حاجز أو حائط؟

فأجاب: (الحمد لله، اتفق الأئمة أنه لا يبنى مسجد على قبر، لأن النبي ﷺ قال: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**».

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن، قاله الهيثمي، في «المجمع» (٢/ ٧٢)، وحسنه الألباني في «تحذير الساجد».

(٢) نقلاً عن «تحذير الساجد» (٥٠).

(٣) نقلاً عن «تحذير الساجد» (٥٨).

وأنه لا يجوز دفن ميت في مسجد، فإن كان المسجد قبل الدفن؛ غُيِّر إما بتسوية القبر، وإما بنبشه إن كان جديداً، وإن كان المسجد بني بعد القبر؛ فإما أن يزال المسجد، وأما أن تزال صورة القبر؛ فالمسجد الذي على القبر لا يصلى فيه فرض ولا نفل؛ فإنه منهي عنه) اهـ[١] .

ويدخل في هذا أيضًا: النهي عن الصلاة في الأوقات الثلاثة[٢]: وقت طلوع الشمس، ووقت غروبها، ووقت استوائها في وسط السماء.

فعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه، قال: قلت: يا نبي الله! أخبرني عن الصلاة. قال: «صلِّ صلاة الصبح، ثم أقصر[٣]، عن الصلاة حتى تطلع الشمس وترتفع؛ فإنها تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صلِّ؛ فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة؛ فإنه حينئذ تسجر[٤] جهنم، فإذا أقبل الفيء؛ فصلِّ فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلي العصر، ثم أقصر الصلاة حتى تغرب الشمس، فإنها تغرب بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار»[٥] .

* **الصيام:**

والصيام عبادة بدنية، يجب أن يصرف لله وحده، ولا يصرف منها شيء لغير الله، كبعض الصوفية الذين يأمرهم مشايخهم بالامتناع عن الطعام عدة أيام فيطيعونهم، أو يأمرونهم بأكل الخبز والملح لمدة أربعين يومًا، أو غير ذلك، فيمتنعون؛ إرضاءً لمشايخهم، وتلبية لأمرهم، وتعظيمًا لشأنهم.

---

(١) نقلاً عن «تحذير الساجد» (٦٤).

(٢) راجع «فقه السنة» (١/ ٩١).

(٣) (أقصر): كف.

(٤) (تسجر): يوقد عليها.

(٥) رواه مسلم.

* الركوع:

هو الانحناء بنية التعظيم، وهو من العبادات التي يجب أن تكون لله وحده، فمن حنىٰ ظهره لملك أو لرئيس أو لوزير أو لقائد أو غير ذلك بنية تعظيمه، فهذا ركوع لغير الله، ولا يجوز، وهذا للأسف منتشر في الدوائر الحكومية في بعض البلدان.

فيجب أن يعلم هؤلاء أن هذا حق خالص لله، ولا يجوز لغيره.

قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

* السجود:

وهو وضع الجبهة علىٰ الأرض بنية تعظيم المسجود له، وإذا أردت أن ترىٰ من يسجد لغير الله ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام، فاذهب إلىٰ أي ضريح من الأضرحة المعظمة، فستجد كثيراً من الجهلة يسجدون ويقبلون الأعتاب، ويبكون عليها، ويضعون خدودهم علىٰ حديد القبر؛ مستجيرين بصاحب القبر، هذا هو عين الشرك الأكبر الجلي، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فنسأل الله لنا ولهم الهداية.

* الاعتكاف:

وهو لزوم الشيء والانقطاع له، ولو مدة يسيرة، وهذا أيضًا عبادة يجب أن تكون لله، وفي مسجد من مساجد الله، وبنية التقرب إلىٰ الله.

ولكنك ترىٰ من يقطع نفسه شهراً أو سنة لخدمة قبر ولي يجمع له النذور ويكنس حوله ويرش الماء وغير ذلك، ويظن أنه مقيم علىٰ طاعة وهو في الحقيقة عاص لله، مُعين علىٰ معصية الله.

وترىٰ أيضًا من يقطع نفسه أسبوعًا في مولد البدوي أو الدسوقي أو الحسين أو غيرها من الموالد المبتدعة؛ يطعم الناس ويسقيهم خدمة للبدوي وتبركًا به، فهذا العمل وأشباهه لا يجوز.

*** الحج:**

وهو قصد مكة لأداء مناسك الحج بقصد التقرب إلىٰ الله.

ولكنك ترىٰ كثيرًا من جهلة المتصوفة يقصدون قبور الأولياء والصالحين كل عام، ويطوفون حولها، ويعظمون من شأنها، بل ويفترون علىٰ الله الكذب، ويقولون: «من زار قبر ولي سبع مرات، كتبت له حجة مبرورة» سبحانك هذا بهتان عظيم!.

*** الطواف:**

وهو عبادة يجب أن تكون لله وحده، وحول كعبة الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

ثانيًا العبادات المالية:

*** الزكاة والصدقة:**

هذه عبادة يجب أن تكون خالصة لله عزَّ وجلَّ، منزهة عن الشرك.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

قال سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

*** الذبح:**

كغيره من العبادات يجب أن يكون لله وحده، فالذبح للأولياء والصالحين شرك ولا يجوز، وكذلك الذبح للجن؛ فمن الناس من يذهب بالمريض إلىٰ

دجال أو ساحر، فيطلب الساحر منه دجاجة بيضاء خالصة، أو حمامة سوداء بهيمية، أو غير ذلك، ثم يذبحها بدون أن يذكر الله، ثم يأمره بأن يرميها في بئر أو عين أو نهر أو في مكان خرب، ويأمره ألا يذكر اسم الله عند الرمي، وهذا واضح؛ لأنه لو ذكر عند الذبح أو عند الرمي، لا تستطيع الشياطين أن تأكل منه.

ولاحظ أن هذه الأماكن مأوى الشياطين، فهذا الذبح لا يجوز، وهو شرك؛ لأنه ذبح لغير الله، وفاعله ملعون، لقول النبي ﷺ: «**لعن الله من ذبح لغير الله**»[1].

وقد أمر الله بإخلاص الذبح له وحده، فقال: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وروى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «**دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرِّب. فقال: ليس عندي شيء أقرِّب. قالوا قرب ولو ذبابًا، فقرب ذبابًا، فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرِّب. فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا من دون الله عزَّ وجلَّ فضربوا عنقه، فدخل الجنة**».

* النذر:

يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ**﴾ [البقرة: ٢٧٠]

---

(١) رواه مسلم.

وقال سبحانه عن المؤمنين: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان: ٧]

وأخبر سبحانه عن أم مريم أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

فلا يجوز النذر لغير الله، سواء كان نبيًّا مرسلاً، أو ملكًا مقربًا، أو وليًّا صالحًا، ومن نذر لغير الله، لا يجب عليه الوفاء، بل يجب عليه أن يتوب ويستغفر ويرجع إلى الله.

فعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[1].

وهذا نذر معصية؛ فلا يجوز الوفاء به.

ثالثًا العبادات القلبية:

* الخشوع والخضوع:

وهما من العبادات القلبية التي يجب ألا تصرف إلا لله.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [الأنعام: ٤٤].

قال ابن منظور: «(خشع): رمى بصره نحو الأرض، وغضَّه، وخفض صوته، والخضوع: هو التواضع والتطامن، وقيل: الخشوع قريب من الخضوع، إلا أن الخضوع في البدن، والخشوع في البدن والصوت»[2] اهـ.

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٥٨١ - فتح)، وأبو داود (٣/ ٢٣٢)، والترمذي (٣/ ١٤)، والنسائي (٧/ ١٧)، وابن ماجه (١/ ٦٨٧) والدارمي (٢/ ١٨٤)، ومالك (٢/ ٤٧٦).

(٢) «اللسان» (٢/ ١١٦٥، ١١٨٧).

*** الذل والانكسار:**

اعلم أخي المسلم أن الذل لله عزة، والتواضع لله رفعة، واعلم ان شرف المؤمن قيام الليل، وعزّه استغناؤه عن الناس، فلتكن بما في يد الله أوثق مما في يدك، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فلا تذل نفسك إلا لله، ولا تحني جبهتك لسواه.

*** الإخبات:**

قال في «اللسان»: «(أخبت إلى ربه)، أي: اطمأن إليه»[١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود: ٢٣].

وقال أيضًا: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

وقال أيضًا: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

*** المحبة:**

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يذكر الله تعالى حال المشركين به في الدنيا وحالهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أندادًا، أي: أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كمحبة الله، وهو الله لا إله إلاَّ هو، ولا ضد له، ولا ندّ، ولا شريك معه.

---

(١) «اللسان»: (٢/١٠٨٧).

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ولحبهم له وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئًا، بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه» [(١)] اهـ.

ويقول الشيخ حافظ حكمي عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]: «أخبرنا الله عزَّ وجلَّ أن عباده المؤمنين أشد حبًّا له، وذلك؛ لأنهم لم يشركوا معه في محبته أحدًا كما فعل مدَّعو محبته من المشركين، الذين اتخذوا من دونه أندادًا يحبونهم كحبه، وعلامة حب العبد ربه: تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، واتباع رسوله، واقتفاء أثره، وقبول هداه.

وكل هذه العلامات شروط في المحبة، لا يتصور وجود المحبة مع عدم شرط منها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[الفرقان: ٤٣].

فكل من عبد مع الله غيره؛ فهو في الحقيقة عبد لهواه» اهـ[(٢)].

* علامات المحبة:

ولقد ذكر الله علامات من يحبهم ويحبونه في كتابه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٠٢).

(٢) «معارج القبول» (١/ ٣١٣).

أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فقد ذكر لهم أربع علامات:

الأولى: أذلة على المؤمنين أي: رحماء بهم مشفقين عليهم.

الثانية: أعزة على الكافرين أي: أشداء عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال واليد واللسان.

الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، وذلك؛ لأن محب الله تبارك وتعالى لابدَّ أن يلاقي اللوم، بل والاستهزاء والسخرية، فمن ذاق محبة الله عزَّ وجلَّ، فلا يتأثر بذلك أو يتراجع عن الحق الذي هو متمسك به من أجل لوم اللائمين أو استهزاء المستهزئينَ، وعليه أن يثبت على الحق، ولا يستوحش من قلة السالكين، ولا يغتر بكثرة الهالكين.

*** ما هي المحبة؟**

اعلم أخي المسلم أن المحبة لا توصف، وإنما يعلم حقيقتها مَنْ ذاقها، وشعر بحلاوتها، فأنس بقرب ربه، فصفى قلبه، وزكت نفسه.

*** الأسباب الجالبة لمحبة الله:**

١ ـ قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

٢ ـ التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض

٣ ـ دوام ذكره على كل حال بالقلب واللسان والعمل

٤ ـ إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

٥ ـ مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفة آثارها وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

٦ ـ مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

٧ ـ انكسار القلب بين يديه

٨ ـ الخلوة وقت النزول الإلهي[1] وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

٩ ـ مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيداً لحالك ومنفعة لغيرك.

١٠ ـ مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عزَّ وجلَّ.

* أقسام المحبة:

تنقسم المحبة إلىٰ خمسة أنواع:

القسم الأول: محبة الله:

وليس هناك طريق إلىٰ محبة الله إلا إتباع رسوله ﷺ:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١ـ٣٢].

وإنك لتجد كثيراً ممن يدعي محبة الله ثم لا يعمل بما يحبه ربنا ويرضاه، بل

(١) راجع كتاب «شرح حديث النزول» لابن تيمية.

تجده يحاد الله ويعصيه، وهذا الصنف من الناس يوبخهم الشافعي رحمه الله بقوله:

تعصي الإلهَ وأنتَ تُظهر حُبَّهُ ... هذا محالٌ في القياس بَديعُ
لو كانَ حُبُّكَ صادقًا لأطَعْتَهُ ... إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحبُّ مطيعُ[1]

* شروط محبة الله:

١ ـ طاعة أوامر الله.

٢ ـ الانتهاء عن نواهيه.

٣ ـ تصديق ما أخبر به الله. قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٩٥]

٤ ـ حب ما يحب الله.

٥ ـ بغض ما يبغض الله: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٦ ـ موالاة أولياء الله:

والولي هو من اتصف بصفتي الإيمان والتقوىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣].

٧ ـ معاداة أعداء الله:

قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) «ديوان الشافعي» (ص٥٨).

٨ ـ العمل بكتاب الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

القسم الثاني: محبة النبي ﷺ:

وهذه المحبة واجبة، تابعة لمحبة الله، لازمة لها، فإنها محبة لله ولأجله، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن، وتنقص بنقصها.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»(١).

وعنه أيضًا: أن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(٢).

* شروط محبة النبي ﷺ:

١ ـ طاعة ما به أمر: قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

٢ ـ الانتهاء عما عنه نهى وزجر: قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

٣ ـ تصديق ما به أخبر، وهذا من تمام الإيمان به ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٦٠ ـ فتح)، ومسلم (٢/ ١٣ ـ نووي).
(٢) رواه البخاري (١/ ٥٨ ـ فتح)، ومسلم (٢/ ١٥).

٤ ـ **التشبه به ﷺ ظاهرًا وباطنًا**، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٥ ـ **الصلاة عليه عند ذكره ﷺ**: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

القسم الثالث: محبة في الله:

وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم من المؤمنين الصادقين، ومحبة ما يحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة، وهذه تابعة لمحبة الله، بل هي من مستلزمات الإيمان.

فعن أبي أمامة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان**»[١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**من أحب أن يجد طعم الإيمان؛ فليحب المرء لا يحبُّه إلا لله**»[٢].

وعن البراء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الأنصار: لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم، أحبه الله، ومن أبغضهم؛ أبغضه الله**»[٣].

القسم الرابع: محبة مع الله:

وهي محبة الشركية: قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٦].

---

(١) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٨٤١).

(٢) رواه أحمد والبزار، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٨٣٤).

(٣) رواه البخاري (٧/ ١١٣ ـ فتح)، ومسلم (٢/ ٦٣ ـ نووي).

ومن هنا يتبين ضلال أولئك الذين يتمسحون بقبور الصالحين ويخرون على أعتابهم بحجْة أنهم يحبونهم؛ فهذا حب شركي.

القسم الخامس: المحبة الطبيعية:

كمحبة الأهل والولد وغيرها من الأشياء التي فطر الإنسان على حبها: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

وهذه محبة مباحة، ولكن إذا أعانت على طاعة؛ صارت طاعة في نفسها، وإذا أعانت على معصية، صارت معصية، وإلا ظلت على الإباحة.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤].

*** ومن العبادات القلبية أيضًا التوكل:**

التوكل: هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، وهذا لا ينافي الأخذ بالأسباب؛ لأن ترك الأسباب قدح في التشريع، والاعتقاد في الأسباب قدح في التوحيد.

قال تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

وفي هذه الآية يقول ابن القيم: «فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلما قوي إيمان العبد؛ كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان؛ ضعف التوكل، وإذا كان التوكُّل ضعيفًا، كان دليلاً على ضعف الإيمان ولا بدَّ.

والله يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل

والتقوىٰ، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا علىٰ البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا علىٰ ساق التوكل» اهـ[1].

*** الإنابة:**

وهي التوبة النصوح، والرجوع إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ.

قال سبحانه: ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ**﴾ [الزمر: ٥٤].

وقال: ﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ**﴾ [الزمر: ١٧].

***الإستعانة:**

قال تعالىٰ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥].

وقال ﷺ: «**إذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله**»[2].

*** الخوف:**

قال تبارك وتعالىٰ: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال تعالىٰ: ﴿**وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء علي الفرشات، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون**»[1].

---

(١) راجع «فتح المجيد» (ص٣٥٣).

(٢) رواه الترمذي، وقال: «حسن صحيح».

(٣) رواه الترمذي وحسنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم (٦٠٩٨).

وقال أيضًا: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»[١].

أقسام الخوف:

الخوف قسمان:

١ ـ خوف فطري:

كالخوف من حيوان مفترس: أو عدو، أو نار، أو ظالم، أو غيرها من الأمور التي فطر الإنسان على الخوف منها.

وهذا الخوف لا ينافي التوحيد، ولا يقدح في الإيمان، بل قد وقع للأنبياء والرسل.

قال تعالى عن موسى وهارون: ﴿**قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾ [طه: ٤٥-٤٦].

وهذا الخوف إن انعقدت أسبابه، فليس بمذموم، وإن كان بلا سبب، أو له سبب ضعيف، فهو مذموم، ويسمى جبنًا، والجبن من الأخلاق الرذيلة التي تعوّذ منها النبي ﷺ.

٢ ـ خوف تعبدي:

وهو خوف التأله والتقرب.

وهو حق خالص لله تبارك وتعالى، فلا يجوز صرفه لغير الله ومن صرفه لغير الله، فقد وقع في الشرك الأكبر المخرج عن الملة.

كمن يخشى صاحب قبر أن يصيبه بضرر أو يوقع به مكروهًا في نفسه

---

(١) رواه الترمذي وحسنه.

أو أهله أو ماله .

قال تعالى : ﴿ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

وقال سبحانه : ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[التوبة : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

أي : لا بدَّ من الخوف والرجاء في العبادة ، ومن هنا يتضح ضلال من زعم أنه لا يعبد الله خوفًا من ناره ولا طمعًا في جنته .

الفرق بين الخوف الفطري والتعبدي:

ولكن كيف نفرق بين هذين الخوفين؟

الفرق بينهما واضح جليّ :

فالخوف الفطري : خوف مع الكراهة .

والخوف التعبدي : خوف مع الحب .

فالذي يخاف من الأسد أو العدو يكرهه ، ولكن الذي يخاف من الله يحبه ، وكذلك المشرك الذي يخاف من قبر ولي أو صالح يحبه .

فاقتران الخوف بالحب هو العبادة بعينها .

* الرجاء:

وهو من العبادات التي يجب أن تصرف لله وحده :

قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠].

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : ٧-٨] .

رابعًا: العبادات القولية:

* الحلف:

وهو ينقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: الحلف بالله:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾.

ويكون بأسمائه أو بصفة من صفاته تبارك وتعالىٰ.

وينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام.

يمين لغو: وهو الذي يجري علىٰ اللسان دون انعقاد نيّة، ومن رحمة الله تبارك وتعالىٰ أنه لا يؤاخذنا به.

قال تعالىٰ: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

ولكن علىٰ المسلم أن يحفظ لسانه من الإكثار من الحلف.

قال تعالىٰ: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾

يمين كفارة: وهو الحلف علىٰ شيء في المستقبل، ثم لم يتمكن من الوفاء به، أو رأىٰ غيره عند الله أفضل منه فكفارته هكذا علىٰ الترتيب:

١ ـ إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة.

٢ ـ صيام ثلاثة أيام.

قال تعالىٰ: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

يمين غموس: وهو الحلف الكذب على شيء في الماضي، وسمي غموساً؛ لأنه يغمس صاحبه في جهنم.

وليست له كفارة إلا التوبة النصوح بشروطها وهي:

١ - إرجاع الحق إلى صاحبه.

٢ - استسماح صاحب الحق.

٣ - الندم على ما وقع منه.

٤ - العزم على عدم العودة.

ويقول النبي ﷺ عن اليمين الغموس: «**من حلف على يمين صبر** [1] **يقتطع بها مال امرىء مسلم وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان** [2]».

ولقد عدَّ النبي ﷺ اليمين الغموس من الكبائر، فقال: «**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**»[3].

ويكون الإثم أعظم والجرم أكبر إذا كان اليمين عند منبر رسول الله ﷺ.

فعن جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**من حلف على يمين آثمة عند منبري هذا فليتبوأ مقعده من النار، ولو على سواك أخضر**»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يحلف عند هذا المنبر عبد ولا أمة، على يمين آثمة ولو على سواك رطب، إلا وجبت له النار**»[5].

---

(١) (صبر). أي: جرأة وإقداماً.

(٢) رواه: البخاري (٨/ ٢١٢ - فتح)، ومسلم (٢/ ١٥٨ - نووي).

(٣) رواه البخاري (١١/ ٥٥٥ - فتح).

(٤) رواه: ابن ماجه (٢/ ٧٧٩)، والحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٠٨١).

(٥) رواه ابن ماجه (٢/ ٧٧٩)، ونقل محققه عن البوصيري في «الزوائد»: أنه قال: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات».

القسم الثاني: الحلف بغير الله تعالى:

كالحلف بالآباء والأمهات والأبناء والأمانة وغيرها من مخلوقات الله عزَّ وجلَّ، وهو شرك أصغر، يجب على المسلم أن يتحرز منه.

ومنه أيضًا: الحلف بالشرف، والنبي، وحياة فلان:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «**من حلف بغير الله، فقد أشرك**»(١).

وعنه أيضًا: أن النبي ﷺ قال: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»(٢).

وعن بريدة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**من حلف بالأمانة؛ فليس منا**»(٣).

وقد كان أناس يحلفون بالكعبة على زمن النبي ﷺ فقال: «**من حلف فليحلف برب الكعبة**»(٤).

كفارة الحلف بغير الله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**من حلف منكم، فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله**»(١).

تنبيه:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يحلف بأبيه،

---

(١) رواه أحمد والترمذي، وحسنه الحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٠٨٠).

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود (٣/ ٢٢٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٠٧٩).

(٤) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٠٩٠).

(٥) رواه البخاري.

فقال: «**لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله، فليَصدُق، ومن حُلف له بالله، فليرضى، ومن لم يرض بالله، فليس من الله**»(١).

*** الاستغاثة:**

وهي من العبادات التي يجب أن تصرف لله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**﴾ [الأنفال: ٩].

فلا يجوز للمسلم أن يستغيث بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله كقول بعضهم: يا بدوي! أدركني، يا حُسين! أنا في كنفك، يا جيلاني! نظرة ومدد... إلخ.

كل هذا شرك بالله العظيم.

*** الاستعاذة:**

قال تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾ [الفلق: ١].

وقال: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾ [الناس: ١].

*** الدعاء:**

قال تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ [غافر: ٦٠].

وقال النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»(٢).

ومن هنا يتبيَّن لنا أن عباد الرحمن لا يخشون إلاَّ الله، ولا يخضعون إلاَّ لله، ولا يذلون إلاَّ لله، ولا يرجون إلاَّ الله، ولا يتوكلونَ إلاَّ على الله، ولا

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ٦٧٩)، وقال الحافظ في «الفتح» (١١/ ٥٣٦): «إسناده حسن».

(٢) رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٤٠١).

يستعينون إلاَّ بالله، ولا ينيبون إلاَّ إلى الله، ولا ينكسرون إلاَّ الله، ولا يستغيثون إلاَّ بالله، ولا يستعيذون إلاَّ بالله، ولا يدعون إلاَّ الله، ولا يحلفونَ إلاَّ بالله، ولا يذبحون إلاَّ لله، ولا ينذرون إلاَّ لله، ولا يطوفونَ إلاَّ ببيت الله، ويؤمنونَ بأن النافع هو الله، والضار هو الله، والرازق هو الله، والمحيي والمميت هو الله، ويراقبون الله في حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه.

فاللهم اجعلنا منهم بكرمك يا أرحم الراحمين.

* * *

الصفة السابعة
مجانبة القتل

﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾

يقول القرطبي: ﴿إلا بالحق﴾ أي: يحق أن تقتل به النفوس: من كفر بعد إيمان، أو زنئ بعد إحصان. أهـ[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلاَّ الله وأني رسول الله إلاَّ بإحدىٰ ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة[٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث؛ فليس لأحد من من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلىٰ الإمام أو نائبه» اهـ[٣].

*** الترهيب في قتل المسلم:**

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضىٰ بين الناس يوم القيامة في الدماء»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٧٦).
(٢) متفق عليه.
(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٣٤).
(٤) رواه البخاري ومسلم.

الموبقات»[١] قيل: يا رسول الله! وما هنَّ؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلاَّ بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الرِّبا، والتولِّي يوم الزحف**[٢]**، وقذف المحصَنات الغافلات**[٣] **المؤمنات**»[٤] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا**».

وقال ابن عمر: «إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله»[٥] .

واعلم - أرشدك الله إلى طاعته - أن قتل الرجل المؤمن بغير حق عند الله عزَّ وجلَّ أمر عظيم وجرم كبير.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم**»[٦] .

وعن البراء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق**»[٧] .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن، لكبَّهم الله عزَّ وجلَّ في النار**»[٨] .

---

(١) (الموبقات): المهلكات.

(٢) (التولي يوم الزحف): الفرار من أعداء الله حين يلتحم الجيشان.

(٣) (قذف المحصنات الغافلات): رمي المؤمنة العفيفة الشريفة بالزنى زوراً وبهتانًا.

(٤) رواه البخاري (٥/ ٣٩٣ - فتح) ومسلم (٢/ ٨٢ - نووي)

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه البخاري والنسائي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٩٥٣).

(٧) رواه ابن ماجه (٢/ ٨٧٤) وقال في «الزوائد» «إسناده صحيح»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٥٤).

(٨) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥١٢٣).

ولقد شدَّد النبي ﷺ في الترهيب من قتل المؤمن متعمدًا، فقال: «كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلاَّ من مات مشركًا، أو قتل مؤمنًا متعمدًا»[١] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة، ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دمًا فيقول: يا رب ! سل هذا فيم قتلني؟ حتى يدنيه من العرش**»[٢] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**يجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: يا رب ! هذا قتلني . فيقول الله له: لم قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزة لك. فيقول: فإنها لي. ويجيء الرجل آخذًا بيد الرجل، فيقول: اي رب! إن هذا قتلني. فيقول الله: لما قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لفلان: فيقول إنها ليست لفلان، فيبوء بإثمه**»[٣] .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**من قتل مؤمنًا فاغتبط[٤] بقتله، لم يقبل الله منه صرفًا[٥] ، ولا عدلاً[٦]** »[٧] .

الترهيب من حضور قتل إنسان ظلمًا:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يقفنَّ أحدكم موقفًا يقتل فيه رجل ظلمًا؛ فإن اللعنة تنزل على من حضر حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفنَّ أحدكم موقفًا يضرب فيه رجلٌ ظلمًا، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه**»[٨] .

---

(١) رواه أبو داود وغيره، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٥١١).
(٢) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» « برقم (٧٨٨٧).
(٣) رواه النسائي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٨٧٨٥).
(٤) (اغتبط): فرح. (٥) (الصرف): النافلة. (٦) (العدل): الفريضة.
(٧) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٣٣٠).
(٨) رواه البيهقي بإسناد حسن. قاله الحافظ المنذري في «الترغيب» (٤/ ٣٣٧).

*** تحريم قتل الذمي المعاهَد:**

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قتل معاهدًا لم يرح**[١] **رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»**[٢].

وعن أبي بكر رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: **«من قتل معاهدًا في غير كُنهه؛ حرَّم الله عليه الجنة»**[٣].

(في غير كنهه) في غير وقته الذي يجوز قتله فيه حين لا عهد له.

وعنه أيضًا: أن النبي ﷺ قال: **«من قتل نفسًا معاهدة بغير حلها؛ حرَّم الله عليه الجنة أن يشم ريحها»**[٤].

*** تحريم قتل الإنسان نفسه:**

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **«من تردَّى**[٥] **من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تحسى**[٦] **سمًا فقتل نفسه، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده، يجأ**[٧] **بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلَّدًا فيها أبدًا»**[٨].

---

(١) (يرح): يشم.

(٢) رواه البخاري (١٢/ ٢٥٩ - فتح).

(٣) رواه أبو داود وغيره، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٣٢٢).

(٤) رواه أحمد والنسائي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٣٣٤).

(٥) (تردَّىٰ): أسقط نفسه.

(٦) (تحسّىٰ): تجرع وشرب.

(٧) (يجأ): يطعن.

(٨) رواه البخاري (١٠/ ٢٥٧ - فتح)، ومسلم (٢/ ١١٨ - نووي).

وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**من حلف على ملة غير الإسلام فهو كما قال وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك، ومن قتل نفسه بشيء في الدنيا، عُذِّب به يوم القيامة، ومن لعن مؤمنًا فهو كقتله، ومن قذف مؤمنًا بكفر، فهو كقتله**»[1] .

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح، فجزع[2] ، فأخذ سكينًا فحزَّ [3]به يده، فما رقأ[4] الدم حتى مات. قال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسه[5] ؛ حرمت عليه الجنة**»[6] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر، فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: «**هذا من أهل النار**» فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله! الذي قلت إنه من أهل النار، فإنه قد قاتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات، فقال رسول الله ﷺ: «**إلى النار**»، فقال: فكاد بعض الناس أن يرتاب؛ فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحًا شديدًا، فلما كان من الليل، لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: «**الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله، ثم أمر بلالاً فنادى في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلاَّ نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[7] .

وعنه أيضًا: أن رسول الله ﷺ قال: «**الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النار، والذي يقتحم يقتحم في النار**»[8] .

(١) رواه البخاري (١٠/ ٤٦٤ ـ فتح) ومسلم (٢/ ١١٩ ـ نووي).
(٢) (فجزع): لم يصبر على ألمه.
(٣) (حزّ): قطع.
(٤) (فما رقأ): لم ينقطع
(٥) (بادرني عبدي بنفسه): استعجل الموت.
(٦) رواه البخاري (٦/ ٤٩٦ ـ فتح) ومسلم (٢/ ١٤٢ ـ نووي).
(٧) رواه البخاري (٦/ ١٧٩ ـ فتح) ومسلم (٢/ ١٢٢ ـ نووي).
(٨) رواه البخاري

الصفة الثامنة

اجتناب الزنى

﴿ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾

فالمؤمن دائمًا حافظ لفرجه كما قال تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥-٧].

وإليك الأمر بشيء من التفصيل.

* حفظ الفرج عن الزنى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(١).

وعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يا نعايا العرب! يا نعايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الزنى والشهوة الخفية**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذاب، وعائل متكبر**»(٣).

(١) رواه البخاري (١٠/ ٣٠ - فتح)، ومسلم (٢/ ٤١ - نووي).
(٢) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٥٠٨).
(٣) رواه مسلم (٢/ ١١٥ - نووي).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**».

قلت: إن ذلك لعظيم، ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**» قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»[1].

وعن بريدة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، ما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم، إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى (وفي رواية: أترون يدع له من حسناته شيئًا؟!)**»[2].

* حفظ الفرج من اللواط[3]:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط**»[4].

وعن محمد بن المنكدر: «أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه وجد رجلاً في بعض ضواحي العرب يُنكح كما تُنكح المرأة، فجمع لذلك أبو بكر أصحاب رسول الله ﷺ، وفيهم علي بن أبي طالب، فقال علي: إن هذا ذنب لم تعمل به أمة إلاَّ أمة واحدة، ففعل الله بهم ما قد علمتم، أرىٰ أن تحرقه بالنار، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ أن يحرق بالنار، فأمر أبو بكر أن يحرق بالنار»[5].

---

(١) رواه البخاري (٨/ ١٦٣ - فتح) ومسلم (٢/ ٨٠ - نووي).

(٢) رواه مسلم (١٣/ ٤١ - نووي)، وأبو داود (٤/ ٨)، والنسائي (٦/ ٥١).

(٣) (اللواط): أن يأتي الرجلُ الرجلَ.

(٤) رواه الترمذي (٣/ ٩)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ٨٥٦).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي بسند جيد. قاله المنذري في «الترغيب» (٤/ ٣٢٥).

وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**استحيوا فإن الله لا يستحي من الحق، ولا تأتوا النساء في أدبارهن**»[١].

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تأتوا النساء في أستاههن، فإن الله لا يستحي من الحق**»[٢].

* حفظ الفرج عن إتيان البهيمة:

وروي عن رسول الله ﷺ: «**أربعة يصبحون في غضب الله ويمسون في سخط الله**». قلت: من هم يا رسول الله؟ قال: «**المتشبهون من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال، والذي أتي البهيمة والذي يأتي الرجال**»[٣].

وروى الحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا: «**ملعون من عمل عمل قوم لوط، ملعون من أتى شيئًا من البهائم**».

وقال: «صحيح الإسناد»!

قلت: بل هو ضعيف الإسناد؛ لأنه من رواية هارون بن هارون التيمي، وهارون هذا، قال عنه الحافظ في «التقريب» (٢/ ٣١٣) «ضعيف».

نعم رواه الطبراني من طريق أخرى، ولكنها أضعف من الأولى، لأنها من رواية محرر أخي هارون هذا، وهو أضعف منه قال عنه الحافظ في «التقريب» (٢/ ٢٣١): «متروك».

ولا تغتر بتحسين الترمذي لأحاديث محرر هذا، فإن الترمذي - رحمه الله - متساهل في التحسين كما هو معلوم.

---

(١) رواه أبو يعلى، وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٩٨): «رجال أبي يعلى رجال الصحيح، خلا يعلى بن اليمان، وهو ثقة». وقال المنذري في «الترغيب» (٤/ ٣٢٦): «إسناده جيد».

(٢) رواه أحمد والترمذي (٢/ ٣١٦)، وحسنه.

(٣) رواه الطبراني والبيهقي بسند ضعيف.

ومع ضعف هذه الأحاديث، فإن إتيان البهيمة محرم بإتفاق العلماء، وبعموم قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥-٧].

* حفظ الفرج عن إتيان المرأة وهي حائض:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**من أتى حائضًا أو أمرأة في دبرها أو كاهنًا فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد**»[١].

* حفظ الجوارح عن الزنى:

ثم إن لكل جارحة زنىً، كما قال النبي ﷺ: «**إن العين لتزني وزناها النظر، واللسان يزني وزناه الكلام، واليد تزني وزناها اللمس، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه**»[٢].

فعباد الرحمن يحفظون جوارحهم عن كل ما يغضب الله تبارك وتعالىٰ؛ لأنهم يعتقدون أنهم سيقفون أمام ربهم تبارك وتعالىٰ، وسيحاسبون علىٰ كل ما قدموه: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

نسأل الله أن يرشدنا إلىٰ الطاعات، ويهدينا إلىٰ الحسنات، ويجعلنا من ورثة الجنات بفضله وكرمه.

* * *

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ١٥) وصححه الألباني في «آداب الزفاف» (١٥).
(٢) رواه مسلم، والبخاري مختصراً، وبوَّب له(باب زنىٰ الجوارح).

الصفة التاسعة

التوبة

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾

فعباد الرحمن إذا اقترفوا معصية بحكم ضعفهم البشري، أقلعوا وتابوا وندموا.

بل إنهم يشهدون التقصير في أعمالهم، فيتوبون إلى ربهم، ويرتمون بين يديه، ويخضعون ويذلون له.

فهم إما تائبون من ذنب اقترفوه، أو من عمل قصروا فيه، أو من كمال لم يدركوه، أو من نعم لم يستطيعوا القيام بشكرها.

ولذلك أمرنا ربنا بالتوبة إليه، فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا** ﴾ [التحريم: ٨].

ثم إن ربنا تبارك وتعالى قد بيَّن أن التوبة هي طريق الفلاح، فقال: ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور: ٣١]. .

فالتوبة ليست خاصة بالمذنب الجاني، بل عامة في حق جميع المؤمنين الذين يريدون الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[1].

---

(١) رواه البخاري في (كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة ١١/ ١٠١ ـ فتح).

وعن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس! توبوا إلى الله واستغفروه؛ فإني أتوب في اليوم مئة مرة**»[1].

فهذا رسول الله ﷺ، وهو المعصوم، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة، وهذا لا يعني العدد بالتحديد، وإنما المقصود كثرة الاستغفار والتوبة.

ثم إن ربنا تبارك وتعالى يفرح بعبده التائب المنيب إليه، ويضرب رسولنا مثلاً لذلك بالرجل الذي خرج في سفر على راحلة، وبينما هو في وسط الصحراء الجرداء التي لا طعام فيها ولا ماء، إذا براحلته التي عليها طعامه وشرابه قد انفلتت، فظل يفكر ماذا يفعل وهو في وسط الصحراء المهلكة، فلما أيقن بالموت جاء تحت ظل شجرة فنام، ثم استيقظ من نومه فإذا راحلته عنده وعليها طعامه وشرابه، فقام في فرح شديد، وحمد ربه تبارك وتعالى، وقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح فالله تبارك وتعالى أشد فرحًا من هذا براحلته.

يقول النبي ﷺ: «**لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[2].

وربنا تبارك وتعالى لم يقنِّط عباده، بل فتح لهم باب التوبة على مصراعيه،

---

(1) رواه مسلم في (كتاب الذكر، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، ١٧/ ٤٣ ـ نووي).

(2) رواه البخاري في (الدعوات، باب التوبة، ١١/ ١٠٢ ـ فتح) باختصار ومسلم في (التوبة، باب الحض على التوبة، ١٧/ ٦٣، نووي).

ويظل ذلك الباب مفتوحًا، حتىٰ تظهر علامات الساعة الكبرىٰ، وهي طلوع الشمس من المغرب.

فعن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عزَّ وجلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(٣).

(**يغرغِر**): أي: عند وصول الروح إلىٰ الحلقوم ساعة الإحتضار.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه،فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله، فكمل به مئة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مئة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟! انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء. فانطلق، حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط.**

(١) رواه مسلم (١٧/ ٧٦ ـ نووي).

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٢٥ ـ نووي).

(٣) رواه الترمذي في (كتاب الدعوات، باب التوبة مقبولة قبل الغرغرة) وقال: «حديث حسن».

فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدمي: فجعلوه بينهم (أي : حكمًا) فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى، فهو له، فقاسوا، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»[(١)] .

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه : أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنى : فقالت : يا رسول الله ! أصبت حدًّا فأقمه عليَّ . فدعا نبي الله ﷺ وليها ، فقال : **«أحسن إليها فإذا وضعت فأتني»** ففعل ، فأمر النبي ﷺ، فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها . فقال له عمر : تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال : **«لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عزَّ وجلَّ؟!»**[(٢)] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ: **«لو أن لابن آدم واديًا من ذهب، أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه**[(٣)] **إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»**[(٤)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : **«يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيُسلم فيُستشهد»**[(٥)] .

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٥١٢ ـ فتح)، ومسلم (١٧/ ٨٢ ـ نووي) .

(٢) رواه مسلم (١١/ ٢٠٤ ـ نووي) في (كتاب الحدود، باب حد الزنى) .

(٣) (ولن يملأ فاه إلا التراب)، أي: لا يزال حريصًا حتى يموت ويمتلئ جوفه من تراب قبره وقتها يقنع .

(٤) رواه البخاري (كتاب الرقاق، با ما يتقي من فتنة المال، ١١/ ٢٥٣ ـ فتح) ومسلم ف (كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا، ٧/ ١٣٩ ـ نووي) .

(٥) رواه البخاري (كتاب الجهاد، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم، ٦/ ٣٨ ـ فتح) ومسلم (كتاب الإمارة، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، ١٣/ ٣٦ ـ نووي) .

عن صفوان بن عسال رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**إن من قبل المغرب لبابًا مسيرة عرضه أربعون (أو: سبعون) عامًا، فتحه الله عزَّ وجلَّ للتوبة يوم خلق السموات والأرض، فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه**»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**للجنة ثمانية أبواب: سبعة مغلقة، وباب مفتوح للتوبة، حتى تطلع الشمس من نحوه**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء، ثم تبتم، لتاب الله عليكم**»(٣).

فلا ييأس المسلم ولا يقنط من رحمه الله، فإنه لا يقنط من روح الله إلا القوم الكافرون، ولكن عليه بالرجوع إلى الله والتوبة النصوح؛ فالله لا يرد تائبًا.

ولكن إذا كان قد اقترف معصية في السر؛ فعليه أن يتوب سرًّا، ولا يفضح نفسه، وإن كان قد جاهر بفسق أو معصية أو أي أمر من الأمور التي لا ترضي الله؛ فعليه أن يتوب جهرًا، حتى يرجع من اقتدى به في هذا الذنب أو تلك المعصية.

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أوصني؟ قال: «**عليك بتقوى الله ما استطعت، واذكر الله عند كل حجر وشجر، وما عملت من سوء؛ فأحدث له توبة: السر بالسر، والعلانية بالعلانية**»(٤).

---

(١) رواه الترمذي في (كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل التوبة)، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) رواه أبو يعلي والطبراني بإسناد جيد، قاله المنذري في «الترغيب» (٥/ ٢٨١).

(٣) رواه ابن ماجه، (٢/ ١٤١٩)، وقال في «الزوائد»: «إسناده حسن»، وقال: المنذري في «الترغيب» (٥/ ٢٨١): «إسناده جيد».

(٤) رواه الطبراني بإسناد حسن، قاله المنذري في «الترغيب» (٥/ ٢٨٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم**»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن تقرَّب إلى الله عزَّ وجلَّ شبرًا، تقرَّب إليه ذراعًا ومَن تقرَّب إليه ذراعًا تقرب إليه باعًا، ومن أقبل إلى الله عزَّ وجلَّ ماشيًا أقبل الله إليه مهرولاً والله أعلى وأجل والله أعلى وأجل، والله أعلى وأجل**»(٢).

وقال النبي ﷺ: «**قال الله عزَّ وجلَّ: يا ابن آدم! قم إليَّ؛ أمش إليك، وامش إليَّ، أهرول أليك**»(٣).

عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحسن فيما بقي؛ غُفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي؛ أُخذ بما مضى وما بقي**»(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها: قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه**»(٥).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»(٦).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ: قال: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»(٧)، وعنه أيضًا: أن النبي ﷺ قال: «**الندم توبة**»(٨).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.
(٢) رواه أحمد والطبراني، وإسنادهما حسن. قاله الحافظ المنذري في «الترغيب» (٥/ ٢٩٠).
(٣) رواه أحمد بإسناد صحيح، قاله المنذري في «الترغيب» (٥/ ٢٩٠).
(٤) رواه الطبراني بإسناد حسن، قاله المنذري في «الترغيب» (٥/ ٢٩١).
(٥) رواه أحمد والبزار، وإسناده حسن. قاله الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٩٢).
(٦) رواه أحمد، والترمذي وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠) والدارمي (٢/ ٣٠٣) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٣٩١).
(٧) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٢٠) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٠٠٥).
(٨) رواه أحمد والبخاري في «التاريخ» وابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٦٧٨).

الآثار الواردة عن السلف في التوبة[1] :

قال سعيد بن المسيب: «أنزل قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ [الإسراء: ٢٥] في الرجل يذنب، ثم يتوب، ثم يذنب، ثم يتوب».

وقال طلق بن حبيب: «إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين»[2].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «من ذكر خطيئة ألمَّ بها، فوجل منها قلبه، محيت عنه في أم الكتاب».

وقيل: «إن العبد ليذنب الذنب، فلا يزال نادمًا حتىٰ يدخل الجنة، فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب».

وقال حبيب بن أبي ثابت: «تعرض علىٰ الرجل ذنوبه يوم القيامة، فيمر بالذنب، فيقول: أما إني قد كنت مشفقًا منه» قال: «فيغفر له».

ويروىٰ أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألمَّ به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت إليه، فرأىٰ عينيه تذرفان، فقال له: «إن للجنة ثمانية أبواب، كلها تفتح وتغلق، إلا باب التوبة، فإن عليه ملكًا موكلاً به لا يغلق، فاعمل ولا تيأس.

وقال عبد الرحمن بن أبي قاسم: «تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر، وقول الله تعالىٰ: ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، فقال: إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً».

وقال عبد الله بن سلام: «لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزَّل، إن العبد إذا عمل ذنبًا، ثم ندم عليه طرفة عين؛ سقط عنه أسرع من طرفة عين».

---

(١) راجع «إحياء علوم الدين» (١١/ ٢٠٩١) ط. الشعب.
(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٠١)، وقال الأعظمي: «وأخرجه أبو نعيم أيضًا» (٣/ ٦٥).

وقال عمر رضي الله عنه: «اجلسوا إلىٰ التوابين، فإنهم أرق أفئدة».

وقال الحسن البصري رحمه الله: «إن المؤمن قوَّام علىٰ نفسه يحاسب نفسه لله عزَّوجلَّ. وإنما خفَّ الحساب يوم القيامة علىٰ قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة علىٰ قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفجأ الشيء يعجبه، فيقول: إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات، هيهات، حيل بيني وبينك، ويفرط منه الشيء، فيرجع إلىٰ نفسه، فيقول: ما أردت إلىٰ هذا؟ ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلىٰ هذا أبدًا إن شاء الله.

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعىٰ إلىٰ فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتىٰ يلقىٰ الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، في بصره، في لسانه، في جوارحه، يعلم أنه مأخوذ عليه في ذلك كله» اهـ[1].

وقال وهب بن منبه رحمه الله: «إن في حكمة آل داود. حق علىٰ العاقل أن لايغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه عزَّ وجلَّ، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلىٰ إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون علىٰ هذه الساعات، وإجمام للقلوب وحق علىٰ العاقل أن يعرف زمانه، ويحفظ لسانه، ويقبل علىٰ شأنه. وحق علىٰ العاقل أن لا يظعن إلا في إحدىٰ ثلاث: زاد لمعاده، ومرمة لمعاشة، ولذة في غير محرم»[2] اهـ.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٣)، وعزاه الأعظمي لأبي نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٧).
(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٥).

* **شروط قبول التوبة:**

«قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب: فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي؛ فلها ثلاثة شروط:

إحدها: أن يقلع عن المعصية.

الثاني: أن يندم على فعلها.

الثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبداً

فإن فقد أحد الثلاثة، لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي، فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه، رد إليه، وإن كان لأحد قذف ونحوه؛ مكَّنه منه أو طلب عفوه، وإن كان غيبة، استحله منه.

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها، صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي» اهـ من كلام النووي رحمه الله[٢].

وإليك توضيح هذه الشروط.

الشرط الأول: الإقلاع عن المعصية:

لأنه لايتصور توبة رجل من معصية معينة وهو ما زال متلبساً بها؛ فلا بدَّ من الإقلاع أولاً، وليس المقصود إقلاعاً مؤقتاً، بل لا بدَّ أن يستمر ويدوم.

ليس هذا فقط، بل عليه أن يرد بفكره إلى أول يوم بلغ فيه سن التكليف،

---

(١) رياض الصالحين (١/ ٣٢) مع شرحه «نزهة المتقين».

ويفتش عما مضىٰ من عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويومًا يومًا، بل ونَفَسًا نَفَسًا، وينظر إلىٰ الطاعات التي قصر فيها، وإلىٰ المعاصي التي قارفها.

فإن كان قد ترك صلاة، فليسارع بتأديتها علىٰ أحد قولي العلماء، أو يؤدي بعددها نوافل.

وإن كان قد ترك صومًا، أو أفطر عمدًا، أو أفطر لعذر، ولم يقض، أو غير ذلك، فعليه بالمسارعة بقضائه.

وإن كان قد ترك تأدية الزكاة: فعليه أن يحسب جميع ماله وعدد السنين منذ أول ملكه للنصاب، لا من زمن البلوغ، فإن الزكاة واجبة في مال الصبي، فيؤدي ما فاته منها.

وهكذا في جميع الطاعات التي لم يقم بأدائها.

أمَّا المعاصي:

فعليه أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه، وبصره، ولسانه، وبطنه، ويده. ورجله، وفرجه، وسائر جوارحه.

ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته، ويسترجع في ذهنه ما استطاع من معاصيه، حتىٰ يطَّلع علىٰ جميعها صغارها وكبارها، ثم ينظر فيها:

فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالىٰ، كنظر محرم، وقعود في مسجد مع الجنابة، أو اعتقاد بدعة، أو شرب خمر، أو سماع أغاني.... إلخ، فيطلب لكل معصية حسنة تناسبها.

لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود: ١١٤].

والنبي ﷺ يقول: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»[١].

---

(١) رواه الترمذي، وصححه.

فيكفِّر سماع الأغاني بسماع القرآن، ومجالس اللهو بمجالس العلم، والمكث في المسجد جنبًا بالاعتكاف فيه لله، ويكفِّر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال، ويكفِّر النظر إلى النساء الأجنبيات بالنظر في مخلوقات الله من شجر وسماء وأرض وغيره؛ كل هذا مع اصطحاب الندم والاستغفار.

الشرط الثاني: الندم على فعلها:

عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**الندم توبة**»[1].

والندم معناه: توجع القلب عند تذكُّره الذنب مع طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع.

وعلامة هذا الندم أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها، فيستبدل بالميل كراهية، وبالرغبة نفرة، وباللذة ألمًا، وأن ينظر إلى نفسه نظرة اتهام وازدراء واحتقار، وإلى غيره نظرة البراءة والطهر والنقاء، فيمشي في الدنيا مشية المشفق الخائف.

الشرط الثالث: العزم على عدم العودة:

أنه لو عزم على العودة: لا تصح توبته.

ولذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا**﴾ [التحريم: ٨].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «التوبة النصوح: يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «توبة نصوحًا»: قال: «يتوب ثم لا يعود».

---

(١) رواه: أحمد، والبخاري في «التاريخ»، وابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٦٧٨).

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل». اهـ[1] .

وقال الحسن البصري رحمه الله: «التوبة النصوح: أن تبغض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته».

الشرط الرابع: أن يبرأ من حق صاحبها:

بأن يرجع الحق إلى صاحبه؛ كمن سرق من رجل، ثم أراد زن يتوب عليه: أن يؤدي الحق إلى صاحبه، ثم يستسمحه أو يستحل الذنب؛ كمن اغتاب مسلمًا، عليه أن يذهب إليه، ويطلب منه العفو والصفح.

ومع ذلك كله عليه أن يدعو الله أن يقبل توبته ولا يردها عليه، وأن يكون مشفقًا خائفًا طوال حياته، وهذا الإشفاق من موجبات الجنة؛ كما قال تعالى حاكيًا عن المؤمنين: ﴿**إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ**﴾ .

أقسام التائبين:

قال بعضهم: «اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات:

الطبقة الأولى: أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط من أمره، ولا يُحَدِّث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات؛ فهذه هي الاستقامة على التوبة، وصاحبها هو السابق بالخيرات، المستبدل بالسيئات حسنات، واسم هذه التوبة: التوبةُ

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٩٢).

النصوحُ. واسم هذه النفس الساكنة المطمئنة، التي ترجع إلىٰ ربها راضية مرضية.

الطبقة الثانية: تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبار الفواحش كلها؛ إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه، لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن يبتلىٰ بها في مجاري أحواله؛ من غير أن يقدم عزمًا علىٰ الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها؛ لام نفسه، وندم، وتأسف، وجدد عزمه علىٰ أن يشتمَّر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها، وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوَّامة، إذ تلوم صاحبها علىٰ ما ستتهدف له من الأحوال الذميمة، لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد.

وهذه أيضًا رتبة عالية، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولىٰ، وهي أغلب أحوال التائبين.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالىٰ، إذ قال: ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾.

فكل إلمام يقع بصغيرة، لا عن توطين نفسه عليه، فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه.

قال تعالىٰ: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فأثنىٰ عليهم مع ظلمهم لأنفسهم؛ لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه.

الطبقة الثالثة: أن يتوب ويستمر علىٰ الاستقامة مدة، ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب، فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة، لعجزه عن قهر الشهوة، إلا أنه مع ذلك مواظب علىٰ الطاعات، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة

والشهوة، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان، وهو يود لو أقدره الله تعالىٰ علىٰ قمعها، وكفاه شرها، هذه أمنيته في حال قضاء الشهوة، وعند الفراغ يتندم ويقول: ليتني لم أفعله، وسأتوب عنه، وأجاهد نفسي في قهرها، لكنه تسول نفسه، ويسوف توبته مرة بعد أخرىٰ، يومًا بعد يوم.

فهذه النفس هي التي تسمىٰ النفس المسولة، وصاحبها من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٢].

فأمره من حيث مواظبته علىٰ الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو.

فعسىٰ الله أن يتوب عليه. وعاقبته علىٰ خطر من حيث تسويفه وتأخيره فربما يختطف قبل التوبة، ويقع أمره في المشيئة.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويجري مدة علىٰ الاستقامة، ثم يعود إلىٰ مقارفة الذنب أو الذنوب، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف علىٰ فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته، فهذا من جملة المصرين، وهذه النفس هي النفس الأمَّارة بالسوء، ويخاف علىٰ هذا من سوء الخاتمة» اهـ باختصار[1].

جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أي الناس خير؟ قال: «**من طال عمره وحسن عمله**».

قال: فأيّ الناس شر؟ قال: «**من طال عمره وساء عمله**»[2].

❊ ❊ ❊

(١) انظر «الإحياء» (١٢/ ٢١٣٩، ٢١٤٤).

(٢) رواه الترمذي بسند صحيح، قاله ابن حجر الهيثمي في «الزواجر» (٧٠٠).

الصفة العاشرة

اجتناب الزور

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾

قال القرطبي: «أي: لا يحضرون الكذب والباطل، ولا يشاهدونه. والزور كل باطل زُور وزُخرف» اهـ[١].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لا يشهدون الزور﴾ أي: شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره» اهـ[٢].

ولقد عدَّ النبي ﷺ شهادة الزور من الكبائر.

فعن أنس رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور»[٣].

بل عدَّها من أكبر الكبائر.

فعن أبي بكرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر (ثلاثًا).**

قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين (وجلس: متكئًا، فقال) ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»[٤].

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٧٩).

(٢) «تفسير القرطبي» (٣/ ٣٢٩).

(٣) رواه البخاري في (كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور؛ لقول الله تعالى: ﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ ٥/ ٢١٦ ـ فتح) ومسلم في (كتاب الإيمان، باب أكبر الكبائر، ٢/ ٨٢، نووي).

(٤) رواه البخاري في (كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، لقول الله تعالى: ﴿والذين لا يشهدون الزور﴾، ٥/ ٢٦١ ـ فتح)، ومسلم (٢/ ٨١ ـ نووي).

فانظر إلىٰ عظم هذا الذنب، وخطره علىٰ المجتمع كله وأثره السيء في قلب الموازين ونصر الظالم علىٰ المظلوم، من أجل هذا كله أهتَّم النبي ﷺ بأمر شهادة الزور، فاعتدل من اتكائه، وكرر النطق بها، حتىٰ تستقر في أذهان السامعين.

وفي «شرح صحيح البخاري» قوله «وجلس وكان متكئًا» يشعر بأنه اهتم بذلك حتىٰ جلس بعد أن كان متكئًا، ويفيد ذلك تأكيد تحريمه، وعظم قبحه، وسبب الاهتمام بذلك كون قول الزور أو شهاده الزور أسهل وقوعًا علىٰ الناس، والتهاون بها أكثر، فإن الإشراك ينبو عنه قلب المسلم، والعقوق يصرف عنه الطبع، وأما الزور، فالحوامل عليه كثيرة. كالعداوة، والحسد، وغيرهما، فاحتيج إلىٰ الاهتمام بتعظيمه، وليس ذلك لعظمه بالنسبة إلىٰ ما ذكر معها من الإشراك قطعًا، بل لكون مفسدة الزور متعدية إلىٰ غير الشاهد، بخلاف الشرك، فإن مفسدته قاصرة غالبًا» اهـ[1].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله ثلاثًا مرات» ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[2] [الحج: ٣٠-٣١].

قال صاحب كتاب «الكبائر»، «لا فرق في كون شهادة الزور كبيرة بين قليل المال وكثيره، فطمًا عن هذه المفاسد القبيحة الشنيعة جدًّا، ومن ثم جعلت عدلاً للشرك، ووقع له ﷺ عند ذكرها من الغضب والتكرير ما لم يقع له عند ذكر ما هو أكبر منها، كالقتل والزنىٰ، فدل ذلك علىٰ عظم أمرها».

---

(١) «فتح الباري» (٥/ ٢٦٣).

(٢) رواه الطبراني هكذا موقوفًا بإسناد حسن، قاله المنذري في «الترغيب» (٤/ ٢٦٩)، وتبعه ابن حجر الهيتمي في «الزواجر» (ص٦٣٦).

ثم نقل عن بعضهم: أنه قال: «إذا كان الشاهد كاذبًا، تأثم ثلاث آثام: إثم المعصية، وإثم إعانة الظالم، وإثم خذلان المظلوم» اهـ[١] .

وقيل: «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخم وجهه، ويحلق رأسه، ويطوف به في السوق» اهـ[٢] .

* * *

(١) «الزواجر» (ص٦٣٦).
(٢) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٨٠).

الصفة الحادية عشرة
الإعراض عن اللغو

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾

قال القرطبي: «اللغو: كل سقط من قول أو فعل، فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه».

ثم قال: ﴿كراما﴾ معناه: معرضين، منكرين، لا يرضونه، ولا يمالئون عليه، ولا يجالسون أهله؛ أي: مروا مرَّ الكرام الذين لا يدخلون في الباطل» اهـ[(١)] .

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣] .

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «اللغو: المعاصي كلها» واستدل العلماء على تحريم الغناء بثلاث آيات هي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان: ٦].

سئل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن لهو الحديث: فقال: «والله الذي لا إله إلاَّ هو؛ إنه الغناء»[(٢)] .

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٨٠ ـ ٨١).
(٢) راجع: ابن كثير (٣/ ٤٤٢)، والقرطبي (١٤/ ٥١).

وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩-٦١].

قال ابن عباس: هو الغناء بالحِمْيَرِيَّة: اسمدي لنا، أي: غنِّي لنا»[١].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

قال مجاهد: «الغناء والمزامير»[٢].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «ومن مكايد عدو الله ومصايده، التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحرمة، الذي يصد القلوب عن القرآن: ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان، فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط والزنى، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى، كاد به الشيطان النفوس الباطلة، وحسنه لها مكراً منه وغروراً، وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه، فقبلت وحيه، واتخذت لأجله القرآن مهجوراً، فلو رأيتم عند ذيَّاك السماع وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له كتمايل النَّشوان، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان؟!».

ثم قال رحمه الله: «هذا السماع الشيطاني المضاد للسماع الرحماني له في الشرع بضعة عشر اسمًا: اللهو، واللغو، والمكاء، والتصدية، ورقية الزنى، وقرآن الشيطان، ومنبت النفاق في القلب، والصوت الأحمق، والصوت الفاجر، وصوت الشيطان، ومزمار الشيطان، والسمود».

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٤/ ٥١).

(٢) «تفسير القرطبي (١٤/ ٥١).

فالاسم الأول: اللهو، ولهو الحديث:

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦].

قال الواحدي وغيره: أكثر المفسرين علىٰ أن المراد بلهو الحديث الغناء.

قال قتادة: بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل علىٰ حديث الحق.

الاسم الثاني والثالث: الزور واللغو:

قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال محمد ابن الحنفية: الزور ها هنا الغناء.

واللغو في اللغة: كل ما يُلغَىٰ ويطرح، والمعنىٰ: لا يحضرن مجالس الباطل، وإذا مروا بكل ما يلغىٰ من قول وعمل، أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه أو يميلوا إليه.

ويدخل في ذلك أعياد المشركين والغناء وأنواع الباطل كلها.

وقد أثنىٰ الله سبحانه علىٰ مَن أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥].

الاسم الرابع: الباطل:

والباطل: ضد الحق.

قال عبيد الله للقاسم بن محمد: كيف ترىٰ الغناء؟ قال له القاسم: هو باطل. فقال: قد عرفت أنه باطل، فكيف ترىٰ فيه؟ فقال القاسم: أرأيت

الباطل أين هو؟ قال: في النار. قال: فهو ذاك.

وقال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: ما تقول في الغناء أحلال هو أم حرام؟ فقال: لا أقول حرامًا إلا ما في كتاب الله. فقال: أفحلال هو؟ فقال: ولا أقول ذلك. ثم قال له: أرأيت الحق والباطل إذا جاءا يوم القيامة؛ فأين يكن الغناء؟ فقال الرجل: يكون مع الباطل، فقال له ابن عباس: اذهب فقد أفتيت نفسك».

قال ابن القيم رحمه الله: «فهذا جواب ابن عباس رضي الله عنه عن غناء الأعراب الذي ليس فيه مدح الخمر والزنى واللواط، والتشبب بالأجنبيات، وأصوات المعازف، والآلات المطربات، فإن غناء القوم لم يكن فيه شيء من ذلك، ولو شاهدوا هذا الغناء لقالوا فيه أعظم قول فإن مضرته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير وأعظم من فتنته.

الاسم الخامس: المكاء والتصدية:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

قال ابن عباس وابن عمر وعطية العوفي ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة: المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق».

قال رحمه الله: «والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح لئلا يتشبهوا بالنساء، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة، وقرنوا به أنواعًا من المعاصي قولاً وفعلاً؟!

* **الاسم السادس: رقية الزنى:**

هو اسم موافق لمسمَّاه، ولفظ مطابق لمعناه، وهذه التسمية معروفة عن الفضيل بن عياض رحمه الله.

وقال يزيد بن الوليد: يا بني أمية! إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لا بدَّ فاعلينَ، فجنبوه النساء؛ فإن الغناء داعية الزنى».

قال رحمه الله: «فلعمر الله كم من حرة صارت بالغناء من البغايا، وكم من حر أصبح به عبدًا للصبيان أو الصبايا، وكم من غيور تبدل به اسمًا قبيحًا بين البرايا، وكم من ذي غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارف والحشايا، وكم من معا فى تعرض له فأمسى وقد حلَّت به أنواع البلايا، وكم جرع من غصة، وأزال من نعمة، وجلب من نقمة.

* **الاسم السابع: منبت النفاق:**

قال ابن مسعود رضي الله عنه: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع».

قال رحمه الله: «فاعلم أن للغناء خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق ونباته فيه كنبات الزروع بالماء.

فمن خواصه: أنه يُلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره، والعمل بما فيه؛ فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبدًا، لما بينهما من التضاد:

فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى، ويأمر بالعفة، ومجانبة شهوات النفس، وأسباب الغي، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضدِّ ذلك كله، ويحسنه، ويهيِّج النفوس إلى شهوات الغي.

وهو جاسوس القلب، وسارق المروءة، وسُوس العقل، يتغلغل في مكامن القلوب، ويطلع على سرائر الأفئدة.

فبينما ترى الرجل وعليه سمة الوقار، وبهاء العقل، وبهجة الإيمان، ووقار الإسلام، وحلاوة القرآن، فإذا استمع الغناء ومال إليه، نقص عقله، وقل حياؤه، وذهبت مروءته، وفارقه بهاؤه، وتخلّى عنه وقاره، وفرح به شيطانه، وشكا إلى الله تعالى إيمانه، وثقل عليه قرآنه، وقال: يا رب! لا تجمع بيني وبين قرآن عدوك في صدر واحد.

الاسم الثامن: قرآن الشيطان:

قال قتادة: لما أهبط إبليس، قال: يا رب! فما عملي؟ قال: السحر. قال: فما قرآني؟ قال: الشعر، قال: فما كتابي؟ قال: الوشم، قال: فما طعامي؟قال: كل ميتة وما لم يذكر اسم الله عليه. قال: فما شرابي؟ قال: كل مسكر. قال: فأين مسكني؟ قال: الأسواق. قال: فما صوتي؟ قال: المزامير، قال: فما مصايدي؟ قال: النساء.

وكان النبي ﷺ يقول: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من نفخة، ونفثه، وهمزه**»[١].

وفسِّر نفخه: بالكبر، ونفثه: بالشعر، وهمزه بالموتة والجنون.

الاسم التاسع: الصوت الأحمق:

قال النبي ﷺ: «**نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمة، لهو ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة، خمش وجوه وشق جيوب ورنة**»[٢].

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

(٢) رواه الترمذي وحسنه.

وقال الحسن البصري رحمه الله: صوتان ملعونان: مزمار عند نعمة، ورنة عند مصيبة».

أقوال الفقهاء في الغناء:

١ ـ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وقد صرح أصحاب أبي حنيفة بتحريم سماع الملاهي كلها، كالمزمار والدف، وصرحوا بأنه معصية يوجب الفسق».

٢ ـ قال الإمام مالك رحمه الله: «إنما يفعله عندنا الفساق».

٣ ـ قال الإمام الشافعي رحمه الله: «إن الغناء لهو مكروه، يشبه الباطل والمحال، ومن استكثر منه، فهو سفيه ترد شهادته».

٤ ـ قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «الغناء ينبت النفاق في القلب، لا يعجبني»[1].

فمن الواجب على من يريد أن يسلك مسلك عباد الرحمن ويرتقي إلى الإحسان: أن يبتعد عن مجالس الزور والبهتان، وحلقات اللهو والفسوق والعصيان، وأن يزاحم في مجالس الخير والإحسان، وأن يسعى في تحصيل رضى الرحمن.

* * *

(١) راجع: «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٢٤ ـ ٢٥٤).

الصفة الثانية عشرة
الاستجابة لأمر الله

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾

قال قتادة: «لم يصموا عن الحق، ولم يعموا فيه، فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه» اهـ[١] .

وهذا حال المؤمن دائمًا : إذا جاءه أمر من الله ورسوله، سارع بتنفيذه .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١] .

وقال تعالىٰ : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥] .

وربنا تبارك وتعالىٰ قد أمرنا بالمسارعة إلىٰ الخير :

فقال سبحانه : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

وقال سبحانه : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦]

فعباد الرحمن لا يأتمرون إلاَّ بأمر الله، ولا يقتدون إلاَّ برسول الله ﷺ .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم مثلاً يُحتذىٰ به في المسارعة إلىٰ تنفيذ أمر الله، فانظر إلىٰ نساء الأنصار عندما نزلت آية الحجاب؛ قامت كل واحدة منهنَّ إلىٰ ثوبها، فشقته، وصنعت منه خماراً كما أمرها ربها تبارك وتعالىٰ .

---

(١) راجع: «ابن كثير» (٣/ ٣٢٩).

فالآية نزلت بالليل، وهنَّ لم ينتظرن حتى الصباح، بل شققن الثياب وصنعن الخمر وصلين خلف رسول الله ﷺ الفجر مختمرات، فرضي الله عنهن.

فعن صفية بنت شيبة قالت: بينما نحن عند عائشة، قالت: فذكرنا نساء قريش وفضلهن. فقالت عائشة رضي الله عنها: «إن لنساء قريش لفضلاً، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، أشد تصديقًا لكتاب الله، ولا إيمانًا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾، انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابة، فما منهن امرأة إلاَّ قامت إلى مرطها المرحل، فاعتجرت به؛ تصديقًا وإيمانًا بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات، كأن على رؤوسهنَّ الغربان»[1].

ولذلك وصف ربنا المؤمنين في كتابه بقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]. فالمؤمنون يزدادون إيمانًا عند سماع كلام الله، ويزدادون خشوعًا عند سماع ذكر الله.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

وسأضرب لك مثالاً آخر لمدى مسارعة الصحابة لتنفيذ أمر الله:

لقد صلى النبي ﷺ تجاه بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، ثم جاء

---

(١) رواه: أبو داود، وابن أبي حاتم، والبخاري مختصراً.

الأمر الإلهي بأن يولي وجهه شطر المسجد الحرام، فكانت أول صلاة صلاها تجاه الكعبة صلاة العصر، فبعد الصلاة خرج رجل ممن صلى مع النبي ﷺ، فمر على أهل مسجد يصلون تجاه بيت المقدس، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَلَ الكعبة، قال: الصحابي هذه المقالة وهم راكعون، فداروا كما هم قِبَلَ مكة[1].

فانظر إلى مسارعة الصحابة لتنفيذ الأمر، فهم لم ينتظروا حتى ينتهوا من صلاتهم، بل استداروا وهم راكعون.

سبحان الله . . . ما أطهرها من قلوب! وما أنقاها من نفوس!

قارن بين هذا وبين من تقول لها: تحجبي، والزمي أمر ربك، فتقول لك: نعم؛ الحجاب حق، ولكن بعد الزواج سأتحجب.

وكان كثير من الصحابة يشربون الخمر، حتى نزل قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]. فقالوا انتهينا ربنا! انتهينا ربنا! وأقلعوا من ساعتهم.

قارن بين هؤلاء وبين من تقول له: أقلع عن التدخين! بعد أن تبيَّنَ له حرمته بيانًا شافيًا، فيقر بحرمته، ولكنه يقول لك: سأتدرج في الإقلاع عنه؛ ففي خلال شهر سأكون قد انتهيت.

سبحان الله! ومن يضمن عمره شهراً؟!

* * *

(١) رواه البخاري في (كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان ١/ ٩٥ - فتح).

الصفة الثالثة عشرة

الدعاء بصلاح الأهل والذرية

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يعني: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له.

قال ابن عباس رضي الله عنه: يعنون: من يعمل بطاعة الله فتقرّ به أعينهم في الدنيا والآخرة.

قال عكرمة رحمه الله: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين.

قال ابن جريج رحمه الله: يعبدونك فيحسنون عبادتك، ولا يجرون علينا الجرائر[(١)].

فضل المرأة الصالحة:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: **«الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»**[(٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: **«أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وبدنًا على البلاء صابرًا، وزوجة لا تبغيه حوبًا في نفسها وماله»**[(٣)].

---

(١) راجع: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٢٩). (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وإسنادهما جيد، قال المنذري في «الترغيب» (٤/ ١١٣).

و(الحوب) هو الإثم.

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: أنزلت في الذهب والفضة، لو علمنا أي المال خير؟ فنتخذه؟ فقال: «**أفضله: لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه**»(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح. ومن شقاوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء**»(٢).

الطريق إلى الزوجة الصالحة:

١ ـ الدعاء:

على المؤمن أن يدعو الله عزَّ وجلَّ أن يرزقه الزوجة الصالحة، لأن الأمر كله بيد الله، وهو وحده يعلم الصالح والطالح.

والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

والنبي ﷺ يقول: «الدعاء هو العبادة»(٣).

٢ ـ البحث عن ذات الدين:

ولا يتوقف المسلم عند الدعاء فقط، بل عليه أن يأخذ بالأسباب ويبحث عن

---

(١) رواه ابن ماجه، والترمذي، وحسنه.

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح، قاله الحافظ المنذري في «الترغيب» (٤/ ١١٣) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٥٢٣).

(٣) رواه أحمد وأهل السنن، وصححه الألباني، «صحيح الجامع» (٣٤٠١).

ذات الدين ؛ لأنها هي التي تسعد زوجها، وترضي ربها، وتربي أبناءها، وأعني بالمرأة المتدينة: التي التزمت أمر ربها، وأطاعت رسولها، وتعلمت إسلامها؛ فهي ملتزمة بالإسلام ظاهرًا وباطنًا، سرًّا وعلانية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[(١)] .

٣ ـ الاستخارة الشرعية:

فإذا وجد الإنسان ذاتَ الدين، عليه أن يستخير الله تبارك وتعالى فيها؛ فالله عزَّ وجلَّ يعلم خفايا الأمور وخبايا النفوس.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: كان رسول الله يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن؛ يقول: «**إذا همَّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (أو قال: عاجل أمري وآجله)؛ فاقدره لي، ويسِّره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (أو قال: عاجل أمري وآجله) ؛ فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم ارضني به؛ قال: ويسمي حاجته**»[(٢)] .

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، و أبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري (كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، ٣/ ٤٨ ـ فتح) وفي (كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، ١١/ ٨٣ ـ فتح) وأبو داود في (كتاب الصلاة، باب الاستخارة ـ ٩٢) والترمذي في (كتاب الوتر) وفي «كتاب الدعوات»، والنسائي في «كتاب النكاح» باب الاستخارة (٦/ ٨٠)، وابن ماجه في «كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في صلاة الاستخارة (١/ ٤٤٠).

٤ ـ تعليمها أمور الدين:

وذلك بأن يعلمها أصول دينها: كيف تؤمن بالله الإيمان الحق، وتوحده التوحيد الخالص، وتؤمن بأسمائه وصفاته على الوجه اللائق بجلاله سبحانه وتعالى، وتعرف ما يجب لله تعالى، وما يجوز له سبحانه، وما يستحيل عليه تبارك وتعالى، وتؤمن بما جاء من عند الله تعالى من أركان الإيمان وسائر أحكام الإسلام الواجبة عليها وأصول معرفة الحلال والحرام.

وأن يعلمها أحكام العبادات، ويحضَّها على القيام بها، خاصة الصلاة في أول الوقت، وشروطها، وأركانها، ومفسداتها، ومكروهاتها، وسائر العبادات، وحقوق الله تعالى عليها، وحقوق الزوجين.

وأن يعلمها مكارم الأخلاق، من وقاية القلب من أمراض الحسد والبغضاء، ووقاية اللسان من الغيبة والنميمة والسب والكذب، ويراقبها في ذلك كله ما استطاع إلى المراقبة سبيلاً[1].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦].

قال عليّ رضي الله عنه: «أدِّبوهم وعلِّموهم».

وقال مجاهد رحمه الله: «اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله».

وقال الضَّحاك رحمه الله: «حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه

(١) «عودة الحجاب» (٢/ ٢٩ـ ٢١٠).
(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٩١).

وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم عنه»[٢] .

الطريق إلى الولد الصالح:

الولد الصالح هو خير كنز يتركه المسلم من بعده، فهو نافع لأبويه في حياتهما وبعد موتهما .

ولذلك يقول النبي ﷺ: «**إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفعُ به، أو ولد صالح يدعو له**»[١] .

ولكن على المسلم أن يأخذ بالأسباب لنيل الولد الصالح، وهذه الأسباب هي :

١ ـ اختيار الأم:

على المسلم أن يختار لأبنائه أمًّا مسلمة، تعرف حق ربها، وحق زوجها وحق ولدها، وتعرف كيف تربي ولدها، لأنها هي المدرسة التي سيتخَّرج منها الولد، وصدق الشاعر حين قال :

الأمُّ مَدْرَسَةٌ إذا أعْدَدْتَها … أعْدَدْتَ شَعْبًا طيِّبَ الأعْراقِ

الأمُّ روضٌ إن تَعَهَّدَهُ الحيا … بالرِّيِّ أوْرَقَ أيَّما إيراقِ

الأمُّ أُستاذُ الأساتذة الألى … شَغَلَتْ مآثِرَهم مدى الآفاقِ

يقول محمد المقدم : «لا تكاد تقف على عظيم ممن راضوا شمس الدهر وذلت لهم نواصي الحادثات؛ إلا وهو ينزغ بعرقه وخلقه إلى أم عظيمة، وكيف لا يكون ذلك، والأم المسلمة قد اجتمع لها من وسائل التربية ما لم يجتمع لأخرى ممن سواها، مما جعلها أعرف خلق الله بتكوين الرجال،

(١) رواه البخاري في «الأدب، ومسلم في «صحيحه»، وأبو داود، والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والتأثير فيهم، والنفاذ إلىٰ قلوبهم، وتثبيت دعائم الخلق العظيم بين جوانحهم، وفي مسارب دمائهم.

* فالزبير بن العوام: قامت بأمره أمه صفية بنت عبد المطلب، فنشأ علىٰ طبعها وسجيتها.

* والكملة العظماء عبد الله والمنذر وعروة أبناء الزبير ثمرات أمهم أسماء بنت أبي بكر وما منهم إلا له الأثر الخالد و المقام المحمود.

* وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه تنقل في تربيته بين صدرين من أملأ صدور العالمين حكمة، وأحفلها بجلال الخلال، فكان مغداه علىٰ أمه فاطمة بنت أسد، ومراحه علىٰ خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ.

* وعبد الله بن جعفر سيد أجواد العرب وأنبل فتيانهم تركه أبوه صغيراً، فتعاهدته أمه أسماء بنت عميس، ولها من الفضل والنبل ما لها.

* ومعاوية بن أبي سفيان أريب العرب وألمعيها، ورث عن هند بنت عتبة ما لم يرث عن أبي سفيان، وهي القائلة - وقد قيل لها ومعاوية وليد بين يديها: إن عاش معاوية ساد قومه: «ثكلتُه إن لم يَسُد إلاَّ قومه»، وكان معاوية رضي الله عنه إذا نوزع الفخر بالمقدرة، وجوذب بالمباهاة بالرأي، انتسب إلىٰ أمه، فصدع أسماع خصمه بقوله: أنا بن هند.

* وأبو حفص عمر بن عبد العزيز؛ أروع الملوك، وأعدلهم، وأجلهم، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب؛ أكمل أهل دهرها كمالاً، وأكرمهنَّ خلالاً، وأمها تلك التي اتخذها عمر لابنه عاصم، وليس لها ما تعتز به من نشب ونسب، إلا ما جرىٰ علىٰ لسانها قول الصدق في نصيحتها لأمها[١]،

---

(١) حكىٰ الميداني أن عمر رضي الله عنه مر بسوق الليل - وهي من أسواق المدينة - فرأىٰ امرأة معها لبن تبيعه، ومعها بنت لها شابة، وقد همت العجوز أن تمذق لبنها (أي: تخلطه بالماء)، فجعلت الشابة تقول: يا أمه لا تمذقيه، ولا تغشِّيه. فوقف عليها عمر، فقال: من هذه منك؟ قالت: ابنتي فأمر عاصمًا، فتزوجها، وهي جدة عمر بن عبد العزيز لأمه، نقلاً عن «عودة الحجاب» (٢/ ١٤٢).

وهي التي نزعت به إلىٰ خلائق جده الفاروق .

* والأمير عبد الرحمن الناصر الذي ولي الأندلس ، وهي ولاية تميد بالفتن ، وتشرق بالدماء ، فما لبث أن قرت له وسكنت لخشيته ، ثم خرج في طليعة جنده ، فافتتح سبعين حصنًا في غزوة واحدة ، ثم أمعن بعد ذلك في قلب فرنسا ، وتغلغل في أحشاء سويسرا ، وضم أطراف إيطاليا ، حتىٰ ريض كل أولئك له ، ورجف لبأسه .

وبعد أن كانت قرطبة دار إمارة يذكر الخليفة العباسي علىٰ منابرها وتُمضىٰ باسمه أحكامها ؛ أصبحت مقر خلافة يحتكم إليها عواهل أوروبة وملوكها ، ويختلف إلىٰ معاهدها علماء الأمم وفلاسفتها .

أتدري ما سر هذه العظمة؟ إنها المرأة ، فقد نشأ عبد الرحمن يتيمًا قتل عمُه أباه ، فتفردت أمه بتربيته ، وإيداع سر الكمال وروح السمو في ذات نفسه ، فكان من أمره ما علمت .

* وسفيان الثوري ، وما أدراك ما سفيان الثوري؟ ! إنه فقيه العرب ومحدثهم ، وأحد أصحاب المذاهب الستة المتبوعة ، إنه أمير المؤمنين في الحديث ، الذي قال فيه زائدة : الثوري سيد المسلمين . وقال الأوزاعي : لم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضىٰ إلا سفيان .

وما كان ذلك الإمام الجليل ، والعَلَم الشامخ ، إلا ثمرة أم صالحة ، حفظ التاريخ لنا مآثرها وفضائلها ومكانتها ، وإن كان ضنَّ علينا باسمها .

روىٰ الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل - رحمه الله - بسنده عن وكيع ، قال : قالت أم سفيان لسفيان : يا بني ! اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي .

فكانت - رحمها الله - تعمل وتقدم له ليتفرغ للعلم ، وكانت تتخوله بالموعظة

والنصيحة.

قالت له ذات مرة، فيما يرويه الإمام أحمد أيضًا: يا بني! إذا كتبت عشرة أحرف، فانظر هل ترىٰ في نفسك زيادة في خشيتك، وحلمك، ووقارك، فإن لم تر ذلك، فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك.

فهل ترىٰ من غرابة بعد هذا أن نرىٰ سفيان يتبوأ منصب الإمامة في الدين، كيف وهو قد ترعرع في كنف مثل هذه الأم الرحيمة، وتغذّىٰ بلبان تلك الأم الناصحة التقية؟!

* والإمام الثقة الثبت إمام أهل الشام وفقيههم أبو عمرو الأوزاعي.

يقول فيه أبو إسحاق الفزاري: ما رأيت مثل رجلين: الأوزاعي والثوري، فأما الأوزاعي فكان رجل عامة، والثوري كان رجل خاصة، ولو خُيِّرت لهذه الأمة، لاخترت لها الأوزاعي، لأنه كان أكثر توسعًا، وكان - والله - إمامًا.

وقد أجمع العلماء علىٰ إمامة الأوزاعي وجلالته وعلو مرتبته وكمال فضله، وأقاويل السلف رحمهم الله كثيرة مشهورة مصرحة بورعه، وزهده وعبادته، وقيامه بالحق، وكثرة حديثه، وغزارة فقهه، وشدة تمسكه بالسُّنة، وبراعته في الفصاحة، وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له، واعترافهم بمرتبته.

ذلك الحبر البحر كان أيضًا ثمرة أم عظيمة.

قال الذهبي: قال الوليد بن مزيد البيروتي: ولد الأوزاعي ببعلبك وربِّيَ يتيمًا فقيرًا في حجر أمه، تعجز الملوك أن تؤدب أولادها أدبه في نفسه، ما سمعت منه كلمة فاضلة إلا احتاج مستمعها إلىٰ إثباتها عنه، لا رأيته ضاحكًا يقهقه، ولقد كان إذا أخذ في ذكر المعاد؛ أقول: تُرىٰ في المجلس قلب لم

بيك؟!

* وهذه أم ربيعة الرأي شيخ الإمام مالك، أنفقت على تعليم ولدها ثلاثين ألف دينار خلفها زوجها عندها، وخرج إلى الغزو، ولم يعد لها إلا بعد أن استكمل ولده الرجولة والمشيخة، وكانت أمه قد اشترتهما له بمال الرجل، فأحمد الرجل صنيعها، وأربح تجارتها، في قصة ساقها ابن خلكان قال:

وكان فروخ أبو ربيعة خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية، وربيعة حَمْلٌ في بطن أمه، وخلف عند زوجته (أم ربيعة) ثلاثين ألف دينار، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرسًا، وفي يده رمح، فنزل ودفع الباب برمحه. فخرج ربيعة، وقال: يا عدو الله! أتهجم على منزلي؟ فقال فروخ: يا عدوَّ الله! أنت دخلت علي حرمي، فتواثبا حتى اجتمع الجيران، وبلغ مالك بن أنس، فأتوا يعينون ربيعة، وكثر الضجيج، وكل منهما يقول: لا فارقتك. فلما بصروا بمالك؛ سكتوا. فقال مالك: أيها الشيخ! لك سعة في غير هذه الدار. فقال الشيخ: هي داري، وأنا فروخ فسمعت امرأته كلامه، فخرجت، وقالت: هذا زوجي وهذا ابني الذي خلفه وأنا حامل به، فاعتنقا جميعًا وبكيا، ودخل فروخ المنزل، وقال: هذا ابني؟ فقالت: نعم قال: أخرجي المال الذي عندك. قالت: تعرض: قد دفنته وأنا أخرجه. ثم خرج ربيعة إلى المسجد، وجلس في حلقته، فأتاه مالك والحسن وأشراف أهل المدينة، وأحدق الناس به، فقالت أمه لزوجها فروخ: اخرج فصل في مسجد رسول الله ﷺ، فخرج فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها، فوقف عليها، فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره، وعليه قلنسوة طويلة، فشك أبوه فيه، فقال: من هذا الرجل؟ فقيل: هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن: فقال: لقد رفع الله ابني. ورجع إلى منزله وقال لوالدته: لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحدًا من

أهل العلم والفقه عليها. فقالت: أمه فأيما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه؟ فقال: لا والله، بل هذا. فقالت: انفقت المال كله عليه، قال: والله ما ضيعتيه»[١].

هذه هي الأم المسلمة التي جلست في بيتها، وأنتجت لنا أعظم ثروة، صنعت الرجال العظماء الذين قادوا البشرية إلى الخير والرشاد.

٢ ـ الدعاء: على المسلم أن يدعو الله أن يرزقه الولد الصالح الذي ينفعه في حياته وبعد مماته، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٦].

٣ ـ أذكار البناء:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إذا تزوج أحدكم امرأة أو اشترى خادمًا فليقل: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه، وإذا اشترى بعيرًا فليأخذ بذروة سنامه، وليقل مثل ذلك**»[٢].

٤ ـ أذكار الجماع:

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: «**لو أن أحدكم إذا أتي أهله، قال بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، فقضى بينهما ولد، لم يضره الشيطان أبدًا**»[٣].

---

(١) راجع كتاب «عودة الحجاب» (٢/ ١٤١ ـ ١٤٥).

(٢) رواه أبو داود، وابن ماجه، وحسنه الألباني في «تخريج الكلم الطيب» (ص ١٢٢) وفي «آداب الزفاف» (ص١٧ ـ ١٨).

(٣) متفق عليه.

٥ ـ التأذين في أذن المولود:

يستحب التأذين في أذن المولود عند ولادته، وذلك لعدة أمور:

١ ـ لفعل النبي ﷺ، فقد قال أبو رافع رضي الله عنه: «رأيت النبي ﷺ أذَّن في أذن الحسن بن علي ـ حين ولدته فاطمة رضي الله عنها ـ بالصلاة»[١].

٢ ـ ولكي يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلمات التوحيد وشعار الإسلام.

٣ ـ وصول أثر التأذين إلىٰ قلبه وتأثره به وإن لم يشعر.

٤ ـ هروب الشيطان من كلمات الأذان، لأن الشيطان يترصده عند ولادته.

٥ ـ فيه معنىٰ من معاني انتصار الإنسان علىٰ الشيطان.

٦ ـ فيه إشارة إلىٰ أن وظيفة المسلم في الحياة هي الدعوة إلىٰ الله.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

٦ ـ تحنيك المولود:

يستحب تحنيك المولود عقب الولادة، اقتداء بالنبي ﷺ.

ولكن. ما التحنيك؟ وما الحكمة في ذلك؟

التحنيك: معناه مضغ التمرة، ودلك حنك المولود بها، وذلك بوضع جزء من الممضوغ علىٰ الأصبع، وإدخال الأصبع في فم المولود، ثم تحريكه يمينًا وشمالاً، بحركة لطيفة، حتي يتبلغ الفم كله بالمادة الممضوغة، وإن لم يتيسر التمر؛ فليكن التحنيك بأية مادة حلوة.

ولعل الحكمة في ذلك تقوية عضلات الفم بحركة اللسان مع الحنك مع الفكين بالتلمظ، حتىٰ يتهيأ المولود للقم الثدي، وامتصاص اللبن بشكل قوي

---

(١) رواه الترمذي وقال: «حسن صحيح»، وحسنه الألباني بشواهده في «الإرواء» (١١٥٩).

وحالة طبيعية، ومن الأفضل أن يقوم بعملية التحنيك من يتصف بالتقوىٰ والصلاح[١].

عن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: «ولد لي غلام، فأتيت به النبي ﷺ، فسماه إبراهيم، وحنكه بتمرة، ودعا له بالبركة، ودفعه إليّ»[٢].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يؤتىٰ بالصبيان فيدعو لهم بالبركة ويحنكهم»[٣].

٧ ـ اختيار الاسم الحسن:

علىٰ المسلم أن ينتقي لابنه من الأسماء أحسنها وأجملها، تنفيذاً لما أرشد إليه وحضّ عليه المصطفىٰ ﷺ.

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وبأسماء آبائكم، فأحسنوا أسمَاءكم**»[٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحب أسمائكم إلى الله عزَّ وجلَّ عبد الله وعبد الرحمن**»[٥].

٨ ـ العقيقة:

عن سلمان بن عامر الضبي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دمًا، وأميطوا عنه الأذى**»[٦].

---

(١) انظر «تربية الأولاد في الإسلام» (١/ ٧٧).

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود، وقال الألباني في «تخريج الكلم الطيب»، (١٢٤): «إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين».

(٤) رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٥) رواه مسلم في «صحيحه».

(٦) رواه البخاري في (كتاب العقيقة، باب إماطة الأذىٰ عن الصبي، ٩/ ٥٩٠ ـ فتح).

وعن أم كرز رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ عن العقيقة، فقال: «**عن الغلام شاتان، وعن الجارية شاة واحدة**»[١] .

٩ ـ التربية الإسلامية المتكاملة:

على الآباء والأمهات أن يعلموا أن أمر التربية ليس بالأمر اليسير، وإنما هو المحرك الأساسي لسلوك الولد فيما بعد، ولذا كان يجب على المربين ـ سواء كانوا آباء أو أمهات أو معلمين ـ أن يهتموا بأمر التربية، ويتقنوا أصولها، ولقد كان المسلمون الأوائل ينتقون لأولادهم أفضل المؤدبين علمًا، وأحسنهم خلقًا، وأميزهم أسلوبًا وطريقة، وإليك طرفًا من أخبارهم[٢] :

* وذُكِر أن عتبة بن أبي سفيان لما دفع ولده إلى المؤدب؛ قال له: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنيّ إصلاح نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت وعلِّمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء، وتهددهم بي، وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، ولا تتكلن على عذر مني، فإني قد اتكلت على كفاية منك.

* وذكر ابن خلدون في «مقدمته»: «أن هارون الرشيد لما دفع ولده الأمين إلى المؤدب قال له: يا أحمر! إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيِّر يدك عليه مبسوطة، وطاعتك له واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين: أقرئه القرآن، وعرِّفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلِّمه السنن، وبصِّره بمواقع الكلام، وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، ولا تَمُرَّنّ بك ساعة إلاَّ وأنت مغتنم فائدة تفده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا

(١) رواه أهل السنن، وقال الترمذي: «صحيح».
(٢) راجع: «تربية الأولاد في الإسلام» (١/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباها؛ فعليك بالشدة والغلظة».

وقال عبد الملك بن مروان ينصح مؤدب ولده: «علِّمهم الصدق كما تعلِّمهم القرآن، واحملهم على الأخلاق الجميلة، وروِّهم الشعر، يشجعوا وينجدوا، وجالس بهم أشراف الرجال وأهل العلم منهم، وجنِّبهم السفلة والخدم، فإنهم أسوأ الناس أدبًا، ووقِّرهم في العلانية، وأنِّبهم في السر، واضربهم على الكذب، إن الكذب يدعو إلى الفجور، وإن الفجور يدعو إلى النار».

وقال الحجاج لمؤدب بنيه: «علِّمهم السباحة قبل الكتابة فإنهم يجدون من يكتب عنهم، ولا يجدون من يسبح عنهم».

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل الشام يقول لهم: «علِّموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية».

وقال أحد الحكماء لمعلم ولده: «لا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن اصطكاك العلم في السمع وازدحامه في الوهم مضلة للفهم».

ومن وصية أحدهم في تربية الولد: «أن يكون مع الصبي في مكتبه صبية، حسنة آدابهم، مرضية عاداتهم، لأن الصبي عن الصبي ألقن، وهو عنه آخذ، وبه آنس».

قال هشام بن عبد الملك لسليمان الكلبي مؤدب ولده: «إن ابني هذا هو جلدة ما بين عيني، وقد وليتك تأديبه، فعليك بتقوى الله، وأدِّ الأمانة، وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله، ثم روِّه من الشعر أحسنه، ثم تخلّلَ به في أحياء العرب، فخذ من صالح شعرهم، وبصِّره طرفًا من الحلال والحرام والخطب والمغازي».

**** أصول التربية(١) :**

لابدَّ للمربين من معرفة أصول التربية الإسلامية والإلمام بجميع جوانبها، حتىٰ يقوموا بها خير قيام، ويعدُّوا لنا الجيل الذي يعود بالأمة المسلمة إلىٰ سيرة الأسلاف الكرام الذين سادوا الأرض بعزة الإيمان، وهاكم أصولها :

أولاً: التربية الإيمانية:

المقصود بالتربية الإيمانية ربط الولد منذ تعقّله بأصول الإيمان وتعويده منذ تفهمه أركان الإسلام، وتعليمه من حين تمييزه مبادىء الشريعة الغراء .

تعليمه أصول الإيمان؛ مثل : الإيمان بالله سبحانه، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب، والإيمان بالرسل، والإيمان بسؤال الملكين وعذاب القبر، والبعث، والحساب، والجنة، والنار، وسائر المغيِّبات .

وتعليمه أركان الإسلام مثل : الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج .

وتعليمه مبادىء الشريعة؛ مثل : أقضية الإسلام، وأحكامه، وقوانينه، ونظمه .

وينتج عن ذلك عدة أمور:

١ ـ حب الله تعالى: وذلك بلفت نظر الطفل إلىٰ نعم الله التي لا تعد ولا تحصىٰ .

فمثلاً لو جلس الوالد مع ولده علىٰ الطعام، فقال له : هل تعلم يا بني من أعطانا الطعام؟ فيقول الولد : من يا أبتي؟ فيقول الأب : الله .

فيقول الولد : كيف؟ فيقول الأب : لأن الله هو الذي يرزقنا ويرزق الناس

(١) راجع : «تربية الأولاد في الإسلام» (١٥٧ ، ٤١٢).

جميعًا، أو ليس هذا الإله بأحق أن نحبه يا ولدي؟ سيجيب الولد: بلىٰ.

ولو مرض الولد مثلاً: فيعوِّده الوالد علىٰ الدعاء، يقول له: ادع الله أن يشفيك؛ لأنه هو الذي يملك الشفاء، ثم يحضر له الطبيب، ويقول له: هذا الطبيب سبب فقط، ولكن الشفاء من عند الله، فإذا قدر الله له الشفاء؛ يقول: اشكر الله يا ولدي! ثم يبيِّن له فضل الله فيحبه؛ لأنه هو الذي أكرمه بالشفاء.

وهكذا في كل مناسبة، وعند كل نعمة تربطها بالمنعم، حتىٰ يغرس حب الله في قلب الولد الصغير.

٢ ـ حب الرسول ﷺ:

وذلك بتعليمه مواقف الرسول ﷺ، وشجاعته، ووفاءه، وحلمه، وكرمه، وصبره، وإخلاصه.

وبهذا يحب الولد نبيه ﷺ.

٣ ـ مراقبة الله تبارك وتعالى:

وذلك؛ لأنه يعلم أن الله مطَّلع عليه في كل حركة وسكنة، فسيراقبه ويخشاه، ويخلص في عمله ابتغاء مرضاة الله.

٤ ـ تعلمه أحكام الحلال والحرام:

وذلك لأن المربي سيبين له الحرام حتىٰ يجتنبه، والحلال المباح كي يفعله، والآداب الإسلامية كي يمتثلها.

وخلاصة القول: أن مسؤولية التربية الإيمانية لدىٰ المربين والآباء والأمهات لهي مسؤولية هامة وخطيرة، لكونها منبع الفضائل، ومبعث الكمالات، بل هي الركيزة الأساسية لدخول الولد في حظيرة الإيمان وبدون هذه التربية لا

ينهض الولد بمسؤولية، ولا يتصف بأمانة، ولا يعرف غاية، ولا يتحقق بمعنى الإنسانية الفاضلة، ولا يعمل لمثل أعلى ولا هدف نبيل، بل يعيش عيشة البهائم، ليس له همٌّ سوى أن يسد جوعته ويشبع غريزته، وينطلق وراء الشهوات والملذات، ويصاحب الأشقياء والمجرمين.

فعلى الأب أو المربي أن لا يترك فرصة سانحة تمر إلاَّ وقد زود الولد بالبراهين التي تدل على الله، وبالإرشادات التي تثبت الإيمان، وباللفتات التي تقوي جانب العقيدة.

وهذا أسلوب فعَّال في ترسيخ العقيدة في نفوس الصغار، ولقد استعمله رسول الله ﷺ، فها هو ينتهز فرصة ركوب عبد الله بن عباس خلفه على حمار، فيقول له: «يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1] .

وها هو يرى غلامًا تطيش يده في الصحفة أثناء تناوله الطعام، فيقول له: «**يا غلام، سمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك**»[2] .

ثانيًا: التربية الخُلُقية[3] :

التربية الخلقية هي مجموعة المبادئ الخلقية والفضائل السلوكية والوجدانية

---

(١) رواه: أحمد والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦/ ٣٠١) برقم (٧٨٣٤).

(٢) رواه البخاري (كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، ٩/ ٥٢١ ـ فتح) ومسلم في (كتاب الأشربة: ١٣/ ٣٩٣ ـ نووي).

(٣) راجع: «تربية الأولاد في الإسلام» (١/ ١٧٧).

التي يجب أن يتلقنها الطفل ويكتسبها ويعتاد عليها منذ تمييزه وتعقُّله ، إلىٰ أن يصبح مكلفًا ، إلىٰ أن يتدرج شابًا ، إلىٰ أن يخوض خِضَمَّ الحياة .

ومما لا شك فيه أن الفضائل الخلقية والسلوكية والوجدانية هي ثمرة من ثمرات الإيمان الراسخ والتنشئة الدينية الصحيحة .

فالطفل منذ نعومة أظفاره حين ينشأ علىٰ الإيمان بالله ، ويتربَّىٰ علىٰ الخشية منه ، والمراقبة له ، والاعتماد عليه ، والاستعانة به ، والتسليم لجانبه فيما ينوب ويروع ؛ تصبح عنده الملكة الفطرية ، والاستجابة الوجدانية ، لتقبل كل فضيلة ومكرمة والاعتياد علىٰ كل خلق فاضل كريم ، لأن الوازع الديني الذي تأصَّل في ضميره ، والمراقبة الإلهية التي ترسَّخت في وجدانه ، والمحاسبة النفسية التي سيطرت علىٰ تفكيره وإحساساته ، كل ذلك بات حائلاً بين الطفل وبين الصفات القبيحة ، والعادات الآثمة المرذولة ، والتقاليد الجاهلية الفاسدة ، بل إقباله علىٰ الخير يصبح عادة من عاداته ، وتعشقه المكارم والفضائل يصير خلقًا أصيلاً من أبرز أخلاقه وصفاته .

والعكس تمامًا حينما تكون التربية للطفل بعيدة عن العقيدة الإسلامية ، مجرَّدة من التوجيه الديني والصلة بالله عزَّ وجلَّ ، فإن الطفل - لا شك - يترعرع علىٰ الفسوق والانحلال ، وينشأ علىٰ الضلال والإلحاد بل سيتبع نفسه هواها ، ويسير خلف نوازع النفس الأمَّارة ، ووساوس الشيطان ، وفقًا لمزاجه وأهوائه وأشواقه الهابطة .

** الأخلاق الهابطة:

هناك عدة أخلاق منتشرة بين الأطفال ، لابدَّ من مراعاتها والتحذير منها ، وهي :

١ ـ خلق الكذب:

وهو خلق ذميم، فواجب على الآباء والمربين أن يراقبوا أولادهم حتى لا يقعوا في ذلك الخلق الشنيع.

ويكفي الكذب تشنيعًا وتقبيحًا أن عدّه الإسلام من خصال النفاق.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**أربع من كنَّ فيه، كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[(١)].

٢ ـ خلق السرقة:

وهو لا يقل خطرًا عن الكذب، وهو منتشر في البيئات المتخلفة التي لم تتخلق بأخلاق الإسلام ولم تتربَّ على مبادئ التربية والإيمان.

ومن المعلوم بداهة أن الطفل منذ نشأته، إن لم ينشأ على مراقبة الله والخشية منه، وإن لم يتعود على الأمانة وأداء الحقوق، فإن الولد ـ لا شك ـ سيدرج على الغش، والسرقة، والخيانة، وأكل الأموال بغير حق، بل يكون شقيًّا محرومًا؛ يستجير منه المجتمع، ويستعيذ من سوء فعاله الناس.

لهذا؛ كان لزامًا على الآباء أن يغرسوا في نفوس أبنائهم عقيدة المراقبة لله، والخشية منه، وأن يعرفوهم بالنتائج الوخيمة التي تنجم عن السرقة، وتستفحل بسبب الغش والخيانة.

---

(١) رواه البخاري في (كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، ١/ ٨٩ ـ فتح) ومسلم في (كتاب الإيمان، ١/ ٤٦، نووي).

٣ ـ خُلُق السباب والشتائم:

وهو خلق قبيح، منتشر في محيط الأولاد، خاصة مَنْ تربوا بعيداً عن هدي القرآن والالتزام بالإسلام.

يقول عبد الله علوان: «والسبب في انتشار ظاهرة السباب والشتائم بين الأولاد يعود إلىٰ أمرين:

الأول: القدوة السيئة: فالولد حينما يسمع من أبويه كلمات الفحش والسباب وألفاظ الشتيمة والمنكر... فإن الولد ـ لا شك ـ سيحاكي كلماتهم، ويتعوَّد ترداد ألفاظهم؛ فلا يصدر منه في النهاية إلاَّ كلام فاحش، ولا يتلفظ إلاَّ بمنكر القول وزوره.

الثاني: الخلطة الفاسدة: فالولد الذي يلقىٰ للشارع، ويترك لقرناء السوء ورفقاء الفساد، فمن البديهي أن يتلقن منهم لغة اللعن والسباب والشتيمة، ومن الطبيعي أن يكتسب منهم أحط الألفاظ وأقبح العادات وينشأ علىٰ أسوأ ما يكون من التربية الفاسدة والخلق الأثيم.

لهذا كله وجب علىٰ الأباء والأمهات والمربين جميعًا أن يعطوا للأولاد القدوة الصالحة في حسن الخطاب، وتهذيب اللسان، وجمال اللفظ والتعبير.

كما يجب عليهم أن يجنبوهم لعب الشارع، وصحبة الأشرار وقرناء السوء، حتىٰ لا يتأثروا من انحرافهم ويكتسبوا من عاداتهم.

ويجب عليهم كذلك أن يبصروهم مغبة آفات اللسان ونتيجة البذاءة في تحطيم الشخصية، وسقوط المهابة، وإثارة البغضاء والأحقاد بين أفراد المجتمع»[1] اهـ.

---

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» (١/ ١٨٨).

ويمكنك أن تلقي على أسماعهم بعض الأحاديث التي تنهي عن اللعن والسب؛ مثل:

حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[1].

حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه» قيل: يا رسول الله! وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه»[2].

٤ ـ خلق الميوعة والانحلال:

يقول عبد الله علوان: «أما ظاهرة الميوعة والانحلال، فهي من أقبح الظواهر التي تفشت بين أولاد المسلمين وبناتهم في هذا العصر الذي يلقب بالقرن العشرين، فحيثما أجلت النظر؛ تجد كثيراً من المراهقين الشباب والمراهقات الشابات قد انساقوا وراء التقليد الأعمى، وانخرطوا في تيار الفساد والإباحية، دون رادع من دين، أو وازع من ضمير، كأن الحياة في تصورهم عبارة عن متعة زائلة، وشهوة هابطة، ولذة محرمة، فإذا ما فاتهم هذا، فعلى الدنيا السلام.

وقد ظنَّ بعض ذوي العقول الفارغة أن آية النهوض بالرقص الماجن، وعلامة التقدم بالاختلاط الشائن، ومقياس التجديد بالتقليد الأعمى، فهؤلاء قد انهزموا من نفوسهم، وانهزموا من ذوات شخصياتهم وإراداتهم؛ قبل أن

---

(١) رواه: البخاري في (كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، ١/ ١١٠ ـ فتح)، ومسلم في (كتاب الإيمان ٢/ ٥٤ ـ نووي).

(٢) رواه البخاري في (كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، ١٠/ ٤٠٣ ـ فتح) ومسلم في (كتاب الإيمان، ٢/ ٨٣ ـ نووي).

ينهزموا في ميادين الكفاح والجهاد.

فترىٰ الواحد من هؤلاء ليس له هَمٌّ في الحياة إلاَّ أن يتخنفس في مظهره، وأن يتخلَّع في مشيته، وأن يتميع في منطقه، وأن يبحث عن ساقطة مثله ليذبح رجولته عند قدمها، ويقتل شخصيته في التودُّد إليها.... وهكذا يسير من فساد إلىٰ فساد، ومن ميوعة إلىٰ ميوعة، حتىٰ يقع في نهاية المطاف في الهاوية التي فيها دماره وهلاكه»[1].

ومن هنا يتعيَّن علىٰ المربي أن يهذِّب أخلاق الولد، وأن يبعده عن صحبة السوء، وأن يربطه بالصحبة الطيبة، وعليه أيضًا أن يباشر الولد؛ فإذا وجد منه اعوجاجًا؛ سارع بتقويمه قبل أن يتأصل فيه.

* * *

(١) تربية الأولاد في الإسلام» (١/ ١٩١).

الصفة الرابعة عشر

التقوى

﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

عباد الرحمن يدعون ربهم أن يرزقهم التقوىٰ، وأن يجعلهم أئمة يقتدىٰ بهم في الخير. والله تبارك وتعالىٰ يأمرنا بالتقوىٰ، فيقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** ﴾ [الأحزاب: ٧٠].

وقال سبحانه: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قيل: يا رسول الله! من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم» فقالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فُقِهوا[1]» [2].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم[3] فيها، فينظر كيف تعملون؛ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء[4]؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[5].

---

(١) (فقهوا)؛ بضم القاف وكسرها: أي: علموا أحكام الشرع.

(٢) رواه: البخاري، ومسلم.

(٣) (مستخلفكم)، بكسر اللام، أي: جاعلكم خلفاد في الدنيا، يخلف بعضكم بعضًا.

(٤) (اتقوا النساء) أي: احذروا فتنة النساء.

(٥) رواه مسلم

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أسألك الهدى التقى والعفاف والغنى**»(١).

وعن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من حلف على يمين، ثم رأى أتقى لله منها، فليأت التقوى**»(٢).

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع، فقال: «**اتقوا الله، وصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدُّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم؛ تدخلوا جنة ربكم**»(٣).

ولكن؛ ما هي التقوىٰ؟

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «التقوىٰ هي: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضىٰ بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل».

* * *

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه الترمذي، وقال: «حسن صحيح».

جزاء عباد الرحمن(*)

﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

نعم جزاء عباد الرحمن الجنة، ففي غرفها يجلسون، وعلى سررها يتكئون، وتحت ظلالها يسيرون، وفيها ينعمون، وهم فيها خالدون.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «الخيمةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَة، طُولُها في السَّماءِ ثلاثُونَ مِيلاً، في كُلِّ زَاوِيَةٍ منها للمُؤمنِ مِنْ أَهلٌ لا يَراهُمُ الآخَرُونَ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «قالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعدَدتُ لعِبادي الصَّالحينَ ما لا عَينٌ رأت ولا أُذُن سَمعَتْ ولا خَطَرَ عَلَى قَلب بَشَر، فاقرَؤُوا إن شِئْتُم: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾»(٢).

وعنه أيضًا رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ زُمرة تَلجُ الجنةَ صُورَتهم على صورة القمر ليلةَ البدر؛ لا يَبصُقُونَ فيها، ولا يَمتَخطُونَ ولا يَتَغَوَّطُونَ، آنيتهم فيها الذهبُ، أمشاطُهُم من الذهب والفضة، ومَجَامرُهُمُ الأَلُوَّةُ، ورشحُهُمُ المسكُ ولكل واحد منهم زوجتان يُرَى مُخُّ سُوقهما من وراء اللحم من الحُسن، لا اختلافَ بينهم ولا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُم قَلبٌ واحدٌ يُسبِّحُونَ اللهَ بُكرةً وعَشيًا»(٣).

وعنه أيضًا رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أولُ زُمرَةٍ تَدخُلُ الجنةَ

(*) راجع: «وصف الجنة من صحيح السنة» للمؤلف.
(١) رواه البخاري (٦/ ٣١٨ - فتح).
(٢) رواه البخاري (٦/ ٣١٨ - فتح).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٣١٩ - فتح).

على صُورَة القمر ليلةَ البدر، والذينَ على إثرهم كأشَدّ كَوكَب إضاءَةً، قُلُوبُهُم على قلب رَجلٍ واحد، لا اخْتلافَ بينهم ولا تَبَاغُضَ»[١].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: أهدي للنبي ﷺ جبة سندس، وكان ينهى عن الحرير، فعجب الناس منها، فقال: «والذي نفس محمد بيده؛ لمناديل سعد ابن مُعاذ في الجنة لأحسنُ من هذا»[٢].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «موضعُ سوطٍ في الجنَّة خَيرٌ منَ الدُّنيا ومَا فيها»[٣]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة لَشَجَرةً يسيرُ الرَّاكبُ في ظلِّهَا مائةَ عامٍ لا يَقطَعُها»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقابُ قوس أحَدكُم في الجنة خيرٌ مما طَلَعَتْ عَلَيه الشَّمسُ أو تَغرُبُ»[٥].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أهلَ الجنة يَترَاءَونَ أهلَ الغُرَف من فوقهم كما تَتراءَونَ الكَوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابر في الأفُق من المشرق أو المغرب لتَفاضُل ما بَينَهُم». قالوا يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والَّذي نَفْسي بيَده؛ رجَالٌ آمنوا باللَّه وصَدَّقُوا المرسَلينَ»[٦].

* * *

(١) رواه البخاري (٦/ ٣١٩ ـ فتح).
(٢) رواه البخاري (٦/ ٣١٩ ـ فتح).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٣١٩ ـ فتح).
(٤) رواه البخاري (٦/ ٣١٩ ـ فتح).
(٥) رواه البخاري (٦/ ٣٢٠ ـ فتح).
(٦) متفق عليه.

خاتمة

وبعد أيها المسلمون!

فهذه الجنة، وهذه طريقها؛ فسارعوا إليها قبل فوات الأوان . . .

قبل أن يدرككم الموت، فتقولون: ربنا أرجعنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل؛ فلا يُسمع لكم ولا يُجاب طلبكم.

وابدؤوا طريقكم هذا بتوبة نصوح

وأقبلوا على الله بصدق وإخلاص، فإن الله يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها[١].

واعلموا عباد الله أن الجنة ليست بالشيء الهين اليسير، إنما هي سلعة غالية . . .

فهذا نبينا ﷺ ينادينا: «ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[٢].

فالجنة تحتاج إلى جهاد . . . جهاد طويل، وصبر، ومثابرة، وصدق، وإخلاص، وعلم، وعمل . . .

فهيا إلى الطريق . . .

والله معكم.

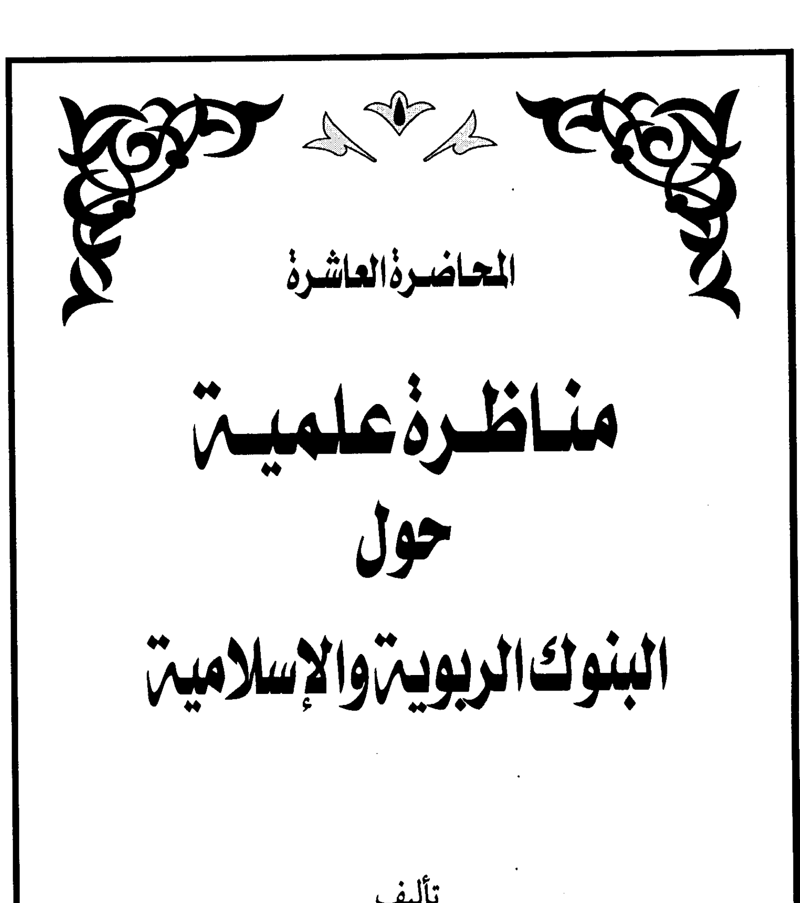
وصلِّ اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

---

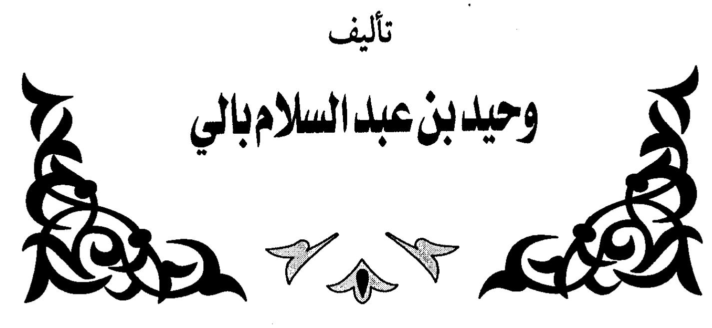
(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي وحسنه.



المحاضرة العاشرة

مناظرة علمية حول البنوك الربوية والإسلامية



تأليف

وحيد بن عبد السلام بالي

(المبتكرات)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وكما يحب ربنا لنفسه ويرضىٰ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد:

فهذه مناظرة علمية هادئة حدثت بيني وبين أحد طلبة العلم عن موضوع البنوك وفوائدها وما يتعلق بها من الناحية الشرعية، وتخللتها فوائد حديثية وفقهية وأصولية نافعة، والله أسأل أن ينفع بها من طلب الحق، وأراد الصواب، وأن يبصر بها من العمىٰ، ويهدي بها من الضلالة، وأن لا يحرمني أجرها في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

وكتبه

وحيد عبد السلام بالي

منشأة عباس في غرة المحرم سنة ١٤١٨هـ

الجلسة الأولى

١ ـ سبب المناظرة .

٢ ـ التعريف الصحيح للربا .

٣ ـ هل الزيادة على رأس المال ربا محرم؟

٤ ـ استدلال في غير محله .

٥ ـ نقض الاستدلال .

٦ ـ فهم العلماء للحديث .

٧ ـ خلاصة هذه النقطة .

٨ ـ نطق المناظر بالحق وسلَّم بهذه المسألة .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن يا كريم

١ ـ سبب المناظرة

جاءَني مستبشراً مسروراً وهُو يقولُ: الحمدُ للهِ الذي جعلَ لنا مخرجًا.

قلت: أضحكَ اللهُ سِنَّكَ ـ ما الذي حَدَثَ؟

قـــال: لقدْ كنتُ متخوفًا مِنْ وضعِ المال في البنك خشيةَ أن يكونَ فيهِ شُبْهةُ حرامٍ، فتبينَ أنه لا حُرْمةَ فيه.

قلت: البنوكَ الإسلامية تعني؟

قال: لا . . بل البنوكُ التجاريةُ والوطنيةُ . . كلُّه حلالٌ، والحمدُ لله.

قلتُ: هذه البنوكُ التي تحددُ نسبةَ الرِّبا مقدمًا حلالٌ لا شيءَ فيها؟!

قالَ: نعم . . ألَم تقرأْ الكلمةَ الأخيرةَ في جريدةِ أخبارِ اليومِ الصادرة بتاريخ (٢٢ / ٢ / ١٩٩٧) لفضيلة الإمامِ الأكبرِ د. محمد سيِّد طنطاوي شيخِ الأزهرِ الجديدِ؟

قـلـتُ: ماذا قال؟ لعلهَّ راجع نفسه، وبحثَ الموضوعَ من جديد بعدَ ردودِ العلماء عليه من داخل مصر وخارجها.

قـال: كتب مقالاً بعنوان: «هذه كلمتي الأخيرةُ في معاملات البنوك» وذكر

أدلةً من البخاريِّ بأنَّ فوائدَ البنوكِ حلالٌ حتَّى وإنْ حُدِّدت مقدمًا، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

قلتُ: الحمدُ لله على كلِّ حالٍ. ماذا قال؟

قال: لقدْ جاءَ الشيخُ بأدلةٍ نقليةٍ وعقليةٍ قويةٍ جدًا لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يردَّها.

قلتُ: ماذا قال يا أخي الكريم؟

قال: ذكر أنه سيلخِّص كلمتَه في سؤالٍ وجَوَاب لتكونَ واضحةً لا غموضَ فيها.

قلتُ: هاتِ الأسئلَة المهمةَ التي فهمتَ منها تحليلَ فوائدِ البنوكِ الربويةِ.

* * *

٢ـ التعريف الصحيح للربا

قال: قال: ما تعريفُ الربا؟

قلتُ: جيِّد.. إنَّ تصوُّرَ الأمر قبلَ الحديث عنهُ منَ الأسلوب الجيد في العرض. فماذا قال في تعريفه؟

قال: قال: الربا زيادةٌ على رأس المال لا يقابلها عوضٌ مشروعٌ.

قلتُ: وهلْ أنت مقتنعٌ بهذا التعريف؟

قال: هو لم يتعرضْ فيه للنوع للثاني من الربا وهو ربا الفضلِ، لكنَّه يتكلمُ عن النوعِ المنتشرِ في البنوكِ وهُو ربا النسيئة، فهو تعريفٌ صحيحٌ لربا النسيئة؟

قلتُ: لا.. بلْ هو تعريفٌ ناقصٌ حتَّى لربا النسيئةِ.

قال: كيف ذلكَ؟

قلتُ: هو زيادةٌ (مَشْرُوطةٌ) على رأس المال لا يقابلُها عِوضٌ مشروعٌ، وراجعْ أحكام القرآنِ للجَصَّاصِ (١/ ٤٦٥) مثلاً.

قال: وما الفرقُ بين التعريفينِ؟

قلتُ: الفرقُ واضحٌ جداً، وهو حذفُه لكلمةِ «مَشْرُوطَةٌ» التي تُعطي قيداً هامًا في التعريف.

قال: نعمْ، الفرقُ واضحٌ بينَ التعريفينِ، وما كانَ ينبغي له أنْ يحذفَ كلمة «مَشْرُوطةٌ».

قلتُ: ثمَّ ماذا؟

٣ ـ هل الزيادة على رأس المال ربا محرم؟

قــال: ذكر سؤالاً هامًا، يقولُ فيه، هل كلُّ زيادةٍ على رأس المال تعدُّ من الربا المحرم شرعًا؟

ثُمَّ أجابَ قائلاً: «لا أستطيعُ أنْ أقولَ بأنَّ كلَّ زيادة على رأس المال تعدُّ من الربا المحرَّم شرعًا؛ لأنَّ آياتِ القرآن الكريم وأحاديث الرَّسول ﷺ لا تؤيدُ ذلك، بل تؤيد الدعوة إلى غرس روح المروءة وردِّ الجميل بجميل أفضل منه».

قلتُ: جيِّد.. ما الأدلةُ من القرآن على أنَّ الزيادة على رأسِ المال لا تعدُّ ربًا محرمًا؟

* * *

٤ ـ استدلال في غير محله

قال: ذَكَرَ آيتينِ:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

قلتُ: أكرمك الله بالعلمِ النافعِ والفهمِ الثاقبِ ـ بالله عليكَ هل في هاتين الآيتينِ دليلٌ علىٰ محلِّ النزاعِ من قريب أو بعيدٍ، بالمنطوقِ أو المفهومِ، بالظاهرِ أو المؤولِ، بالنصِّ أو الإشارةِ، بالتصريحِ أو الاقتضاءِ؟ أرشدني أرشدَك الله.

قال: صراحةً.. ليس فيها أيُّ دليلٍ علىٰ المطلوبِ.

قلتُ: ثُمَّ ماذا؟

قال: ثُمَّ جاء بحديثٍ صحيحٍ صريحٍ في جواز أخذِ الزيادةِ علىٰ رأس المالِ من البنوكِ وغيرِها.

قلتُ: ما هُو؟

قال: ما رَوَاه مُسلمٌ في صَحِيحه (١١ / ٣٧) عنْ أبي رافعٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ استسلف منْ رجلٍ بَكْرا فقدِمت عليه إبلٌ منْ إبلِ الصدقة، فأمر أبا رافع أن يقضي الرجلَ بَكْرَهُ، فرجَع إليه أبو رافعٍ فقالَ: لم أجدْ فيه إلا

خياراً رَبَاعِيًّا، فقال: «**أعْطه إيَّاه، إنَّ خَيْرَ النَّاسِ أحْسَنُهُمْ قَضَاءً**».

فهذا الرجلُ أقرض النبيَّ ﷺ بَكْرًا أيْ جملاً سنُّهُ ثلاثُ سنواتٍ، فردَّه النبيُّ ﷺ رَبَاعيًا (أيْ جَمَلاً سِنُّه ستُّ سَنَوات) أيْ أفضلُ منه وأكثرُ ثمنًا، فلو فرضنا أنَّ البَكْرَ يقدَّرُ بألفِ درهم، والرَّباعي يقدَّرُ بألفٍ وخمسمائةٍ فيكونُ قدْ زادَه خمسمائةِ درهمٍ، فهلْ تعدُّ هذه الزيادةُ على رأس المال ربًا؟!

قلتُ: لا تُعَدُّ ربا.

قال: إذًا تحديدُ البنوكِ النسبةَ مقدمًا ليسَ ربًا.

قلت: بلْ تحديدُ البنوكِ الزيادةَ مقدمًا هوَ الربا بعينِه، ولا دلالةَ في الحديثِ على ذلكَ.

❊ ❊ ❊

٥ـ نقض الاستدلال

قال: كيف وقدْ زادَه عندَ القضاءِ؟

قلتُ: هل الرجلُ حدَّد الزيادةَ مقدمًا ـ بمعنىٰ أنَّه اشترطَ علىٰ النبيِّ ﷺ أن يردَّ البَكْر رَباعيًا؟

قال: لا، لم يشترطْ، ولم تحدَّد الزيادةُ مقدمًا.

قلتُ: ولكنَّ البنك يحدِّدُ الزيادةَ مقدمًا، فهي ربا.

قال: وما الفرقُ بين الزيادةِ المشروطةِ وغيرِ المشروطةِ؟

قلتُ: إذا اتفقَ الطرفانِ قبل القرضِ، أو اشترطا، أو تطلعَ أحدُهما إلىٰ زيادةٍ علىٰ رأسِ مالهِ صارتْ ربا، وإلا فليستْ بربا.

قال: وهلْ فهِمَ أحدٌ منَ العلماءِ هذا الفهمَ قبَلك أمْ أنتَ جئتَ به منَ عندِ نفسِك؟!

* * *

٦- فهم العلماء للحديث

قلتُ: بلْ هو فهمُ عامةِ أهلِ العلمِ من شُرَّاحِ الحديثِ النبويِّ.

قال: مثلُ مَنْ؟

قلتُ: افتحْ صحيحَ مسلم (كتاب المساقاة - باب من استسلف شيئًا فقضى خيرًا منه) بشرحِ النوويِّ الجزء الحاديَ عشرَ، صحيفةَ رقم (٣٩) في شرحِ هذا الحديثِ، واقرأْ ماذا قال الإمامُ النوويُّ - رحمه الله تعالى.

قال: قال الإمامُ النوويُّ - رحمه الله -: وفي هذه الأحاديث أنَّه يستحبُّ لمنْ عليهِ دَيْن منْ قرضٍ وغيره، أنْ يردَّ أجودَ من الذي عليه، وهذا من السنة ومكارمِ الأخلاق، وليسَ هوَ من قرضٍ جرَّ منفعةً فإنَّه منهيٌّ عنه؛ لأنَّ المنهيَّ عنهُ ما كان مشروطًا في عقدِ القرض.

قلتُ: تحقَّقْ من العبارة الأخيرة (لأنَّ المنهيَّ عنه - يعني من الزيادةِ على رأسِ المالِ - ما كان مشروطًا في عقدِ القرضِ).

قلتُ له: أسألُكَ بالذي خلقَك فسوَّاك فعدَلك، أيتمُّ الأشتراطُ مع البنك على الزيادة مقدمًا أم لا؟

قال: لعلَّ هذا رأيٌ خاصٌّ بالإمامِ النوويِّ - رحمه الله.

قلتُ: ليسَ رأيًا خاصًا بلْ هوَ قولُ جمهورِ الأمة منذُ عهد الصحابة حتَّى يومنا هذا، ولا أعلمُ أحدًا من العلماءِ المعتدِّ بقولِهم قدْ خالفَ في هذا الأصل.

قال: اذكرْ لي أحداً من العلماءِ المعتبرين وافقَ الإمامَ النوويَّ على ذلك.

قلتُ: ماذَا تقولُ في الحافظِ ابنِ حَجَر العَسْقَلاني - عليهِ رحمةُ الله؟

قـال: هذا إمامٌ عَلَم، بلْ إليه المنتهىَ في عِلْم الحديثِ والرجالِ، وله الفضلُ على الأمـة في حَلِّ ألفـاظِ «صـحيحِ البـخـاريِّ» وإظهـارِ أسـرارِ هذا الكتـابِ المباركِ، ويكفيهِ منْ مؤلفاته «فتحُ الباري بِشَرْح صحيح البُخَاري»، ومنْ كثرةِ العلومِ التي أودعَـهـا في هذا الكتابِ «فَتْح البـاري» قيلَ فيـه: (لا هـجرة بعدَ الفتحِ).

قلتُ: إذاً افتحْ هذا الكتابَ «فتحُ الباري بشرحِ صحيحِ البخاري» المجلدَ (٥) صحيفة (٧٠) كتابَ الاستقراضِ، باب استِقْراض الإبِل، ماذا قال؟

قال: اقرأْ أنتَ.

قلتُ: لا.. سوفَ أحضرُ لكَ الموضعَ وتقرأُ أنتَ بنفسك.

قـال: يقولُ الحـافظُ - رحمهُ الله: وفي الحـديث جوازُ وفاء ما هُو أفضلُ منَ المِثْلِ المقتَرَضِ إذا لَمْ تقع شرطيةُ ذلكَ في العقـدِ فيـحرُم حينئذٍ اتفـاقًا، وبه قـال الجمهورُ.

قلتُ: اقتنعتَ؟

قال: نعمْ.

* * *

٧ـ خلاصة هذه النقطة

قلتُ: ماذا فهمتَ منْ كلامِ العلماءِ على الحديث؟

قال: فهمتُ أن العلماء متفقون على أنَّ الزيادة على رأس المال تكونُ من الرِّبا المحرمِ إذا تمَّ اشتراطُ ذلكَ في العقد، أمَّا إذا لَم يُتفقْ على ذلكَ في العقدِ فَرَدَّ المدينُ رأسَ المالِ وزادَه شيئًا منْ عندِه بلا اتفاقٍ مسبَّق أو تطلُّع من الدائنِ فهذا جائزٌ لا شيء فيهِ.

قلتُ: أحسنتَ، ولكنْ ماذا فهِمَ منه شيخُ الأزهرِ الجديدُ؟

قال: فهِم منهُ جوازَ اشتراطِ هذه الزيادة مقدمًا.

قلتُ: هلْ سبقَه بهذا الفهمِ أحدٌ من علماءِ الأمةِ؟

قال: الظاهرُ أنَّه لم يسبِقْه أحَد لقولِ الحافظِ في الفتحِ: «... فيحرُم حينئذٍ اتفاقًا».

* * *

٨ـ نطق المناظر بالحق وسلم بهذه المسألة

قلتُ: قلِ الحقَّ ولا تَخْشَ في اللهِ لومةَ لائم، أأصابَ الشيخُ أم أخطأ؟

قال: الحقُّ أنَّه أخطأ في هذه المسألة.

قلتُ: إذًا الفائدةُ التي تعطيها البنوك، وقدِ اتفقَ عليهَا البنكُ معَ العميلِ مقدمًا، جائزةٌ أم لا؟

قال: الظاهرُ منَ الحديثِ وكلامِ العلماءِ أنَّها زِيادةٌ ربَوِيةٌ فهي حَرَام.

* * *

الجلسة الثانية

١ - دليل آخر للمناظر .

٢ - المناظر يقرأ الرد على نفسه بنفسه .

٣ - هل التراضي يحل حرامًا أو يحرم حلالاً؟

٤- المناظر يقتنع بهذه الجزئية .

٥ - المناظر يعترض .

٦ - دليل مضحك!!

٧ - المصالح والأحكام الشرعية .

٨ - اعتراضات .

٩ - أنواع المصالح .

١٠ - إلزام المناظر بالجواب الصحيح .

١١- المناظرة تخرج عن حد الهدوء .

١٢ - المناظر لا يعرف قوانين البنوك الإسلامية .

١٣ - المناظر يعترف بالحق ويسلم بالنتيجة .

١٤ - المتناظران يفترقان .

١- دليل آخر للمناظر

قلتُ: وهلْ ذكرَ الشيخُ أدلةً أخرىٰ؟

قــال: نعمْ، ذكرَ الحديثَ الذي رواهُ البيهقيُّ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: أتىٰ رجلٌ رسول الله ﷺ يسألهُ، فاستسلفَ له رسولُ الله ﷺ شَطْرَ وَسْق فأعطَاهُ إياه، فجاءَ الرجلُ يتقاضاه فأعطاه وَسْقًا وقال: «**نصفٌ لكَ قضاء، ونصفٌ لكَ نائلٌ**» (أيْ من عندي).

والوَسْق ستُّونَ صاعًا، فيكونُ الرجلُ أعطىٰ النبيَّ ﷺ ثلاثينَ صاعًا فردَّه النبيُّ ﷺ ستينَ صاعًا.

قلتُ: وهل اتفقَ النبيُّ ﷺ والرجلُ علىٰ الزيادة مقدمًا؟

قال: لا . . لم يتفقا علىٰ ذلك وإنَّما زادَه النبيُّ ﷺ كرمًا وجُودًا.

قلتُ: إذًا ليسَ ذلكَ ربا؛ لأنَّهما لم يشترِطا، وهذا فهمُ العلماءِ للحديث.

قال: ومنْ أخبرَك بذلكَ؟

قلتُ: منْ روىٰ الحديث؟

قال: رواه البيهقيُّ في «السننِ الكبرىٰ».

قلتُ: أحضِر «السننَ الكبرىٰ»، المجلدَ (٥) صحيفةَ (٣٥١).
واقرأ بِمَ ترجمَ له الإمامُ البيهقيُّ - رحمه الله.

قال: يقولُ البيهقيُّ: باب الرجلُ يقضيهِ خيرًا منهُ بلا شرط طَيِّبَةً به نَفْسُهُ.

قلتُ: انظُر، الرجلُ يقضيه يعني يردُّ القرضَ خيراً منهُ بلا شرطٍ أيْ بلا اتفاق بينهما مسبقًا، طيبةً بها نفسُه.

وهذه الصورةُ نحنُ متفقون على جوازِها.

قال: أليستْ فائدةُ البنكِ كذلكَ.

قلتُ: حينما يذهبُ الرجلُ ليضعَ مائةَ ألفٍ في البنك الربويِّ، ما الذي يحدثُ؟!

قال: يتفق معَ البنكِ على الزيادةِ أو ما يسمَّى بالفائدةِ كمْ بالمائة.

قلتُ: نعمْ، يتفقُ معه مثلاً أن أمواله ستزادُ سنويًا (١٠٪) مثلاً، ويأتي آخرُ ليقترضَ من البنك مالاً لحاجة ضرورية أو غير ضرورية، فيعطيهِ البنكُ ويشترطُ عليه أنْ يردّ المبلغَ وزيادةَ (١٧ ٪) مثلاً، فيحدث الشرطُ عندَ القرضِ والإقراضِ، فيقعُ البنك في الربا مرتين.

قال: إذًا نخلُص منْ ذلكَ إلى أنَّ الاتفاقَ على الزيادةِ مقدمًا أو التطلعَ إليها يُعَدُّ ربًا لا يجوز.

* * *

٢ـ المناظر يقرأ الرد بنفسه

قلتُ: لن أجيبَك عن هذا السؤال .

قال: لِمَ؟

قلتُ: سوفَ أتركُ الصحابيَّ الجليل عبد الله بن عمرَ رضي الله عنهما يُجيبك .

قال: ماذا قال؟

قلتُ: ما زالتْ «سننُ البيهقيِّ الكبرىٰ» بينَ يديكَ ، افتحْها علىٰ البابَ الذي قبلَه واقرأ .

قال: يقولُ البيهقيُّ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ :

بـاب: لا خير أن يُسْلفَه سلفًا علىٰ أنْ يقبِضَه خيراً منه ، أخبرنا أبو أحمد المهرجاني ، أنا أبو بكر بن جعفر المزكىٰ ، ثنا محمدُ بن إبراهيمَ ثنا ابنُ بُكَير ثنا مالك عن نافع أنه سمعَ عبد الله بن عمر يقول . . .

قلتُ: حسبُك ، أتدري ما معنىٰ (أنا) ، (ثنا)؟

قال: نعمْ ، (أنا) اختصارٌ للكلمةِ (أنبأنا) ، و (ثنا) اختصارٌ للكلمة (حدثنا) .

قلتُ: أحسنتَ . . أكمِلْ .

قال: . . مالك عن نافع أنه سمعَ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ يقولُ : منْ أسلف سَلفًا

فلا يشرطْ إلا قضاءه .

قلتُ: إذًا لا يجوزُ للمُقرضِ ولا للمقترضِ أن يشترطا زيادةً على رأس المال .

قال: أكملُ؟

قلتُ: نعمْ .

قال: ثمَّ يقولُ البيهقيُّ - رحمه الله تعالى -: أخبرنا أبو أحمدَ، أنا أبو بكر ثنا محمد، ثنا ابنُ بكير، ثنا مالك أنه بلَغه أنَّ رجُلاً أتى عبد الله بن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن إنِّي أسلفتُ رجلاً سلفًا فاشترطتُ عليه أفضلَ مما أسلفتُه، فقال عبد الله بن عمر: فذلك الربا. قال: فكيف تأمرُني يا أبا عبد الرحمن؟ فقال عبدُ الله: السلفُ على ثلاثةِ وجوهٍ:

- سلَف تُريدُ به وجهَ الله، فلكَ وجهُ الله .
- وسلف تريدُ به وجه صاحبك، فلكَ وجهُ صاحبك .
- وسلف تُسْلفُه لتأخذَ خبيثًا بطيبٍ فذلكَ الرِّبا .

قال: فكيفَ تأمرُني يا أبا عبد الرحمنِ؟

قال: أرى أنْ تشقَّ الصحيفة . . .

قلتُ لصاحبي: هذا الأثرُ - برغمِ الانقطاعِ بينَ مالك وابنِ عمر - لم يعلقِ البيهقيُّ عليه؛ لأنَّ الحكمَ متفقٌ عليه بينَ الأمةِ .

قلتُ: لقدْ بيَّنَ الصحابيُّ الجليلُ ابنُ عمر أنَّ السلف على ثلاثةِ وجوهٍ . . .

فمنْ أيِّ هذه الوجوه يقعُ القرضُ للبنكِ؟

قال: المقرضُ للبنك لا يريدُ وجه الله ولا وجهَ البنك.

قلتُ: إذًا لم يبقَ إلا النوعُ الثالثُ، وهو (سلفٌ تُسْلفُه لتأخذَ خبيثًا بطيِّب - يعني زيادةً خبيثةً ومَكْسبًا حرامًا برأسِ مالٍ طيب «حَلال» - فذلكَ الرِّبا)، وهو الذي يحدثُ في البنوكِ الربوية الآنَ.

قال: معنى ذلك أنَّ الرجل إذا أعطى للبنك مبلغًا منَ المال، واتفقَ مع البنك على زيادة معينة وإنْ قلَّتْ فهي ربا؟

قلتُ: نعمْ... هذا هو الذي تؤيدُه الأدلةُ الصحيحة التي ذكرناها آنفًا.

قال: ولكنَّ شيخَ الأزهرِ قدْ ذكرَ دليلاً آخرَ على جوازِ فوائدِ البنوكِ!

قلتُ: ما هو؟!

قال: يقولُ: وتحديدُ نسبة الربح مقدمًا لا علاقةَ له بالحلِّ أو الحرمة، ما دامَ الطرفانِ قدْ تراضَيَا عنْ طَوَاعيَة واختيارٍ.

* * *

٣ ـ هل التراضي يحل حرامًا أو يحرم حلالًا؟

قلتُ: وهلْ أنتَ مقتنعٌ بهذهِ الشبهةِ؟

قال: لِمَ لا . . والطرفانِ متراضيانِ؟!

قلتُ: لقدْ ثبتَ بالأدلة الصحيحةِ منَ الكتابِ والسنةِ والإجماعِ أنَّ الزيادةَ المشروطة على رأسِ المالِ عندَ الإقراضِ أو الاقتراضِ يعدُّ ربًا محرمًا شرعًا .

قال: هلْ يمكنُ أنْ تذكِّرَني بها مرةً أخرى؟

قلتُ: أولاً : من القرآن الكريم :

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩] .

ويؤخذُ منْ هاتينِ الآيتينِ أنَّ المرابيَ لا يأخذُ إلا رأسَ ماله فقطْ، لا يطلُبُ زيادةً فيظلم المقترضَ، ولا يُنقصُ من حقِّه فيُظلَم ﴿ **لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** ﴾ .

وإذا أردتَ يا أخي الكريم أنْ تتحقَّقَ منْ هذا التفسيرِ، فراجعْ «المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيزِ» للقاضي أبي محمَّد عبد الحقِّ الأندلسيِّ المشهورِ بابنِ عطيَّةَ المتوفَّى سنة (٥٤٦هـ) في المجلدِ (٢) صَحيفة رقم (٣٥١) .

وراجعْ «زاد المسير في علمِ التفسيرِ» للإمامِ ابنِ الجوزيِّ المتوفَّي سنة (٥٩٧هـ) المجلد (١) صَحيفة رقم (٣٣٤) .

وراجعْ أيضًا «تفسير القرآنِ العظيمِ» للإمامِ الحافظِ ابنِ كثيرٍ المتوفَّي سنة

(٧٧٤هـ) المجلد (١) صحيفة رقم (٣٣٢).

وراجعْ كذلكَ تفسيرَ العلامةِ الألوسيِّ المسمَّىٰ (رُوح المعاني في تفسيرِ القرآن العظيم والسبعِ المثاني»، والألوسي متأخر تُوفِّيَ سنةَ (١٢٧٠هـ). راجعِ المجلدَ (٣) صحيفة رقم (٨٦).

فالأصلُ في المقرِض أن يأخذ رأسَ ماله فقطْ، والزيادةُ المتفقُ عليها مسبَّقًا ربًا محرَّم خبيثٌ.

قال: نعمْ، دلالةُ الآية واضحةٌ على عدمِ أخذِ الزيادةِ، ولكن ذكرْتَ لي أنَّ هناكَ أدلةً منَ السُّنةِ. . فما هي؟

قلتُ: روىٰ البخاريُّ ومسلمٌ من حديث أبي سعيد الخُدْري قالَ: قال رســولُ الله ﷺ: «**الذَّهَبُ بالذَّهَب، والفضَّةُ بالفضَّة، والبُرُّ بالبُرِّ، والشَّعيرُ بالشَّعير، والتَّمْرُ بالتَّمْر، والملْحُ بالملحِ، مثْلاً بمثْلٍ، يَدًا بيَد، فَمَنْ زَادَ أو اسْتَزَادَ فَقَدْ أرْبَىٰ، الآخذُ والمُعْطي فيه سَوَاءٌ**».

وقدْ مرَّ معنا قولُ ابن عمر رضي الله عنه أنَّه لا يجُوز للمُقرِض أن يشترطَ زيادةً علىٰ رأسِ المال.

قلتُ: ثالثًا الإجماعُ:

قال الإمام ابن المنذر - رحمه الله تعالىٰ في كتابه (الإجماع) في آخرِ كتابِ البيوعِ منه (١٠٧) فقرة رقم (٥١١) - «وأجمعوا علىٰ أنَّ المسْلفَ إذا شَرَطَ عندَ السلفِ هديةً زيادةً فأسلفَ علىٰ ذلكَ أنَّ أخذَه الزيادةَ ربًا».

وقد نقل الإجماعَ أيضًا ابنُ قدامة - رحمه الله تعالىٰ - في كتابه القيِّم - «المغني»، المجلَّد (٦) صحيفة (٤٣٦) فقالَ: «وكُلُّ قرضٍ شَرَطَ فيه أنْ يزيدَه فهو حرامٌ بلا خلافٍ». اهـ.

٤ـ المناظر يقتنع بهذه الجزئية

قال: نعمْ، قد اقتنعتُ أنَّ الاتفاقَ على الزيادةِ على رأسِ المالِ حرامٌ بالقرآنِ والسنةِ والإجماعِ.. لكنَّك لم تجبْني عنِ الدليلِ الذي ذكره الشيخُ.

قلتُ: ما هُو؟

قال: التراضي.

قلتُ: إذا ثبتَ أنَّ هذه الصورةَ محرمةٌ شرعًا، وهي الإقراضُ أو الاقتراضُ معَ الاتفاقِ على الزيادةِ فهل التراضي بينَ الطرفينِ يُحِلُّ المحرَّم؟

قال: لا أدْري.

قلتُ: منَ المعلومِ منَ الدينِ بالضرورةِ أنَّ الأمرَ إذا ثبتتْ حرمتُه شرعًا فلا يُحِلُّه التراضي.

* * *

٥ـ المناظر يعترض

قال: كيف وقدْ رضي الطرفانِ يا شيخُ؟

قلتُ: لا تغضبْ يا أخي الكريم، وأجِبْني عنْ هذا السؤال.

قال: سلْ.

قلتُ: زنى رجلٌ بامرأةٍ وهما متراضيانِ فهلِ الزِّنا يصيرُ في حقِّهِمَا حلالاً؟

قال: لا.. أعوذُ بالله.

قلتُ: تزوَّجَ رجلٌ بأختِه الشقيقةِ وهما متراضيانِ، فهلَ هذا الزواجُ صحيحٌ؟

قال: هذا زواجٌ باطلٌ، وهُما آثمانِ مذنبانِ.

قلتُ: أرأيت يا أخي الكريم أنَّ التراضي لا يحل محرَّمًا؟

قال: جزاكَ الله عنِّي خيراً، فقدْ كنتُ حينما قرأتُ كلامَ شيخِ الأزهرِ، ظننتُ أنَّ التراضيَ بينَ الطرفينِ يُذهب حرمةَ الرِّبا.

قلتُ: كما أنَّ التراضيَ بين الزانيين لا يُذهب حرمةَ الزنا، كذلكَ التراضي بينَ المرابيينِ لا يُذهب حرمةَ الربا.

قال: صدقَ رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ يُرِد اللهُ به خيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين**» وإنَّ المسلمَ بلا فقهٍ قدْ يضِل بأقلِّ شبهةٍ، بلْ يقعُ في المحَرمات وهو لا يَدْري.

قلتُ: هلْ بقي لشيخِ الأزهرِ شيءٌ منَ الشُّبهاتِ يتعلقُ به في تحليلِ الفوائدِ الربوية التي هيَ منَ الكبائرِ؟

قال: لقدْ ذكرَ دليلاً عجيبًا استدلَّ به على جواز تحديدِ الزيادة مسبقًا على رأسِ المال!

قلتُ: ما هو؟

قال: يقولُ: إنَّ كلَّ شيءٍ في هذا الكون محدَّد، فالمرتَّبات محدَّدة، والأسعارُ في كثيرٍ منَ السلعِ محدَّدة، والأيامُ والشهورُ والسنونَ محدَّدة!!

* * *

٦ـ دليل مضحك!

فضحكتُ حتَّى رحِمَني صاحبي.

فقال: ما يضحكُك؟!

قلتُ: إنَّ شرَّ البليةِ ما يُضحك!

قال: إذا كنتَ غيرَ مصدِّقي فهذه هي الجريدةُ.

فنظرتُ فوجدتُ ذلك مكتوبًا حقًا!

قلت: لعلَّه يمزحُ أو يداعبُ الصحفي فظنَّها منَ المقالِ فكتَبها.

قال: لا.. لا.. هذا غيرُ ممكن.

قلت: أسألُك بالذي جعلَ لك عينينَ، ولسانًا وشفتينِ، وفضَّلك على كثيرٍ ممنْ خلقَ تفضيلاً، هلْ في هذا الكلام رائحةُ الدليلِ؟

قال: الحقُّ أنه لا دَلالَة فيه.

قلتُ: إذًا لا تعليق.

ثُمَّ قامَ صاحبِي وجاءَني برسالةٍ مكتوب عليها (المعاملاتُ في الإسلام) للكاتبِ المذكورِ.

وقال: قدْ جاءَ في هذه الرسالةِ بأدلةٍ أخرىٰ.

قلتُ: اذكرْ أهمَّها؛ لأنني مشغولٌ، ولا أريدُ أن أضيعَ الوقتَ في مثلِ هذه

القضايا التي قُتِلتْ بحثًا، واتفقتْ الأمةُ على حُرمتِها.

قال: يقولُ في صفحةِ (٤٩): «إننا لا نَرىٰ ما يمنعُ وليَّ الأمرِ -بعدَ استشارةِ أهلِ العلم والخبرةِ- من تكليفِ البنوكِ وغيرِها منْ تحديدِ الربحِ مقدمًا رعاية لمصالحِ الناسِ».

قلتُ: لا نريدُ أن نعيدَ البحث السابقَ مرةً أخرىٰ.

قال: **كيفَ؟!**

قلتُ: إذا ثبتتْ حرمةُ أمرٍ من الأمورِ، فهلْ رعايةُ مصلحةِ الناسِ تجعلُه حلالاً؟!

* * *

٧- المصالح والأحكام الشرعية

قال: لا .

قلتُ: فكيفَ يقولُ بأنَّ رعايةَ مصلحةِ الناسِ تجعلُ الرِّبا حلالاً لآكلِ الربا ومُوكِلِه وشاهديه وكاتِبه، برغمِ أنَّ النبيَّ ﷺ قدْ لعنَ هؤلاءِ جميعًا؟

قال: أريدُ توضيحًا أكثرَ .

قلتُ: البلدُ في حاجة إلىٰ دخلٍ لتحسينِ المعيشة، والسياحةُ تدرُّ دخْلاً كبيراً لكنَّ السياحَ الأجانبَ منَ الكفار والمشركينَ لا يتمتعون بالسياحة إلا إذا شربوا الخمر، فهل نقولُ بإباحة تصنيعِ الخمرِ وبيعِه، والاتجَارِ فيه، وتقديمه للسياحِ في الفنادقِ وغيرها؟!

قال: لا . . الخمرُ حرامٌ . . حرامٌ .

قلتُ: ولكنْ رعايةُ مصالحِ الناس، والعملُ علىٰ رفعِ دخلِ الفرد، وإقامةُ المشروعات المفيدة للبلد تحتاجُ إلىٰ مال .

قال: ولكنَّ الخمرَ حرامٌ، وبيعُها حرامٌ . . وتصنيعُها حرامٌ . . وتقديمُها حرامٌ . . والمالُ الذي يُكتسبُ منها حرامٌ لا بركةَ فيه .

قلتُ: كذلكَ الربا حرامٌ أخذًا وعطاءً، والمالُ الذي يأتي منْ طريقه حرامٌ لا بركة فيه يمحَقُه الله - عزَّ وجلَّ ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٦] .

قال: قدْ ذكرَ الشيخُ دليلاً آخرَ.

قلتُ: ما هُوَ؟

قال: يقُول في صفحةِ (٥١): إنَّ تحديدَ الربحِ مقدَّمًا بالنسبةِ للبنوك وغيرِها هوَ علىٰ التحقيقِ منْ بابِ المصالحِ المرسلة.

* * *

٨ـ اعتراضات

قلتُ: لي على هذه الكلمات عدةُ مآخذَ:

أولاً: تسميةُ الشيءِ بغيرِ اسمه، فقدْ سمَّي الفائدةَ الرِّبَويَّةَ ربْحًا ظنًا منهُ أنَّ تغييرَ الاسمِ سيغيرُ حكمَه الشرعيَّ، والحقُّ أنَّه لا يغيرُ منْ حقيقةِ الأمرِ شيئًا.

فَلَوْ أسمينا الرِّبا فائدةً، أو أسميناه ربحًا فهُو حرامٌ؛ لأنَّه ربا، كمَا لو أسمينا الخمرَ مشروبات رُوحيَّةً، وأسمينَا المسكرَ كوكاكين، أو هيروين، أو أسمينا الفسقَ الذي هو ظُهور المرأةِ شِبه عارية أمامَ الرجال لأداءِ التمثيل أو الرقصِ (فنًّا).

كلُّ ذلكَ لا يُغيرُ من الحكمِ الشرعيِّ شيئًا، فالربا حرامٌ، والمسكراتُ حرامٌ، والتبرجُ والفِسْق حرامٌ.

قال: كيف ذلكَ؟!

قلتُ: لأنَّنا بمقتضَى المصلحةِ المزعومةِ سوفَ نثبتُ حكمًا يحلُّ الرِّبا، والربا قدْ ثبتتْ حرمتُه شرعًا بالكتابِ والسنةِ والإجماعِ.

قال: أليستْ هذه مصلحةً؟

فتبسمتُ وقلتُ: بلى، هذه مصلحة، ولكنهَّا في اصطلاح الأصوليِّينَ «مصلحةٌ مُلْغَاةٌ».

قال: أريدُ التوضيحَ.

٩ـ أنواع المصالح

قلتُ: اعلمْ يا أخي ـ علَّمَك الله ما ينفعُك ـ أنَّ الأصوليينَ قد قَسَّموا المصالح إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

١ ـ مصالح مُعْتَبَرة شرعًا.

٢ ـ ومصالح مُلْغاة شرعًا.

٣ ـ ومصالح مُرْسَلَة.

فأمَّا المصالح المعتبرةُ: فهيَ التي اعتبرَها الشارعُ مصلحةً حقيقيةً، وأوجبَ لها أحكامًا للحفاظ عليها.

مثلُ مصلحة حفظ المالِ، اعتبرها الشارعُ مصلحةً حقيقةً وشَرَعَ للحفاظِ عليهَا حدَّ السرقة.

وكذلكَ مصلحةُ حفظِ العرضِ والنَّسْل؛ شَرَعَ للحفاظِ عليهَا الرَّجْمَ أو الجَلْد.

وكذلكَ مصلحةُ حِفْظِ النَّفْسِ؛ شَرَعَ للحفاظِ عليهَا القصاصَ، فهذهِ وأشباهُها مصالحُ معتبرةٌ شرعًا.

أما المصالحُ الملغاةُ: فهيَ التي لم يعتبرْها الشارعُ مصلحةً فألغاها وأهدرَها بنص شرعي.

مثلُ مصلحةِ التاجرِ الذي يبيعُ الخمورَ والمسكراتِ حيثُ يربحُ منها مالاً، لكنَّ الشارعَ أهدرَ هذه المصلحة وألغاهَا بتحريم شُرْبِ الخمورِ وبيعهِا.

ومثلُ مصلحةِ المرابي في تنمية أمواله بالربا، فهذه مصلحةٌ له، ولكنَّ الشارعَ أهدرَها وألغاها بنصوص شرعية تحرِّمُ الربا أخذًا وعطاءً، بلْ حرَّم المشاركة فيه حتَّىٰ بالكتابة والشهادة؛ فقدْ ثبتَ كما في «صحيح مسلم» وغيره أن النبيَّ ﷺ لعنَ آكلَ الربا وموكلَه، وشاهدَيْه وكاتبَه، وقال: «هُمْ سَوَاءٌ»(١).

أمَّا المصالحُ المرسلةُ: فهي التي لمْ يرِدْ فيها نَصٌّ بالتحريمِ أو بالجوازِ، فهذه يقدِّرُها الناسُ حسبَ مصالحِهم

بشروط أهمها:

١- أن لا تعارض نصًا شرعيًا .

٢- أن تكون المصلحة حقيقية لا وهمية .

٣- أن تكون المصلحة عامة لا خاصة .

٤- أن تكون لحفظ ضروري أو لرفع حرج .

مثلُ سَنِّ قانون ينظِّم المرورَ حفاظًا علىٰ أرواحِ الناسِ، ومثلُ قانونِ توثيقِ عُقُود الزَّواج حفاظًا علىٰ الأعراضِ، وما شَابَهَ ذلكَ مِنَ المصالحِ .

* * *

(١) صحيح مسلم - كتاب المساقاة - رقم (١٥٩٨).

١٠- إلزام المناظر بالجواب الصحيح

قلتُ لصاحبي: فالزيادةُ الربويةُ التي يحدِّدها البنكُ مقدمًا تدخلُ في أيِّ نوعٍ منَ الأنواعِ الثلاثةِ؟

قال: تدخلُ في المصالح الملغاةِ بنص شرعي لورودِ النصِّ بتحريمِ الربا .

قلتُ: أنصفتَ . . فهلْ بقِي لمنْ أحلَّ الزيادةَ الربويةَ من شُبْهة يتعلَّق بها؟

قال: لكنَّه قد ذكرَ دليلاً آخرَ يستدلُّ به على جوازِ تحديد الزيادةِ مقدمًا .

قلتُ: ما هُو؟

قال: يقولُ: وقد تسألُني في النهاية : ما التكييفُ الشرعيُّ لمعاملات البنوك التي تحدِّد الأرباحَ مقدمًا؟

فأجيبُك: أنَّها وكالةٌ مُطْلَقَة ، فأنا أذهبُ إلى أيِّ بنك منَ البنوكِ بنيَّة وبقصدِ أنْ يكونَ البنكُ وكيلاً عنِّي وكالةً مطلقةً في استثمارِ أموالي ، وما يحددُه لي منْ أرباحٍ سنويةٍ أو شهريةٍ فأنا راضٍ بها وهُو مسئولٌ بعدَ ذلك عنْ كلِّ تصرفاته .

قلتُ: وهلْ أنتَ مقتنعٌ بهذا الكلامِ؟

قال: لمَ لا والوكالةُ جائزة بالإجماع؟

قلتُ: نعمْ جائزةٌ لا خلاف في ذلكَ ، ولكنْ هل معاملاتُ البنوكِ الربويةِ وكالةٌ؟

قال: ما المانعُ؟ أليسَ البنكُ يأخذُ مني المالَ ويتصرفُ فيهِ كيفمَا يشاءُ؟

قلتُ: بلىٰ . . فهلْ بذلكَ يسمَّىٰ وكيلاً؟!

قال: لِمَ لا يسمَّىٰ بذلك؟!

قلت: لأنَّ شروطَ الوكالةِ لا تنطبقُ عليهِ.

قال: وما شروطُ الوكالةِ؟

قلتُ: لا أطيلُ بذكرِها، ولكنْ سأذكرُ لكَ منهَا شرطينِ اثنينِ فقطْ.

١ ـ ليسَ للوكيلِ ولا للموكِّلِ أن يشترِطا نسبةً مقدمًا منْ رأسِ المالِ.

* * *

١١ ـ المناظرة تخرج عن حد الهدوء

فقاطَعَني قائلاً: وإنْ خالفا هذا الشرطَ، واشترطا نسبةً محدودةً مقدمًا. . ألا تظلُّ الوكالةُ صحيحةً بدونِ هذا الشرطِ؟

قلتُ: لو انتظرتَ قليلاً حتَّىٰ أكملَ لجاءَك الجوابُ الشافِي.

قال: عفواً. . لا تؤاخذني فإنَّني أريدُ أنْ أصلَ إلىٰ الحقِّ.

قلتُ: إذا خالفَ الوكيلُ أو الموكِّل هذا الشرطَ واشترطَا نسبةً مقدمًا فسدت الوكالةُ وصارتْ قرضًا رِبَويًّا محرمًّا؟

قال: إذا وضعتُ مالي في البنك، وحُددَتْ لي نسبة ولو بِنيةِ الوَكالةِ المطلقةِ يصبح قرضًا رِبويًا مُحرمًا؟

قلتُ: نعمْ.

قال: ولكنَّ نيَّتي هي الوكالةُ، والنبيُّ ﷺ يقولُ: «**إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ وإنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى**»، وأنا نويتُ الوكالةَ وهِي عَقْد صحيحٌ شرعًا.

قلتُ: النيةُ لا تقلبُ المعصيةَ طاعةً، فلو سَرَق بنيةِ أنْ يتصدقَ فالسرقةُ حرامٌ، ولو قَتَل مريضًا يتألُم بنيةِ أن يريحَه من عَنَاء الألمِ فالقتلُ حرامٌ.

وبهذه المناسبةِ أذكرُ لكَ ما حدثَ للإمامِ أبي حنيفةَ رحمَه اللهُ حيثُ رأىٰ رَجُلاً سَرَقَ تُفَّاحةً ثمَّ تصدَّق بها.

فقالَ أبو حنيفة: ما هذا الذي صنعتَه؟

قالَ الرجُل: أتاجِرُ معَ ربِّي ! !

قال أبو حَنيفةَ: كيف ذلك؟

قال الرجُل: سرقتُ التفاحةَ فكُتِبَتْ عليَّ سيئةٌ واحدةٌ وتصدَّقتُ بها فكُتِبت لي عَشْرُ حَسَنات .

قالَ أبو حنيفة : بلْ سرقتَ التفاحةَ فكُتِبت عليكَ سيئةً ، وتصدَّقت بها فلمْ يقبلْها الله ؛ لأنَّ الله طيِّب لا يقبلُ إلا طيّبًا ، فخرجتَ من هذهِ التجارةِ خاسراً .

قالَ صاحبي: وما الشرطُ الثاني الذي كنتَ ستذكرُه للوكالة؟

قلتُ: أنساني كثرةُ اعتراضاتِك ومُداخَلاتِك ـ عفا الله عنكَ .

قال: أرجو ألا تغضبَ منَ النقاشِ ، فأنا لا أريدُ أن أتركَ نقطةً حتى أقتنعَ بها .

قلتُ: نعمْ تذكرّتُ ، الشرطُ الثاني : أنَّ الوكيلَ لا يضمَنُ إذا تلِفت السلعةُ ، أو المالُ بيده بدونِ تفريطٍ منه .

قال: وهل البنكُ يضمنُ؟

قلتُ: نعمْ يضمنُ ، أرأيتَ لو أنَّ رجلاً أعطى للبنكِ مبلغَ مائة ألفٍ ، فأنشأ البنكُ بها مصنعًا فاحترقَ المصنعُ بدونِ إهمالٍ أو تفريطٍ ، ماذا سيكونُ موقفُ صاحبِ رأسِ المالِ (المقرِض)؟

قال: سيطالبُ بحقّه كاملاً ، وبالزيادة المتفقِ عليها مقدمًا .

قلتُ: إذًا البنكُ ليسَ وكيلاً ، وإنَّما هو مقترِض قرضًا بفائدةٍ ربويةٍ .

قال: ولكنَّ الشيخَ قدْ أجابَ عنْ هذا التساؤل.

قلتُ: ماذا قال؟

قال: يقولُ في ص (٥٢): قدْ يقالُ: كيفَ تحددُ البنوكُ الأرباحَ مقدمًا معَ أنَّها قد تخسَر ولا تربَح؟

فإنَّنا نقولُ: إذا خسرت البنوكُ أو غيرها لأسبابٍ خارجة عن إرادتِها ورَفَعت أمرَها إلى الهيئات القضائيةِ فحكمتْ بأنَّ الخسارةَ لأسباب خارجةٍ عن إرادة البنوكِ، فعلى أصحابِ الأموالِ المستثمرةِ في تلكَ البنوكِ أنْ يتحمَّلوا نصيبَهم منْ هذهِ الخسارةِ!!

* * *

١٢ـ المناظر لا يعرف قوانين البنوك الربوية

قلتُ: هذا كلامٌ نظريٌّ بَحْت، إذا طُبِّق على الواقع تَهافَتَ، لأمور:

١ ـ كثيراً ما نسمعُ بخسارات فادحةٍ لشركاتِ القطاعِ العامِّ الذي تموِّله البنوك الوطنيةُ، وما سمعناها حمَّلت أصحابَ رءوسِ الأموالِ شيئًا.

٢ ـ كثيراً ما يقترضُ المستثمرُ لإنشاء مشروعٍ فيخسَرُ المشروعُ أو يتعطَّلُ تمامًا (يُمْحَق) وبرغم ذلكَ يطالِبُ البنكُ المقترضَ بالأقساط والفوائدِ الربوية، بلْ يضاعفُ هذه الفوائدَ باسمِ الفوائد المركبة إذا عجزَ عن سَدَادِ القَرْضِ في موْعده حتى لو اضطُرَّ الرجلُ إلى بيع مسكنه الذي يسكنُه ليسددَ هذا القرضَ وفوائدَه المركبة أضعافًا مضاعفةً.

٣ ـ أنَّ الجهات القضائية المختصة التي ذكرَها الشيخُ لا تعتبرُ البنك وكيلاً لا يضمنُ في حالةِ الخسارة كما ذكرَ الشيخُ، بلْ تعتبرُه مقترضًا ضامنًا سواءٌ ربحَ أو خسِر، وراجعْ لذلكَ المادةَ رقم (٧٢٦) منَ القانون المَدَني، فإنَّها تقولُ: «إذا كانت الوديعةُ مبلغًا منَ النقودِ أو أيَّ شيءٍ آخرَ مما يَهْلِك بالاستعمال، وكانَ المودَعُ مأذونًا له في استعماله ـ اعتُبرَ العقدُ قرضًا».

قال: حقًّا القانونُ لا يعتبرُ ذلكَ وكالةً بلْ يعتبرُها قرضًا.

* * *

١٣ـ المناظر يعترف مرة أخرى

قلتُ: وهلْ يجوزُ تحديدُ الزيادةِ على القرضِ؟

قال: لا، بلْ هي ربا.

قلتُ: إذًا تبيَّنَ لكَ أنَّ قولَ القائلِ «وكالةٌ مطلَقة» قولٌ غيرُ صحيحٍ بمقاييسِ الشرعِ والواقعِ والقانونِ بلْ هُو قَرْض ربَويٌّ محرَّم.

قال: أكرمَك الله بالعلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، وعَصمَك اللهُ من الزيغِ والضلالِ والخَطَل والزَّلل.

قلتُ: وأنتَ نفعَك الله بما تسمعُ، وزوَّدك الله التقوىٰ وغفرَ ذنبك، وجعلنا الله وإيَّاكَ من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

قلتُ: دعنا من هذا، هلْ قرأتَ حِزْبك القرآني اليومَ؟

قال: نعمْ، قرأتُه والحمدُ لله.

قلتُ: متىٰ قرأتَه؟

قال: في الجَلْسةِ المباركة.

قلتُ: أية جَلْسَة تعني؟

قال: الجلسةَ منْ بعد صلاة الفجر إلىٰ طُلُوع الشمسِ، فقدْ قال فيها رسولُ الله ﷺ: «**منْ صَلَّى الفَجْرَ في جَماعَة، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ الله حتَّى تطلُع**

الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْن، كانتْ لهُ كأجْرِ حجَّة وعمرة تامَّة تامَّة تامَّة».

قلتُ: لكنَّني أظنُّ أنَّ هذا الحديث ضعيفٌ؛ لأنَّه منْ روايةِ أبي ظلال وهو ضعيفٌ.

قال: نعمْ، الحديثُ رواهُ الترمذيُّ منْ روايةِ أبي ظِلال، واسمُه هلالُ بنُ أبي هلال، وهلالٌ هذا ضعَّفه بعضُ العلماء، ولكنَّ البخاريَّ قال عنه: مقاربُ الحديث.

ولذلكَ حسَّنه الترمذيُّ في سُنَنه.

ثُمَّ إنَّ للحديثِ طرقًا وشواهدَ، فقدْ جاءَ فيما أذكرُ عن أربعةٍ منَ الصحابةِ.

أحضِرْ «صحيح الترغيب»:

١ - عن أنسِ بنِ مالكٍ، رواه الترمذيُّ باللفظِ الذي ذكرناه.

٢ - وعنْ أبي أُمَامةَ عن النبيِّ ﷺ قال: **«منْ صَلَّى الغَدَاة في جَمَاعَة، ثُمَّ جَلَسَ يَذْكُرُ الله حتَّى تطْلُعَ الشَّمْسُ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى ركعتَين، انقلبَ بأجْرِ حجَّة وعُمْرة».**

رواهُ الطبراني وقال الحافظ المنذري - رحمه الله -: إسنادٌ جيد.

٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا صلَّى الفجرَ لم يقُمْ من مجلسه حتَّى تُمْكنَه الصلاةُ، وقال: **«منْ صلَّى الصُّبحَ ثُمَّ جلسَ في مجْلسه حتَّى تُمْكنَهُ الصلاةُ كان بمنزلة عمرة وحجَّة متقبَّلتَيْن».**

رواهُ الطبرانيُّ في «الأوسط» ورواتُه ثقاتٌ إلا الفضل بن الموفق ففيه كلامٌ. قاله المنذريُّ في «الترغيب».

٤ ـ وعنْ عبد الله بن غابر أنَّ أبا أمامة وعُتْبَة بن عبدٍ حدثاه عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**منْ صلَّى الصُّبح في جماعة، ثمَّ ثبت حتى يُسبح لله سُبْحَةَ الضُّحى، كان له كأجر حاجٍ ومعتَمِرة، تامًا له حجُّه وعمرته**».

قال المنذريُّ: رواهُ الطبراني وبعضُ رواتِه مختلفٌ فيهم، وللحديث شواهدٌ كثيرةٌ. اهـ.

قلـتُ: هذا الضعفُ يسيرٌ ينجَبِرُ بهذه الطرقِ فيصحُّ الحديثُ أو يحسُن على أقلِّ الأحوال.

قـــال: نعمْ، هذه الطرقُ الأربعةُ حسنّها الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، وقدْ حسَّن الحديث من قبله؛ الترمذيُّ كما ذكرت، وحسَّنه أيضًا الحافظُ المنذريُّ، ولذلك قال الألبانيُّ في «صحيح الجامع»: صحيحٌ.

قلتُ: هنيئًا لك فقدْ حججتَ واعتمرتَ اليومَ.

قال: الحمدُ لله ربِّ العالمين.

قلتُ: ولكنَّ هذا أجرٌ عظيمٌ جدًا.

قـال: ولكنَّ الله لا يتعاظمه شيءٌ. ولكنْ لنْ تنالَ هذا الأجرَ إلا بالشروطِ المذكورةِ في الحديث.

قلتُ: ما هي؟

قال: **أولاً**: تصلِّي الفجرَ في جماعة.

ثانيًا: تجلسُ في المصلَّىٰ الذي صليت فيه.

ثالثًا: تسبحُ الله وتذكرُه حتىٰ تطلع الشمسُ.

رابعًا: لا تقطع ذلك بشيءٍ من حديث الدنيا.

خامسًا: تصلِّي ركعتي الضُّحَىٰ.

قلتُ: هذه شروطٌ يسيرةٌ إن شاء الله، ولكنْ مَتَىٰ يبدأُ وقتُ صلاةِ الضحىٰ؟

قال: إذا ارتفعت الشمسُ مقدارَ رمح، والرُّمحُ ثلاثةُ أذرُع، وقدَّرها بعضُ العلماء بالدقائق الحديثةِ فقالُوا: تتراوحُ ما بين(١٠) دقائق إلىٰ (١٥) دقيقة.

قلتُ: جزاك الله خيراً، فهذه حقًا جلسةٌ مباركةٌ ينبغِي أن يحافظَ عليها المسلم.

١٤. المتناظران يفترقان

ثُمَّ ودَّعني وانصرف.

* * *

الجلسة الأخيرة

١ ـ المناظر يفاجأ بأن في يده كتابًا يرد عليه .

٢ ـ المناظر يرجع عن قوله .

٣ ـ البنوك الإسلامية في ميزان الشرع .

٤ ـ نص القرار الصادر عن مجمع الفقه الإسلامي .

٥ ـ أثر البنوك الربوية في المجتمع .

٦ ـ المتناظران يتصافحان .

ثُمَّ جاءني مرَّةً أخرىٰ فرحَّبتُ به .

فقال: هل تسمحُ لي أن أسألك بعض الأسئلةِ بخصوصِ الموضوعِ الذي تكلمنَا فيه آنفًا؟

قلتُ: وهلْ بقي عندكَ شكٌّ في أنَّ البنوكَ ذاتَ الفوائدِ المحددةِ بنوكٌ ربويةٌ؟

قال: لا شكَّ عندي في ذلكَ، ولكنْ بعضُ الاستفسارات اليسيرة .

قلتُ: تفضَّل ولا تُكْثِر عليَّ .

قال: لقدْ تبيَّنَ لنا منَ المناقشاتِ السابقةِ أنَّ البنوكَ التي تحددُ الفائدةَ مقدمًا بنوكٌ ربويةٌ، فهلْ يجوزُ لي أنْ أضعَ فيها مبلغًا من المالِ وليكنْ مائة ألف مثلاً، حتىٰ لا يضيعَ مني فإذا احتجته سحبت رأس المال، ثُمَّ تصدقتُ بالفوائدِ الربوية؟

قلتُ: إنَّ الله طيب لا يقبلُ إلا طيبًا.

قال: أسحبُ رأس المال وأتركُ الفوائدَ الربوية للبنكِ.

قلتُ: لا يجوزُ أيضًا.

قال: لِمَ، وأنا لم آخذْ زيادةً على رأسِ المالِ؟

قلتُ: لأنَّك سوفَ تعطيهم مبلغَك هذا فيتعامَلُون فيه بالربا، فسوفَ يُقْرِضونه للمحتاجين بفوائدَ ربوية، وهذا لا يجوزُ؛ لأنَّه من التعاون على الإثم والعدْوان، والله يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] فمَثَلُك كمثل رجلٍ أعطى لصًا سكِّينًا وقال: خُذه فاقتلْ به الناسَ، وخُذْ أموالهم لكنَّني لا أريدُ في النهاية إلا سكيني فقطْ؛ لأنَّ أكل أموال الناس بهذه الطريقة لا يجوزُ فأنتَ شريكُه في الإثم، وإنْ لم تأخذْ شيئًا من أموالِ الناس.

قال: إذًا أضعُ أموالي في أحدِ هذهِ البنوكِ فرْعِ المعاملاتِ الإسلامية.

قلتُ: لا يجوزُ أيضًا.

قال: لِمَ؟

قلتُ: لأنَّ هذه البنوكَ الربويةَ لما رأتِ الناس مقبلةً على الإسلامِ، وتريدُ أنْ تأكلَ حلالاً طيبًا لا شبهة فيه، أنشؤوا فروعًا كتُبوا عليها: «فَرْعُ المعاملاتِ الإسلاميةِ»، ثُمَّ يأخذونَ هذهِ الأموالَ فيضعونَها في الخزانةِ العامَّة للبنكِ الربويِّ وتجري فيها جميعُ المعاملاتِ الربويةِ الأخرى.

قال: يا شيخُ، هذا ظنٌّ منكَ. ﴿**وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [النجم: ٢٨]
وينبغي لنا أنَّ نظنَّ بإخواننا المسلمين خيراً.

قلتُ: صدقتَ، ينبغي أن نظنَّ بإخوانِنا المسلمينَ خيراً حتَّى وإنْ كانوا منْ أكلةِ الربا!!

وظَلَلْنَا نظنَّ بهمْ خيرًا حتى اعترفُوا بأنفسِهم وأفصحُوا عن الحقيقةِ.

* * *

١ ـ المناظر يفاجأ بأن في يده كتابًا يَرُدُّ عليه

قال: ما الحقيقةُ.

قلتُ: افتحِ الكتابَ الذي جئتَنِي به واقرأ في صفحةِ (٦٤) من أعلىٰ، اقرأ.

قال: يقولُ الشيخُ طنطاوي:

«وقدْ سألتُ أنا شخصيًا أحدَ كبارِ المسئولينَ في بنكِ مصرَ. فقلتُ له: أنتمْ تكتبـون علىٰ بعضِ الأمـاكنِ التـابعـة لكمْ: فـرعُ بنك مـصـرَ للمـعـامـلات الإسلامية، ولا تكتبون علىٰ بعضِها الآخرِ ذلكَ، فهلْ تستطيعُ أنْ تقولَ لي: ما الفرقُ بين المكانين؟

فضحكَ سيادتُهُ وقالَ لي: يا فضيلةَ المفتي.. أنا لا أعرفُ فرقًا جوهريًا بينَ المكانينِ، ولا بينَ التعاملِ في هذا الفرعِ أو ذَاكَ».

قال الطنطاوي: «وسألتُ أيضًا أحدَ كبارِ المسئولينَ القانونيينَ في هذا البنك فقال: إنَّ جميعَ الأموالِ التي تَردُ إلىٰ بنك مصرَ بجميعِ فروعِه، التي يُطلَقُ عليها إسلاميةٌ، والتي لا يطلقُ عليها ذلكَ، تصُبُّ في خزانةٍ واحدةٍ، هي خزانةُ بنكِ مصرَ». اهـ.

قلتُ: سمعت أيها الأخُ الكريمُ!!

قال: خدعونا بالاسم ـ غفرَ الله لهم.

* * *

٢- المناظر يرجع عن قوله

قال صاحبي: لقدْ كنتُ قد اقتنعتُ بما كتبَه الشيخُ الطنطاوي مِنْ أنَّ فوائدَ البنوكِ حلالٌ لا شيء فيها، وأنَّ تحديدَ الفائدة على رأسِ المالِ مقدمًا جائز.

لكنَّني الآنَ بعدمَا جلستُ معكَ وتدارسْنا ما ذكرَه الشيخُ من الأدلةِ على ما ذهبَ إليه وانكشفت لديَّ الحقائقُ، وأوقفْتني على كلامِ العلماء في التكييف الشرعيِّ لفوائدِ البنوكِ، وأنَّها ربًا، وأنَّها محرَّمة بالكتابِ والسنةِ والإجماع.

فأنا أشهدُك أنني رجعتُ عن قولي الأول إذعانًا للحقِّ وعملاً به، فلأنْ أكونَ ذنَبًا في الحقِّ خيرٌ من أنْ أكون رأسًا في الباطل.

قلتُ: أنتَ الآنَ خيرٌ منكَ أولاً، فقدْ كنتَ تقولُ قولَك الأولَ مقلدًا على غيرِ بينة، أمَّا الآن فقدْ أصبحتَ متَّبعًا لما تعلَمُه من كتابِ الله وسنةِ رسولِ الله ﷺ وكلامِ الثقاتِ الأثباتِ من أهلِ العلمِ، والفرقُ بين المقلدِ والمتبعِ كالفرقِ بين الأعمى والبصير.

قال: ولكنْ ما موقفُنا الآن من فتوى شيخ الأزهر؟

قلتُ: شيخُ الأزهر بَشر يصيبُ ويخطئ، فإذا أفتى بحكمٍ موافقٍ للكتابِ والسنةِ وفهمِ سلفِ الأمةِ، نَصَرنا قوله ونشرْناه، ودعوْنا له وأيدْناه، وإذا أفتى بحكمٍ يخالفُ الكتابَ والسنةَ وفهمَ سلفِ الأمةِ، رددْنا قوله، وبينَّا خطأه، ومعَ ذلكَ استغفرْنا له، ودعوْنا له أن يُهدَى للحقِّ والصوابِ، ولم ننسَ له قدرَه، أو نغمطْه حقَّه.

قـــال: ولكنَّ فتواه قد نُشِرَتْ على نِطَاق واسع، وقرأها كثيرٌ من الناسِ، وأنتَ تعلمُ أنه معَ ضعفِ الإيمانِ يحاولُ كثيرٌ من الناسِ أن يحتالُوا على أكلِ الحرامِ، فكيفَ إذا قرؤوا هذه الفتوىٰ؟!

قلتُ: وما نصنَع؟

قال: هلا كتبتَ ردًا عليها ليُنْشَرَ على الناسِ فيقفُوا على الحقِّ بأدلته، حتى لا يغترُّوا بها كما حدث لي في بدايةِ الأمرِ.

قلتُ: من أنا حتَّىٰ أردَّ على شيخِ الأزهرِ؟

وماذا أزِنُ أنا إذا وُضِعْتُ في ميزانِ العلماء؟

قال: ولكنَّ هذا واجبٌ يوجِبُه عليك دينُك، وتقتضِيه الأمانةُ العلميةُ.

قلتُ: قد قامَ بهذا الواجبِ غيري ممنْ هو خيرٌ مني.

قال: منْ؟

قلتُ: قدْ ردَّ على فتوىٰ شيخِ الأزهرِ عالمانِ جليلانِ.

قال: من هُما؟

قـلـتُ: الدكتور (علي أحمد السَّالوس) حفظه الله في كتاب بعُنوان: «أجرَؤكم على الفتوىٰ أجرؤُكم على النَّار» حيثُ ذكرَ فتوىٰ شيخ الأزهر وردَّ عليها كلمةً كلمةً، وفندها دليلاً دليلاً، وبيَّن أن التَّصوُّرَ الذي تصوَّره الشيخُ عن البنوك كان تصوُّرًا ناقصًا بسبب بُعدِه عن البنوكِ وأعمالِها، ومن ثَمَّ جاءتْ الفتوىٰ خاطئة.

ولا تنس أنَّ الدكتور علي السالوس برغم أنَّه أستاذُ الفقه والأصول بكليةِ الشريعة، إلا أنَّه خبيرٌ في الاقتصاد، ولذلكَ استطاعَ أن يصورِّ أعمالَ البنوك تصويرًا كاملاً بالدراسةِ المتأنِّيَة، ثم يكيِّف الواقعة التكييفَ الشرعيَّ الصحيحَ بحكمِ تخصصِه في الفقهِ الإسلامي، فالمجالُ مجالُه، والقولُ قولُه.

قال: وشيخُ الأزهرِ متخصصٌ في الفقهِ أيضًا يحكُم على الواقعةِ بما تعلَّمَه من علمَيِ الفقهِ والأصول.

قلتُ: يا أخي الكريم، شيخُ الأزهرِ متخصصٌ في التفسير لا في الفقهِ.

قلتُ: وقدْ كتبَ الدكتور (يوسف القرضاوي) حفظَه الله رسالةً في الردِّ على فَتْوَىٰ شيخِ الأزهرِ أيضًا، وبيَّن له سببَ خطئِه في فتواهُ، وأعْطَاه الأدلة الصريحة على الفتوى الصحيحةِ وهي تحريمُ فوائدِ البنوكِ الربويةِ تحريمًا قاطعًا لا شبهة فيه(١).

قال: حسنًا، وهل هذان الكتابان مطبوعان؟

قلتُ: أجلْ، الأولُ من منشورات دار الاعتصام المصرية، والثاني من منشورات مؤسسة الرسالة اللبنانيةِ.

قال: لقدْ شوَّقتني لقراءة هذينِ الكتابين.

قلتُ: ما زلتَ مُصرًا على وضعِ أموالِك: في البنوكِ الربوية؟!

قال: أمَّا الآن فلا، فإنِّي أشهدُك أن لا أضعَ جنيهًا واحدًا في بنكٍ من البنوكِ الربويةِ منَ الآنَ.

(١) وأسماه (فوائد البنوك هي الربا الحرام)

قلتُ: الحمدُ لله الذي نجَّاك منَ الربَا، وشرَح صدرَك لأكل الحلالِ، أتَدْري يا أخِي المفضَال ما جزاءُ آكلِ الربا؟

قال: ما جزاؤُه؟

قلتُ: أولاً: الربا من الكبائرِ المهلكاتِ، والحديثُ متفقٌ عليه.

ثانيًا: رأىٰ النبيُّ ﷺ في المنام رجلاً يسبحُ في نهر كالدمِ، وكلما أرادَ أن يخرجَ قَذَفَه آخرُ بالحجارة في فمِه، فسألَ عنه جبريلَ فقال: هذا آكِلُ الربا، والحديث رواه البخاريُّ.

ثالثًا: آكلُ الربا ملعونٌ، لَعَنَ رسُولُ الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا ومُوكِلَهُ وشَاهِدَيْه وكَاتِبَهُ، وقَالَ: «**هُمْ سَوَاءٌ**».

والحديث «في صحيحِ مسلم».

فقاطعني قائلاً: معنىٰ هذا أنَّ الموظفينَ الذين يكتبونَ الربا في البنوكِ وغيرها داخلون في هذا الوعيدِ؟

قلتُ: بلا شَكَّ.

رابعًا: عن ابنِ مسعود رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ما ظَهَرَ في قومٍ الزِّنا والرِّبَا إلا أحَلُّوا بأنْفُسِهم عقابَ الله**»، قال الهيثميُّ (٤ / ١١٨): رواهُ أبو يَعْلَىٰ وإسناده جيِّد.

خامسًا: وعنه أيضًا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ما أحدٌ أكثَرَ منَ الرِّبا إلا كَانَ عَاقِبَةُ أمرِهِ إلى قِلّةٍ**» صحَّحه الحاكمُ والذهبيُّ (٢ / ٣٧) وحسَّنه الحافظُ في الفتح.

قال صاحبي: نعوذُ بالله منْ غضبِ الله .

قلتُ: هلْ عندَك استفساراتٌ أخرىٰ؟

قال: إذًا أينَ أضعُ أموالي، وأنتَ تعلمُ أنني مشغولٌ لا أستطيعُ أن أُنَمِّيها بنفسي .

قلتُ: اعلمْ يا أخي الكريم . . أنَّ الإسلامَ لم يحرمْ شيئًا إلا وقدْ أحلَّ أشياءَ كثيرةً تقومُ مقامَه، فحينمَا حرَّم مشروبًا واحدًا هو المسكرِ، أحلَّ مشروبات أخرىٰ كثيرةً، وحينمَا حرَّم لحمَ الميتة والخنْزيرِ أحلَّ لحومًا أخرىٰ طيبةً .

قال: إذًا ما الحلُّ؟

قلتُ: حرَّم الإسلامُ الربا، وأحلَّ معاملاتٍ كثيرةً تُنَمِّي المالَ .

قال: مثلَ ماذا؟

قلتُ: مثلَ الشركاتِ بأنواعِها :

١ - شَركةُ المُضَارَبَة .

٢ - شَرِكةُ العِنَانِ .

٣ - شَرِكةُ الأبدانِ .

٤ - شَرِكةُ الوُجُوه .

ومثلَ الإجارةِ والمزارعةِ والمساقةِ، والتجارات، بأنواعها .

قال: وما الذي يناسبُني منها؟

قلتُ: شركةُ المضاربة مناسبةٌ لكَ لو عثَرْتَ على مضارب أمينٍ تعطيهِ رأسَ المالِ وهو يُشاركُ ببدنِه وجُهدِه.

قال: وفي هذه الحالةِ لمنْ يكونُ الربحُ؟

قلتُ: الربحُ على ما تشترطانه بشرطِ أن يكونَ مشاعًا مثلَ النصفِ، أو الثُّلثُ، أو الربُع مثلاً.

فلو اتَّفَقْتُما على أنَّ للمضاربِ بجهده مثلاً نصف الربحِ فإنْ ربحتْ مائةُ الألفِ عشرينَ ألفًا مثلاً فيكونُ لكَ أنت رأسُ المالِ + ١٠ آلاف.

ويكونُ لهُ هُو: ١٠,٠٠٠ فقط (عشرة آلاف).

قال: وإنْ لم تربحْ جنيهًا واحدًا فماذا يكونُ له في نهايةِ العامِ؟

قلتُ: ليسَ له شيءٌ.

قال: وإنْ خسرتِ المائةُ فصارتْ في نهايةِ العامِ ثمانينَ ألفًا فقطْ، كمْ يتحمَّل من الخسارة؟

قلتُ: ننظرُ، إذا كانت الخسارةُ بتفريط منه أو إهمالٍ يتحمَّل بقدرِ إهماله، وإنْ كانت الخسارةُ خارجةً عن إرادته كانخفاضِ الأسعار مثلاً لا يتحمَّل المضارِب شيئًا والخسارةُ كلُّها على رأس المال.

قال: أليسَ في هذا ظلمٌ لصاحبِ رأس المالِ؟

قلتُ: لا ظلمَ له لأنَّه خسر من ماله، والمضارِب خسر من جُهدِه وعَرَقه.

قال: فإنْ كنتُ أخاف على مالي منَ الآفاتِ فهلْ من مشروعٍ آخرَ لا شبهةَ فيه؟

قلتُ: تلجأُ حينئذٍ إلى المزارعةِ، فهي جائزةٌ شرعًا.

قال: ما هي؟

قلتُ: تشتري قطعةَ أرضٍ زراعيةٍ، ولتكنْ مثلاً (مائةَ فدان) ثم تدفعُها لمنْ يزرعُها لكَ، والإنتاجُ بينكُما على ما تشترطانه بشرطِ أن يكونَ مشاعًا أيضًا النِّصف أو الربُع مثلاً.

قال: وما ميزةُ هذا المشروع عن المضاربةِ؟

قلتُ: أنَّ الأصولَ هنا ثابتةٌ، فلو لم تنتجِ الأرضُ شيئًا فهي باقيةٌ إن شاء الله.

قال: هل منْ مشروعٍ آخرَ؟

* * *

٣. البنوك الإسلامية في ميزان الشرع

قلتُ: إذًا ضعْها في بنكٍ إسلاميٍ خالصٍ على طريقِ المضاربةِ الشرعية.

قال: ماذا تقصد بكلمةِ (خالص)؟

قلتُ: أعني أنَّ جميعَ فروعِه إسلاميةٌ، واللائحةُ التأسيسيةُ له تنصُّ على أنَّ جميعَ معاملاتِه إسلامية.

قال: وكيف تعملُ هذه البنوكُ؟

قلتُ: الذي أعلمُه من عمليات هذه البنوك هو:

١ - عملياتُ المضارَبة الشرعية.

٢ - عملياتُ المشاركة الشرعية.

٣ - عملياتُ المرابحة الشرعية.

قال: وما يدرِينا أن جميعَ عملياتِ هذه البنوكِ تسيرُ وَفْقَ الشريعة الإسلامية؟!

قلتُ: لأنَّ لكل بنك من هذه البنوك هيئةً للرِّقابة الشرعية، وهذه الهيئة مكونةٌ من مجموعة من العلماء الثقاتَ الذين لا يحابُون في دين الله أحدًا - نحسبهم كذلك ولا نزكي على الله أحدًا - ومهمَّتُهم هي:

١ - الردُّ على الاستفسارات التي تردُ عليهم من القائمينَ على البنك في

مدىٰ شرعية بعض المعاملات .

٢ ـ المراقبةُ التامَّةُ لمعاملاتِ البنكِ أخذًا وعطاءً، حتَّىٰ لا تنحرفَ عن الشريعة الإسلامية .

٣ ـ تبصيرُ القائمين علىٰ البنكِ بالمعاملاتِ الشرعيةِ التي يجيزُها الإسلامُ ليقومُوا بها إنْ أرادوا .

قال: هذه بُغْيَتي المنشودةُ، إذًا لنضعْ أموالَنا في هذهِ البنوكِ ونستريحُ .

قلتُ: هذا أمرٌ يرجعُ لكَ .

قال: وما وَجْهُ الاختلافِ بينَ البنوكِ الإسلاميةِ والبنوكِ الربوية؟

قلتُ: اختلافٌ كاملٌ منْ حيثُ المبدأ والهدف والتعامل .

قال: اذكرْ لي بعضَها .

قلتُ: هناكَ بحوثٌ قُدِّمتْ لمجمَعِ الفقه الإسلاميِّ المنعقِد في جدَّة في دورتِه الثانية، وهي منشورةٌ في مجلة الفقهِ الإسلاميِّ في العدد الثاني، المجلدِ الثاني صحيفة رقم (٨١٣). أُلخِّصُ لكَ منها ما يلي :

١ ـ الهدفُ من تأسيسِ البنوكِ الإسلاميةِ هو إيجادُ البديلِ الشرعيِّ الصحيحِ للبنوكِ الربوية .

٢ ـ البنوكُ الإسلاميةُ تربطُ المسلمَ بعقيدتهِ، فيفعلُ ما أحلَّ اللهُ، ويجتنبُ ما حرَّم الله .

٣ ـ البنوكُ الإسلاميةُ تأخذُ بمبدأ الرحمة والتسامحِ واليُسْر، فهيَ تأخُذ بيدِ

المسلمِ لإنقاذه من عُسْر أو ضيقٍ طارئ، فهُو يتعاملُ بالقروض الحسنة، وقدْ يمهلُ المدينَ الغريمَ بنظرةِ الميسرة ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

أمَّا البنوكُ الربويةُ فنظرتُها ماديةٌ محضَة، لا تُعْنَىٰ بالأخلاقِ، ولا تُرَاعي ظروفَ المقترِض، فإنْ لم يقُم بتسديدِ ما عليه من قرضٍ وفوائده، زادت عليه فوائد أخرىٰ مركَّبة، فإنْ عجز عن التسديد حَجزَت علىٰ ممتلكاته، وباعتْها بالمزادِ العلنيِّ، وتركتْه يتكففُ الناسَ.

٤ ـ القيامُ بطرقِ الاستثمارِ المشروعةِ كشركاتِ العنانِ والقراضِ (المضاربةِ) والتصديرِ والاستيرادِ عن طريقِ المرابَحةِ الشرعيةِ وغيرِها.

٥ ـ ربطُ العميل بربِّه عزَّ وجلَّ؛ حيثُ تجعلُ له نصيبًا منَ الربحَ أما الخسارة فعلىٰ رأس المالِ إن حدثتْ بلا تفريط، فيظلُّ المسلمُ يدعو ربَّه أن يربحَ المشروعُ، أما المتعاملُ مع البنوكِ الربوية فلا يرتبطُ قلبُه بالرزاق سبحانه، لأنَّه يعلمُ أنَ فائدتَه (الزيادة الربوية) مضمونةٌ سواءٌ ربح البنك أو خسر.

٦ ـ البنوكُ الربويةُ لا تتعاملُ إلا معَ الأغنياء الذينَ يستطيعونَ أن يقدموا ضماناتٍ عقاريةً أو عينيةً، أمَّا البنوكُ الإسلاميةُ فتتعاملُ معَ الفقراءِ والأغنياءِ علىٰ حدٍّ سواء.

قال: وهلْ هناكَ منَ العلماء المعاصرينَ منْ قالَ بحرمةِ الفوائد المحددة منَ البنوكِ التجاريةِ؟

قلت: بلْ هناكَ شبهُ إجماعٍ منَ العلماءِ المعاصرينَ علىٰ أنّ هذه النسبة المحددة سلفًا ربا محرَّم.

قال: كيفَ ذلك؟

قلتُ: أولاً: في سنة (١٣٨٥هـ)، (١٩٦٥م) انعقد المؤتمر الثاني لمجمع البحوث الإسلاميةِ وشاركَ فيه علماء وفقهاءُ من خمسٍ وثلاثينَ دولةً إسلاميةً، وضمَّ المؤتمرُ بالإضافة إلى علماءِ الإسلام علماء الاقتصادِ لتتضحَ الرؤيةُ أمامَ علماءِ الشريعةِ ليقولُوا كلمتَهم على بصيرة تامَّة، وتصوُّر كاملٍ لأعمال البنوكِ، وقرَّر المؤتمرُ بالإجماعِ أنّ فوائدَ البنوكِ من الرِّبا المحرم الذي حرمَه الله ورسولُه ﷺ.

ثانيًا: انعقدَ مَجْمَعُ الفقه الإسلامي وقرَّر الحكمَ السابقَ نفسَه، بعدَ بحوثٍ قُدِّمت من علماء أجلاءَ منْ دولٍ إسلاميةٍ مختلفةٍ، ثمَّ تداول الآراء، وقرَّر ذلك.

* * *

٤. نص القرار الصادر عن مجمع الفقه الإسلامي

قال: ماذا قرَّر؟

قلتُ: القرارُ منشورٌ عندكَ في المجلةِ، الدورةِ الثانية، العددِ الثاني، المجلدِ الثاني، صحيفة رقم (٨٣٧).

اقرأ نصَّ القرار.

فقرأ: قرار رقم (٣):

* * *

بشأن
حكم التعامل المصرفي بالفوائد
وحكم التعامل بالمصارف الإسلامية

أما بعد:

فإنَّ مجلسَ مجمع الفقه الإسلاميّ المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلاميِّ في دورة انعقاد مؤتمره الثاني بجدَّة من ١٠ ـ ١٦ ربيع الثاني ١٤٠٦هـ، الموافق ٢٢ ـ ٢٨ ديسمبر ١٩٨٥م بعدَ أن عُرضتْ عليه بُحوثٌ مختلفةٌ في التعامل المصرفي المعاصر.

وبعدَ التأملِ فيما قُدِّمَ، ومناقشته مناقشة مركَّزة أبرزت الآثارَ السيئة لهذا التعاملِ على النظامِ الاقتصاديِّ العالمي، وعلى استقراره خاصَّة في دولِ العالم الثالث، وبعدَ التأملِ فيمَا جرَّه هذا النظامُ منْ خراب، نتيجة إعراضه عمَّا جاءَ في كتاب اللهِ من تحريمِ الربا جزئيا وكليًّا تحريمًا واضحًا بدعوته إلى التوبة منه، وإلى الاقتصارِ على استعادة رءوسِ أموالِ القروضِ دونَ زيادةٍ ولا نقصانَ قلَّ أو كثُر، وما جاء من تهديدٍ بحربٍ مدمرةٍ من اللهِ ورسوله للمرابين قرَّر:

أولاً: أنَّ كلَّ زيادةٍ أو فائدةٍ على الدَّيْنِ الذي حلَّ أجلُه، وعَجزَ المدينُ عن الوفاءِ به مقابلَ تأجيله، وكذلكَ الزيادةُ (أو الفائدةُ) على القرضِ منذُ بدايةِ العقدِ، هاتانَ الصورتانِ ربا محرَّم شرعًا.

ثانيًا: أنَّ البديلَ الذي يضمنُ السيولةَ الماليةَ والمساعدةَ على النشاطِ

الاقتصاديِّ حسبَ الصورةِ التي يرتَضِيها الإسلامُ هو التعاملُ وَفْقًا للأحكام الشرعيةِ.

ثالثًــا: قرَّر المجمعُ التأكيدَ على دعوةِ الحكوماتِ الإسلاميةِ إلى تشجيع المصارِف التي تعمَل بمقتضى الشريعةِ الإسلامية، والتمكينِ لإقامتها في كُلِّ بلدٍ إسلاميٍّ لتغطِّي حاجة المسلمينَ كيلا يعيشَ المسلمُ في تناقض بينَ واقعه ومقتضياتِ عقيدته. واللهُ أعلمُ. انتهى.

قلــتُ: أظنُّ أنَّ في هذا القدرِ كفايةً لمن كانَ له قلبٌ أو ألْقَى السمعَ وهو شهيد.

قـال: جزاكَ الله عني خيراً؛ فقدْ بصَّرْتني بأمرِ هذه البنوكِ الربويةِ، ولكنْ أرجُو أن تسمحَ لي بسؤالٍ يدورُ في ذِهني.

* * *

٥ـ أثر البنوك الربوية على المجتمع

قلتُ: سلْ. . ولا تتركْ في نفسِك شبهةً إلا ذكرتَها.

قال: ألا ترىٰ أنَّ هذه البنوكَ تساعِدُ في الاستثمار القوميِّ، وتشاركُ في بناءِ المصانعِ وتقليلِ البطالةِ، فهِي تؤثرُ في الاقتصادِ تأثيرًا مباشرًا؟!

قلتُ: نعمْ، تؤثرُ في الاقتصادِ القوميِّ بالطرقِ الآتية:

أولاً: البنوكُ هي السببُ في زيادةِ الأسعارِ والتضخمِ الرهيب وغلاءِ المعيشةِ.

فقاطَعَني قائلاً: حسبُك. . . حسبُك، كيفَ ذلكَ؟

قلتُ: تأملْ يا أخي الكريمَ، هذا الثوبَ الذي علىٰ جسدك، أخَذَ الخُطُوات الآتيةَ:

١ ـ جمع المادة الخامِ.

٢ ـ حمل هذه المادةِ ونقلها إلىٰ المصنع.

٣ ـ غَزْل هذه المادَّة حتىٰ تصيرَ خيوطًا.

٤ ـ تصنيع هذا الغزل نسيجًا.

٥ ـ تصنيع هذا النسيج ملابسَ.

٦ ـ ثمَّ بيع هذه الملابسِ الجاهزةِ للمستهلك.

قلتُ: كمْ مرحلةً هذهِ؟

قال: ستُّ مراحلَ.

قلتُ: في كلِّ مرحلةٍ يتعاملُ القائمُ عليها معَ بنكٍ ربويٍّ فتكونُ النتيجةُ كالآتي:

التكلفة الحقيقية + الفائدة الربوية= سعرَ المادة الخام.

فلو أنَّ صاحبَ الموادِّ الخام اقترضَ من البنك (١٠٠,٠٠٠) لينشئ تجارةً لجمع الموادِّ الخام، والبنكُ أقرضَه بفائدة ١٧ ٪ فسوفَ يكونُ الحسابُ كالآتي:

التكلفة الحقيقية + الفائدة الربوية +مكسبه= السعر.

فمثلاً: ١٠٠,٠٠٠ + ١٧,٠٠٠ +١٠,٠٠٠= ١٢٧,٠٠٠

تلاحظُ معي أنَّ السلعةَ زادتْ عن ثمنها الحقيقيِّ بـ ١٧٪ في المرحلة الأولى، وهكذا في كلِّ مرحلةٍ يتعاملُ أصحابُها بالربا، فالتُّجَّارُ وأصحابُ المصانعِ وغيرُهم صاروا يقترضون منَ البنوكِ بالرِّبا لإنشاء هذه المشروعات.

قال: معنى هذا أن كل مرحلةٍ من المراحلِ الستِّ سوفَ يزدادُ سعرُ السلعة فيها ١٧ ٪؟!

قلتُ: نعمْ.. كمْ ستصيرُ الزيادةُ في النهايةِ؟

قال: ١٠٠ × (١٧ / ١٠٠) مرفوعة لأس ٦ = ٢٥٦ ٪

قلتُ: يعني أنَّ السلعةَ التي ثمنُها الحقيقيُّ ١٠٠ جنيه ارتفعَ سعرُها بسببَ الفوائدِ الربويةِ ٢٥٦ جنيه.

قال: نعمْ.

قلتُ: ومنَ الذي يتحملُ هذهِ الزيادةَ في النهايةِ؟

قال: المستهلك (المواطن).

قلت: أرأيتَ يا صاحبي . . هذا ما جرَّته علينا البنوكُ الربويةُ.

قال: معذرةً على مقاطعتي لك . . أكمِل تأثيرَ البنوكِ الربويةِ في اقتصاد بلدنا.

قلتُ: **ثانيًا**: منذُ ظهرتِ البنوكُ الربويةُ في مجتمعاتنا جرَّت علينَا حربَ الله ورسوله؛ لأنَّ الله يقولُ: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** (٢٧٨) **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

ونحنُ لمْ نفعلْ . . أيْ نترك الربا في اقتصادِنا، ومعاملاتِنا . . فكانَ ماذا؟

١ ـ فكان ارتفاعُ الأسعارِ وغلاءُ المعيشةِ حربًا من الله سُبْحَانَه.

٢ ـ انهيارُ المصانعِ، حربًا من الله سُبْحانَه.

٣ ـ الزلازلُ المتلاحقةُ حربًا من الله سُبْحانَه.

٤ ـ الآفاتُ الزراعيةُ المدمرةُ حربًا منَ اللهِ سُبْحانَه.

٥ ـ انتشارُ الأمراضِ حربًا من الله سبحانه.

٦ ـ انتشارُ الجرائم حربًا منَ اللهِ سُبْحانَه.

٧ ـ انخفاضُ المياهِ في السدِّ العالي حربًا منَ اللهِ سُبْحانَه.

٨ ـ الفيضاناتُ والسيولُ المدمرةُ حربًا منَ اللهِ سُبْحانَه.

٩ ـ قلةُ البركة حربًا منَ اللهِ سُبْحانَه .

١٠ ـ التباغضُ والتدابرُ والعقوق حربًا منَ اللهِ سُبْحانَه .

قال: كفَى . . كفَى، لقدْ نبَّهتني لأمورٍ ما كانتْ تخطرُ لي على بالٍ، وأجبتَ عنْ أسئلةٍ كثيرةٍ كانتْ تدورُ بخاطرِي كثيراً .

قلتُ: فاضرَعْ إلى الله يا أخي في دعائِك أن ينقِّي مجتمعاتِنا منَ الربا بأنواعِه .

* * *

٦. المتناظران يتصافحان

قال: أشكرك على هذا اللقاء الطيب، وأتمنّى لكَ العلمَ النافعَ والعملَ الصالحَ.

قلتُ: جمَعني اللهُ وإيَّاك في جنَّاتِ الفردوسِ الأعلىٰ.

قال: بقِي لي طَلَب واحدٌ.

قلتُ: طلباتُك لا تنتهي، اذكره باختصارٍ.

قال: أريدُ أن تسمحَ لي بنشرِ هذا اللقاءِ الطيبِ لينتفعَ به المسلمونَ.

قلتُ: لا.

قال: لِمَ؟

قلتُ: إنَّ هذه الرسائلَ الصغيرةَ التي انتشرتْ بين يَديْ طُلاب العلمِ قدْ شَغَلَتْهم عن كتبِ السلفِ الأجلاءِ والعلماءِ الفضلاء، وأنتَ تعلمُ أنَّ من أرادَ أن يتأصَّلَ في العلوم فعليه بكتبِ السلفِ.

قال: صدقتَ.. ولكنْ هذه الرسائلُ، المعْنِيُّ بها عوامُّ الناسِ والمثقفونَ الذين ليس لديهم صبرٌ علىٰ قراءة كتبِ السلفِ أو تقصرُ ثقافتهم عن فهمِ كتبِ السلف.

قلتُ: قد أذنتُ لكَ، فانشرْها لعلَّ الله ينفع بها، ولكنْ انشُر منها ما يتعلَّقُ

بالموضوع فقط، واختصرْها حتَّى لا تضيعَ أوقاتُ المسلمينَ في قراءتِها، فوقتُ المسلمِ هو رأسُ ماله.

قال: سوفَ أنشرُها كلَّها؛ لأنَّها لا تخْلو من فوائدَ.

قلتُ: لا بأسَ.. لا بأس.. انشرْها ما دمتَ مُصرًا.. لعلَّ الله ينفعُ بها.

* * *

الخلاصة

النقاط التي توصل إليها المتناظران

١ ـ الربا هو زيادة على رأس المال بغير عوض مشروع اشترطها أحد الطرفين أو تطلع إليها.

٢ ـ ردُّ الدين بما هو أكثر منه بدون شرط أو تطلع جائز شرعًا.

٣ ـ البنوك ذات الفوائد أو الجوائز بنوك ربوية.

٤ ـ لا يجوز التعامل مع البنوك الربوية أخذًا أو عطاءً.

٥ ـ لا يجوز وضع الأموال في البنوك الربوية ولو بلا عائد.

٦ ـ لا يجوز العمل في البنوك الربوية.

٧ ـ لا يجوز التعامل مع الفروع الإسلامية إذا كانت منبثقة عن بنك ربوي.

٨ ـ يجوز التعامل مع البنوك الإسلامية الخالصة في حدود الشرع.

٩ ـ البنوك الربوية هي السبب في التضخم وزيادة الأسعار.

١٠ ـ أكل الحرام شؤم على صاحبه في الدنيا والآخرة.

* * *

المراجع

١ ـ «القرآن الكريم» .
٢ ـ «إحياء علوم الدين» أبو حامد الغزالي، ط . «الشعب» .
٣ ـ «آداب الزفاف» : الألباني، المكتب الإسلامي .
٤ ـ «أدب الدنيا والدين» : أبو الحسن الماوردي، إحياء التراث العربي .
٥ ـ «إغاثة اللهفان» : ابن القيم، مكتبة السنة المحمدية .
٦ ـ «تحذير الساجد» : الألباني، المكتب الإسلامي .
٧ ـ «تخريج الإحياء» : العراقي، على هامش الإحياء .
٨ ـ «تخريج الكلم الطيب» الألباني، المكتب الإسلامي .
٩ ـ «تربية الأولاد في الإسلام» عبد الله علوان، دار السلام .
١٠ ـ «الترغيب والترهيب» : الحافظ المنذري، مطبعة الحلبي .
١١ ـ «تفسير ابن كثير» : الحافظ ابن كثير، مطبعة الحلبي
١٢ ـ «تقريب التهذيب» : «الحافظ العسقلاني»، دار المعرفة .
١٣ «تهذيب التهذيب» : الحافظ العسقلاني، ط . الهند .
١٤ ـ «الجامع لأحكام القرآن» : القرطبي، ط . الهند .
١٥ ـ «حياة الصحابة» : الكاندهلوي، دار المعرفة .
١٦ ـ «ديوان الشافعي» : الإمام الشافعي، ط . بيروت .
١٧ ـ «رياض الصالحين» : النووي، مؤسسة الرسالة .
١٨ ـ «الزهد» : ابن المبارك، دار عمر بن الخطاب .
١٩ ـ «الزواجر» : ابن حجر الهيتمي، ط . الشعب .
٢٠ ـ «السلسلة الصحيحة» : الألباني، المكتب الإسلامي .
٢١ ـ «سنن ابن ماجه» : تحقيق عبد الباقي، دار الفكر .

٢٢ - «سنن أبي داود» : أبو داود السجستاني، دار إحياء السنة النبوية .

٢٣ - «سنن الترمذي» تحقيق عثمان عبد الرحمن ، دار الفكر .

٢٤ - «سنن الدارمي» : أبو محمد الدارمي ، دار الكتب العلمية .

٢٥ - «سنن النسائي» : بشرح السيوطي ، دار إحياء التراث العربي .

٢٦ - «صحيح البخاري» محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر .

٢٧ - «صحيح الجامع» الألباني ، المكتب الإسلامي .

٢٨ - «صحيح مسلم» : بشرح النووي ، المطبعة المصرية .

٢٩ - «عودة الحجاب» : محمد أحمد المقدم ، دار طيبة .

٣٠ - «فتح الباري» الحافظ العسقلاني ، دار الفكر .

٣١ - «فتح المجيد» : عبد الرحمن بن حسن ، دار إحياء التراث .

٣٢ - «فقه السنة» السيد سابق ، مكتبة المسلم .

٣٣ - «لسان العرب» : ابن منظور ، دار المعارف .

٣٤ - «اللؤلؤ والمرجان» محمد عبد الباقي ، دار إحياء التراث .

٣٥ - «مجمع الزوائد» الهيثمي ، مكتبة القدس .

٣٦ - «معارج القبول» : حافظ بن أحمد حكمي ، دار إحياء التراث العربي .

٣٧ - «مفتاح كنوز السنة» : أ . ي فنسنك ، ترجمة عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي .

٣٨ - «موطأ مالك» تحقيق عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي .

٣٩ - «وقاية الإنسان» المؤلف ، دار البشير .

٤٠ - «وصف الجنة من صحيح السنة» المؤلف ، مكتبة الصحابة ، جدة .

٤١ - «وصف النار من صحيح الأخبار» المؤلف ، مكتبة الصحابة ، جدة .



فهرست الموضوعات

فهرست الموضوعات

(المبتكرات)

المحاضرة الأولى: انظر حولك ٣٥

المحاضرة الثانية: تيسير الكريم العلي في وصف حوض النبي ﷺ ٧٩

المحاضرة السابعة: طرق الشيطان في إضلال بني الإنسان ٢٥٧

المحاضرة الثامنة: معركة الشيطان مع بني الإنسان ٢٨٥